

فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الثاني

محمد عابد الجابري

فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الثاني

محمد عابد الجابري

الإيداع القانوني : 2008M01764

ردمك : 978-9954-0-3085-9

مطبعة دار النشر المغربية

عين السبع . الدار البيضاء

2008

مقدمة الجزء الثاني

بين الجهر بالدعوة والصدع بها

1- الدعوة المحمدية بين السرية والجهر

ذكر جل كتاب السيرة النبوية والمفسرون رواية تقول إنه : "ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزل قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر" (من سورة الحجر رقم 54 في لائحة ترتيب النزول، 53 في ترتيبنا)؛ ويحددون لذلك السنة الثالثة أو الرابعة للنبوة، كما يحددون عدد المسلمين آنذاك في نحو الأربعين شخصاً. وهذا القول لا يتسق مع مسار التنزيل. فالمراحل التي اجتازتها الدعوة المحمدية منذ "اقرأ باسم ربك" (والتي عرضناها بتتابع في القسم الأول من هذا الكتاب تحت العناوين التالية : النبوة والربوبية والألوهية، البعث ومشاهد القيامة، إبطال الشرك وبيان لا معقولية عبادة الأصنام)... أقول: هذه المراحل، قد استغرقت أكثر من أربع سنوات. لقد تم الجهر بالقرآن لأول مرة عندما قام عبد الله بن مسعود بقراءة سورة الرحمان في المسجد الحرام، وكبار قريش في نواديهم يسمعون ويتساءلون. كما قرأ النبي (ص) سورة النجم في المكان ذاته. وقبل ذلك وبعده كان هناك جدال مع زعماء قريش، فقد اتهموا النبي (ص) بالسحر والكهانة والجنون الخ، ورد القرآن عليهم أكثر من مرة... كل ذلك لا يترك معنى للقول: "ما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزل قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر" في سورة رتبته 54 في ترتيب النزول. بينما سورة النجم، ورتبتها 22، يؤرخون لها بالهجرة الأولى إلى الحبشة في السنة الخامسة والنصف، سنة إسلام كل من حمزة عم النبي (ص) وعمر بن الخطاب، اللذين شكل إسلامهما علانية، وبنوع من التحدي لخصوم الدعوة المحمدية، علامة بارزة في تاريخ هذه الدعوة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالآية التي تخاطب النبي عليه السلام بقوله تعالى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ" (الحجر 94-96) والتي يفهمون منها "الأمر بالخروج بالدعوة من المرحلة السرية إلى الجهر بها"، هذه الآية تقتضي أن الجهر بالدعوة كان قائما بالفعل، وإلا فما معنى الجمع بين الأمر بالصدع بالدعوة من جهة، والإعراض عن المشركين من جهة أخرى، والحال أن الدعوة موجهة أصلاً لهؤلاء المشركين؟

نحن نعتقد أن الأقرب إلى الصواب هو ما ذكره ابن إسحاق حينما قال: "لما تمادوا (قريش) في الشر وأكثروا برسول الله (ص) الاستهزاء"، أنزل الله تعالى تلك الآية. وهذا يقتضي أن يكون معنى "اصدع بما تؤمر" أكثر وأوسع من مجرد الانتقال من المرحلة السرية إلى مرحلة الجهر بالقرآن، بل لا بد أن يكون المقصود بـ "الصدع بالدعوة" هو تدشين مرحلة جديدة في مسار الدعوة. وبالتالي نرى أن معنى "الصدع" هو أكثر من خروج النبي من دار الأرقم بن الأرقم التي كان يختفي فيها، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين وكتاب السيرة الذين يؤرخون لهذا الحدث بالسنة الثالثة/الرابعة للنبوّة.

وقصة دخول الرسول عليه السلام دار الأرقم بن الأرقم تتلخص - حسب هؤلاء- في كون النبي عليه السلام بدأ يدعو الناس خفية لما نزل قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ قُمْ فَأَنذِرْ..." وكان من أسلم من الناس إذا أراد الصلاة يذهب إلى بعض الشعاب يستخفي بصلاته من المشركين، فيلحقهم المشركون يستهزئون بهم ويعيبون صلاتهم، فحدث تضارب بينهم وبين سعد بن أبي وقاص، أدمى فيه سعد رجلاً من المشركين. فبعد تلك الواقعة دخل رسول الله (ص) وأصحابه دار الأرقم عند الصفا فكانوا يقيمون الصلاة بها، واستمروا كذلك ثلاث سنين أو تزيد وقد وصل عددهم ما بين الأربعين والخمسين⁽¹⁾...

1- "وفي كلام ابن الأثير: مكث النبي مستخفياً في دار الأرقم ومن معه من المسلمين إلى أن أكملوا أربعين بعمر بن الخطاب، وعند ذلك خرجوا. وعن ابن عباس أيضاً: لما أسلم عمر رضي الله تعالى عنه قال المشركون: لقد انتصف القوم منا". وعمر بن الخطاب أسلم في السنة الخامسة والنصف. وهذا التضارب في تحديد تاريخ مغادرة دار الأرقم (هل في الثالثة؟ أم في الرابعة؟ أم بعد إسلام عمر بن الخطاب في الخامسة والنصف؟) ربما مرجعه كون بعضهم يؤرخ للدعوة المحمدية بنزول "اقرأ باسم ربك"، والنبي عليه السلام في الثامنة والثلاثين من عمره، وبعضهم يقول في الأربعين، بينما يؤرخ آخرون لبداية البعثة المحمدية بـ "يا أيها المدثر" التي نزلت بعد انتهاء فترة لنقطاع الوحي أي بعد نحو سنتين،

إلى هنا لا اعتراض ولا استدراك. ولكن إضافة بعضهم إلى ذلك قولهم: "فنزّل قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر" الآية⁽²⁾، وأنه "بنزولها ترك الرسول صلى الله عليه وسلم الاختفاء بدار الأرقم وأعلن بالدعوة للإسلام جهراً"، هو ما لا نراه ينسجم مع مراحل الدعوة. ذلك أن مجرد الجهر بالدعوة كان قد تم قبل ذلك، أي مباشرة بعد استئناف الوحي ونزول "يا أيها المدثر، قم فأنذر" الخ. فمنذ ذلك الوقت والرسول عليه السلام يقوم بالدعوة والإنذار، يساعده في ذلك السابقون الأولون إلى الإسلام، وبكيفية خاصة أبو بكر الصديق كما تؤكد ذلك عدة روايات.

2- الصّدع بالدعوة مرحلة جديدة في تاريخ الجهر بها

إن "فاصدع بما تؤمر" هو أمر بالانتقال بالدعوة إلى مرحلة جديدة، وهذا الأمر مقرون بقوله تعالى "إنا كفيناك المستهزئين"، وبينهما "أعرض عن المشركين". فكيف يمكن فهم هذه العبارات الثلاثة التي تحمل تعارضاً ظاهرياً؟ القرآن يشرح بعضه بعضاً، وما يمسك بعضه إلى بعض على صعيد الفهم هو السياق. والسياق في القرآن خاص وعام: الأول نصي، ينظم بالعلاقات بين الآيات المتتابعة؛ والثاني تاريخي، تستعاد فيه آيات متفرقة داخل السورة الواحدة أو بين عدة سور. والسيقان في العبارات التي نحن بصدددها هما كما يلي:

- فعلى مستوى السياق الخاص، سياق النص، نلاحظ أن جميع المفسرين اقتصروا على الكلام في كل عبارة على حدة، فكان منهم من أطلّ وكان منهم من اختصر، ولكن لم نجد من بينهم من حاول قراءة هذه العبارات

والنبي حينذاك في الثانية والأربعين من العمر. إذن هناك فرق نحو سنتين على الأقل، راجع إلى البداية المعتمدة، فلا بد من أخذ هذا الفرق بالاعتبار عند تحديد التواريخ. (انظر تفاصيل في الموضوع في: التعريف بالقرآن الكريم الفصل الرابع. فقرة 3-أ).

2- يورد بعضهم هذه الآية مضيفين إليها قوله تعالى: "وأنذر عشيرتَك الْأَقْرَبِينَ"، الآية 214 من سورة الشعراء التي هي أسبق على مستوى ترتيب النزول من سورة الحجر (الأولسي رتبها 47 وهذه رتبها 54، فهي متأخرة عنها على مستوى ترتيب المصحف)، الشيء الذي يدل على هيمنة ترتيب المصحف على المفسرين مع أنه ترتيب مبني على حجم السور وليس على تاريخ نزولها. وبالتالي فهو، أعني ترتيب المصحف، لا علاقة له، إجمالاً، لا بزمان مسار التنزيل ولا بوقائع السيرة.

الثلاثة (هما آيتان) بما يرفع التعارض القائم بين : مطالبة النبي بالمضي في نشر الدعوة (اصدع بما تؤمر) ومطالبته في الوقت نفسه بالإعراض عن المشركين وعدم الاهتمام بهم (أعرض عن المشركين)، وبالتالي فهم تلك المطالبة وهذا الإعراض على ضوء: "إنا كفييناك المستهزئين!" فإذا كان الله قد كفى نبيه الكريم شأن المستهزئين به وبالتوحيد والبعث والمعاد وبالقرآن جملة الخ، فلماذا الصدع بما يؤمر؟ ولماذا مطالبته بالإعراض عن المشركين؟ يحس القارئ أحيانا أن بعض المفسرين يستشعر مثل هذه الأسئلة ولكنهم يتخلون عنها سريعا بفعل اعتيادهم تجزئة الكلام، وإغفال السياق، والاهتمام بالمرويات وحدها، وهي متعارضة متناقضة!

أما على مستوى السياق العام، أو التاريخي، فيجب إبراز المعطيات التالية:

1- منذ "يا أيها المدثر قم فأنذر" والنبي عليه السلام يمارس الدعوة على مستوى فردي وفي جو من الكتمان، وكان الدور الرئيسي في البداية للعلاقات الفردية، وفي هذا الصدد يعطينا رواية السيرة أسماء الذين قاموا بالدعوة على هذا المستوى وأسماء الذين استجابوا لهم. وهذه هي المرحلة "السرية" في الدعوة.

2- بعد ذلك جهر النبي (ص) بسورة النجم كما جهر عبد الله بن مسعود بسورة الرحمان، في المسجد وزعماء قريش يسمعون، فبدأت بذلك عملية الجهر بالقرآن وتواصلت من جانب النبي عليه السلام الذي كان يتلو القرآن في المسجد حين الصلاة وخارج وقتها، ورجال قريش يسمعون ويعلقون ويستهزئون.

3- وعندما انتقل التنزيل إلى التركيز على البعث والحساب والجزاء زادت ردود فعل قريش حدة، خصوصا وقد لاحظوا تزايد استجابة الناس للدعوة، من المستضعفين خاصة، من العبيد والموالي ومن القبائل الضعيفة.

4- حتى إذا انتقل التنزيل إلى التركيز على إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام ثارت ثائرتهم وأخذوا يوسعون من دائرة ردود فعلهم : وهكذا أكثروا من الاتصال مع أبي طالب يطلبون منه التوسط لدى ابن أخيه، النبي عليه السلام، لحل "المشكل" بصورة "سلمية"، مبدئين استعدادهم للدخول في حلول وسطى الخ؛ كما أكثروا الاتصال مع النبي نفسه في نفس الاتجاه ... ثم

انتهوا إلى تهديده بالقتل مرات... وكانت النتيجة ثبات النبي (ص) على الموقف ورفض المساومة. وازداد الجو توترا بين النبي عليه السلام وزعماء قريش فعمدوا إلى ممارسة التعذيب الفظيع على المستضعفين من المسلمين، من الموالى والعبيد. أما أبناء القبائل فقد تكفل أهلهم بهم: كل قبيلة التزمت بالعمل على "ردع" أبنائها المسلمين أو المتعاطفين مع الإسلام. وامتد القمع النفسي والمادي إلى رجال معروفين من القبائل المتوسطة ... ولما بلغ الإرهاب الفكري والمادي ما لا يحتمل اقترح النبي عليه السلام على المسلمين الهجرة إلى الحبشة، وقد كانت بين النجاشي (ملكها) وبين الرسول عليه السلام علاقة تعارف، فهاجر إليها صحابة النبي فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة⁽³⁾ وكان عدد من هاجر أحد عشر رجلا، ومع بعضهم نساؤهم، ولم يبق في مكة مع النبي من المسلمين إلا أفراد قليل.

كان ظرفا صعبا جدا على النبي عليه السلام ... فاتجه التنزيل في هذه المرحلة إلى تسليته وتثبيت فؤاده، واستعمل في ذلك قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم، كما بينا ذلك في حينه. ثم نزلت سورة طه مفتحة بقوله تعالى : "طه¹، مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى"² (لتحزن لكون قومك لم يستجيبوا، انظر سورة طه في القسم الأول من الكتاب).

3- قبل "الصدع" ... "أنذر عشيرتك الأقربين" !..

قبل سورة "الحجر" التي حملت الأمر بـ "الصدع" بالدعوة، كانت سورة "الشعراء" قد نزلت لتدشن مجموعة السور التي نعتقد أنها هي المقصودة بـ "السبع المثاني" - وهي خاصة تقريبا بتسليّة النبي عليه السلام وتثبيت فؤاده - ولتوجه - أعني سورة الشعراء - في خاتمتها إلى النبي عليه السلام هذا الأمر: "وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" (انظر السورة في القسم الأول من الكتاب). كانت قريش قد لجأت، كما قلنا، إلى استعمال "القبيلة" لمحاربة الدعوة المحمدية: كل قبيلة تراقب أبناءها وتحاصرهم حتى تتم مقاطعة محمد بن عبد الله! وإن فليتجه هو إلى قبيلته أولا يدعوهم إلى اتباعه ونصرته⁽⁴⁾.

3 - راجع التعريف بالقرآن الكريم الفصل الثاني. والتقديم الذي صدرنا به كلا من سورة مريم وسورة طه، في القسم الأول من هذا الكتاب.

4- قال ابن إسحاق : "ثم إن قريشا تدامروا بينهم على من في القبائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين =

كان في بني هاشم، عشيرة النبي (ص)، من كان يعطف عليه ويستمع له ويثق في أماته وصدقه دون أن يسلموا. وباستثناء أبي لهب -أحد أعمامه- يمكن القول إجمالاً إن رجال عشيرته كانت تأخذهم الغيرة عليه حتى وهم على دين آبائهم، مشركين. وفي قصة إسلام عمه حمزة مثال واضح على ذلك⁽⁵⁾. دع عنك أبا طالب الذي كفل النبي ورعاه وحماه وهدد قريشاً بحرب أهلية قبلية إن هم مسوه بسوءه.

والآن، بعد قوله تعالى "أنذر عشيرتک الأقربين"، الذي ختم به أولى سور "السبع المثاني" (أعني سورة الشعراء-التي رتبها 47)، ها هي آخر هذه السور السبع (سورة الحجر التي رتبها 53) تختتم بـ"اصدع بما تؤمر..."، أي الأمر: بـ"الإعراض عن المشركين" من جهة، وعدم التوقف عند حدود الأقربين

يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم. ومنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم منهم بعنه أبي طالب. وقد قام أبو طالب، حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم (يعني بني هاشم وبني المطلب) إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه، وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب".

5 - قال ابن إسحاق عن سبب إسلام حمزة عم النبي (ص): حدثني رجل من أسلم، كان واعية، أن أبا جهل مر برسول الله (ص) عند الصفا، فأذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره؛ فلم يكلمه رسول الله (ص)، ومولاة لعبد الله بن جذعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف (أبو جهل) عنه فعمد إلى نادر من قريش عند الكعبة، فجلس معهم. فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً فوسه، راجعاً من قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادر من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم. وكان أعز فتى في قريش، وأشد شكيمه. فلما مر بالمؤلاة، وقد رجع رسول الله (ص) إلى بيته، قالت له: يا أبا عمار، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفاً من أبي الحكم بن هشام! وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد (ص). فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، معذراً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به؛ فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكسة، ثم قال: أتشتبه وأنا على دينه أقول ما يقول (في حين أنه لم يكن قد أسلم بعد)؟ فرد ذلك عليّ إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل؛ فقال أبو جهل: دعوا أبا عمار، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً. وتم حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعليّ ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله. فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه".

من العشيرة من جهة ثانية، الشيء الذي يعنى الاتجاه إلى القبائل العربية التي تقطن خارج مكة والتي تحج إليها في المواسم الدينية وتقصدها في مواعد الأسواق... وتأتي "إنا كفيناك المستهزين" لتطمئن النبي عليه السلام بكونه لن يلقى بعد الآن نفس الحصار الذي كان يضربه عليه الملائكة من قريش للحيلولة دونه ودون نشر الدعوة في الأسواق، ذلك أن شخصيات من هذا "الملائكة" التي كانت أكثر استهزاء قد هلكت في "وقت واحد" أي في أيام متقاربة.

وإذا كنا لا ندري مدى استجابة عشيرة النبي ككل للدعوة، ولا مدى التأثير الذي أحدثه فيها رد الفعل السلبي الذي صدر عن أبي لهب (6)، فإن الروايات تكاد تجمع على أن جماعة من كبار المستهزين، خصوم الدعوة المحمدية، قد ماتوا بصورة مفاجئة قبيل نزول الأمر بـ "الصدع" بالدعوة. وكما هي العادة اختلف الرواة في عددهم وأسمائهم وأسباب وفاتهم. لكن الرواية الأشهر تحصر عددهم في خمسة، وهم "الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث؛ وكانوا من كبار خصوم الدعوة المحمدية ومحاربيها(7)". والمفسرون جميعا متفقون على أن هؤلاء هم الذين أشار إليهم قوله تعالى: "إنا كفيناك المستهزين"!!

ذلك هو السياق التاريخي العام، الذي ينتظم هذا الأمر الجديد: "اصدع بما تؤمر"؟ "..."، فلننتقل الآن إلى الحديث عن هذا "الأمر" المزدوج: الأمر بالصدع، و"الأمر" موضوع الأمر بالصدع به!

أما معنى لفظ "الصدع" فمعروف، وهو الشق والكسر. ومعنى الآية: امض، شاقا الطريق لتبليغ الرسالة التي أنت مكلف بها. وهذا المعنى لا ينبغي، بل لا يجوز عزله عن سياقه النصي، أعني العبارة التي تليه مباشرة وهي:

﴿

6- انظر تقديم سورة الشعراء، في القسم الأول من هذا الكتاب.

7- تقول إحدى الروايات: فأما الوليد بن المغيرة فتعلق سهمُ برداله، فذهب يجلس فقطع أكله فنزف فمات. وأما الأسود بن عبد يغوث فأُتِيَ بغصن فيه شوك، فضرب به وجهه، فسالت حذقته على وجهه، فكان يقول: دعوت على محمد دعوة، ودعا علي دعوة، فاستجيب لي، واستجيب له: دعا علي أن أعنى فعميت، ودعوت عليه أن يكون وحيدا فريدا في أهل يثرب فكان كذلك. وأما العاص بن وائل، فوطئ على شوكة فتساقط لسانه عن عظامه حتى هلك. وأما الأسود بن المطلب وعدي بن قيس، فإن أحدهما قام من الليل وهو ظمآن، فشرب ماء من جرة، فلم يزل يشرب حتى انفتق بطنه فمات، وأما الآخر فلدغته حية فمات.

"وأعرض عن المشركين". إذن: كيف نفهم الصدع بالأمر مع الإعراض عن المشركين، والحال أن هذا "الأمر" منذ كان وهو خطاب إليهم؟ لقد ذهب المفسرون في تفسير هذا الأمر مذاهب لم تخرج في النهاية عن معنى "لا تلتفت إليهم"⁽⁸⁾؛ ولكنهم لا يطرحون السؤال التالي: وإذن، فلمن "سيلتفت؟" إنهم ينتقلون مباشرة إلى قوله: "إنا كفييناك المستهزئين" دون أن يطرحوا العلاقة بين هذا وذلك؟

أما نحن فنقتراح ما يلي: عندما قررت قريش ضرب حصار على أبنائها المستجيبين أو المتعاطفين مع الدعوة المحمدية وتحملت كل قبيلة مسؤولية ذلك، أصبحت الدعوة في وسط قبائل قريش مستحيلة وهذا ما عبرت عنه سورة الحجر في بدايتها بالقول: "رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ² (ولكن لم يعد في إمكانهم ذلك بعد أن كنّبوا وأعرضوا واختاروا للكفر، إذن:) ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ"⁽⁹⁾. وتأتي خاتمة السورة لتأمر

8 - من ذلك مثلا قول الطبري في شرح هذه الآية: "وأما قوله "وأعرض عن المشركين"، يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: بلغ قومك ما أرسلت به، واكف عن حرب المشركين بالله وقتالهم. وذلك قبل أن يفرض عليه جهادهم، ثم نسخ ذلك بقوله: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم" (التوبة 5)؛ قلت (الجابري): فما أبعد هذا عن سياق الآية. وهذا مثال من عشرات الأمثلة التي يستعمل فيها المفسرون مقولة "النسخ" بدون اعتبار لا للسياق ولا للزمن! فكيف يمكن تصور آية مكية نزلت في ظروف معينة لا علاقة لها بالحرب ولا باستعمال العنف مع المشركين كما هو شأن القرآن المكي كله، تنسخها آية نزلت في المدينة وفي ظروف الحرب مع المشركين، وفي آخر سورة نزلت، "سورة التوبة"؟ المسافة الزمنية بين الآيتين لا تقل عن ثماني عشرة سنة (عشرة بعد الهجرة وثمانية قبلها). أما العلاقة الموضوعية بينهما فهي من نوع علاقة اللص بصدده: الآية الأولى نزلت بعد استعصاء إقناع قريش بالدعوة وإصرارهم على عزل الرسول عليه السلام ومنعه عن الاتصال بالناس في مكة، بينما الآية الثانية نزلت في المدينة وفي آخر سورة نزلت، وقريش قد انتهى أمرها عندما تم فتح مكة قبل نزول هذه السورة بنحو سنتين؟!

9- حمل بعض المفسرون هذه الآية على أنها تتحدث عن رد فعل المشركين وهم في النار يوم القيامة حين يرون المسلمين في الجنة. وهذا في نظري لا أساس له في السياق. فلم يسبق أن ذكر يوم القيامة من قبل، وما يلي الآية يتعلق بالدنيا: "ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا" في الدنيا. ولذلك نميل إلى القول إن معنى الآية شيء آخر يكشف عنه قوله تعالى في آيات تالية: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ؛ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسُكُّ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (مشركي مكة)، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَقَدْ خَلَتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ" (10-13). إذن حكم الله على مشركي مكة أنهم لن يؤمنوا. ومن هنا كان معنى قوله: "رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ"، بمعنى أنهم محكوم عليهم بالبقاء كافرين حتى ولو ودوا أن يكونوا مؤمنين لأنهم سبق أن اختاروا رفض الدعوة وأصروا على ذلك إصرارا لم يتركوا=

بالإعراض عنهم خصوصاً وقد كفى الله رسوله "المستهزئين" الذين عبرت عنهم
بـ"المُفتسمين الذين جعلوا القرآنَ عُضِينَ". والمقصود الجماعة الذين تقاسموا
أنحاء السوق ليحذروا الناس من محمد ويصدوهم عنه (انظر تقديم سورة
الحجر)، ولاشك أنه كان منهم أفراد من الخمسة الذين توفوا وفي مقدمتهم
الوليد بن المغيرة زعيم الجماعة.

إذن: الإعراض عن "المشركين" معناه عدم الانشغال بقریش! أما أبناؤها
فهم محاصرون من طرف آبائهم وقبائلهم، فهم لن يؤمنوا حتى ولو رغبوا في
ذلك. وبما أن المستهزئين (من مشركي مكة) الذي كانوا يلاحقون الرسول
ويصدون الناس عنه قد كفى الله أمرهم، فالاتجاه بالدعوة يجب أن يكون صوب
القبائل التي تقيم خارج مكة.

إنها مرحلة جديدة في مسار الدعوة، المرحلة التي وُضع كتاب السيرة
لها عنواناً من قبيل: "الرسول يعرض نفسه على القبائل". لكن هذه المرحلة -
مرحلة الانتقال بالدعوة إلى المواسم والأسواق- التي ستبدأ انطلاقاً من سورة
الحجر، التي ورد في أواخرها، قوله تعالى "اصدع بما تؤمر"، ستشهد انقطاعاً
في وسطها. ذلك أن قریشاً شعرت بتقدم الدعوة المحمدية في القبائل خارج مكة
وذيوع أمرها في الجزيرة العربية ككل، فقررت اغتيال الرسول عليه السلام،
ولكنها عدلت عن قرارها عندما هددهم أبو طالب بحرب أهلية يقف فيها
الهاشميون والمطلبون مع محمد بن عبد الله، حفيد عبد المطلب، أبرز وجهاء
قریش وزعيمها "القريب".

لقد عدلت قریش عن اغتيال الرسول وقررت مقاطعة عشيرته
الهاشميين والمطلبين بموجب "صحيفة" (عقد) علقوها في الكعبة، علامة على
التزام الجميع بمضمونها. فكان أن اضطر النبي وعشيرته إلى الإيزواء في
"شعب أبي طالب" بجبل قبيس المطل على مكة. أما بقية المسلمين فقد نصحهم
الرسول عليه السلام بالالتحاق بإخوانهم في الحبشة، فكانت تلك هي الهجرة
الثانية إلى هذه الجهة وبهم صار عدد المهاجرين إلى الحبشة ثلاثة وثمانين
بمن فيهم النساء والأبناء. (كانوا في الهجرة الأولى اثني عشر). حصل ذلك،
أعني الحصار والهجرة معاً، في مستهل السنة السابعة للنبوّة. أي بعد نحو سنة

معه لأنفسهم إمكانية التراجع. لقد قطعوا خط الرجعة على أنفسهم. وإذا فرضنا أنه ربما يريد
بعضهم أن يسلموا فلن يستطيعوا ذلك لأنهم سجنوا أنفسهم في الرفض الجماعي.

ونصف من "اصدع بما تؤمر". أما الحصار فقد دام ثلاث سنوات، من بداية السابعة إلى بداية العاشرة، تلا ذلك ما نطلق عليه هنا "مرحلة ما بعد الحصار". المراحل الأولى والثانية والثالثة من مسار التنزيل ومسيرة الدعوة المحمدية، خصصنا لها القسم الأول من هذا الكتاب. أما هذا القسم الثاني فيضم المراحل التالية: الرابعة والخامسة، والسادسة، من العهد المكي، تنزيلاً وسيرة. (وسيختص القسم الثالث من الكتاب بالعهد المدني)

5- لحظات ثلاث في مرحلة الصدع:

كان الخطاب القرآني في المراحل الثلاثة السابقة موجهاً إلى أهل مكة، فشرح العقيدة وأركانها، وواجه قريشاً في تكذيبها وإعراضها وتحدياتها! فكيف سيكون خطاب الذكر الحكيم إلى العرب من غير قريش، في المواسم والأسواق، وهم الذين لم يتلقوا منه إلا ما كانت قريش تمدهم به عنه؟! هنا نقترح التمييز بين ثلاث لحظات⁽¹⁰⁾

اللحظة الأولى: بداية عرض الدعوة في الأسواق

تقول مصادرنا: إنه ابتداء من "اصدع بما تؤمر" أخذ النبي يوافي الموسم كل عام، يتبع الحجاج في منازلهم: يسأل عن القبائل، قبيلة قبيلة، في أسواق المواسم، وهي: عكاظ، ومجنة، وذو المجاز. ذلك أن العرب كانت إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال، ثم تجيء إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً، ثم تجيء سوق ذي المجاز فتقيم به إلى أيام الحج. وكان (النبي) يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه".

كان "يعرض نفسه على الناس في الموقف ويقول: ألا رجل يعرض عليّ قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبليغ كلام ربي"، وكان يطوف على الناس في منازلهم (مكان نزولهم في الأسواق)، يقول: "يا أيها الناس إن الله يأمركم أن

10- المراحل واللحظات: المرحلة شيء واللحظة شيء آخر. المرحلة، في الأصل، امتداد مكاني فهي مسار يقوم على الاتصال، كل مرحلة ترتبط بما قبلها وما بعدها، وما يفصل بينها لا يعدو أن يكون بمعنى "استراحة المسافرين"، فهي محطة تقبل الارتداد، أي العودة إلى الوراء، من الثالثة إلى الثانية مثلاً. أما اللحظة فهي قسم من الزمان يتم به وبواسطته الانتقال أو القفز إلى أمام، ويتحقق التطور على شكل طفرة، وبالتالي فاللحظة تقوم على الانفصال وترتبط بالتقدم، ولا تقبل الرجوع إلى وراء. نحن نسير جيئةً وذهاباً في المكان عبر مراحل، أما الزمان فهو يسير فينا عبر لحظات.

تعبده ولا تشركوا به شيئاً"، ووراءه أبو لهب يقول: "يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم". وذكر بعضهم أنه رأى الرسول عليه السلام يسوق ذي المجاز يعرض نفسه على قبائل العرب يقول: "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وخلفه أبو لهب يرحمه بالحجارة حتى أدمي كعبه ويقول يا أيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب". وفي رواية أخرى: قصد منازل بني عيس أوبني سليم وغسان وبني محارب وبني نضر ومرة وعذرة والحضارمة، فردوا عليه أقبح الرد. كانوا يقولون له: "أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك". قالوا: "ولم يكن أحد من العرب أقبح رداً عليه من بني حنيفة"، وهم قوم مسيلمة مدعي النبوة الطامح إلى منافسة الرسول عليه السلام واقتسام الأرض معه: غرب الجزيرة (الحجاز) للرسول وشرقها له⁽¹¹⁾. كان ذلك في المرحلة الرابعة التي سبقت "الحصار"، حصار النبي وأهله في شعب أبي طالب بالجبل، وقد دامت أزيد من سنة ونصف. أما الحصار فقد استمر أزيد من سنتين.

اللحظة الثانية: في البحث عن حليف

وعندما استأنف الرسول الاتصال بالقبائل بعد فك الحصار ووفاة عمه أبي طالب، حاميه من قريش، اشتد عليه ضغط الملاء منهم وتنوعت إذيتهم له فذهب إلى الطائف يطلب النصرة فرفضوه وأمعنوا في إهاتته. ولما عاد من الطائف لم يستطع الدخول إلى مكة إلا بطلب جوار من شخصية قرشية تلتقي في النسب مع بني هاشم في جددهم عبد مناف هو المطعم بن عدي ولم يكن قد أسلم بعد. وكانت قريش قد اشترطت في قبول هذا الجوار أن لا يمارس الرسول عليه السلام الدعوة في مكة وأن يلزم داره. وهكذا اضطر عليه السلام إلى تركيز دعوته في المواسم والأسواق، متخذا إستراتيجية جديدة. كان من قبل يخاطب عامة الناس في الأسواق، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام. أما هذه المرة فقد توجه إلى قبائل بعينها، في منازلها ومجالسها، مخاطبا رؤساءها، صحبة أبي بكر وعلي بن أبي طالب. وكان أبو بكر على معرفة بالقبائل وأنسابها وأشرفها وأحوالها، فكان إذا مر بمجلس قبيلة حيا رجالها الحاضرين ودخل معهم في حوار حول شؤون القبيلة حتى إذا حصلت

11- انظر التفاصيل حول حركة مسيلمة في كتابنا العقل السياسي العربي. فصل 4 فقرة 5

الألفة بينه وبينهم قدم لهم الرسول عليه السلام. وقد احتفظت لنا كتب السيرة بنماذج من هذا الأسلوب الجديد في الدعوة نورد منها ما يلي:

- مر الرسول وأبو بكر وعلي بمجلس "فقال أبو بكر: ممن القوم، قالوا: من ربيعة؟ قال: وأي ربيعة؟ من هامتها أو من لهازمها، قالوا: بل الهامة العظمى. قال: من أيها؟ قالوا: من ذهل الأكبر، قال: منكم حامى الذمار وماتع الجار فلان؟ قالوا لا، قال: منكم قاتل الملوك وساليها فلان؟ قالوا لا، قال: منكم صاحب العمامة الفردة فلان؟ قالوا لا، قال: فلستم من ذهل الأكبر، أنتم ذهل الأصغر. فقام إليه شاب (منهم) ... فقال له: إن على سائلنا أن نسأله، يا هذا إنك قد سألتنا فأخبرناك، فممن الرجل؟ فقال أبو بكر (ض): أنا من قريش، فقال الفتى، بخ بخ أهل الشرف والرياسة، فمن أي قريش أنت؟ قال: من ولد تيم بن مرة، فقال الفتى: أفمنكم قصي الذي كان يدعى مُجمَعاً؟ قال لا، قال: أفمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه قال لا؟ قال: أفمنكم شعبة الحمد عبد المطلب، مطعم طير السماء، الذي كأن وجهه القمر يضيء في الليلة الظلماء؟ قال لا، واجتذب أبو بكر رضي الله تعالى عنه زمام ناقته، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك؛ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له عليّ (ض): لقد وقعت من الأعرابي على باقعة أي ذي دهاء".

وفي مجلس آخر تقدم أبو بكر "فسأل: ممن القوم؟ فقالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله (ص) فقال: بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر، أي سادة في قومهم، وقد تعرف على رجل منهم اسمه مفروق. فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ قال مفروق: إنا لنزيد على الألف، ولن تغلب الألف من فلة، فقال أبو بكر (ض): كيف المنعة فيكم؟ قال مفروق: علينا الجهد، أي علينا أن نجهد وليس علينا أن يكون لنا الظفر! فقال أبو بكر (ض): فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما يكون غضباً حين نلقى، وإنا لأشد ما يكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد من الخيل على الأولاد، والسلاح على اللقاح" (أي ذوات اللبن من الإبل) ... لعلك أخو قريش؟" فقال أبو بكر: أو قد بلغكم أن رسول الله (ص) فيها هو ذا؟ فقال مفروق: بلغنا أنه يذكر ذلك، فبالام تدعو يا أبا قريش؟

فتقدم رسول الله (ص) فقال: أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني رسول الله، وإلى أن تؤووني وتتصروني، فإن قريشاً قد

تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد. قال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فقال رسول الله: "قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشرکوا به شيئاً، وبإلوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون" (الأنعام 151)(12). قال مفروق: ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم عرفناه. ثم قال: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش، فتلا رسول الله "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" (النحل 90)(13). فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك. وكان مفروق أراد أن يشاركه في الكلام هانيء بن قبيصة، أحد رجال القوم، فقال: هذا هانيء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا. فقال هانيء قد سمعنا مقاتك يا أخا قريش، وإني أرى أن تركنا ديننا، واتباعنا إياك على دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر (لم يسبقه موعد ولا استعداد) لزلة في الرأي وقلة نظر في العاقبة، وإما تكون الزلة مع العجلة؛ ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقداً (أي دون علمهم ومشورتهم)، ولكن نرجع، وترجع، وننظر ونتنظر. وكأنه أحب أن يشاركه في الكلام المثني بن حارثة، فقال: هذا المثني بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثني قد سمعنا مقاتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانيء بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، وإن أحببت أن تؤويك وننصررك مما يلي مياه العرب (الجانب العربي من دجلة والفرات) دون ما يلي أنهار كسرى (في العراق) فعلنا، فإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى: أن لا نحدث حدثاً، وأن لا تؤوي محدثاً. وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه أنت هو مما تكرهه الملوك! فقال رسول الله (ص): ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه؛ رأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم، ويعرستم نساءهم، تسبحون الله وتقدسونه؟ فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذاك! فتلا رسول الله: "يَا أَيُّهَا

12- كانت سورة الأنعام قد نزلت في اللحظة السابقة كما سنرى.

13- أما سورة النحل فلم تكن قد نزلت بعد، وكلام الراوي في مثل هذه السياق يحمل على المعنى وليس على اللفظ.

النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (الأحزاب 46)⁽¹⁴⁾. ثم نهض رسول الله.

وتضيف مصادرننا⁽¹⁵⁾: ولما قدمت بكر بن وائل مكة للحج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر انتهم فاعرضني عليهم. فأتاهم فعرضه عليهم، فقال لهم: كيف العدد فيكم، قالوا: كثير مثل الثرى، قال: فكيف المنعة؟ قالوا: لا منعة، جاورنا فارس، فنحن لا نمنع منهم ولا نجبر عليهم. قال: فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم وتستنكحوا نساءهم وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثاً وثلاثين وتحمدوه ثلاثاً وثلاثين وتكبروه ثلاثاً وثلاثين؟ قالوا: ومن أنت؟ قال: أنا رسول الله. ثم مر بهم أبو لهب، فقالوا له: هل تعرف هذا الرجل؟ قال نعم، فأخبروه بما دعاهم إليه، وأنه زعم أنه رسول الله، فقال لهم: لا ترفعوا بقوله رأساً، فإنه مجنون يهذي من أم رأسه. فقالوا: لقد رأينا ذلك حيث ذكر من أمر فارس ما ذكر. وفي رواية: أنه لما سألهم قالوا له: حتى يجيء شيخنا حارثة، فلما جاء قال: إنا بيننا وبينك من الفرس حرباً، فإذا فرغنا عما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول، فلما التفتوا مع الفرس قال شيخهم: ما اسم الرجل الذي دعاكم إليه؟ قالوا محمد، قال: فهو شعاركم! (أي اتخذوا هذا الاسم شعاراً لكم في حربكم للفرس)، فنصروا على الفرس، فقال رسول الله (ص): "بي نصروا" (أي نصروا بذكرهم اسمي). وتضيف مصادرننا: "لا زال يعرض نفسه على القبائل في كل موسم، ويقول "لا أكره أحداً على شيء، من رضي الذي أدعوه إليه فذلك، ومن كرهه لم أكرهه، إنما أريد منعي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي، فلم يقبله أحد من تلك القبائل، وكانوا يقولون: "قوم الرجل أعلم به، ترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه!"

اللحظة الثالثة: ابتداء انتشار الإسلام في يثرب وبيعة العقبة.

وفي شهر رجب من السنة الحادية عشرة للنبوّة، وبينما كان الرسول يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، إذا بأناس من الخزرج من يثرب (المدينة)، وكانوا ستة أو ثمانية أفراد، يلتقي بهم الرسول عليه السلام في "العقبة"⁽¹⁶⁾ فتقدم إليهم وقال لهم: "من أنتم؟ قالوا نفر من

14- سورة الأحزاب مدنية. وكلام الراوي هنا يجب أن يؤخذ على المعنى وليس على اللفظ.

15- سيرة ابن إسحاق والسيرة الحلبية

16- العقبة: منزل في مكة: أحد الأمكنة التي تنزل فيه القبائل عند قدومها إلى مكة ...

الخزرج. فقال: أمن حنفاء يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى! فجلسوا، فوجدهم يحلقون رؤوسهم⁽¹⁷⁾ ودعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله أنه للنبي الذي يوعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه! وكان يهود يثرب إذا وقع بينهم وبين الخزرج شيء من الشر قالوا لهم: سيبعث نبي قرب زمانه نتبعه، نقتلكم معه (أي نتحالف معه ونقتلكم). فلما دعاهم إلى الإسلام أجابوه وصدقوه وأسلموا، وقالوا له: إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ... ونواعدك الموسم من العام المقبل؛ فرضي بذلك رسول الله". وعلى هذا "فلم يقع لهؤلاء الستة أو الثمانية مبايعة، ويسمى هذا ابتداء الإسلام للأنصار، وربما سماه بعضهم العقبة الأولى" (السيرة الحلبية).

هذا من جهة، وروي من جهة أخرى أن رجالا من الأوس (خصوم الخزرج) كانوا قد جاؤوا إلى مكة في السنة نفسها (?) يلتصقون الحلف من قريش على قومهم الخزرج، فأتاهم رسول الله (ص) فجلس إليهم وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له، قالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني للعباد، وأدعوهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وأنزل علي الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال شاب منهم: أي قوم! والله (هذا) خير مما جئنا إليه، فأخذ أحدهم من تراب فضرب بها وجه الشاب وانتهره، وقال له: دعنا منك. لقد جئنا لغير هذا، فسكت الشاب، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم. قيل: عقد الوفد حلفا مع قريش في غياب زعيمها أبي جهل، فلما حضر ألغاه لكونهم لم يستشيروه. وهذا التصرف من أبي جهل قد قطع حبل الاتصال بين قريش والأوس، وفسح المجال للدعوة المحمدية للانتشار في يثرب بواسطة وفد الخزرج فاستجاب لها رجال من الأوس أيضا.

فلما كان العام التالي، أي السنة الثانية عشرة للنبوّة، قدم إلى مكة وفد من الأوس والخزرج معا. فاجتمع بهم الرسول عند العقبة أيضا، فبايعهم: أي عاهدهم. وقد نصَّ عقدبيعة العقبة، على ما ذكر ابن إسحاق وغيره على: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن حضر من الأنصار: "أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم، فبايعوه على ذلك وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه". وفي رواية أخرى: "أن أحدهم أخذ بيد النبي (ص)، ثم

قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع به أزرنا أي نساءنا وأنفسنا. «فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر... وقال آخر: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال، يعني اليهود، حباً لأي عهد، وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله، ثم قال: "بل الدم الدم، والهدم الهدم، وذمتي ذمتكم، ورحلتي مع رحلتكم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسألم من سألتم". ثم قال لهم الرسول: "أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس"، فاستقبلهم وقال لهم "أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي" (18).

6- انتشار الإسلام في المدينة والهجرة إليها

وجاء في كثير من الروايات أن الرسول عليه السلام بعث معهم ابن أم مكتوم، ومصعب ابن عمير (19) يعلمان من أسلم منهم القرآن ويدعوان من لم يسلم منهم إلى الإسلام. "وكان مصعب يؤم القوم: أي الأوس والخزرج، لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض. وجمع بهم أول جمعة جمعت في الإسلام قبل قدومه عليه السلام إلى المدينة، وقبل نزول سورة الجمعة الأمرة بها، فاتها مدينة". وفي رواية عن يوم الجمعة "أن الأنصار قالوا: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فهل لنجعل يوماً نجتمع فيه، فنذكر الله ونصلي ونشكره، فجعلوه يوم العروبة" (20).

18- من هنا تسميتهم بـ "الأنصار" تشبيهاً لهم بأنصار عيسى عليه السلام. وسيرد في هذا الشأن إشارة عند قوله تعالى: "فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" (آل عمران 52)

19- الأول هو الذي نزلت في شأنه من قبل سورة "عبس": ابن أم مكتوم واسمها عاتكة، واسمها عمرو، وقيل عبداً لله، وهو ابن خال خديجة بنت خويلد زوج النبي. أما الثاني: مُصْنَعِبُ بْنُ عُمَيْرِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ، من المسلمين الأوائل، هاجر إلى الحبشة ثم عاد منها فهاجر إلى المدينة.

20- يوم الجمعة: قيل هو "سرياتي معرب" وأن معنى العروبة الرحمة. قالوا: إن كعب بن لؤي بن فهر بن غالب -والإيه تنسب قريش- هو أول من جمع يوم العروبة، وقيل هو أول من سماها الجمعة، وأن قريشاً كانت تجتمع عليه في هذا اليوم فيخطب فيهم... وكان عظيم القدر عند العرب ولهذا أرخوا لموته إلى عام الفيل، ثم أرخوا بهذا الأخير، ثم أرخ المسلمون بعام هجرة النبي إلى المدينة.

وهكذا، فلما عاد هؤلاء "الأنصار" إلى يثرب أظهروا الإسلام، ونشطوا في الدعوة له، ولما علمت قريش بذلك ضيقوا على أصحاب النبي عليه السلام "ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى، وجعل البلاء يشتد عليهم، وصاروا ما بين مفتون في دينه، وبين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد". وقد شكوا بعضهم إلى الرسول ما يعاينونه واستأذنوه في الهجرة: فمكث أياماً لا يأذن لهم، وذات يوم "خرج إليهم مسروراً، وقال: قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب"، فأذن لهم وقال: من أراد أن يخرج فليخرج إليها، فخرجوا خفية متتابعين... ثم لحق بهم بعد نحو شهرين ونصف، كما سنذكر لاحقاً.

تلك كانت مراحل السيرة ولحظاتها منذ أن نزل قوله تعالى "فاصدع بما تؤمر"، (السنة الخامسة والنصف للنبوة)، فلننتقل الآن إلى مسار التنزيل، إلى سور الذكر الحكيم التي نزلت خلال تلك المراحل واللحظات.

المرحلة الرابعة

الصدع بالأمر والاتصال بالقبائل

استهلال

كانت المرحلة السابقة (الثالثة - القسم الأول من الكتاب) من مسار التنزيل ومسيرة الدعوة مركزة، كما رأينا، حول إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام، الشيء الذي جعل موقف الملائكة من قريش من الرسول عليه السلام ينتقل من مجرد الاستهزاء والتكذيب والافتراء بالجنون، إلى المحاربة ثم التعذيب لأصحابه من الموالي والمستضعفين ومطاردة المسلمين من أبناء قبائلهم. يقول الطبري في تاريخه: "سأل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عروة بن الزبير عن السبب الذي جعل قريشا تعارض الدعوة المحمدية وتقوم في وجهها، فأجابه برسالة قال فيها: "أما بعد، فإني (يعني الرسول) لما دعا قومه لئلا يعبدوا الله إلا به بالهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعثوا منه أول ما دعاهم، وكادوا يسمعون له، حتى نكر طواغيتهم (أصنامهم) وقدم أسس من الطائف من قريش، لهم أموال، أنكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه وكرهوا ما قاله لهم، وأغروا به من أطاعهم فقصقوا عنه عامة الناس فتركوه إلا من حفظه الله منهم وهم قليل" (1).

وهكذا قاموا بحملة من التعذيب الشرس - حتى الموت - لمن آمن بالرسول عليه السلام من مواليهم وعبيدهم، أما من أسلموا من أبناء قبائلهم فقد "وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم". وأما الرسول عليه السلام فكان في حماية عمه أبي طالب.

ويضيف ابن إسحاق: ولما رأى الرسول عليه السلام ما تفعل قريش بالمسلمين "أمرهم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي (2) لا يظلم أحد بأرضه... وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغا من الرزق (سعة من العيش) وأمانا ومتجرا حسنا، فأمرهم بها رسول الله، فذهب إليها عامتهم لما قهرها بمكة وخاف عليهم الفتن. وكان عدد من هاجر إلى الحبشة في هذه الهجرة الأولى أحد عشر رجلا وأربع نسوة، فخرجوا

1- الطبري. التاريخ ج1 ص 546

2- المعروف أن لفظ "النجاشي" يعني الملك، مثل كسرى، وهرقل.

متسللين سرا حتى انتهوا إلى ميناء الشعبية⁽³⁾، منهم الراكب والماشى، فصادقوا سفينتين لتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان خروجهم في حوالي منتصف السنة السادسة للنبوة. "وخرجت قريش في آثارهم حتى جاوزوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا، فلما وصلوا الحبشة أقاموا فيها خير مقام، وتبعهم جعفر بن أبي طالب عم النبي عليه السلام ومعه رسالة من النبي إلى النجاشي"⁽⁴⁾.

أما الرسول (ص) فلم يهاجر بل بقي في مكة "فمكث بذلك سنوات (ربما سنتين) وزعماء قريش يشتدون على من أسلم. ثم حدث أن عاد إلى مكة، بعد شهرين، جل الذين هاجروا إلى الحبشة لأسباب غير معروفة بالضبط⁽⁵⁾، فطاردتهم قريش مما اضطر معه كل منهم إلى طلب الجوار من أحد معارفه. وبعد وفاة المستهزئين الخمسة الذين أشارت إليهم سورة الحجر (الآية بعد)، بمن فيهم الوليد بن المغيرة الذي كان زعيم خصوم الدعوة المحمدية منذ ظهورها، صارت الزعامة في قريش لاثنتين من أشد الناس على هذه الدعوة، أبو جهل من بني مخزوم، وأبو لهب عم النبي الذي نزلت فيه سورة المسد.

قالوا، لما قدم أصحاب النبي (ص) مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائره ولقوا منهم أذى شديدا. أما الرسول عليه فقد منعه من قريش عمه أبو طالب وبمن استجاب لتصرته من عشيرته، "قرأت قريش أنهم لا سبيل لهم إليه ... فجعلوا يصدون عنه من خافوا منه أن يسمع قوله فيتبعه، فكان أشد ما بلغوا منه حينئذ ما رواه بعضهم من أن أشراف قريش اجتمعوا يوما في الكعبة "فذكروا رسول الله فقالوا ما رأينا ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أعلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا. لقد صبرنا منه على أمر عظيم -أو كما قالوا".

"فبينما هم كذلك إذا طلع رسول الله فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت فلما مر بهم غمزوه ببعض القول". قال الراوي "فعرفت ذلك في وجه رسول الله ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه مثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى. ثم مر بهم الثالثة فغمزوه يمثلها فوقف فقال : "أتسمعون يا معشر قريش! أما

3- ياقوت: "الشعبية مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومُرْسَى سقنها قبل جُدَّة".

4- انظر التعريف بالقرآن الكريم. الفصل الثاني: الدعوة المحمدية وعلاقاتها الخارجية.

5- يربطها بعض المؤرخين بقصة "الغرائق" انظر رأينا في هذه القصة في سورة النجم

22- التعليق. القسم الأول من الكتاب.

والذي نفس محمد بيده لقد جنتكم بالذبح". قال فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، وحتى إن أشدهم فيه عداوة قبل ذلك ليرفؤه (يهدئه) بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم راشداً، فوالله ما كنت جهولاً". قال - الراوي - "فانصرف رسول الله حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر (الكعبة) وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بغلکم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما يبلغهم من عيب آلهم ودينهم، فيقول رسول الله نعم أنا الذي أقول ذلك. قال - الراوي - فلقد رأيت رجلاً منهم أخذاً بجمع رداءه. ثم أضاف الراوي "وقام أبو بكر الصديق دونه يقول وهو يبكي: "ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟! ثم انصرفوا عنه..."

ثم جاء وقت الموسم فاجتمع إلى الوليد بن المغيرة نفر من قريش - كما يقول ابن أسحق - "فقال لهم : يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً" ثم اتفقوا على أن يقول عن الرسول : "جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته".

يبدو أنه في هذه الأثناء مات الوليد بن المغيرة وبضعة أفراد من أعيان قريش الذين كانوا يستهزئون بالنبي عليه السلام فنزلت سورة الحجر التي حملت إلى النبي في خاتمتها قوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين، إنا كفيناك المستهزئين (الحج 94-95). فاتجه النبي بالدعوة إلى المواسم والأسواق، وخرجت قريش على أثره "فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، ولا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره"، فكان من نتيجة ذلك أن انتشر خبر الرسول عليه السلام، من خلال ذلك الموسم "في بلاد العرب كلها".

53- سورة الحجر

- تقديم

وردت عدة أخبار عن "سبب نزول" آيات من هذه السورة تكاد تكون كلها مصطنعة. نلخصها فيما يلي:

قالوا: "كانت تصلي خلف النبي (ص) امرأة حسناء في آخر النساء، بالمسجد، وكان بعضهم يتقدم إلى الصف الأول لنلا يراها، وكان بعضهم يتأخر في الصف الآخر من صفوف الرجال، فإذا ركع نظر من تحت إبطه ليراها خلفه في صفوف النساء. فنزلت "وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ". وعلى العكس من هذا قيل: لما حرض الرسول عليه السلام المصلين على التقدم إلى الصف الأول ازدحم الناس عليه، وكان بنو عذرة، دورهم قاصية، فقالوا: نبيع دورنا ونشتري دوراً قريبة من المسجد. (ليتمكنوا من السبق إلى المسجد)، وكان ذلك في المدينة، فنزلت هذه الآية. أما الخبر الأول فلا يستقيم مع السياق كما سنرى، وأما الثاني فهو يفترض أن الآية نزلت في المدينة والحال أن السورة مكية. هذا فضلاً عن أن السياق لا يحتمل هذا الخبر كسبب نزول الآية.

وقالوا في قوله تعالى: "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ"، إنه نزل في أبي بكر وعمر وعلي. ولما سئل الرواي عن الغل الذي كان بينهم أجاب: غل الجاهلية: إن بني تيم (قوم أبي بكر) وعدي (قوم عمر) وبني هاشم (قوم علي) كان بينهم في الجاهلية. فلما أسلموا، فأخذت أبا بكر الخاصرة فجعل علي يسخن يده فيكمدها، فنزلت هذه الآية. وهذا الخبر ينسب لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولا يستبعد أن يكون قد صنع للتخفيف من عداوة بعض الشيعة لأبي بكر وعمر. لا اعتقادهم أن خلافة النبي كان يجب أن تسند لعلي بن أبي طالب قبلهم.

وفي قوله تعالى "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ" قيل: "إن سبع قوافل وافت من بصرى وأدرعات، وليهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البز وأوعية الطيب والجواهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقويتنا بها فاتفقنا في سبيل الله" فنزلت تلك الآية. وهذا الخبر لا يستقيم لأنه يتحدث وكان السورة نزلت بالمدينة والحال أنها مكية!

وروي أن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى: "وإن جهنم لموعدهم أجمعين" فر ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل، فجيء به للنبي (ص)، فسأله فقال: يا رسول الله أنزلت هذه الآية: "وإن جهنم لموعدهم أجمعين"، فوالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي، فأنزل الله: "إن المتقين في جنات وعيون". وهذا غريب! فكأن سلمان سمع فقط "وإن جهنم لموعدهم أجمعين"، ولم يسمع من يعود إليهم الضمير "هم" قبلها: وهم الغاوون الذين أغواهم الشيطان!

وذكروا أن الرسول عليه السلام: "مر بنفر من أصحابه يضحكون، فقال: أتضحكون وتذكر الجنة والنار بين أيديكم؟ فنزلت هذه الآية تبئ عبادي أنني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم". وفي رواية أخرى ورد العكس: روي عن رجل من أصحاب رسول الله قال: "اطلع علينا رسول الله (ص) من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه"، فقال: لا أراكم تضحكون! ثم أدبر، ثم رجع القهقري، فقال: إني خرجت حتى إذا كنت عند الحجر جاء جبريل فقال: يا محمد إن الله يقول لك لم تقط عبادي؟ تبئ عبادي أنني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم". وهذا كله تخمين!

وحول قوله تعالى: "إنا كفيناك المستهزئين" الآية، روي أن النبي عليه السلام: "مر على أناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي - ومعه جبريل - فغمزه جبريل بإصبعه فوق وقع مثل الظفر في أجسادهم، فصارت قروحا حتى نتنوا، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم، فأنزل الله "إنا كفيناك المستهزئين". (الواحدي، والسيوطي في اللباب).

وواضح أن هذه الأخبار أقرب إلى مجال "الحياة العامة" والثقافة الشعبية منها إلى ميدان التفسير، فهي تتجاهل السياق تماماً كما سنرى، وتنزل بالنص إلى مستوى "حديث المسامرات" وما أشبه. ومع ذلك فهي لا تخلو من فائدة، كما ذكرنا في أماكن عديدة من القسم الأول من هذا الكتاب. ذلك أنها تضعنا في الجو "الشعبي" الذي كان يحيط بالقرآن عند نزوله، أو على الأقل في عصر رواة هذه الأخبار. ولا تزال "الثقافة الدينية الشعبية" في عصرنا تتغذى من مثل هذه الأخبار.

- نص السورة

1- مقدمة: لم يعد في إمكان قريش أن يسلموا فقد اختاروا الكفر.

بسم الله الرحمن الرحيم
الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ (ما ذكرته التوراة) وَ (هذا) قُرْآنٌ مُبِينٌ¹ (لكل ذلك).
رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ² (ولكن لم يعد في إمكانهم ذلك بعد أن

كذبوا وأعرضوا، إذن : (1) ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ النَّامِلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ³ (مصيرهم عندما يحين حينه). وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ⁴. مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ (ما من أمة تسبق) أَجْلُهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ⁵. وَقَالُوا (قريش) يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ⁶، لَوْ مَا تَقِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ⁷ (2). (أجاب الله): مَا نَنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَمَا كُنَّا إِذَا مُنْظَرِينَ⁸ (ممهلين) (3). إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ (على محمد) وَإِنَّا لَهُ (للنبي) لَحَافِظُونَ⁹ (من الجنون الذي يتهمونه به في الآية السابقة) (4). وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا (رسلاً) مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ (فرق) الْأَوَّلِينَ¹⁰؛ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ¹¹! كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ (أي الاستهزاء بالرسول) فِي

1- حمل المفسرون هذه الآية على أنها تتحدث عن رد فعل المشركين وهم في النار يوم القيامة حين يرون المسلمين في الجنة. وهذا في نظري لا أساس له في السياق. فلم يسبق أن ذكر يوم القيامة من قبل، وما يلي هذه الآية يتعلق بالدنيا: "ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا" في الدنيا. ولذلك نميل إلى القول إن معنى الآية شيء آخر يكشف عنه قوله تعالى في آيات تالية "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ؛ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (مشركي مكة)، لَأَ يَأْمُنُونَ بِهِ، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ" (10-13). إِذِنْ حَكَّمَ اللَّهُ عَلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ أَنَّهُمْ لَنْ يَأْمُنُوا. ومن هنا كان معنى قوله "رَبِّمَا يَسُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ" : أنهم محكوم عليهم بالبقاء كافرين حتى ولو ودوا أن يكونوا مؤمنين. وهذا الحكم راجع إلى أن الله قضى بذلك بعد أن رفضوا الإيمان.

2 - لا يمكن أن تعرض قريش بهذا قبل أن يجهر الرسول بالقرآن. هذا يصدق على فقرات هذه السورة وعلى السور السابقة. وإذن فالقول بأن الجهر بالقرآن إنما بدأ بعد قوله تعالى لاحقاً : "فاصدع بما تؤمر" قول فيه نظر.

3- المعنى: لو نزلنا الملائكة لَنَمَّ إهلاكهم في الحين ولما أمهلوا إلى اليوم فالكفر قديم فيهم.

4- المعنى : بدل أن ننزل الملائكة لإهلاكهم فضلنا تنزيل القرآن لإرشادهم. جمهور المفسرين على أن الضمير في "له حافظون" يرجع إلى الذكر أي القرآن، وأن المعنى: نحن نزلنا القرآن وإنا لهذا القرآن لحافظون. أما بعض أهل اللغة فيقولون إن الضمير يعود إلى "الذي نزل عليه الذكر" أي الرسول عليه السلام، كقوله تعالى "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (المائدة: 67). بمعنى أن الذكر أي القرآن من عند الله، والرسول ليس بمجنون، وإنا له لحافظون من الجنون. ومن قال بهذا : الفراء وابن الأباري (ذكره الرازي). وهذا الفهم أنسب للسياق في نظرنا، لأنه بدون ربط "إنا له لحافظون" بـ"الذي نزل عليه الذكر"، تبقى الآية: "إنا نحن نزلنا الذكر (القرآن) وإنا له لحافظون" معزولة عن السياق، لأن ما قبلها وما بعدها يتحدث عن الرسول والرسول، وليس عن القرآن. هذا ويتمسك بعض الناس برد "لحافظون" إلى القرآن كدليل على أنه لم ولن يتغير. وهل نحتاج إلى هذا بعد مرور خمسة عشر قرناً على نزوله وبِقَالِهِ كما نزل؟! يجب أن يحكم نص القرآن بسياقه فهمنا له، لا تخوفاتنا من هذا الشيء أو ذاك.

قُلُوبَ الْمُجْرِمِينَ¹² (مشركي مكة)، لَّا يُؤْمِنُونَ بِهِ (بالرسول)، وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ¹³ (5). وَكَوْا فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَْعْرَجُونَ¹⁴ (يصعدون)، لَقَالُوا إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ¹⁵ (6).

2- يتجاهلون دلالة خلق الله للسموات والأرض !

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا⁽⁷⁾ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ¹⁶، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ¹⁷ إِلَّا مَن سَلَّطَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَيْهَابٌ مُّبِينٌ¹⁸. وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا (وضعنا وأنشأنا) فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ¹⁹ (منتظم). وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ²⁰ (بمعدين: أي معاش الحيوانات). وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ²¹. وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ²² (ليست خزائنه في أيديكم). وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ²³ (للجميع). وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمُ (الأموات السابقين) وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ²⁴ (الأحياء اللاحقين بهم)، وَإِن رَّبَّكَ هُوَ يَخْشَرُهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ²⁵ (8).

3- إعراض قریش امتداد لاعتراض إبليس على أمر الله ...

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ²⁶ (طين أسود متغير)، وَالْجَانَّ (الجن) خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ (قَبْلُ خَلَقَ آدَمَ وَذَرِيَّتَهُ) مِنْ نَّارِ السَّمُومِ²⁷ (حارة لا دخان لها). وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ²⁸،

5- بمعنى أن من سنة الأولين أن لا يؤمنوا بالرسول ويستهنون بهم، وكذلك قریش ...

6- والمعنى أن هؤلاء المشركين بلغ بهم غلوهم في العناد: أنه لو فتح الله لهم أبواب السماء، ويسر لهم معراجا يصعدون عليه إليها، ورأوا جبريل يأخذ الوحي إلى محمد، لقالوا: هذا شيء نتخيله لا حقيقة له، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك.

7- بعضهم قال: قصورا ومنازل، وبعضهم قال: كواكب عظيمة، وآخرون قالوا: بروج السماء وهي 12 برجاً (الحمل، والثور، والجوزاء، السرطان، الأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والذئب، والحوث)، وهي "منازل" الكواكب، وينتمي هذا القول إلى علم الفلك القديم وإلى التنجيم خاصة. والظاهر من السياق أن المقصود هو الكواكب العظيمة: في مقابل "الرواسي" أي الجبال الكبيرة على الأرض.

8- واضح من السياق أن ما ذكره حول الآية 23 ("المستقدمين والمستأخرين") -انظر التقديم) هو مجرد خيالات. أما معنى الآية (23) فتشرحه وتطوقه الآيتان 24-25.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَتَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ²⁹؛ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ³⁰ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ³¹ (9). قَالَ (الله) يَا إِبْلِيسُ مَا نَكَّ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ³²؟ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ³³. قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ³⁴ (مطرود)، وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ³⁵. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي (أمهلي) إِلَى يَوْمِ يَنْعَثُونَ³⁶. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ³⁷ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ³⁸. قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي (10) لِأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَكَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ³⁹، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ⁴⁰ (الذين خلصتهم ونجيتهم من تأثيري). قَالَ (الله) هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ⁴¹ (11)، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَالِينَ⁴²، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ⁴³ (يعني من اتبعه من الغالين): لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ⁴⁴ (12). إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ⁴⁵، (يقال لهم) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ⁴⁶. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ (نفور بينهم في الدنيا، فصاروا) إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ⁴⁷. لَا

9- تأتي هنا قصة إبليس مكررة، كما في سور عديدة، وذلك لتوضح بأن عصيان إبليس (الشيطان) هو الأصل في إغراض المشركين عن النبي (ص)، فكما برر إبليس إغراضه واستكباره وعنده يكون آدم خلق من طين (أعط الأشياء وأخسها) بينما خلق هو من "سار" أو "تور" فكذلك يعرض كفار قریش عن الإسلام والالتحاق بالنبي (ص) يدعوى أنهم أعلى مقاماً من أصحابه، وأنهم لا يمكن أن يتساوا مع عبيدهم ومواليهم ... وبالتالي فهم لن يرجعوا عن عنادهم لأنهم لن يقبلوا أن يكونوا سواء مع باقي المسلمين.

10- قال المفسرون قوله "رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي": بِـ "أضللتني"، أي جعلتني ضالاً، واختلفوا هل الضلال من الله أم من الشخص الضال. ولعل أقرب إلى الصواب أن نقول: "الغي" هو الاعتقاد الفاسد. وإبليس اعتقد اعتقاداً فاسداً فاعتبر نفسه أشرف من آدم. ومن هنا يكون "أغويتني" بمعنى حكمت علي وعاقبتني على اعتقادي الفاسد. نظيره: "إن كان الله يريد أن يغويكم، فقد قيل معناه: أن يغايبك على غيرك" أو "يحكم عليكم بغيركم".

11- "هذا" إشارة إلى ما قبله وما بعده: وبالتالي فـ "العباد المخلصون" ليس لك (يا إبليس) سلطان عليهم وإنما سلطانك على من اتبعك من الغالوين". وإذن فـ "المخلصين" الذين هم موضوع الاستثناء هم الذين لم يتبعوا إبليس ولم يستسلموا لإغوائه.

12- أي قَسَمُوا على أبوابها، كل مجموعة تدخل من باب. ورقم "سبعة" هنا ليس مقصوداً لذاته، بل هو للدلالة على تعدد أبواب جهنم لاستيعاب جميع أصناف "الغالوين". وتعدد الأبواب في جهنم يقابله تعدد "الجنان (البساتين) والعيون" في الجنة. ولكن بما أن الله قد نزع ما في قلوب أهل الجنة من غل فقد صاروا صنفاً واحداً... ويجلسون إخواناً على سرر متقابلين. وإذن فلا أساس لما ذكروا من أخبار عن "هروب سلمان" وغل الجاهلية بين أبي بكر وعمر وعلي... (انظر التقديم).

يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ (تعَب) وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ⁴⁸. نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ⁴⁹، وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ⁵⁰ (13)

4-... وأيضاً امتداد لعصيان قوم لوط وإصرارهم على إتيان الفاحشة...

وَنَبَّيْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ⁵¹ (ضيوفه: ملائكة)، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ (علي إبراهيم) فَقَالُوا سَلَامًا، قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ⁵² (خائفون). قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ (إِسْحَاقَ) عَلِيمٍ⁵³ (نبي). قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ (مع كبر سني)، فِيمَ تَبْشُرُونَ⁵⁴؟ قَالُوا بِشْرَتَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاطِنِينَ⁵⁵ (اليائسين). قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ⁵⁶! قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ⁵⁷؟ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ⁵⁸ (مذنبين: قوم لوط)، إِلَّا آلَ لُوطٍ (باستثناء المؤمنين به) إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ⁵⁹، إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنِّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ⁶⁰ (قماء الكافرين). فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ⁶¹ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ⁶² (غريباء)! قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ⁶³ (يشكون وهو العذاب). وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ⁶⁴. فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ (أخرج) بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ (إِلَيْهَا) وَاتَّبِعْ أَذْيَارَهُمْ (امش خلفهم) وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ، وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ⁶⁵ (إِلَى الشَّامِ). وَقَضَيْنَا (أوحينا) إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ (آخرهم) مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ⁶⁶ (يتم لستصلاهم عن آخرهم في الصباح). وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ (رجال مدينة سدوم، مدينة قوم لوط) يَسْتَبْشِرُونَ⁶⁷ (عازمين على إتيان فاحشة اللواط في ضيوف لوط). قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِي⁶⁸، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِي⁶⁹. قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ⁷⁰ (استضافة الناس). قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي (كبدل) إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ⁷¹! لَعَنَكَ (يا محمد) إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ⁷² (يترددون): فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ (المهلكة) مُشْرِقِينَ⁷³ (وقت شروق الشمس)، فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ⁷⁴ (من طين مطبوخ في النار). إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ⁷⁵ (الذين يأخذون العبرة)، وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ⁷⁶ (إِنْ قَرَى لُوطَ قَائِمَةً عَلَى طَرِيقِ قَرِيشَ إِلَى الشَّامِ). إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ⁷⁷. وَإِنْ

13- هذا الموقف المتضاد (غفور رحيم - عذاب أليم) أصله أن في زمن الدنيا إيمان وعمل صالح، وكفر وظلم، وأن بعد الموت حساب وجزاء: فالمؤمن قد يغفر له من ذنوبه رحمة به وأما الكافر فلا يغفر له لأنه اختار أن لا يغفر له باستمراره على الكفر. وهذا مبسوط في غير ما آتته.

(ولما) كَانَ أَصْحَابُ الْآيَةِ (غِيْضَةُ شَجَرٍ بِقَرْبِ مَدِيْنٍ، وَالْمَقْصُودُ قَوْمُ شَعِيْبٍ) لِّظَالِمِيْنَ⁷⁸ (بِنَكَبِيْهِمْ شَعِيْبًا)، فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ، وَإِنْهَمَا (قَرْيَةٌ قَوْمُ لُوطٍ وَقَرْيَةٌ قَوْمُ شَعِيْبٍ) لِيَأْمَامَ مُبِيْنٍ⁷⁹ (عَلَى طَرِيْقٍ وَاضِحٍ: طَرِيْقُ قَرْيَشٍ إِلَى الشَّامِ).

5- ... وَكَذَلِكَ كَانَ شَأْنُ أَصْحَابِ الْحَجَرِ، ثُمَّودُ قَوْمِ النَّبِيِّ صَالِحٍ!

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ (وُلَادُ بَيْنِ مَكَّةَ وَالشَّامِ، وَالْمَقْصُودُ ثَمُودُ: قَوْمُ صَالِحٍ) الْمُرْسَلِيْنَ⁸⁰، وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِيْنَ⁸¹. وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِيْنَ⁸²، فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ (الْمَهْلَكَةُ) مُصْبِحِيْنَ⁸³ (صَبَاحًا)، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُوْنَ⁸⁴.

6- خاتمة: آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم، اصدع بما تؤمر...!

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ، فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ⁸⁵ (لَا تَهْتَمْ بِإِعْرَاضِ قَرْيَشٍ). إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَظِيمُ⁸⁶ (14). وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي (15) وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ⁸⁷. لَّا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا

14- نظير قوله 'فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ' (البقرة 109). ومعنى الآيتين واحد: فالأمر بالصفح هنا جاء مقرونا بـ'حتى يأتي الله بأمره'، وفي الآية أعلاه جاء مقرونا بـ 'وإن الساعة لآتية'، وبالتالي فمعنى الصفح ينصرف لا إلى الخصوم بل إلى البذات. يقول الزمخشري في معنى الآية: 'فأعرض عنهم -واحتمل ما تلقى منهم- إعراضا جميلا بجلهم وإغضاء'. والسياق يؤيد هذا المعنى: أعنى أن على النبي عليه السلام أن لا يقلق أو يحزن أو يضيق على نفسه بسبب إصرار قريش على عدم الاستجابة له، كما أن عليه أن لا يستعجل العقاب لهم، وإنما عليه أن يصبر ويريح نفسه ويطمئن... وأن لا يشغل نفسه بتقلبهم في البلاد وحرية تنقلهم للتجارة وغيرها، كما أن عليه أن لا يقلق من توزع قريش على الأسواق للدعاية ضده الخ.

15- اختلف المفسرون في المقصود بـ'السبع المثاني'، فقول: الفاتحة؛ وقيل هي السور السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة الخ. قالوا: 'وسميت مثاني لأن العبر والإحكام والحدود ثنيت فيها'. وأنكر قوم هذا وقالوا: أنزلت هذه الآية بمكة، وجل السور الطوال مدنية (لم تنزل بعد). وقيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإنذار الخ. وفي رأينا أن 'السبع المثاني' لا بد أن تكون قد نزلت قبل هذه الآية، لذكرها بصيغة الماضي ('أعطيناك'). وقد سميت مثاني ليس فقط لأن فيها أشياء ثننى، بل لأن بنيتها واحدة كما بينا عند شرح كل واحدة منها أعني السور السبع الأخيرة بما في ذلك هذه، وهي حسب ترتيب النزول: الشعراء (طسم)، النمل (طس)، القصص (طسم)، يونس (الر)، هود (الر)، يوسف (الر) (وقد مضت في القسم الأول من هذا الكتاب ثم سابعها) هذه: الحجر (الر). فهذه السور ثننى بنية ومضمونا واقتتاحتها (طسم، طس، طسم - الر، الر، الر، الر، الر).

بِهِ أَرْوَاجًا (فَنَات) مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ⁽¹⁶⁾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ⁸⁸، وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ⁸⁹ كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ⁹⁰ (17) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ⁹¹؛ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ⁹² عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ⁹³. فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ⁹⁴؛ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ⁹⁵ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ⁹⁶. وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ⁹⁷، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ⁹⁸، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ⁹⁹.

لكن يبقى بيان الفرق بينها وبين القرآن العظيم، وهي جزء منه! في رأينا أن ما نزل قبل هذه السور السبع هو القرآن العظيم كما كان حجمه يوم نزلت. ثم نزلت سور آخر بعد هذه المثاني، وهي لا تتصف بالخصائص النبوية لهذه السبع، فيشملها حتما تعبير "القرآن العظيم". وهكذا يمكن أن يقال إن المقصود بالقرآن العظيم هو القرآن كله: ما كان قد نزل منه حين نزول هذه السورة، وما لم يكن قد نزل بعد. أما إذا نحن أخذنا بالرأي المشهور وهو أن "السبع المثاني" هي الفاتحة، فإنه لا يكفي أن يقال إنها سميت بهذا الاسم لأنها "سبع آيات تنثني في كل ركعة"، فهذا لا يفسر التمييز بينها وبين "القرآن العظيم"، أعني عطف "القرآن العظيم" عليها إلا إذا اعتبرناها -أعني الفاتحة- تقع خارج القرآن كما يروى عن عبد الله بن مسعود الذي اعتبرها دعاء كان يدعو به النبي (ص)، مثلها مثل المعوذتين (الفلق والناس)، ولهذا السبب لم يدرج هذه السور الثلاث في مصحفه. وشيء آخر يضعف من الرأي القائل إن مقصود بـ"السبع المثاني" هي الفاتحة: فمن جهة ليست الفاتحة سبع آيات باتفاق، بل هتكت من جعل آياتها ستا ومنهم من جعلها سبعا ومنهم من جعلها ثمان أو تسعا (انظر التقديم الذي صدرنا به سورة الفاتحة. القسم الأول من هذا الكتاب سورة رقيم 20)، ومن جهة أخرى إن الوصف "مثنائي" قد وُصف به القرآن كله في قوله تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ" (الزمر 23). ونحن نعتقد أن السور التي قلنا إننا نرى أنها هي المقصودة بـ"السبع المثاني" هي وحدها السور السبع التي يثنى بعضها الآخر على مستوى البنية فهي أكثر من "متشابهة"، والتشابه في المظهر أو في المضمون أو فيهما معا لا يرقى إلى التشابه في البنية. ولذلك لفتت نظر الزمخشري فوصفها بأوصاف تعبر عن جوانب أساسية من بنيتها (انظر التعليق الذي ختمنا به سورة الشعراء رقم 47. القسم الأول من الكتاب).

16- الزمخشري: "أَي لَا تَتَمَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا فَيَتَقَوَّى بِمَكَاتِهِمُ الْإِسْلَامَ وَيَنْتَعِشَ بِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَتَوَاضِعَ لِمَنْ مَعَكَ مِنْ فَقَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَضَعْفَانِهِمْ، وَطَبَّ نَفْسًا عَنْ إِيْمَانِ الْأَغْيَاءِ وَالْأَقْوِيَاءِ" وَقُلْ لَهُمْ "إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ" أَنْذَرَكُمْ بَيَانًا وَبَرَهَانًا أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ نَازِلٌ بِكُمْ".

17 - المعنى: "وَقُلْ (لِلْعَرَبِ فِي الْمَوَاسِمِ وَالْأَسْوَاقِ) إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ"، كَمَا قُلْتَ ذَلِكَ لِأَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ جَاؤُوا الْمَوْسِمَ فَاقْتَسَمُوا بَيْنَهُمُ الدَّعَايَةَ ضَدِّي فِي الْمَوْسِمِ: بَعْضُهُمْ يَقُولُ لَا تَغْتَرُوا بِهَذَا الْخَارِجِ فَيُنَادِي النُّبُوَّةَ؛ فَإِنَّهُ مَجْنُونٌ، وَرَبِّمَا قَالُوا سَاحِرٌ، وَرَبِّمَا قَالُوا شَاعِرٌ، وَرَبِّمَا قَالُوا كَاهِنٌ، مُسْتَدْلِلِينَ بِقَطْعٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَنْتَرَعُوهَا مِنْ سِيَاقِهَا أَنْتَرَاعًا وَاقْتَسَمُوهَا بَيْنَهُمْ، يَعْضُوهَا عَلَى مَخَاطِبِهِمْ. (انظر المقدمة والاستهلال الذي صدرنا به هذه المرحلة).

- تعليق

تنتمي هذه السورة كما قلنا إلى "السبع المثاني"، وهي آخرها. أما السورة التي بعدها فهي متنوعة، لكل منها بنيتها الخاصة كما سنرى ابتداء من السورة القادمة (الأنعام)، التي تبدأ معها مرحلة جديدة. بدأت السورة التي نودعها بفاتحة مشابهة بل مطابقة لفواتح أخواتها الست السابقة: "الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ"، ثم اتجهت مباشرة إلى قريش، لتعود إلى القصص. وقد سبق أن نبهنا إلى أن هذا هو شأن هذه السورة: تارة تبدأ بالقصص كتوطئة لبيان لما ستواجه به قريش، وتارة تبدأ بقريش لتأتي من القصص بما يؤيد ما قالتهم عنهم. وبعبارة أخرى تسلك هذه السورة منهج المحامي : تارة : تواجه خصمها بالدعوى مباشرة ثم تدلل على صحتها بوقائع... وتارة تذكر الوقائع أولاً، ثم تأتي بالدعوى بعدها.

تبدأ السورة التي نحن ضيوف عليها بالوقائع أولاً: كثير من رجال قريش يتمنون لو أنهم أسلموا، إما لأنهم اقتنعوا بالدعوة، وإما لأنهم رأوا في انضمامهم إلى صفوفها إمكانية للاستفادة منها إذا هي نجحت، ومنهم من يعطفون على النبي لسمو أخلاقه وشرف محتده، لكنهم جميعاً مترددون حائرون لا يستطيعون اتخاذ القرار. ذلك أن اختيارهم الوقوف ضد الدعوة المحمدية أولاً قد وضعهم في سجن يصعب التخلص منه. هم متضامنون مع الملاء من قريش وقد سبق أن اتخذوا مواقف منها، ثم إنهم سبق لهم، هم وأصحابهم، أن طرحوا القضية على أنها قضية "هوية" : فعبادة الأصنام هي عبادة آبائهم وأجدادهم، وترك هذه العبادة والدخول في الإسلام يعني إدانة هؤلاء الآباء والأجداد وبالتالي مواجهة زعماء قريش وسفهاءهم الذين ما أن يسلم واحد من خصوم الدعوة المحمدية حتى ينهالون عليه بصنوف من الضغط المعنوي والمادي يحاولون استعادته إلى "دين آيائه وأجداده".

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم يعد في استطاعة قريش أن يؤمنوا لأن موقف العداء الذي وُقِفوا من الدعوة المحمدية منذ البداية يجعل من الصعب عليهم الاقتناع بحججها وآياتها. إنهم لكي يتوصلوا إلى الاقتناع بالدين الجديد عليهم أن ينتبهوا إلى ما لم يكونوا ينتبهون إليه من قبل، أو على الأقل لا يستخلصون منه العبر اللازمة. لقد عاشوا وهم يتجاهلون نظام الكون ودلالته على الصانع كما تجاهلوا كونه مسخراً لفائدة الإنسان. لقد عاشوا وهم يمارسون أنواعاً من السلوك التي يحرمها العقل وتنهى عنها الديانات والأخلاق، مثل الكسب الحرام وأكل مال اليتامى وعدم الإحسان إلى الفقراء الخ، وهذه أمور تستوجب العقاب. وإذا أفتتوا من العقاب في الدنيا فإن تأكيد الدين الجديد على وجود حياة أخرى، ستكون مخصصة للحساب

والجزاء على ما فعله الإنسان في الدنيا، تأكيد يجعلهم في موقع المتهمين المحكوم عليهم سلفا بالخلود في النار. نعم ينص الدين الجديد على أن "الإسلام يجب ما قبله" وأن العقاب في الآخرة لن ينال الذين لم تصلهم الدعوة. ولكن ها هي الدعوة قد قامت في عقر دارهم؛ فهم مكلفون ملزمون، وبالتالي عليهم أن يمارسوا نظاما جديدا في الحياة يتطلب، في هذه المرحلة على الأقل، ترك عبادة الأصنام وبالتالي التخلي عن كل ما يرتبط بهذه العبادة من سلوكات وفوائد ومكاسب.

إذن: قريش مسجونون في وضعية تجعل من الصعب عليهم التخلي عنها والاتحاق بصفوف المسلمين. إنهم لن يؤمنوا حتى ولو رغبوا في أن يكونوا مسلمين، فلا داعي إذن للاشغال بهم.

بعد تقرير هذه النتيجة تنتقل السورة إلى تأكيدها بسوايق من التاريخ المقدس: إن إعراض قريش هو امتداد لإعراض إبليس عن السجود لآدم، لقد اعتبر نفسه أرفع أصلا ومنزلة من آدم، فهو مخلوق من نار/نور وآدم مخلوق من طين/تراب، وقريش يعتبرون أنفسهم أيضا أشرف أصلا، فهم قبائل ذات صولة وصيت، وهم أصحاب أموال وبنين... بينما أصحاب محمد هم في الجملة من مواليتهم وعبيدهم أو من قبائل غير ذات شأن! وإعراض قريش امتداد كذلك لإعراض أقوام الأنبياء السابقين، قوم لوط، وأصحاب الحجر (ثمود). ومصير إبليس النار، ومعه الذين أغواهم من أقوام الأنبياء السابقين ومن قريش نفسها.

ما العمل إذن؟ هل يتخلى النبي الأمي، الرسول الأمين عن الدعوة وعن تبليغ رسالته ويستسلم؟ كلا، إن لديه -علاوة على القرآن العظيم- ما نزل منه وما ينزل بعد- هذه السور "السبع المثاني" التي شرحت له الموقف مبينا مكررا سبع مرات. وها هي المثناة السابعة تحمل إليه، ولنقل في "اليوم السابع"، بشرى بداية "أسبوع جديد"، بشرى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ". يتعلق الأمر، كما بينا في المقدمة والاستهلال الذين صدرنا بهما هذه المرحلة، بالأمر بالتوجه إلى العرب جميعا، إلى المواسم والأسواق. يجب الانفتاح على العالم كي ينفتح العالم للدعوة! ومن هنا سيكون الخطاب عن "الأنعام" بديلا للخطاب عن "رحلة الشتاء والصيف".

54- سورة الأنعام

- تقديم

ذكروا أن هذه السورة "نزلت بمكة ليلا دفعة واحدة". كما أورد المؤلفون في أسباب النزول عددا من الروايات حول آيات من هذه السورة قالوا نزلت في أشخاص معينين. من ذلك أن بعضهم ذكر أن قوله تعالى في هذه السورة: "وَكُوْنَزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ" نزلت ردا على مشركي مكة حين قالوا: "يا محمد، والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله". ومن ذلك أن قوله تعالى: "وَهُمْ يَتَهَوْنَ عَنْهُ وَيَتَأَوْنَ عَنْهُ"، قالوا: "نزلت في كفار مكة كانوا يتهون الناس (في المواسم والأسواق) عن اتباع محمد (ص) ويتباعدون بأنفسهم عنه". وفي قوله تعالى: "إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ" الآية. قيل: إن أبا جهل قال لسائل سألته عن حقيقة اعتقاده في محمد، هل هو كاذب حقا؟: "والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟". وقالوا: "التقى رسول الله (ص) بأبي جهل وأصحابه فقالوا: يا محمد إنا والله ما نكذبك وإنتك عندنا لصادق، ولكن نكذب ما جنت به"، فنزلت "فَاتَّبَعَهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ". وفي خبر عن خباب بن الارت قال: "كنا ضعفاء عند النبي (ص) بالغداة والعشي فعلمنا القرآن والخير، وكان يخوفنا بالجنة والنار وما ينفعنا الموت والبعث، فجاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الغزاري فقالا: إنا من أشرف قومنا وإنا نكره أن يرونا معهم، فاطردهم إذا جالسناك. قال: نعم. قالوا: لا نرضى حتى تكتب بيننا كتابا فأتى بأديم ودواة، فنزلت هذه الآيات "وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ" إلى قوله تعالى "فَتَتَابِعُهُمْ بَعْضٌ". وفي رواية أخرى: قال عكرمة: جاء "أشراف من بني عبد مناف، من أهل الكفر، إلى أبي طالب فقالوا: لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وعبيدنا وعساقنا كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه، وتصديقنا له. فأتى أبو طالب النبي (ص) فحدثه بالذي كلموه. فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون وإلام يصيرون من قولهم! فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب

(الأصنام). هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا (لموتكم)، وَأَجَلَ مُُسَمًّى عِنْدَهُ (يحفظ به: هو قِيَامُ الساعة)، ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ² (ومع ذلك فأنتم يا كفار قريش تشكون في البعث). وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ، وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ³. وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ (دلائل وحجج) رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ⁴: فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ (بالقرآن) لَمَّا جَاءَهُمْ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ⁵ (2). أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ (من أجيال) مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ (يا أهل مكة)، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا (مطرًا) بَغْزَارَةً، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ، فَآهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا (قوما) آخَرِينَ⁶.

2 - عناد قريش، شجب الشرك، تبليغ القرآن لهم ولغيرهم...

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ⁽³⁾ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ⁷. وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّارِ إِذْ جَاءَنَا الْكُتُبُ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ لَا يَنْظُرُونَ⁸ (لا يمهلون). وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَكًّا لَجَعَلْنَاهُ رَجَاءً وَلَكِنَّا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِثُونَ⁹ (4). وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ¹⁰ (أي العذاب الذي أنذرهم الرسل منه). قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ¹¹ (5). قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلْ لِلَّهِ. كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ (بأن أهلكم في الدنيا، وإنه) لِيَجْمَعَنَّكُمْ (جيلاً بعد جيل) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ. (أما) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (خسروا تلك الرحمة بعدم استجابتهم لرسله) فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ¹² (وبالتالي يخسرون تلك الرحمة). وَكَهْ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ¹³. قُلْ أُغَيِّرَ اللَّهُ أَمْرًا، فَطَافَ (خالق) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِيعُ مَا يَأْمُرُ، قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ

2- كقولهم "إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، أَوْ أَبْلُوثًا لَلْوُثُونَ" (الواقعة 47-48).

3- من ورق. قيل معرب، أصله من الرومية (اللاتينية)، قرآن carte.

4- ولو بعثناه ملاكاً لوقعوا في اللبس نفسه: فلكي يروه يجب أن نرسله في صورة إنسان، فكيف سيرفعون اللبس عن أنفسهم!

5- تتكرر هذه الآية أو ما في معناها، والمقصود لفت انتباههم إلى الآثار التي يعمرون عليها في طريق تجارتهم إلى الشام، وهي آثار ثمود (بمدينة الحجر) وغيرها من القرى التي ذكر الله أنه دمرها بالزلازل والأمطار عندما أصر أهلها على تكذيب رسله إليهم.

أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ. وَ(قَالَ لِي رَبِّي) لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ¹⁴. قُلْ إِنِّي أَخَافُ، إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي، عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ¹⁵. مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ (العذاب) يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ¹⁶. وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ¹⁷ (قدير على إدامته وعلى إزالته). وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ (له القوة والسلطة عليهم)، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ¹⁸ (لا يتهور، يتصرف بحكمة ومعرفة بالأمور). قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً (من الله)؟ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ (أَنْتُمْ) وَمَنْ بَلَغَ (ومن بلغه هذا القرآن). أُنْذِرْكُمْ (يا قريش) لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى؟ قُلْ (يا محمد لما أنا) لَا أَشْهَدُ. قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ¹⁹.

3- مشاهد من يوم الحساب: تنكر لهم شركاؤهم وتمنوا الرجوع!

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ (اليهود والنصارى) يَعْرِفُونَهُ (يعرفون: "إنما هو إله واحد") كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ. (أما) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (أي المشركون) فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ²⁰. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (بأن وضع شركاء له) أَوْ كَذَبَ بآيَاتِهِ (بدلائله)؟ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ (هؤلاء) الظَّالِمُونَ²¹. وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا: أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ²²؟ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ (ضلالهم) إِلَّا أَنْ قَالُوا (أَقْسَمُوا): وَاللَّهِ، رَبَّنَا، مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ²³! انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ! وَضَلَّ عَنْهُمْ (غاب) مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ²⁴ (من الشركاء). وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ! وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً (حواجز وأغطية منعتهم من) أَنْ يَفْقَهُوهُ، (وجعلنا) وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (نقلا حتى لا يسمعه). وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ (من الدلائل التي تدل على وحدانية الله) لَا يُؤْمِنُوا بِهَا، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا (الذي يقصه القرآن) إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ²⁵. وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ (بصرفون للناس عنه) وَيَتَأَوَّنَ عَنْهُ (يبتعدون عن النبي)، وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ (بموقفهم ذلك)، وَمَا يَشْعُرُونَ²⁶. وَلَوْ تَرَى (هؤلاء يوم القيامة) إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ: فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نَرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ²⁷! بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ (كانوا يخفون خوفهم من أن يكون البعث واقعا). وَلَوْ رُدُّوا (إلى الدنيا) لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ²⁸. وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ²⁹! وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ (حين جاء بهم للحساب)، قَالَ (لهم ربهم): أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا! قَالَ: فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

تَكْفُرُونَ³⁰. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا (في الإعداد لها بعمل ما يستحق الثواب)، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ (الآثام والخطايا) عَلَى ظُهُورِهِمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ³¹ (يحملون). وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ. أَفَلَا تَعْقِلُونَ³²!

4- لا يحزنك ما يقولون عنك في الأسواق.. قد كذبت رسل من قبلك.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ (للعرب في الأسواق لصد الناس عنك)، فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ (لكونك محمدا المعروف بالصدق والأمانة)، وَلَكِنَّ (هؤلاء) الظالمين، بآياتِ الله يَجْحَدُونَ³³ (لا يعترفون بالشواهد والدلائل التي تدل عليه وعلى قدرته على بعثهم). وَلَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا. وَكَأ مَبْدَلٍ لِّكَلِمَاتِ اللَّهِ (تلك سنة الله وستحقق معك فتتأصر). وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَاِ الْمُرْسَلِينَ³⁴ (جاءك من قصص الرسل ما يؤكد ذلك). وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ (معجزة من النوع الذي يشترطون عليك كي يؤمنوا، فافعل!). وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى (والإيمان، بدون ذلك)، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ³⁵. إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، (أما هؤلاء فهم موتى لا يسمعون)، وَالْمَوْتَى يَنْفَعُهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ³⁶. وَقَالُوا لَوْكَأ (هلا) نَزَّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ! قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْزِلَ آيَةٌ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ³⁷: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ (أنواع وأجناس) أَمْثَلُكُمْ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ. ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ³⁸ (6). وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ (محرمون

6- جميع المفسرين يتعلمون مع هذه الآية (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ" الآية، جملة نحوية مستقلة: الشيء الذي يعزلها عما قبلها وما بعدها- ثم فسقوا مع التفكير في جزء منها وهو "يحشرون" فخلصوا في موضوع حشر الحيوانات وهل يجري عليها الحساب والعقاب الخ، وكان للحيوانات تكلفة شرعا حتى تكون موضوع جزاء، ثم روي في ذلك أحاديث من نوع أحاديث الترغيب والترهيب، وكتبوا الوضع: قبل أن يطلبوا لها ما يشهد لها بالصحة من القرآن، جعلوها هي تشهد بالصحة على ما تساق إليه فهمهم. أما نحن فنرى أنه لا وجه لبيان الصلة بين هذه الآية وبين ما قبلها وما بعدها إلا بربطها بهما، على النحو الذي فعلنا أعلاه، ففعله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ (أنواع وأجناس) أَمْثَلُكُمْ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ"، بيان وتأكيد لقوله قبل ذلك: "قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْزِلَ آيَةٌ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ³⁷" (بمعنى أنهم لا يعلمون أن الله قادر على أن ينزل آية، ولو علموا أنه "ما من دابة ولا طائر" الخ لعظموا ذلك. ولعظموا أيضا أنهم إلى ربهم يحشرون". فلضمير في "ربهم" يعود إلى من تعود عليه الضمير للمثلة السابقة

من نور العقل، فهم لا يهتكون، بل هم مثل الدواب)، مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ (منهم) وَمَنْ يَشَأْ يُصْهِرْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ³⁹. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ، أَعْبُرُوا لِلَّهِ تَذَعُونَ (يتوجهون بالدعاء ليكشف الضر عنكم)، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁴⁰؟ بَلْ يَأْتِيهِ تَذَعُونَ، فَيُكْشِفُ مَا تَذَعُونَ إِلَيْهِ (من إزالة ذلك الضر عنكم) إِنْ شَاءَ، وَتَسْأَلُونَ مَا تُشْرِكُونَ⁴¹ (أما أصنامكم فتسألون التوجه إليهم بالدعاء لأنكم تعرفون أنهم لن ينفعوكم في شيء). وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ (أخذنا تلك الأمم) بِالْبَاسِ (البؤس والجوع) وَالضَّرَاءِ (الأمراض) لَعَلَّهُمْ يَنْصَرِعُونَ⁴² (إلى الله). قُلُوبًا (فهيلاً) إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا، وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَفَرُوا يَعْمَلُونَ⁴³. فَلَمَّا نَسُوا مَا نُكِّرُوا بِهِ (ما تلقوا دعوة الرسل) فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ ابْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً، فِذَا هُمْ مُبْكَسُونَ⁴⁴ (أيسون متسائمون). فَقَطَّعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا (استوصلوا عن آخرهم)، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ⁴⁵. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ، مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَلْتِكُمْ بِهِ؟ انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ (ننوع ونوضح) الْآيَاتِ، ثُمَّ هُمْ يَصْنِفُونَ⁴⁶ (يعرضون). قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ⁴⁷؟

5- قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ. لَا تَطْرُدُ الضَّعْفَاءَ. لَا تَنْتَازِلُ...

وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ⁴⁸. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ⁴⁹. قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ! إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي السَّاعِمِيُّ (الضال) وَالْبَصِيرُ (المهتدي) أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ⁵⁰. وَأَنْذِرْ بِهِ (بالقرآن) الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ، لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ⁵¹. وَلَا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ⁵² (7). وَكَذَلِكَ

وهي: إعراضهم، فتأييدهم، لجمعهم، يستمعون، يرجعون، أكثرهم، لا يعملون، ثم يخشرون. الضمير يعود على الكفار وليس على الدواب. وهم الذين قال عنهم تعالى = مباشرة: "وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَيَكُمُ فِي الظُّلُمَاتِ". نظر آراء المفسرين وتضارب أقوالهم في تطبيق لاحق (سورة الانشقاق رقم 84). (سيلي) استطراد هو الحشر، و"حشر الدواب" (...).

7- كان أكبر من قريش قد اشترطوا على الرسول عليه لسلام طرد الفقراء والعبيد من صحابته ليجلسوا إليه، وربما طعنوا في إيمانهم أو في نوافع التزامهم مع رسول الله. والآية ترد عليهم بأنه إذا =

فَتَنَّا بَعْضَهُمْ (كبار قريش) ببعض ليقولوا: أهولاء (الفقراء) مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ (بالهداية) مِنْ بَيْنِنَا؟! أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ؟⁵³. وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا (بدلائلنا وعلامات فعلنا) فَقُلْ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ (من غير أن يعلم أنه سوء، أو عمله تحت الضغط) ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ، فَآتَاهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ⁵⁴ (8). وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ، وَلِتَسْتَبِينَ (ولتتعرف على) سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ⁵⁵ (المذنبين). قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَسْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ قُلْ لَنَا اتَّبِعْ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ⁵⁶.

6- لا علم لي بالساعة. الله وحده يعلم الغيب.. لست عليهم بوكيل.

قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ (من قيام الساعة)، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، يَقْضُ (يقضي بـ) الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ⁵⁷. قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ⁵⁸ (بما يقتضيه الحكم بالحق في شأنهم). وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؛ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَكَأ حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ، وَكَأ رَطْبٍ وَكَأ يَابِسٍ، إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ⁵⁹. وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ (عند النوم حين تكونون كالموتى لا تفعلون شيئاً) وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم (فعلتم قبله) بِالنَّهَارِ (أمس)، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ (في نهار الغد) لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى (وهكذا حتى ينتهي أجلكم)، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ (في الآخرة)، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ⁶⁰. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً (ملائكة) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا (الملائكة) وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ⁶¹. ثُمَّ رُدُّوا (الملائكة) إِلَى اللَّهِ مُوَكَّلَاهُمْ الْحَقُّ. أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ⁶². قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظَلَمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؟ تَذَعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخَفِيَةً: لَنَنْ أَنْجَاتَنَا مِنْ هَذِهِ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ⁶³.

كان في إيمانهم مطعن كما قال كبار قريش فهم وحدهم سيحاسبون، ولن تحاسب أنت (يا محمد) في مكثهم كما أنهم لن يحاسبوا في مكثك، ولا تترد وأردد وزر أخرى. وهذا شبيه بما سبق في سورة الشعراء حكيمة عن نوح وقومه : قُلُّوا أَوْفِينَا لَكَ (يا نوح) وَتَبِعَكَ الْآرْتُلُونَ، قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَفُّوا يَضِلُّونَ إِنْ حَسَبْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ، مَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ... (الشعراء 111-115)

8- اختلف الرواة في سبب نزول هذه الآية، والذي يفيد السياق هو أن الحديث متصل مع حكيمة طلب كبار قريش، وأن هذه الآية ترد عليهم فيما طعنوا به في بعض الصحابة الفقراء. وربما غنوا بذلك اضطراب بعضهم إلى التلطف بكلمة لكفر خلال حملة التعذيب التي شنّها عليهم كبار قريش. وقيل إن من بينهم عمر بن يسر.

قُلْ اللَّهُ يَجْبِيكُم مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ، ثُمَّ (مع ذلك) أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ⁶⁴. قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ، أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا (يُخْلَطُكُمْ فِرْقًا مُّتَحَاذِرَةً) وَيَذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ. انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ⁶⁵. وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ، وَهُوَ الْحَقُّ! قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ⁶⁶. لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَفْتَرٌ (وَقَدْ فِيهِ خَبِيرٌ بِهِ)، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ⁶⁷.

7- أَعْرَضَ عَمَّنْ يَخُوضُ فِي آيَاتِنَا .. وَيَتَّخِذُونَ الدِّينَ لَعِبًا وَلَهْوًا ...

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا (بِالْكَذِبِ) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ. وَإِمَّا (=إِنْ مَا) يَنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ (فَقَعْتَ مَعَهُمْ) فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى (بَعْدَ أَنْ تَتَذَكَّرَ نَهْيًا عَنْ ذَلِكَ) مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ⁶⁸. وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ (اللَّهِ) مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ (لَنْ يَحْسَبَ عَلَيْهِمْ أَى إِثْمٍ إِذَا جَالَسُوهُمْ)، وَلَكِنْ (هَذِهِ) ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (يَتَجَنَّبُونَ الْخَوْضَ مَعَهُمْ)⁶⁹. وَذَرِ (أَعْرِضْ عَنْ) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ (الْقُرْآنَ الَّذِي أُرْسِلْنَاكَ بِهِ إِلَيْهِمْ) لَعِبًا وَلَهْوًا (بِالِاسْتِهْزَاءِ) وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، (فَلَا تَتَعَرَّضْ لَهُمْ) وَتَذَكَّرْ بِهِ (عِظْ بِالْقُرْآنِ حَتَّى لَا يَحِثَّ) أَنْ تَبْسُلَ (تَرْتَهَنَ وَتَهْلِكَ مِنْ دُونِ تَنْبِيهِ أَوْ إِذَارِ) نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (مِنْ ذُنُوبٍ)، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ⁽⁹⁾، وَإِنْ تَغْدِلْ كُلَّ عَدَلٍ (وَإِنْ أَرَأَيْتَ تِلْكَ النَّفْسَ أَنْ تَقْدِمَ كُلَّ فِدْيَةٍ تَرِيدُ مَحْوَ ذَنْبِهَا) لَا يُوْخَذُ مِنْهَا! أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا (أَهْلَكُوا) بِمَا كَسَبُوا، لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ، بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ⁷⁰. قُلْ أُنَدِّعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا (بِعَنِ الْأَصْنَامِ) وَتَرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا، بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ؛ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ، لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى، (يَقُولُونَ لَهُ) ائْتِنَا (تَعَالِ إِلَيْنَا)⁽¹⁰⁾! قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمِرْنَا لَنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ⁷¹ (وَذَلِكَ بـ) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ⁷². وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ. قَوْلُهُ الْحَقُّ، وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ⁷³.

9- كان الرسول وأصحابه يجلسون مع كبار قريش يتناقشون معهم. ويبدو أن هذا انتهى عن الجلوس مع كفار قريش مرتبط بالأسلوب الجديد للدعوة، أي الاتصال بالقبائل في الأسواق وغيرها، ولذلك جاء الحث على الاتجاه إلى الذين لم تبلغهم الدعوة، تجنباً لتأثير زعماء قريش في بعض المسلمين.

10- قيل: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر فقه كان يدعو أباه الجوع إلى دين أبيه...

8- إبراهيم : حملة على الشرك... التذكير بالأنبياء الآخرين.

و(انكر) إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَرَ: اتَّخَذُ أَصْنَامًا آلِهَةً! إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ⁷⁴. وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَتَكَبِّتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ⁷⁵. فَلَمَّا جَنَّ (أظلم) عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا، قَالَ: هَذَا رَبِّي! فَلَمَّا أَفَلَ، قَالَ: لَا أَحِبُّ الْفَاقِلِينَ⁷⁶. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا، قَالَ: هَذَا رَبِّي! فَلَمَّا أَفَلَ، قَالَ: لَنْ نَمُ يَهْدِيَنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ⁷⁷. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً، قَالَ: هَذَا رَبِّي! هَذَا أَكْبَرُ! فَلَمَّا أَفَلَتْ، قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ⁷⁸. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ⁷⁹. وَحَاجَّةٌ قَوْمُهُ، قَالَ: أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي؟ وَإِنِّي أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ⁸⁰! وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَئِن تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا! فَايُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ⁸¹? الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ⁸². وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ⁸³. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ! كُلًّا هَدَيْنَا. وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ. وَمَن ذُرِّيَّتِهِ (إبراهيم) دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ⁸⁴. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ، كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ⁸⁵. وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ⁸⁶. وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ⁸⁷. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ⁸⁸. أُولَئِكَ (الأنبياء هم) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ (الحكمة) وَالنَّبُوَّةَ، فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ (ذرياتهم وإخوانهم) فَقَدْ كَلْنَا بِهَا قَوْمًا (آخرين)⁽¹¹⁾ لَيَسْأَلُنَّاهُمْ بِهَا بِكَافِرِينَ⁸⁹. أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ اقْتَدِهْ (=اقتد). قُلْ (لقريش) لَنَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرِي

11- اضطرب فهم بعض المفسرين لهذه الآيات، والمعنى واضح: الله بعث أنبياء في بني إسرائيل وفر غيرهم فإذا كفر بهم فريق من قلوبهم وزيارتهم فقد كان هناك دوما فريق آخر يؤمن بهم، فبهؤلاء المؤمنين الذين لم يغيروا دينهم يجب أن نقف أي أن تنتسب، يا محمد. إن سلسلة المؤمنين وسلسلة الكافرين متواصلتان، وأنت حلقة في الأولى فلتواصل معك.

لِلْعَالَمِينَ⁹⁰. وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا (12) مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ! قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ (يكتبونه في دفاتر مقطعة) تَبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا، وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا، أَنْتُمْ وَلَكَ آبَاؤُكُمْ؟ قُلِ اللَّهُ (جواب : قل من أنزل...) ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ⁹¹.

9- التعرض لليهود: يخفون ما يعرفون من نبيو محمد...

وهذا (القرآن) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (من التوراة والإنجيل) وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى (مكة) وَمَنْ حَوْلَهَا، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ (بالقرآن) وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ⁹². وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ؟! (13) وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ؟! وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ (يقولون لهم) أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ (للقبضِها)، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ (الهوان) بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ⁹³. (يخاطبهم الله): وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شِيفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ (مع الله)، لَقَدْ تَقَطَّعَ (ما يصل) بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ⁹⁴.

10- الله يخرج الحي من الميت... وسخر لكم ما في الأرض...

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى (حب الزرع ونوى النخل: يشقهما ويخرج من كل منهما نبتته)، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ (النبتة من الحب) وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ (الحب من النبات)، ذَلِكُمْ اللَّهُ، فَأَنَّا تَوَفَّكُونَ⁹⁵ (كيف تجحدون؟). فَالِقُ الْبَاصِصَاحِ (مخرج نور الصباح من ظلمة الليل)، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْنِبَاتًا

12- جل المفسرين قالوا إن الضمير يعود هنا لليهود. وهذا لا يستقيم لأن سياق الكلام متمسك والاتصال بين هذه الآية والتي قبلها واضح، والسورة مكية، وإن فلا يبقى إلا أن المعنيين هنا هم قريش. أما قوله تعالى: "تجعلونه قراطيس" يعني التوراة، فالخطاب فيه إلى قريش أيضاً، وكان في قريش من يقرعون التوراة في أرواق. وقد روي أن النبي غضب لما رأى في يد عمر بن الخطاب أورفاً منها، فقال: "والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي".

13- قيل نزل هذا في مسيئة للذئاب صاحب اليملة، وكان يقول: محمد رسول قريش، وأنا رسول بني حنيفة، شرق الجزيرة: البحرين وما إليها.

(حساباً لأوقات)، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ⁹⁶. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ. قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ (الدلائل) لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ⁹⁷. وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ (ماء رحم المرأة) وَمُسْتَوْدَعٌ (مني الرجل مستودع فيها)⁽¹⁴⁾ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ⁹⁸. وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ: فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مَتْرَاقِيًا، وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا (الذي منه يخرج ثمرها) قِنَوانٌ دَانِيَةٌ (عراجين متدلية)، وَجَنَاتٍ مِنْ أَغْنَابٍ، وَالزَّيْتُونِ، وَالرُّمَّانِ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ، وَيَنْجَعُ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ⁹⁹. وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجَنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ (افتعلوا له) بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ¹⁰⁰. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أُنَّى (كيف) يَكُونُ لَهُ وَكَذَلِكَ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ (زوجة)! وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ¹⁰¹. ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ². لَا تَدْرِكُهُ الْبَأْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَأْصَارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ¹⁰³.

11- "قد جاءكم بصائر.. وما أنا عليكم بحفيظ"... هم لا يؤمنون!

(قل) قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ¹⁰⁴ (برقيب). وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ (نلزمهم الحجج والدلائل)، وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ (تعلمت: علمك آخرون) وَلِنُبَيِّنَهُ (القرآن) لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ¹⁰⁵. اتَّبِعْ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ¹⁰⁶. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا (15). وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا (رقيبًا). وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ¹⁰⁷. وَلَا تَسُبُّوا (آلهتهم) الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا

14 - ذهب المفسرون في تفسير معنى "مستقر ومستودع" مذاهب شتى، بعيدة عن الظاهر وعن سيق الآيات السابقة واللاحقة، وهي تشبه بالتأويلات الباطنية. فنظر رأينا في الموضوع (سورة الأعراف هـ 30). ونحن نعتقد أن هذا الذي أشتباه أعلاه أقرب إلى الصحة، يشهد له قوله تعالى: وَهُوَ أَمْلَأُ الْحَبَا، وَهُوَ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تَمْنَى (الإسراء-46)، وقوله: "إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ" (النجم-2) (خليط مني للرجل وماء للمرأة).

15 - يقول الزمخشري على رأي المعتزلة في مثل هذه الآية: ولو شاء الله أن يفسرهم ويضطرهم على الإيمان لآمنوا، ويسمون هذه مشيئة قسر، في مقابل مشيئة الاختيار: يميزون بين مشيئة المضطر، ومشيئة غير المضطر. وعلى هذا يكون معنى الآية: إن الله لم يفرض الإيمان عليهم فرضاً، بل ترك لهم حرية الاختيار.

اللَّهُ عَذَابًا (جهلاً واعتداءً) بغير علم، كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ (فريق) عَمَلَهُمْ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹⁰⁸. وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ (معجزة) لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا، قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ. وَمَا يُشْعِرُكُمْ (وما يديركم أيها المؤمنون) أَنَّهُ إِذَا جَاءَتْ لَأَيُّؤْمِنُونَ؟¹⁰⁹. وَتَقَلُّبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارُهُمْ (ما يديركم؟ فنحن قادرون على أن نحول بينهم وبين الإيمان فتعمسى أفئدتهم وأبصارهم فلا يؤمنون بالقرآن بعد الإتيان بالآية التي يطلبون) كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ¹¹⁰ (يتحيرون). وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا (قبالتهم)، مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ¹¹¹.

12- وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا: شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ...

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا: شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا! وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ¹¹²، وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ¹¹³. (قُلْ) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ (القرآن) مُفَصَّلًا؟ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ (التوراة) يَعْلَمُونَ أَنَّهُ (القرآن) مَنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ¹¹⁴ (الشاكين). وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ (ما جاء في القرآن من وعد ووعد وثواب وعقاب) صِدْقًا وَعَدًا، لَأَ مُبَدِّلٌ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ¹¹⁵. وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ¹¹⁶ (يكذبون). إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ¹¹⁷.

13- وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ¹¹⁸ (انظر التقديم). وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ (من الذبائح) وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ⁽¹⁶⁾ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَثِيرًا لِيُضِلُّوا بِأَهْوَائِهِمْ بغير علم، إِنْ رَبُّكَ

16 - لم يسبق بعد تفصيل ما حرم من الذبائح، ولا معنى لربط هذه الآية بما سيلتي في سورة لقعدة كما فعل ذلك بعض المفسرين فسورة لقعدة مدنية بل هي آخر ما نزل من السور، وسورة الأنعام مكية بلقي، كما لا يستقيم جعل للخطب موجهاً لليهود لأن اليهود في المدينة والسليق لا يحتمل. وإذا كن

هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ¹¹⁹. وَذَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ: إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ¹²⁰. وَلَمْ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ. وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ لِيُؤْخِرَكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ¹²¹. أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹²².

14- وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا...

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ¹²³. وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ (مِنْ مُعْجَزَاتِ)، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ. سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ¹²⁴. فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ (العذاب) عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ¹²⁵. وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ¹²⁶. لَهُمْ (الذين شرح الله صدرهم للإسلام) دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹²⁷. وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا (يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُنَادُونَ) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ (الاستمتاع) مِنَ الْإِنْسِ، وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمُ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ (استكثر) بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا! قَالَ: النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ¹²⁸. وَكَذَلِكَ نَوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ¹²⁹. يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا. وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ¹³⁰. ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ¹³¹. وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ¹³². وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَتَشَاكُمُ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ¹³³. إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَأْتِ، وَمَا أَنْتُمْ

لا بد من ربط هذه الآية بما ينسبها فالواجب بقوله تعالى في سورة الأعراف: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ (الأعراف 33). فإذا كان من العرب من كان ينكر اسم الله تعالى في الذبح بدل ذكر اسم الله فستكون الإشارة إلى قوله: "وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ".

بِمُعْجَزِينَ¹³⁴. قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ. إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ¹³⁵.

15- وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ...

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ (خلق) مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ، بِزَعْمِهِمْ، وَهَذَا لَشُرَكَائِنَا (الشياطين). فَمَا كَانَ لَشُرَكَائِهِمْ فَنَّا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ! وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ! سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ¹³⁶ (17). وَكَذَلِكَ زَيْنٌ، لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ، شُرَكَاءَهُمْ (فَاعَلَ زَيْنٌ، يعني الشياطين) لِيُرَدُّوهُمْ (يهلكوهم) وَلِيَتَّبِسُوا عَلَيْهِمْ بَيْنَهُمْ (يشككهم فيه). وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ، فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ¹³⁷. وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حَجَرٌ (محجورة) لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا (لا تتركب)، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا (بل يذكرون أصنامهم، ونسبوا ذلك إلى الله) افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ¹³⁸. وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ (المحرمة أي ما ستلذه) خَالِصَةٌ لَّذُكُورِنَا، وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مِيتَةً فَهُمْ (الأزواج والزوجات) فِيهِ شُرَكَاءُ! سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ¹³⁹. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ (وَأَدُوا بناتهم خوف الفقر أو العار) سَفَهًا (جهلاً) بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ¹⁴⁰.

16- بَيَانُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ فِي الطَّعَامِ وَالسَّلَوكِ ...

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ (بساتين من نبات غير مرتفع كالكرم والبطيخ) وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ (من أشجار طويلة السيقان)، وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ، مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ (للمساكين الذي يحضرون للحصاد طلباً للصدقة) وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ¹⁴¹. وَمِنَ الْأَنْعَامِ (كالإبل، جعل لكم) حَمُولَةً (يحمل عليها) وَفَرَسًا (تفرشون جلودها وصوفها). كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ

17 - كُلُوا يَنْفَقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ (من الأتعلم والزروع) 'صدقة' يقسمونها قسمين : قسم 'باسم الله'، وقسم باسم أصنامهم. ومن هنا معنى الآية: جعلوا لله جزءاً ولأصنامهم جزءاً، فإذا ذهب ما لأصنامهم بالإنفاق عليها وعلى سنناتها عوضوه بما هو لله، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضيوف والمساكين لم يعوضوا منه شيئاً، وقالوا: الله مستغن عنه وأصنامنا وشركاؤنا فقراء. وواضح أن هذا الخطاب موجه للقبائل وحداثتها...

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ¹⁴². (وَأَنشَأَ) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ : مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ، قُلِ الذَّكَرَيْنِ (ذكر الضأن والمعز) حَرَّمَ أَمْ الْإُنثَيْنِ (منهما)؟ أَمْ (أَمْ مَا) اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإُنثَيْنِ؟ نَبْنُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ¹⁴³. وَمِنَ الْبَاقِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، قُلِ: الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنثَيْنِ؟ أَمْ (أَمْ مَا) اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإُنثَيْنِ؟ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا؟! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ¹⁴⁴. قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ (حرام) أَوْ (يَكُونُ) فَيَسْقَا أَهْلَ لَغِيرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ (معتد) فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ¹⁴⁵ (18). وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا (اليهود) حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرِ (لم تفرق أصابعه كالإبل والأنعام)، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا، إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا (من الشحوم) أَوْ (حملته) الْحَوَايَا (الأحشاء) أَوْ مَا اخْتَلَطَ (من الشحم) بِعَظْمٍ. ذَلِكَ (التحريم) جَزَيْنَاهُمْ (به) بِبَغْيِهِمْ؛ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ¹⁴⁶. فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ¹⁴⁷. سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ. كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنَ الْقَبْلِ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافَعُوا بَأْسَنَا، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ¹⁴⁸. قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ¹⁴⁹. قُلْ هَلَمْ (أحضروا) شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْلِبُونَ¹⁵⁰ (ينحرفون). قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ: أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ذَلِكَمُ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ¹⁵¹، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، لَا تَكْلَفْ نَفْسًا وَلَا وُسْعَهَا. وَإِذَا قُلْتُمْ (شهادة) قَاعِبُوا (كونوا صادقين) وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا. ذَلِكَمُ وَصَّاكُمْ

18- ما نكر هو ما حرم في مكة، ثم حرمت أشياء أخرى في المدينة سنذكرها في حينها، مثل: المنخقة والموقودة والمترتبة والنطيحة، والخمر وغير ذلك. وللمفسرين والفقهاء في هذه الآية كلام طويل وآراء متباينة سنعرض لكل ذلك في القرآن المننى.

(الله) بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ¹⁵². وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا (وصاكم به) فَاتَّبِعُوهُ وَكَأَنَّ تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ¹⁵³.

17- لموسى كتاب وهذا كتاب لكم كي لا تقولوا أنزل الكتاب لطائفتين

ثُمَّ (إضافة إلي ما تقدم، كنا) آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا (للنعمة التي أنعمنا عليه) عَلَى (الوجه) الَّذِي (كان) أَحْسَنَ (في عهده)، وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً، لَعَلَّهُمْ (اليهود) يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ¹⁵⁴. وَهَذَا كِتَابُ (القرآن) أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ، وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ¹⁵⁵، أَنْ تَقُولُوا (=أنزلناه كي لا تقولوا) إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ (اليهود والنصارى) مِنْ قَبْلِنَا، وَإِنْ كُنَّا (وإن كنا) عَنْ دِرَاسَتِهِمْ (قراءة كتبهم) لَغَافِلِينَ¹⁵⁶، أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَى وَرَحْمَةً، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ (أعرض) عَنْهَا؟! سَتَجِدُ الَّذِينَ يُصَدِّفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُصَدِّفُونَ¹⁵⁷. هَلْ يَنْتَظِرُونَ (ينتظرون) إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ (بالهلاك)، أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ! يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ (=علامات قيام الساعة) لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا (إن) لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ (لم تكن) كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا⁽¹⁹⁾، قُلْ انتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ¹⁵⁸.

18- الخاتمة: ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ⁽²⁰⁾، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ¹⁵⁹. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ

19 للمعنى: أن أشرط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة، ذهب لوان التكليف عندها، فلم ينفذ الإيمان حينئذ نفساً غير مقدّمة ليمتها من قبل ظهور الآيات، أو مقدّمة الإيمان غير كاسبة في ليمتها خيراً، فلم يفرق كما ترى بين النفس للكفرة إذا آمنت في غير وقت الإيمان، وبين للنفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيراً، ليعلم أن قوله: "الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" (البقرة: 25) جمع بين قريبتين (الإيمان والعمل الصالح)، لا ينبغي أن تتفك إحداهما عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد، وإلا فالشّقوة والهلاك". وبعبارة أخرى الإيمان وحده لا يكفي بل لابد من العمل الصالح، وهذا يدور لا يفيد بدون إيمان.

20- اختلف المفسرون في هذه الآية، بعضهم قال: المقصودون هنا هم اليهود والنصارى، وقال آخرون بل هم المشركون، وقال فريق ثالث هم جميعاً مقصودون. وهناك من قال إن المقصود بتفريق الدين ليس تقسيم أشياعه إلى فرق، بل التمييز في "كتب الدين" بين أشياع يعملون بها وأشياع لا يعملون بها. وهذا مردود بقوله "شيعاً".

جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّآ مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ¹⁶⁰. قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، دِينًا قِيَمًا، مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ¹⁶¹. قُلْ إِن صَلَّاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ¹⁶²، لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ¹⁶³. قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ؟! وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّآ عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ¹⁶⁴. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ. إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ¹⁶⁵.

- تعليق

قلنا في الاستهلال الذي صدرنا به سور هذه المرحلة الرابعة من مسار التنزيل ومسيرة الدعوة المحمدية، التي تأتي في أعقاب الأمر بالصدع بالدعوة (أَفَاصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ ... " - الحجر 94-95)، إن ذلك "الأمر" يعني -حسب فهمنا- التوجه بخطاب الدعوة، حين المواسم والأسواق، إلى القبائل التي تسكن خارج مكة بعد أن عمد المأ من قريش إلى تطويق الدعوة وعزلها عن باقي سكان "أم القرى". وتأتي سورة "الأنعام" هذه لتدشن هذه المرحلة بخطاب يستعيد مضمون السور السابقة بأسلوب جديد، ولتضيف بعد ذلك مضامين جديدة لها علاقة مباشرة بحياة القبائل التي تعيش على الأنعام (الماشية). وهكذا تختلف بنية هذه السورة عن بنية السور السبع السابقة اختلافاً بينا، بل هي تتميز عن السور المكية كلها على صعيد المضمون.

تبدأ السورة بمقدمة تؤكد فيها على الأركان الثلاثة الرئيسية في العقيدة المحمدية: التوحيد والبعث والنبوة، يلي ذلك التذكير بموقف مشركي مكة، موقف التكذيب والاستهزاء، ورد القرآن عليهم بشجب الشرك وبيان لامعقوليته، مستحضرة ثورة إبراهيم عليه السلام على عبادة الأصنام، إلى جانب التخويف من أن يلحقهم من الهلاك في الدنيا ما لحق بالمكذبين لرسولهم من الأقوام السابقة، مؤكدة الحساب والجزاء يوم القيامة؛ مع الإلحاح على رفض مساومات قريش وعدم الاغترار بعودهم للنبي إن هو أبعد فقراء المسلمين من حوله الخ.

وبعد أن تشير السورة إلى تجند أبي جهل وجماعته لتتبع خطى الرسول في الأسواق لتشتيك الناس وصددهم عنه، تتجه بالخطاب إليه عليه السلام مثبتة لفؤاده مقوية لعزمته: "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ، وَلَكِنَّ (هَؤُلَاءِ) الظَّالِمِينَ، بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ³³. وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا

وَأَوْذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا. وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ. وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ³⁴ (جاءك من قصص الرسل ما تعلم...).

بعد هذا التذكير المركز بمضامين السور السابقة تنتقل السورة التي نحن بصددنا (الأنعام) إلى موضوع جديد، ربما كان أكثر اتصالاً بحياة القبائل القاطنة خارج مكة (أم القرى)، موضوع الحلال والحرام في ميدان الذبائح من الأنعام وغيرها: "وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ"، "إِنَّمَا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ"، وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثُ جَبْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا، وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ". وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا، وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مِيتَةً فَهُمْ (الأزواج والزوجات) فِيهِ شُرَكَاءُ! وهذه عادات يغلب انتشارها في البوادي والقرى، كما أن قتل الأولاد "خشية إملاق" أو خوف العار أكثر في البادية منه في غيرها.

بعد شجب هذه العادات والسلوكات "البدوية" وتحريمها، تأتي السورة ببيان ما حرم الله على الناس وما هم مطالبون به، والخطاب موجه، هنا، على مستوى الخصوص إلى من كانت تخاطبهم الدعوة في هذه المرحلة وهم رواد المواسم والأسواق من القبائل التي تقطن خارج مكة، كما أنه موجه على مستوى العموم إلى الناس جميعاً. وهذه خاصية بارزة في الخطاب القرآني: ذلك أنه ما من خصوص يُربط به إلا والعموم يلزمه.

وهكذا تخصص السورة عدة آيات لتفصيل القول في مسألة الحلال والحرام كما يلي: (آيات 145، 151-154، 160، 164)

- 1- المحرم من الطعام على غير المضطر في هذه المرحلة من الدعوة: الميتة، الدم، لحم الخنزير، وما أهل لغير الله.
- 2- المنهي عنه من الاعتقادات والأفعال: الشرك بالله، قتل الأولاد خشية إملاق، الفواحش ما ظهر منها وما بطن (والمقصود في الغالب: الزنا)، قتل النفس بغير حق، التصرف في مال اليتيم بما يضر به، النزاع والفرقة.
- 3- الأمور به: : الإحسان إلى الوالدين، العدل في الكيل والميزان، أداء الشهادة بالحق، الوفاء بالعهد.

وإذا نحن قارنا بين هذه البنود، التي وردت في سورة الأنعام، وبين ما سبق أن ورد في سورة الأعراف (الآيات 31-34) التي كان الخطاب فيها متجهاً إلى الملأ من قريش في مكة، نجد أن السورتين لا تشتركان إلا في بندين اثنين: هما النهي عن "الشرك" والنهي عن "الفواحش". أما ما عداهما فجله يخص بالدرجة الأولى حياة العرب في البادية والقرى، مما يزكي ما ذهبنا إليه من أن

هذه السورة تدشن مرحلة توجه الخطاب القرآني إلى خارج "أم القرى"، بعد نزول قوله تعالى: "اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين". وسنجد في السور التالية المزيد.

55- سورة الصافات

- تقديم

لم يرد شيء يستحق الذكر بخصوص هذه السورة سوى أنها مكية، وأن رتبته في لوائح ترتيب النزول تتحرك بين الرتبتين 53 و56، تارة بعد سورة الأنعام وتارة قبلها. وقد وردت حول بعض آياتها أخبار لعل أهمها ما يلي: فحول قوله تعالى "إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم" الآية، قيل إنها نزلت جواباً على أبي جهل حين قال للمسلمين: "زعم صاحبكم هذا أن النار شجرة، والنار تأكل الشجر، وإنا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد!" وحول قوله تعالى: "وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا" الآية، قيل نزل رداً على قريش في قولهم: "الملائكة بنات الله". وعندما اعترض عليهم: "فمن أمهاتهم؟ قالوا بنات سراة الجن". وحول قوله تعالى: "وإنا لنحن الصافون" الآية، قيل: كان الناس يصلون متبدين، فأنزل الله الآية فأمرهم أن يصفوا. وحول قوله: "أفبعذابنا يستعجلون" الآية، قيل نزلت عندما قالت قريش: يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به، عجله لنا".

- نص السورة

1- مقدمة: تأكيد وحدانية الله من خلال نظام الكون.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا¹، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا²، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا³، إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ⁴: رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَرَبُّ الْمَشَارِقِ⁵.

1 - اختلف المفسرون في تحديد معنى "الصافات" هنا. قال بعضهم إن المقصود هم الملائكة للقلمين صوفوا للعبادة. وقيل بل المقصود هو "الطير"، بالاستناد إلى قوله تعالى "والطير صافات" (النور - 14). ثم ذهب آخرون، خاصة بعض المتأخرين، مذاهب أبعد ما تكون عن معهود العرب فأولوا اللفظ تأويلات مستغاة من الفلسفة الدينية الهرسية التي تسربت بقوة إلى الثقافة العربية الإسلامية في العصر العباسي (انظر كتبنا: نقد العقل العربي ج1، وج2). ونحن نعتقد أن أقرب المعاني إلى معهود العرب وإلى ما عهدناه في القرآن هو تفسير "الصافات" بالطيور، تصطف جماعات جماعات في رحلاتها. وعلاوة على=

2- سماء زينة للناظرين وشهب للشياطين، و"الصيحة" على المكذبين

إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ، وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ⁷ (عات، كي) لَا يَسْمَعُونَ (يستمعون) إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى (الملائكة)، وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ⁸ دُحُورًا (مطرودين)، وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ⁹ (دائم)، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَيْهَابٌ ثَاقِبٌ¹⁰ (2). فَاسْتَفْتِهِمْ (قريشا): أَهْمُ أَشَدُّ (أصعب) خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا؟ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ¹¹ (صلصال). بَلْ عَجِبْتَ (من إصرارهم على نكران البعث مع أنهم يعلمون أن خلقهم ليس من خلق السماوات!) وَيَسْخَرُونَ¹² (من تعجبك)، وَإِذَا ذُكِّرُوا (بالقرآن) لَا يَذْكُرُونَ¹³ (لا يتعظون)، وَإِذَا رَأَوْا آيَةً (فعلا من أفعال الله) يَسْتَسْخَرُونَ¹⁴ (كل منهم يسخر ويدفع صاحبه ليسخر كما في إلقاء النكت). وَقَالُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ¹⁵: أَأَنْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنُنَّا لَمَبْعُوثُونَ¹⁶؟ أَوْ أَبَاؤُنَا أَلُؤْكَونَ¹⁷ (أيضا يبعثون)؟ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ¹⁸ (صاغرون) : فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ (صيحة) وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ¹⁹ (يشاهدون قيام الساعة).

3- مع الصيحة القيامة... المكذبون شركاء بتخاصمون في جهنم!

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا (هلاكنا) هَذَا يَوْمُ الدِّينِ²⁰ (الحساب والجزاء! فيرد عليهم) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ²¹. (ويقال للملائكة) احْشُرُوا (اجمعوا) الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ (رؤساء ومقلدون) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ²² مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ²³. وَقَفَّوْهُمْ (عند الصراط) إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ²⁴ (يسألون)

أن هذا المعنى ينسجم مع الآية المذكورة (والطير صفات) فإن القسم في القرآن، وفي بداية السور تخصيصا، جرى على هذا المجرى، أي أن المقسم به كائنات ومخلوقات يعرفها الناس ويدركون معانيها والمقصود من القسم بها. فقد قسم تعالى بالليل، والفجر، والضحي، والشمس، الخ، وأقسم كذلك بـ"العديلات" وهي الأفراس، و"الذاريات" وهي الرياح الخ. وفي رأينا أنه في هذا الصنف يدخل القسم بـ"الصفات" أي الطيور المصفوفة، والمقصود لفت الانتباه إلى النظام للبيع الذي يتجلى في طيراتها جماعت جماعت والذي يدل كغيره من أنواع النظام في الكون على أن من ورثه صنعا ماهرا حكيما. ولا بد أن نضيف هنا أن القسم بالطيور الصفات يناسب معهود القبائل في البوادي والأرياف حيث يشكل منظر رحلات الطيور مشهدا لافتا للنظر.

2- للكواكب زينة للسماء بأضوائها، وتقوم النجوم بحفظها من الشياطين الذين يريدون لستراق السمع والاطلاع على ما تقوله الملائكة (إشارة إلى الكهانة والتنجيم). ويقال للنجوم التي تنقض على الشياطين: الشهب، بمعنى أنها تتبع الشيطان فتقبه وتحرقه. هذا هو المعنى الذي ينتمي إلى معهود العرب. ولا بد من التأكيد هنا بأن المقصود من هذا تأكيد نهية التنجيم والكهانة بظهور الرسول الذي يتلقى الوحي من عند الله ويبلغ رسالته إلى الناس.

هناك عما فعلوا، فيقال لهم:) مَا لَكُمْ لَا تَتَّصِرُونَ²⁵ (لا تحببون)؟ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ²⁶. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ²⁷ (يتلاومون): قَالُوا (المقلدون لرؤسائهم) إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ²⁸ (تحلفون أنكم صادقون)! قَالُوا (ردوا عليهم) بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ²⁹ (أصلاً)، وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ، بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ³⁰ (ضالين). فَحَقَّ عَلَيْنَا (جميعاً) قَوْلُ رَبِّنَا: إِنَّا لَذَائِقُونَ³¹ (للعذاب. وأضافوا:) فَأَغْوَيْنَاكُمْ (ضللناكم) إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ³². (وهكذا:) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ³³، إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ³⁴.

4- مشاهد من الجنة للمصدقين، وأخرى من النار للمكذبين.

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ³⁵ وَيَقُولُونَ أَنْنَا لَنَارِكُوا إِلَهَتَنَا لَشَاعِرٍ مَجْنُونٍ³⁶؟ (يقال لهم كذبتم) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ³⁷. إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ³⁸، وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ³⁹. إِنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ⁴⁰ (الذين أخلصوا لنا فأخلصناهم أي نجيناهم): أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ⁴¹: فَوَاكِهَ، وَهُمْ مَكْرُمُونَ⁴² فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ⁴³ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ⁴⁴، يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ⁴⁵ (خمر) بَيضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ⁴⁶، لَا فِيهَا غَوْلٌ (ليس كحول يفقدهم عقولهم) وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ⁴⁷ (يسكرون). وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ⁴⁸ (كبيرة عيونهم)، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ (كبيض النعام) مَكْنُونٌ⁴⁹ (ملفوف بريشه). فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ (بعض أهل الجنة) عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ⁵⁰: قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ⁵¹ (صاحب) يَقُولُ: أَأَنْتَ أَتَمِنُ الْمُصَدِّقِينَ⁵²؟ أَتَدَّأِ مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّا لَمَدِينُونَ⁵³ (محاسبون)؟ قَالَ (ذلك الذي كان له قرين لأصحابه) هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ⁵⁴؟ فَاطْلَعَ فَرَأَاهُ (رأى قرينه ذلك) فِي سَوَاءٍ (وسط) الْجَحِيمِ⁵⁵! قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَتَرْدِينِي⁵⁶ (لتهلكني)، وَلَوْ أَنَّ نِعْمَةَ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ⁵⁷ (معك)! أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ⁵⁸ إِنَّا مَوْتُنَا الْأَوَّلَى (في الدنيا، كما كنت ترعم؟)، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ⁵⁹ (كما كنت تقول)؟ إِنَّ هَذَا (الجنة التي منها يتكلم ذلك القائل منهم) لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ⁶⁰. لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ⁶¹. (وأضاف) أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزْكَاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ⁶²؟ (شجرة شديدة المرارة تنبت في جهنم. قال الله عنها) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ⁶³ (الذين قالوا كيف تنبت الشجرة في جهنم، والنار تحرق للشجر؟). إِنَّمَا شَجَرَةُ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ (عمق) الْجَحِيمِ⁶⁴، طَلْعُهَا (منه يخرج ثمرها) كَأَنَّهُ رَعُوسُ الشَّيَاطِينِ⁶⁵، فَإِنَّهُمْ لَأَكْلُونَ مِنْهَا فَمَالَتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ⁶⁶، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا

(معها) لَشَوْنَا (شرابا شديد السخونة) مِنْ حَمِيمٍ⁶⁷ (من جهنم)، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ
إِلَى الْجَحِيمِ⁶⁸ : إِنَّهُمْ أَلْفَوْا (هناك) آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ⁶⁹، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ⁷⁰
(يساقون).

5- ضلّت قريش كما ضل أكثر الأولين ... والفوز العظيم للمرسلين.

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ⁷¹، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ⁷²، فَانْظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ⁷³، إِنْ أَعْبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ⁷⁴.⁽³⁾

أ- نادانا نوح .. ونجيناؤه وأهله من الكرب العظيم..

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ⁷⁵، وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ⁷⁶،
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ⁷⁷، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ (ثناء حسنا) فِي الْآخِرِينَ⁷⁸ (في الأجيال
التالية). سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ⁷⁹، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ⁸⁰، إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ⁸¹، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ⁸².

ب- إبراهيم ثار على الأصنام: سلام على إبراهيم، كان من المؤمنين.

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ⁸³، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ⁸⁴، إِذْ قَالَ
لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ⁸⁵؟ أَنْفَكَ (كذبا)، آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ⁸⁶؟ فَمَا
ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ⁸⁷؟ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ⁸⁸، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ⁸⁹ (علي
شفى المرض)، فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ⁹⁰. فَرَاغَ (انسل هو) إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ
(لهم استهزاء): أَلَا تَأْكُلُونَ⁹¹ (وقد وُضع الطعام أمامهم)؟ مَا لَكُمْ لَا
تَنْتَفِقُونَ⁹²؟ فَرَاغَ (انهال خفية) عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ⁹³، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ
يَزْفُونَ⁹⁴ (يسرفون)، قَالَ أَتُعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ⁹⁵؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ⁹⁶! قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا (فرنا) فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ⁹⁷، فَأَرَادُوا بِهِ
كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ⁹⁸ (المهزومين: لأنه خرج من النار سالما)! وَقَالَ
إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِي⁹⁹، رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ¹⁰⁰، فَبَشَّرْنَاهُ
بِغُلَامٍ حَلِيمٍ¹⁰¹، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ (قيل إسماعيل وقيل إسحاق)

3- ستأخذ السورة في سرد ملخص مركز لقصاص قبلاء سبق أن فصلت في سور أخرى. ويجب أن لا
تنظر إلى هذا على أنه تكرار، بل على أنه إخبار لأهل القبائل العربية بما سبق أن أخبرت به قريش
بتفصيل. ويصدق هذا في نظرنا على جميع ما سيرد في السور التالية في هذه المرحلة وإلى نهاية العهد
المكي، من آيات توهم بالتكرار.

(4) إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى؟ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ¹⁰². فَلَمَّا أَسْلَمَا (أمرهما إلى الله) وَتَلَّهُ لُجْبِين (أطاح إبراهيم بابنه على جنبه في وضعية الذبح)¹⁰³، وَنَادَيْنَاهُ⁽⁵⁾ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ¹⁰⁴: قَدْ صَدَّقْتُ الرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ¹⁰⁵. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ (الاختبار) الْمُيْنُ¹⁰⁶، وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ (كبش) عَظِيمٍ¹⁰⁷، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ (نذكرى حسنة) فِي الْآخِرِينَ¹⁰⁸: سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ¹⁰⁹. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ¹¹⁰. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ¹¹¹. وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ¹¹²، وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ¹¹³.

ج- وموسى وهرون.. نصرناهما .. فكأنما هما الغالبيين.

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ¹¹⁴، وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ¹¹⁵ (عذاب فرعون)، وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ¹¹⁶، وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ¹¹⁷ (التوراة)، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ¹¹⁸، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا (الثناء الحسن) فِي الْآخِرِينَ¹¹⁹ (في الأمم التالية): سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ¹²⁰. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ¹²¹، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ¹²².

د- إلياس ثار على الصنم "بعل"، إنه من عبادنا المؤمنين.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ⁽⁶⁾ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ¹²³، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ¹²⁴؟ أَتَدْعُونَ بَعْلًا⁽⁷⁾ (صنما اسمه بعل) وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ¹²⁵: اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمْ

4- كثير من المفسرين قالوا إن المقصود هو إسحاق (انظر الطبري)، والغالب أنهم تساقوا في ذلك مع الإسرائيليات فقد ورد في التوراة أن الذبيح هو إسحاق. أما ما يفهم من سياق الآية أعلاه فهو أن الذبيح هو إسماعيل الابن الأكبر لإبراهيم. فالقرآن لا يشير إلى ميلاد إسحاق إلا بعد أن ذكر قصة الذبيح، الشيء الذي يعنى أن المعنى هو إسماعيل. أما مسألة الحقيقة التاريخية فالانشغال بها هنا لا معنى له لأن المطروح هنا هو الحقيقة القرآنية، كما أن المطروح بالنسبة لليهود هو الحقيقة التوراتية وكلتاهما لا تخضعان لمقاييس الحقيقة عند المؤرخين. انظر: "التعريف بالقرآن"، القسم الثالث، المقدمة.

5- الواء هنا زائدة. قال الطبري: "وتليناؤه أن يا إبراهيم قَدْ صَدَّقْتُ الرُّؤْيَا وهذا جواب قوله: فَلَمَّا أَسْلَمَا. ومعنى الكلام: فلما أسلما وتلَّ للجبين، (و) تليناؤه أن يا إبراهيم. وأدخلت الواو في ذلك كما أدخلت في قوله: حتى إذا جاعوها - وَفَتِحَتْ أَبْوَابُهَا، وقد تفعل العرب ذلك فتدخل الواو في جواب فلما، وحتى..."

6- اختلف المفسرون في تحديد المقصود بهذا الاسم اختلافا كبيرا. والغالب أنه إيلياء من أنبياء بنى إسرائيل.

7- في التوراة: "وَأَقَامَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي شَبْطِيمَ، فَشَرَعَ الرَّجُلُ يَرْتَكِبُونَ الزَّنى مَعَ الْمَوَائِدِ² لِلَّوَاتِي أَغْوَيْنَ الشَّعْبَ لِحُضُورِ نَبِيحِ آلِهَتِهِنَّ وَالْأَكْلِ مِنْهَا وَالسَّجُودِ لَهَا. فَخَلَّشْتَكَ الْإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي عِيَادَةِ بَعْلٍ =

الْأَوَّلِينَ¹²⁶؟ فَكَذَّبُوهُ فَاتَّبَهُمْ لَمُحْضَرُونَ¹²⁷ (إلى جهنم)، إِنْ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ¹²⁸، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ¹²⁹: سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (إبراهيم وأهله). إِنْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ¹³⁰، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ¹³².

هـ- ولوط نحيانه وأهله ودمرنا الآخرين، وتمرون على منازلهم!

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ¹³³، إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ¹³⁴، إِنْ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ¹³⁵، ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ¹³⁶. وَإِنَّمَا (يا قريش) لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ (على منازلهم) مُصْبِحِينَ¹³⁷ وَبِاللَّيْلِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ¹³⁸!

و- يونس أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ¹³⁹، إِذْ أَبَقَ (هرب) إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ¹⁴⁰ (8)، فَسَاهَمَ (في القرعة) فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ¹⁴¹ (المغلوبين فألقوه في البحر)، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُكِيمٌ¹⁴² (ملازم لهربه إلى البحر). فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ¹⁴³ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ (الحوت) إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ¹⁴⁴. فَتَنَبَّأَهُ بِالْعَرَاءِ (قتلناه من بطن الحوت على الأرض) وَهُوَ سَقِيمٌ¹⁴⁵، وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ (جانبه) شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (تظله)¹⁴⁶، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ¹⁴⁷ (بأرض الموصل بالعراق)، فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ¹⁴⁸.

ز- وكفد سبق وعدنا للمرسلين: هم المنصورون...

فَاسْتَفْتِهِمْ: أَلَرَبُّكَ الْبَنَاتُ وَكُتِبَ الْبَنُونَ¹⁴⁹؟ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ¹⁵⁰؟ أَلَا إِنَّهُمْ، مِنْ إِفْكِهِمْ، لَيَقُولُونَ¹⁵¹: وَلَدَ اللَّهُ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ¹⁵². أَأَصْنَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ¹⁵³؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ¹⁵⁴ (تعبدون الإناث وأنتم تفضلون البنين على البنات)! أَفَلَا تَذَكَّرُونَ¹⁵⁵. أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ (وجي) مُبِينٌ¹⁵⁶؟ فَاتُّوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ¹⁵⁷. وَجَعَلُوا بَيْنَهُ (الله) وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا (الجنة: الملائكة)⁽⁹⁾، وَكَفَدَ عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ¹⁵⁸ (للنار)، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ¹⁵⁹، (جملة اعتراضية)، إِنْ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ¹⁶⁰ (فهم غير محضرين

فَقُورٍ. فَلَحَنَكُمْ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «خُذْ جَمِيعَ قَلَدَةِ الْبَعْلِ وَاصْلِيَهُمْ، وَعَقْلَهُمْ تَحْتَ وَطْأَةِ حَرَّةٍ لَشَمْسٍ لَمَامٍ لِرَّبِّ، فَتَرَدُّ شِدَّةُ غَضَبِهِ عَنْ بَنِي إِسْرَاقِيلَ».

8- انظر قصته في سورة لقم رقم 35 هلمش 3، وفي سورة يونس رقم 50 هلمش 7

9- كان بعض العرب يقولون: "إن الله خطب إلى سادات الجن فزوجوه من سرورات بناتهم، فلاملائكة بنات الله من سرورات بنات الجن". هذا، ومعنى الجن والجنة لغة: الكائنات المخفية التي لا ترى. انظر: تطبيق واستطراد في موضوع الجن والشیطان. آخر سورة الجن رقم 40

لنار لأن مواعدهم الجنة)، فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ¹⁶¹ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِتِينَ¹⁶² (بمضلين أحدا)، إِنْ مِنْهُ صَالِي الْجَحِيمِ¹⁶³ (=صلاها. وقال جبريل للنبي: وَمَا مِنْهُ) نحن الملائكة) إِنْ أَلِهَ مَقَامَ مَعْلُومٍ¹⁶⁴. وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ¹⁶⁵، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ¹⁶⁶ (نحن مصطفون صفوفا نسيح، كالطيور الصافات). وَإِنْ كَانُوا (فريش) لَيَقُولُونَ¹⁶⁷ (في جهنم): لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ¹⁶⁸ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ¹⁶⁹، فَكَفَرُوا بِهِ (بالذكر الذي جاءهم وهو القرآن وفيه قصص الأولين) فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ¹⁷⁰. وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ¹⁷¹: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ¹⁷²، وَإِنْ جَدَدْنَا لَهُمُ الْعَالِينَ¹⁷³.

6- خاتمة: وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ، وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ¹⁷⁴، وَأَبْصَرَهُمْ (بخيالك وهم منهزمون) فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ¹⁷⁵ (ذلك بأعينهم)، أَقْبَعَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ¹⁷⁶، فَإِذَا نَزَلَ عَذَابُنَا بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ¹⁷⁷ (بنس صباحهم). وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ¹⁷⁸، وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ¹⁷⁹! سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ¹⁸⁰، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ¹⁸¹، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ¹⁸².

تعليق

بدأت هذه السورة بمقدمة تؤكد فيها ما ختمت به السورة السابقة، أعني التذكير بقوله تعالى مخاطباً نبيه الكريم: "قُلْ إِنْ صَلَّيْتُمْ وَنَسَّيْتُمْ وَمَخَيَّيْتُمْ وَمَمَّاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ¹⁶²، لَأَشْرِيكَ لَهُ؛ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ¹⁶³". قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ؟! ثم جاءت مقدمة هذه السورة لتبرهن على وحدانية الله من خلال اعتبار ما في الكون من نظام يدعي لا يمكن أن يكون قد أقامته الأصنام أو غيرها مما يعبد المشركون. لقد أقسمت بهذا النظام لافتة النظر إلى ما فيه من جمال ونظام: كل جزء منه يؤدي وظيفته في تكامل وتناغم مع الكل، وضربت لذلك مثلاً بمشهد من معهود العرب وغيرهم: هناك جماعات من الطيور مصفوفة، إما على جدار أو حين طيراتها (وهذه هي الصافات صفا)، وهناك بجانبها طيور أخرى تزجر المنفلات أو المنشغلات باللعب أو التناقر... وكأن مهمتها السهر على النظام وتراص الصفوف الخ، وهذه هي "الزاجرات زجرا"، وهناك في هذا الموقع أو ذاك، داخل الصفوف أو خارجها، طيور أخرى تغرد، وعندما تغرد الحمامة فكانها تذكر: "تتحدث وتحكي: أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد" (المعري). والعامية

اليوم، وربما بالأمس أيضا، تقول عنها: "إنها تذكر الله". وهذه هي "الملقيات ذكرا". والمقصود من ذلك كله تأكيد موضوع القسم والاحتجاج له بظواهر الطبيعة، وهو "أن إلهكم لواحد". وقد أكدت السورة هذا المعنى في الآية التالية مباشرة: "رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَرَبُّ الْمَشَارِقِ". وهي ترسم مجال التداول الذي سيتم فيه بيان موضوع هذه السورة. وهذا أسلوب قرآني في البيان والبرهنة والحجاج يتكرر بكثرة، خاصة في القرآن المكي الذي يكاد يتخصص في جدال المشركين والرد عليهم ولفت انتباههم إلى ما في الكون من نظام بديع لا بد أن يكون من صنع إله واحد، وأنه لو كان ثمة آلهة غير الله لما استقام هذا النظام ولكان فيه اختلاف وتناقض⁽¹⁰⁾.

بعد هذا المشهد تنتقل السورة إلى مثال آخر مستقى من معهود العرب ومعتقداتهم، ذكرته مرات وتكرره هنا أيضا. وهو كون السماء قد شددت فيها الحراسة بعد بعثة النبي محمد بن عبد الله، وبالتالي لم يعد هناك مجال لما يدعيه المنجون والكهان من استعمال الشياطين لاستراق السمع بالتصص إلى حديث الملائكة في السماء والحصول على "علم الغيب". لقد انتهى "عهد استراق السمع" وجاء عهد الوحي الذي ينزل به الملاك جبريل إلى الرسول محمد، ليخبر الرسول وكل مستمع إلى هذا الوحي (القرآن) بأخبار الأولين والآخرين. ومن هنا كان تكرار هذا الحديث ضروريا لمسح ما استقر في أذهان قريش والعرب عموما من دعوى المنجمين والكهان وإخلاء المكان لتلقي حقائق الوحي.

وبعد تأكيد البعث بالرد مرة أخرى على المكذبين به وتوعدهم بصيحة القيامة وبيان حالهم في جهنم حيث ينمون ويتلاومون، تنتقل السورة إلى عرض شهادة التاريخ المقدس، تاريخ "الأنبياء والرسل"، منكرة بكفاح الأنبياء ضد أقوامهم المشركين الذين يعبدون الأصنام ويتكرون البعث والحساب ويكذبون الرسل: نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس، لتتخلص إلى قريش لتؤكد لهم أن مصيرهم سيكون مثل مصير الأولين، وأن النبي سينتصر مثلما انتصر الأنبياء السابقون، لأن الله قضى بذلك منذ الأزل: "وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ¹⁷¹: إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ¹⁷² وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ¹⁷³".

ثم تختم السورة بالتوجه إلى النبي عليه السلام لتخاطبه بقوله تعالى: "فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ¹⁷⁴، وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُنصِرُونَ¹⁷⁵، أَفَبِعَدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ¹⁷⁶، فَإِذَا نَزَلَ عَذَابُنَا بِسُلْحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ¹⁷⁷ (بس صباحهم). ثم تكرر: "وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ¹⁷⁸، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُنصِرُونَ¹⁷⁹! ولكي ندرك ما وراء تكرار هذا الحث على الصبر يجب أن نستحضر ردود الفعل السلبية التي واجهت به القبائل دعوة الرسول في هذه المرحلة وقد أشرنا إليها في الاستهلال الذي صدرنا به هذه المرحلة.

10- تنبيه: سيق "الصفات صفا..." يختلف عن سياق "المرسلات عرفا"، ولذلك فضلنا هنا مشهد "الطيور"، بينما فضلنا هناك مشهد "الملائكة".

- تقديم

ذكر رواية "أسباب النزول" أخباراً حول بعض آيات هذه السورة، من ذلك ما يلي: روي أنه لما أسلم سعد بن أبي وقاص قالت له أمه: "يا سعد بلغني أنك صبوت (أي ملت عن دين آبائك)، فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح والريح، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد وترجع إلى ما كنت عليه"، وكان أحب ولدها إليها! فأبى سعد. فصبرت هي ثلاثة أيام لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل بظل حتى خشي عليها. فأتى سعد النبي صلى الله عليه وسلم وشكا ذلك إليه، فأنزل الله تعالى: "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا" إلى قوله: "وَإِنْ جَاهَدَاكَ (أرغماك) عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا" الآية. وفي رواية أخرى مخالفة، عن سعد ابن أبي وقاص قال: "كنت رجلاً برأ بأمي فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الدين الذي قد أحدثت؟ لتدعن عن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فَنَغِيرُ بِي فيقال: يا قاتل أمه. قلت: لا تفعلني يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، قال: فمكنت يوماً لا تأكل، فأصبحت قد جهدت، قال فمكنت يوماً آخر وليلة لا تأكل فأصبحت وقد اشتد جهدها. قال: فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين والله يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، إن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي. فلما رأت ذلك أكلت، فأنزلت هذه الآية "وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا". وقد فسر بعضهم قوله تعالى "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ" بما هو أبعد مما تحتمله الآية فقالوا: "نزلت في شراء القيان والمغنيات"، وعزوا قولهم هذا بحديث نسبوه إلى الرسول عليه السلام ورد فيه قوله: "لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن، وأثمانهن حرام". وقالوا: في مثل هذا نزلت الآية المذكورة. وأضافوا: "وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله تعالى عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب، والآخر على هذا المنكب، فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت" (الواحدي: أسباب النزول). وقد وُصف هذا الحديث من بعض النقاد بأنه "غريب". وسنرى أن في هذا ابتعاد كبير عن الآية. على أنه لو كان قصد الشارع تحريم الغناء وأدواته لورد نص واضح كالنص الذي يحرم الميتة والخنزير والخمر الخ. هذا فضلاً عن أن بعضهم يجعلون هذا الآية "تصديقاً"

لهذا "الحديث" بينما المفروض هو العكس. فدور الحديث هو أن يبين ما في القرآن وليس العكس. أما أقرب ما روجه إلى أن تكون له علاقة مع الآية السابق فهو ما ذكروا من أنها أتت في النضر بن الحارث؛ لأنه اشترى كتب الأعاجم: رستم، واسفنديار؛ فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريش إن محمداً قال كذا ضحك منه، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول: حديثي هذا أحسن من حديث محمد؛ وقيل: كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه؛ ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه". وسياق الآية يزكي هذه الرواية، أعني مضمونها كما سنرى أسفله.

نص السورة

1- مقدمة: آيات الكتاب الحكيم، هدى للمحسنين.

بسم الله الرحمن الرحيم
 الم¹، تِلْكَ (ما سيأتي ذكره) آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ² (استعمال لفظ الحكيم هنا مناسب للموضوع: حكمة لقمان)، هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ³ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ زَكَاةَ (الصدقات) وَهُمْ بِآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ⁴. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ⁵.

2- رد على الذي يشتري لغو الحديث، هذا خلق الله فماذا خلق غيره؟

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي⁽¹⁾ (كتب) لَّهُوَ الْحَدِيثِ (الذي لا فائدة فيه) لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَيَتَّخِذَهَا (سبيل الله) هُزُوءًا (موضوع استهزاء)، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ⁶. وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ (على الذي اشترى كتب قصص الفرس) آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا، كَانَ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا (صمما)، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ⁷. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ⁸، خَالِدِينَ فِيهَا، وَعَذَّ اللَّهُ

1- ذهب كثير من المفسرين والفقهاء إلى أن المقصود بـ"لغو الحديث" هنا هو الغناء، ومن هنا اناسقوا يفتون بتحريم الغناء الخ. ونحن نعتقد أن معنى هذه الآية مرتبط بالآية التي بعدها وأن المناسب كسبب لنزولها هو ما ذكروه عن النضر بن الحارث (انظر التقديم والتعليق). هذا والمقام هنا ليس مقام تحليل ولا تحريم، بل هو مقام التمييز بين كلام القصاص الذي يلهم الناس وبين "آيات الذكر الحكيم" الذي منه وصايا لقمان وهي من جنس الحكمة.

حَقًّا، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ⁹. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ (جبالاً ثوابت تمنعها من) أَنْ تَمِيدَ (تميل) بِكُمْ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ¹⁰. هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ¹¹.

3- حكمة لقمان : بديل عن أساطير صاحب لغو الحديث...

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ (الإصابة في القول): أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ. وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ¹². وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ¹³. وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ، حِمْلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ (وهي من مشقة الحمل إلى مشقة الولادة الخ) وَفِصَالَهُ (فطامه) فِي عَامَيْنِ، أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ¹⁴. وَإِنْ جَاهَدَاكَ (أرغماك) عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (بالإحسان إليهما)، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ¹⁵. يَا بُنَيَّ : إِنِّهَا إِنْ تَكُنْ (السيئة) مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ (يوم الحساب)، إِنَّ اللَّهَ لطيفٌ خبيرٌ¹⁶. يَا بُنَيَّ : أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ¹⁷ (من الأمور التي يعزم بها). وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ (لا تمل بوجهك متكبرا)، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا (مشية الخيلاء)، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ (متبخر) فَخُورٍ¹⁸ (يفتخر على الناس). وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ (بين السرعة والبطء)، وَاغْضُضْ (اخفض) مِنْ صَوْتِكَ، إِنَّ أَنْكَرَ (أقبح) الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ¹⁹.

4- وَإِذْ قِيلَ لَهُمِ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا!

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ؟ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ²⁰. وَإِذَا قِيلَ لَهُمِ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ. قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ²¹ (يتبعونه أيضا؟). وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ²². وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ، إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ²³. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا، ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ²⁴.

5- لا تنفذ كلماته... وما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة.

وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ! قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ²⁵. اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ²⁶. وَكَوْنًا أَنَّمَا (أَنْ مَا) فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٍ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرَ (مداداً لكتابة كلمات الله)، مَا نَفِثَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ (أسماء مخلوقاته). إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ²⁷. مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ. إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ²⁸. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (وسيبقى كذلك إلى يوم القيامة)، وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ²⁹. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ³⁰. أَلَمْ تَرَى أَنَّ الْفُلْكَ (السفن) تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ (كالرياح وغيرها) لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ³¹. وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ (وارتفع هذا الموج وأصبحوا مهددين بالغرق) دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ، فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ (بين الكفر والإيمان)، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا (ومنها هذه) إِلَّا كَلَّ خِتَارٌ (غدار) كَفُورٍ³².

6- خاتمة: موعظة : اتقوا ربكم، لا تدري نفس بأي أرض تموت...!

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ، وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَلَمَّا تَغَرَّبَتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يُغَرِّبُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ³³. إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ³⁴.

- تعليق

يمكن القول إن سورة لقمان نزلت رداً على النضر بن الحارث: قالوا كان النضر بن الحارث يخرج تاجراً إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن فنزلت فيه هذه الآية: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ). وبما أن الخطاب في هذه المرحلة موجه لأهل المواسم والأسواق فمن الجائز أن تكون الآية قد نزلت في النضر وغيره

من القصاص الذين يشغلون الناس فيها بـ "لهو الحديث". هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن القول إن لها علاقة أيضا بما ذكره ابن إسحاق عن الفترة التي بدأ النبي (ص) يعرض فيها نفسه على القبائل وأنه عليه السلام لما علم بمقدم سويد بن صامت ... "إلى مكة حاجا أو معتمرا - وكان سويد يسميه قومه فيهم الكامل لجلده وشعره ونسبه وشرفه - فتصدى له رسول الله (ص) حين سمع به، فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام، فقال له سويد: ففعل الذي معك مثل الذي معي! قال: فقال له رسول الله (ص) "وما الذي معك؟" قال مجلة لقمان - يعني حكمة لقمان - فقال له رسول الله (ص): "اعرضها علي!" فعرضها عليه، فقال: "إنَّ هَذَا الْكَلَامَ حَسَنٌ، مَعِيَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، قَرَأَنُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيَّ هَذِي وَتُورٌ". قال: فتلا عليه رسول الله (ص) القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن ثم انصرف عنه".

أما عن شخصية لقمان فقد اختلف رواة الأخبار بصدد ما اختلفا كبيرا: منهم من قال: كان نبيا، وقيل: كان حكيما لقول الله تعالى: "ولقد آتينا لقمان الحكمة"، وقيل: كان رجلا صالحا، وقيل: كان خطاطا، وقيل: كان نجارا، وقيل: كان راعيا. وروي أن إنسانا وقف عليه وهو في مجلسه فقال: ألسنت الذي كنت ترعى معي في مكان كذا وكذا؟ قال: بلى! قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، والصمت عما لا يعنيني.

وبعضهم ذكر أنه هو بلعام بن باعوراء الذي ورد خبره في التوراة (سفر العدد 22-24) ضمن ما ذكرته من أخبار عن مرحلة التيه زمن موسى⁽²⁾، وأنه كان نبيا من أهل مدين. بينما عرف عنه في الموروث العربي الإسلامي أنه كان حكيما. على أن بعضهم ذهب إلى القول بنبوة لقمان الذي نسب الله إليه الحكمة لأن لفظ الحكمة يسمح بهذا القول، لأنه أطلق على النبوة في كثير من القرآن، كقوله في داود "وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب". وقد فسرت الحكمة في قوله تعالى "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا" بما يشمل النبوة. لكن ذلك يخالف ما روي عن ابن عمر من أنه: "قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: 'لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا كثير التفكير، حسن اليقين، أحب الله تعالى فأحبه، فمنَّ عليه بالحكمة'". وقد ذكر كثير من المفسرين أن لقمان كان في زمن داود عليه السلام، وأنه كان ابن أخت أيوب، الشيء الذي يعني أنه من بني إسرائيل. قال ابن كثير إن لقمان كان قاضيا في بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام. وهذه الرابطة التي يقيمها

2- تاه بنو إسرائيل في صحراء سينا أربعين سنة زمن خروج موسى بهم من مصر.

بعض المفسرين بين لقمان وداود، تتناقض مع ما ذكرناه أعلاه من أن بلعام (المتوهم أنه لقمان) كان في زمن موسى، وأخباره تخص فترة النيه.

هذا وقد نسبت إلى لقمان حكم عديدة، وما يهمنا هنا هو ما ورد في هذه السورة باسم "وصايا لقمان لابنه"، وهي وصايا تدخل في باب العقيدة والأخلاق في القرآن المكي، وبالتالي فهي متصلة مع ما سبق ذكره في سورة الأنعام وما سيرد في سور لاحقة في هذا القسم من الكتاب. يتعلق الأمر هنا : بتجنب الشرك، وبالإحسان للوالدين في جميع الأحوال، وطاعتهما ما لم يحاولا حمل ابنهما على الشرك، واتباع سبيل المؤمنين، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على المصائب، وتجنب التكبر والتجبر والتبخر، والاعتدال في المشي، وخفض الصوت الخ.

57- سورة سبأ

- تقديم

ذكروا أن رجلين شريكين خرج أحدهما إلى الشام وبقي الآخر في مكة، فلما بعث النبي (ص)، كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم، فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه، وكان يقرأ بعض الكتب، فأتى النبي (ص) فقال: إلام تدعو؟ فقال إلى كذا وكذا، فقال: أشهد أنك رسول الله! فقال: وما علمك بذلك؟ قال إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة القوم ومساكينهم، فنزلت الآية: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ" (سبأ: 34)، فأرسل إليه النبي (ص) وقال له: "إن الله قد أنزل تصديق ما قلت". وسترى أن في السورة ما قد يشهد بالصحة لهذا الخبر.

ومن جهة أخرى نكروا أن أبا سفيان لما سمع قوله تعالى "لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ" (الآية الأخيرة من سورة الأحزاب) قال لأصحابه: كأن محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت! واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً. فأنزل الله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ" (سبأ: 3) الآية، وهذا في غاية الخلط. فسورة "الأحزاب" مدنية، بينما سورة "سبأ" مكية. وإذا كان لابد من ربط الآية الأخيرة بأبي سفيان فالأولى أن يقال: إن هذا الذي نسب إليه، قاله في الأسواق تكذيباً لما كان الرسول (ص) يصدع به فيها وهو في مكة، وهذا واضح من السياق الذي وردت فيه الآية، والذي يربط بين مضمون هذا الخبر ومضمون الخبر السابق.

- نص السورة

1-مقدمة: يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها...

بسم الله الرحمن الرحيم
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ
مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ².

2- الرد على الذين يحاربون الدعوة المحمدية في الأسواق.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ! قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ، عَالَمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ³، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ⁴. وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ (مُثْبِطِينَ: يصدون الناس في الأسواق عن الاستماع إلى النبي) أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزِ الْإِيمِ⁵، وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ⁽¹⁾ (أَنْ) الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ، وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ⁶. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا (النَّبِيُّ كَانُوا يَحَارِبُونَ النَّبِيَّ فِي الْأَسْوَاقِ) هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ (هو محمد) يَتَّبِعُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مِرْقَةٍ (في القبور) إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ! (فيجيب من قيل لهم ذلك) أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جُنَّةٌ؟ (يجيب القرآن:) بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ⁸، أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأَ نَخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ⁹ (ومن آياته التي تشهد على قدرته على فعل ذلك ما خص به داوود وسليمان من أمور خارقة للعادة، وهي كما يلي:)

3- سخر داود وسليمان الطير والرياح والجن وصناعة السلاح ...

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا: (من ذلك: قلنا) يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ (كوني تحت تصرفه) وَالطَّيْرَ (كذلك)، وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ¹⁰ (يتصرف فيه كما يشاء وقلنا له) أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ (دروعاً طويلة) وَقَدَرٍ فِي السَّرْدِ (اجعل الدروع على مقاسات الجنود) وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ¹¹. وَلِسُلَيْمَانَ (سخرنا) الرِّيحَ: غَدُوُّهَا شَهْرٌ (تقطع في الصباح ما يقطعها الرجل في شهر) وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ (وتقطع مثل ذلك في المساء)، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ (نجم النحاس)، وَ(سخرنا له) مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ! وَمَنْ يَزِغْ (ينحرف) مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ

1- ربما يكون المقصود هنا بـ "الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" هو الرجل الذي قال له الرسول، في الخبر الذي أورثناه في التقديم: "إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ تَصْدِيقَ مَا قُلْتَ". أما المفسرون فيميلون إلى القول إن المقصود هم أهل الكتاب، ومنهم من عَمَّ وقال: المقصود هم المسلمون جميعاً. وما قلناه هو الأسبب، والسيق يشهد له. فالتقبل فيه هو بين ما قلناه ذلك الرجل الذي "أمن" بمجرد سماع أن الرسول لم يتبعه إلا للفقراء الخ، وبين أبي سفيان ومن يمثلهم من المترفين المحاربين للدعوة المحمدية في الأسواق.

السَّعِير¹². يَغْمُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ (مساكن) وَتَمَائِيلَ وَجِفَانَ كَالْجَوَابِ (كالأحواض في الكبر) وَقُدُورَ رَاسِيَاتٍ (لا تترعرع)! اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا (شاكرين)، وَقَلِيلَ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور¹³. فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ! فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجَنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ (كما يعتقد من يعبدونهم) مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ¹⁴ (تحت سلطان سليمان).

4- عقاب أهل سبأ: سبل العرم خرب بساتينهم.. وتفرقوا أيدي سبأ!

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ² فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ : جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ¹⁵. فَأَعْرَضُوا، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ (سبل وادي سبأ للمنهار) وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ (مر) وَأَثَلٍ (نوع من الشجر) وَشَجَرٍ مِنْ سَبَرٍ قَلِيلٍ¹⁶! ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَفُور¹⁷، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ (أهل سبأ باليمن) وَبَيْنَ الْقَرَى الْتِي بَارَكْنَا فِيهَا (مواطن الأنبياء: قرى الشام التي يرتادونها للتجارة) قَرْىَ ظَاهِرَةً (متواصلة متقاربة على طول هذا الطريق) وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ، (محطات فمحطات) : سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا (ليل نهار) آمِنِينَ¹⁸. فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا (بين هذه المحطات ربما ليتاح لهم الغزو والسلب)، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (فتأهوا في الطرق وتفرقوا وضرب بهم المثل: "تفرقوا أيدي سبأ")، وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ³. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ¹⁹. وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ²⁰. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ (من ذاته)، وَمَا مَنَحْنَا ذَلِكَ لِسُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ²¹.

2- روى الطبري أن رجلا سأل الرسول عليه السلام قائلا: "يا رسول الله أخبرني عن سبأ ما كان؟ رجلا كان أو امرأة، أو جبلا، أو دواب؟ فقال: "لا، كان رجلا من العرب وكه عَشْرَةَ أَوْلَادٍ، فَنَبِيْنٌ مِنْهُمْ سَبْتَةُ (أقاموا باليمن)، وَتَشَاعَمُ أَرْبَعَةُ (رحلوا إلى الشام)، فَأَمَّا الَّذِينَ تَبِعُوا مِنْهُمْ فِكِنْدَةُ، وَجَمِيرٌ، وَالْأَزْدُ، وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَمَذْحِجٌ، وَأَنَامُرُ الَّذِينَ مِنْهَا خَنَعَمٌ وَبَجِيلَكَةُ. وَأَمَّا الَّذِينَ تَشَاعَمُوا: فَعَامِلَةٌ، وَجَذَامٌ، وَكَحْمٌ، وَغَسَّانٌ" (أسماء قبائل).

3- فرق قبائلهم، قيل: "أما غَسَّانٌ فقد لحقوا بالشام، وأما الْأَنْصَارُ فلحقوا ببشرب، وأما خَزَاعَةُ فلحقوا بتهامة، وأما الْأَزْدُ فلحقوا بعمان".

5- الله هو الخالق، ولكنكم تشركون به، فأنتم الضالون.

قُلْ (بعد هذا الذي منحناه لداود وسليمان وفعلناه بأهل سبأ...) ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ! (إنهم) لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ (شراكة) وَمَا لَهُ (الله) مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ²² (معين). وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ (يوم القيامة) إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (الله من الملائكة)، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ (زال لفرع عن قلوب المكينين بالبعث) قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا (من إن لهم الله بالشفاعة): الْحَقُّ. وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ²³. قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلِ اللَّهُ. (وإذا قالوا هم كذلك: هو الله، واستووا معكم في الاعتراف بالله، فقل لهم) وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ²⁴! (والنتيجة الضمنية: أنتم الذين في ضلال مبين لأنكم تعترفون بأن الله هو الخالق الرزاق، ومع ذلك تعبدون الأصنام وهي لا تخلق ولا ترزق). قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجِرْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ²⁵. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ²⁶. قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ (ماذا خلقوا)! كَلَّا! بَلْ هُوَ اللَّهُ الْغَزِيزُ الْحَكِيمُ²⁷. وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ (بمن فيهم القبائل) بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ²⁸ (ذلك ويظنون أننا إنما أرسلناك لقریش)⁽⁴⁾. وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ²⁹? قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ³⁰.

6- تلاوم المستضعفين والمستكبرين في النار.. والملائكة يتبرؤون!

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا (وهم في الدنيا) لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (من التوراة والإنجيل)! وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ (هؤلاء) الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ (في الآخرة)، يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلِ: يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا (الضعفاء منهم) لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ كُنَّا أُنْزِلُوا مُؤْمِنِينَ³¹. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ³². وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: بَلْ (مكركم) مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ (أي للمستضعفون، ظهرت لمارات

4- الطبري: "ذكر لنا أن نبي الله (ص) قال: "أنا سابق العرب، وصنهب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة، وسلمان سابق فارس"، بمعنى أن كلا منهم سابق قومه إلى الإسلام، وأن الإسلام لجميع الأقوام: للناس كافة.

للدلالة على جباههم) لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ، وَجَعَلْنَا الْأَغْصَانِ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟³³ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا: إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ³⁴، وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ³⁵. قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ³⁶. وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا (عند الله) زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الضَّعْفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ (في الجنة) آمِنُونَ³⁷. وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ (كالنصر بن الحارث وأبو جهل في الأسواق) أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ³⁸ قُلْ (للمترفين الذين يعترفون بأموالهم وأولادهم) إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ³⁹. وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ (الله) جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ: أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ⁴⁰؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ، أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ⁴¹ (5). فَالْيَوْمَ لَا يَمُكُّكَ بِغَضَبِكَ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا: ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ⁴².

7- خاتمة: إفك مفترى...! قُلْ جَاءَ الْحَقُّ. وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ!

وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ (على من في الأسواق) آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا (قال لهم النبي تبعوا الرسول يحاربونه) مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصْنَعَكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ، وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى (كذب مخلق)! وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ⁴³! وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَذْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ⁴⁴. وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا يَلْعَوْا مَغْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ، فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ⁴⁵. قُلْ (لأهل الأسواق) إِنَّمَا أَعْظَمَكُمْ بِوَاحِدَةٍ: أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ (أَنْ) تَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (متنّى وفرادى) ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا! مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ (كي لا تقعوا) بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ⁴⁶. قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ⁽⁶⁾! إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ⁴⁷. قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ

5- عبادة الجن كانت منتشرة عند البدو أما قريش فكانت تعبد أصنامها...

6- تكرر معنى هذه الآية مرارا في السور السابقة، لكن يمكن أن نلتبس لها هنا دلالة خاصة: فَإِنْ كُنْتُمْ (يا من في الأسواق) تظنون أنني سأطلب منهم أجرا على عطايتي لكم كما يفعل آخرون، (هنا في الأسواق)، فأتأقول لكم إن الأجر الوحيد من عطايتي: هو لكم أنفسكم وحدكم، وهو أنكم ستنجون من العذاب يوم الحساب إذا آمنتم؟

بِالْحَقِّ، عَلَّامُ الْغُيُوبِ⁴⁸. قُلْ جَاءَ الْحَقُّ. وَمَا يُبَدِّلُ (مَا يَخْلُقُ) الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ⁴⁹ (يُعِيدُ الْخَلْقَ: الْبَعْثَ). قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ⁵⁰. وَلَوْ تَرَى (يَا مُحَمَّد) إِذْ فَزَعُوا (حِينَ رَأَوْا) النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا فَوْتَ (لَا نَجَاةَ)، وَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ⁵¹، وَقَالُوا أَمَّا بِهِ! وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ (التَّرَاجُعُ، عَنْ كُفْرِهِمْ)⁽⁷⁾ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ⁵² (أَيِ بَعْدَ أَنْ أَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ مِنْذُ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ)، وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ⁵³ (يَكْنِبُونَ النَّبِيَّ وَيَنْكُرُونَ الْبَعْثَ لِخ). وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ (مَنْ إِعْلَانِ إِيْمَانِهِمْ بَعْدَ كُفْرِهِمْ) كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ (بِأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ)، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ⁵⁴ (مَنْ يَوْمَ الْحِسَابِ).

- تعليق

قصة "سبأ" التي وردت في هذه السورة لم ترد من قبل، وقد شغلت حيزاً كبيراً من السورة حتى إنه يمكن القول إن عليها بنيت. وقد سبقت قصة الملكة بلقيس مع سليمان (سورة النمل) ولم تتعرض لقوم سبأ ولا لسد العرم. ويبدو أن نزول هذه السورة له علاقة بالمرحلة الجديدة من الدعوة أعني الخروج إلى الأسواق ودعوة القبائل. ومما يرجح هذا الاحتمال ما ذكره ابن إسحاق من أن من أوائل من اتصل بهم عليه السلام في الموسم قبيلة كندة⁽⁸⁾ اليمانية. قال: حدثنا ابن شهاب الزهري: أنه (الرسول) أتى كندة في منازلهم (في المكان الذي نزلوا فيه في السوق)، وفيهم سيد لهم يقال له مَلِيح، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه.

نحن نظن أن ذلك كان مناسبة لنزول هذه السورة، فقد ذُكرت بما كانت قبائل اليمن تعيش فيه من رغد العيش ثم انقلب وضعها رأساً على عقب باتهيار سد العرم، كما ورد في الأخبار التي تداولها المفسرون ومنها ما يلي: قالوا: "لما ملكت بلقيس، جعل قومها يقتتلون على ماء واديهم (وادي سبأ)، فجعلت تنهاهم فلا يطيعونها فتركت ملكها، وانطلقت إلى قصر لها وتركتهم، فلما كثر الشر بينهم، وندموا أتوها، فأرادوها على أن ترجع إلى ملكها، فأبت فقالوا: لترجعن أو لنقتلنك، فقالت: إنكم لا

7- "يقال للقوم في الحرب، إذا دنا بعضهم إلى بعض بالرمح ولم يتلاقوا: قد تناوش القوم".

8- قال بعض النسابين العرب: "كندة: هم بنو ثور بن مرة بن أد بن زيد بن هميم بن عمرو بن عريب بن زيد ابن كهلان بن سبأ".

تطيعونني، وليست لكم عقول، ولا تطيعوني، قالوا: فإنا نطيعك، وإنا لم نجد فينا خيرا
بعدك، فجاءت ... فسدت ما بين الجبلين، فحبست الماء من وراء السد، وجعلت له
أبوابا بعضها فوق بعض، وبنيت من دونه بركة ضخمة، فجعلت فيها اثني عشر مخرجا
على عدة أنهارهم فلما جاء المطر احتبس السيل من وراء السد، فأمرت بالباب
الأعلى ففتحت، فجرى ماؤه في البركة، وأمرت بالبعر فألقي فيها، فجعل بعض البعر
يخرج أسرع من بعض، فلم تزل تضيق تلك الأنهار، وترسل البعر في الماء، حتى
خرج جميعا معا (بمعنى أن سرعة الماء صارت واحدة)، فكانت تقسمه بينهم على ذلك
(بالتساوي)، حتى كان من شأتها وشأن سليمان ما كان" (الطبري).

استطرد

الدعوة تغزو العرب في المواسم والأسواق!

وبعد، فماذا كانت نتيجة هاتين السنتين⁽¹⁾ اللتين قضاها الرسول عليه السلام في الدعوة في المواسم وعرض نفسه على القبائل؟

تؤكد مراجعنا أن النبي عليه السلام كان "يوافي الموسم كل عام، يتبع الحجاج ... يسأل عن القبائل قبيلة قبيلة". وكانت أسواق المواسم، وهي: عكاظ، ومجنة، وذو المجاز. قالوا: وكانت العرب "إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال، ثم تجيء إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً، ثم تجيء سوق ذي المجاز فتقيم به إلى أيام الحج"؛ وكان الرسول عليه السلام يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه" (انظر تفصيل ذلك في مقدمة هذا القسم من الكتاب)

ومع ذلك فقد كانت هناك بوادر إيجابية وردت عنها تلميحات في سور هذه المرحلة وقد توقفنا عندها في حينها. من ذلك لقاءه مع شخصية تدعى سويد بن صامت، الذي كان يحمل معه "صحيفة لقمان"⁽²⁾. ومن ذلك أيضاً ما ذكره ابن إسحاق من أنه: "لما قدم (من يثرب) أبو الحيسر، أس بن رافع، مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم إلياس بن معاذ، يلتصقون بالخلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله (ص)، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ الخ (انظر تفصيل ذلك في المقدمة)

ومع هذه السلبات، أعني أنه على الرغم من أن القبائل العربية لم تستجب لطلب الرسول عليه السلام، فإنها قد عرفت عليه،/ وبدون شك ستشرب خبره في جميع أنحاء الجزيرة العربية، وستكون يثرب أكثر تأثراً وستصبح "مدينة الرسول"، ولكن بعد ست سنوات: ثلاث منها يقضيها الرسول في الحصار وثلاث خارج الحصار.

ولا بد من التأكيد هنا على أن ربط الخطاب القرآني منذ سورة الحجر إلى آخر ما نزل في مكة، بالدعوة في أوساط القبائل من أهل البادية، في المواسم والأسواق، هو لجتهاد منا، لم

1 - هذا التحديد الزمني من تقديرنا، وذلك اعتماداً على أن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت حوالي الخامسة والنصف حسب جل الروايات وأن حصار النبي وأهله في شعب أبي طالب كان في بداية السنة السابعة كما ذكره ابن سعد. وإن فقد مرت سنتان على دعوة الرسول للقبائل إلى الإسلام، والأصح أن نقول مر موسمان من موسم الحج والأسواق.

2- انظر "التعليق" في سورة لقمان.

نعثر على شبيهه له في التفسير التي بأيدي الناس. والسبب الرئيسي في انفراننا بهذا هو انفراننا في بناء فهم القرآن على ترتيب النزول. ولا شك أن القارئ قد لمس بنفسه نتائج هذه المحاولة من خلال ما قمناه من فهم مستقل، وأحياناً مختلف، عن فهم جميع المفسرين.

نذكر هذا ليس افتخاراً وإنما من أجل جلاء خاصية "التكرار" في القرآن المكي. وكما قلنا في "التعريف بالقرآن" (المدخل)، فالخطاب في القرآن يسير على نهج العرب في المخطابة، المنهج الذي عبر عنه البلاغيون بالقول "لكل مقام مقال"، وأن ما يميز القرآن عن أنواع الخطابات العربية الأخرى هو أن الثابت فيه هو المقال، بينما المتغير هو المقام. مقال القرآن المكي واحد (يدور حول النبوة والتوحيد والبعث)، سواء تعلق الأمر بمقام قريش ووضعيتها أو بمقام أهل القبائل أو غيرهم.

المرحلة الخامسة

حصار النبي وأهله في شعب أبي طالب
وهجرة المسلمين إلى الحبشة

استهلال

كانت نهاية المرحلة السابقة (الرابعة)، من مسار التنزيل ومسيرة الدعوة المحمدية، متميزة باتجاه النبي عليه السلام إلى الاتصال بالقبائل والأسواق بعد نزول قوله تعالى "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (الحجر 94-95)". ومع أن الاستجابة كانت قليلة، بل تكاد تكون منعدمة كما رأينا في "الاستطراد" أعلاه؛ إلا أن الاتصال المباشر بين الرسول عليه السلام وبين القبائل في الأسواق وحديثه إليهم وطلبه حليفا يحميه من قومه حتى يبلغ رسالته قد جعل قريشا تدرك أن أمر محمد عليه السلام لم يعد محصورا في مكة وأن الإسلام أخذ يترك آفاق جديدة لم تكن في الحسبان فخططوا لمواجهة هذا التطور الجديد.

يقول ابن إسحاق: "ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا: يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإننا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإننا والله لا نصبر على هذا: من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين"، أو كما قالوا: ثم انصرفوا عنه. فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم له، ولم يطب نفسا بإسلام (تسليم) رسول الله لهم ولا خذلانه، فرجعوا بخفي حنين. أما أبو طالب الذي أدرك من لهجة وقد قريش أن الرسول قد أصبح مهددا أكثر من ذي قبل فقد قام في بني هاشم وبني المطلب (عشيرة النبي) فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوا إلى ما دعاهم إليه من الدفع عن رسول الله إلا ما كان من أبي لهب" (ابن إسحاق).

وعلى أثر تضامن عشيرة النبي مع أبي طالب في حماية الرسول "اجتمعت قريش فائتمرت بينها أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم ألا يئكحوهم ولا يبياعوهم ولا يخالطوهم... وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب (بجبل أبي قبيس) ليلة هلال المحرم سنة سبع من حين تنبئ رسول الله (ص). واتحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبه مع بني هاشم، وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهروهم على بني هاشم وبني المطلب، وقطعوا عنهم الميرة والمادة فكاثروا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، حتى بلغهم الجهد وسُمع أصوات صبياتهم من

وراء الشعب! فمن قريش مَنْ سره ذلك ومنهم من ساءه ... فأقاموا في الشعب ثلاث سنين

"أما بقية المسلمين "فأذن لهم رسول الله (ص) في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية فكانت خرجتهم الآخرة أعظمها مشقة، ولقوا من قريش تعنيفا شديدا ونالوهم بالأذى. وكان جميع من هاجر إلى الحبشة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبع غرائب، فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي بأحسن جوار فلما سمعوا بمهاجرة رسول الله (ص) إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا ومن النساء ثمانين نسوة" (ابن سعد وابن إسحاق).

كان ذلك هو مسار الدعوة في هذه المرحلة "الخامسة"، مرحلة الحصار، التي دامت نحو سنتين. يبقى أن نشير إلى أن بعض الروايات قد ذكرت أن قريشا "بعثت - على أثر الهجرة الأولى إلى الحبشة - عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي إلى النجاشي مع هدايا كثيرة أهدها إليه وإلى بطارفته وأمروهما أن يسألا النجاشي تسليم مَنْ قُبِله وبأرضه من المسلمين إليهم، فشخص عمرو وعبد الله إليه في ذلك فنقذا لما أرسلهما إليه قومهما، فلم يصلا إلى ما أملا قومهما من النجاشي، فرجعا مقبوحين" (الطبري: التاريخ).

قالوا: إن فشل مهمتهما واحتفاء النجاشي بالمهاجرين كانا وراء اشتداد ضغط القرشيين على الرسول والمسلمين في مكة وقرارهم فرض الحصار على النبي وأهله. وهذا لا يستقيم، لأن هجرة من هاجر إلى الحبشة، الهجرة الأولى، كانت في رجب من سنة خمس للنبوة وأنهم لم يمتكنوا سوى ثلاثة أشهر في الحبشة إذ عادوا إلى مكة بتأثير إشاعة مفادها أن النبي قد تصالح مع قريش إثر قصة الغرانيق. أما سفر وفد قريش إلى النجاشي لطلب تسليم المسلمين فلا بد أن يكون بعد الهجرة الثانية لأنه لم يكن قد بقي قبلها في الحبشة من المهاجرين ما يبرر إرسال ذلك الوفد. فالمهاجرون في الهجرة الأولى كان أكثرهم قد عاد ودخل في جوار رجال من قريش.

والواقع أن مسار الدعوة يدل على أن قريشا أرسلت الوفد المذكور إلى النجاشي بعد حصار قريش للنبي في شعب أبي طالب سنة سبع للنبوة، الشيء الذي يعني أن إذن النبي لأصحابه بالهجرة الثانية كان بعد دخوله الحصار أو قبيله بقليل وخوفه على المسلمين. ومهما يكن من أمر فإن الإشارة الوحيدة في القرآن إلى الهجرة إلى الحبشة إنما نجدها في سورة "الزمر" التي سننتقل إليها الآن. ولذلك جعلناها أولى السور التي نزلت خلال الحصار. وليس من المستبعد أن يكون نزولها قبله بقليل.

58- سورة الزمر

- تقديم

لعل أهم ما ورد في روايات "أسباب النزول" بخصوص هذه السورة روايتان: إحداهما عن ابن عباس قال: قوله تعالى: "قُلْ يَعْبَادُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ" الآية، نزل في جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة، والأخرى ورد فيها أن قوله تعالى: "وأرض الله واسعة" أنها نزلت قبيل هجرة المؤمنين إلى الحبشة.

أما الروايات الأخرى التي ربطوا نزولها بأشخاص فهي -كما سبق القول- مرارا- إنما فائدتها في ما تساهم به في جلاء الأثر الذي كان للقرآن في المجتمع المكي. من ذلك: قوله تعالى "والذين اتخذوا" الآية، قال ابن عباس نزلت في ثلاثة أحياء (قبائل): عامر، وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون الملائكة بناته، فقالوا "ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى". وأما قوله تعالى: "والذين اجتنبوا الطاغوت الآية" فقد قيل نزل في نفر كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله، وهم: زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي. وقالوا أما الآية: "ويخوفونك" الخ، فقد نزلت في الرد على قريش حين قالت للنبي (ص) "تتكفن عن شتم آلهتنا أو لنأمرنها فلتخبلن". وقالوا: نزل في مشركي أهل مكة حين قالوا للنبي (ص): أتضلل آبائك وأجدادك يا محمد؟ فأنزل الله "قل أغير الله تأمروني أعبد" إلى قوله "من الشاكرين". وقيل: مرَّ يهودي بالنبي (ص)، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه، والأرضين على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه؟ فأنزل الله "وما قدروا الله حق قدره" الآية. وقيل: لما نزلت "وسع كرسيه السموات والأرض" قالوا: يا رسول الله هذا الكرسي هكذا؟ فكيف العرش؟ فأنزل الله "وما قدروا الله" الآية. قيل "إن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تدعو إليه لحسن، إن تخبرنا لما علمناه كفارة! فنزلت هذه الآية "يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم".

نص السورة

1- مقدمة: ألا لله الدين الخالص. والأصنام لا تنفع ولا تشفع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ¹. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ،
فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ²؛ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ.

2- خلقكم من نفس واحدة... ولا تزر وازرة وزر أخرى!

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (يقولون) مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ
رِزْقِي (قريبى)، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ
هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ³. لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْنَفِي مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ،
سُبْحَانَهُ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ⁴. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، يَكُونُ اللَّيْلُ
عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
مُسَمًّى، أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ⁵. خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا⁽¹⁾،
وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ⁽²⁾. يَخْلَقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ
خَلْقٍ (نطفة، فمضغة، فعلقة الخ)⁽³⁾، فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ⁽⁴⁾. ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، لَهُ الْمُلْكُ،
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَاتَّبِعِي تَصْرِفَوهُنَّ⁽⁵⁾ (عن الله) ؟ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ، وَلَا
يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ. وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، ثُمَّ
إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ⁷. وَإِذَا مَسَّ
الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ مَا كَانَ يُدْعُو إِلَيْهِ
مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا (أصناما آلهة) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ. قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا

1 - انظر تعليقنا حول هذا الموضوع في سورة الأعراف هامش 30 (القسم الأول من الكتاب)

2 - الإبل والبقر والضأن والمعز، ذكورا وإناثا: ثمانية أزواج. الزوج : ذكر وأنثى.

3 - على نحو ما هو مذكور في سورة المؤمنون : "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ،
ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَافِثَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ
عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" (المؤمنون
12-14)

4 - شرحها المفسرون بكونها : ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة.

(في الدنيا) إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ⁸. أَمَّنْ هُوَ قَاتِبٌ⁽⁵⁾ أَنَاءَ اللَّيْلِ، سَاجِدًا وَقَائِمًا، يَخْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ! (كمن لا يعمل ذلك؟). قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ⁹.

3- أرض الله واسعة: الحبشة. أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين.

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ⁽⁶⁾. إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ (على غربة الهجرة إلى الحبشة) أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ¹⁰. قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ¹¹، وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ¹². قُلْ إِنِّي أَخَافُ، إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي، عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ¹³. قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي¹⁴، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ. قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ (هم) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ⁽⁷⁾! أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ¹⁵: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنَ النَّارِ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلٌّ. ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ⁽⁸⁾، يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِي¹⁶. وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ (الأصنام) أَنْ يَعْبُدُوهَا

5- القنوت: "الطاعة، هذا هو الأصل، ومنه قوله تعالى: "وَالْقَائِتِينَ وَالْقَائِتَاتِ" (الأحزاب 35)؛ ثم سمي القيام في الصلاة قنوتا، وفي الحديث: "أفضل الصلاة طول القنوت"، ومنه قنوت الوتر" (الجوهري).

6- قال بعض المفسرين إن في هذه الآية إشارة إلى الهجرة إلى الحبشة. ونسب إلى ابن عباس أنه فسر قوله تعالى: "قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ" : يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة (ذكره الطبري). وعلى هذا فالسورة تكون قد نزلت بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة، في ظروف الحصار، وبذلك تكون هذه السورة أول ما نزل في هذه الظروف.

7- خسران الأهل هنا، ربما يشير إلى المهاجرين إلى الحبشة، يخبرهم أنهم لن يخسروا أهلهم، فخسران الكفار لأهلهم (أي مفارقتهم الأبدية) تكون يوم القيامة. أما في الدنيا فثمة دائما إمكانية للقاء. وقد يكون المعنى أن الرسول وهو تحت الحصار لم يخسر أهله. وهذا كله مبني على قراء الآيات السابقة على أنها تستحضر وضعية الحصار والهجرة إلى الحبشة. أما "الخسران المبين" الذي يكون يوم القيامة فهو للمشركين في جهنم حيث تلاقى كل نفس مصيرها بمفردها.

8- هذه الآية مع مثيلاتها تطرح مسألة "التخويف" الذي يوصف به ما يقدمه القرآن كمشاهد للآخرة: هل يجب حمل ألفاظ تلك المشاهد والصور التي تقدمها على الحقيقة أم على المجاز؟ ومهما يكن فحديث الجنة والنار هو للترغيب والترهيب من حيث الصور المشخصة التي يقدمها القرآن، ولكنه قبل ذلك وبعده يحمل الإنسان مسؤولية ما يفعل في الدنيا، وهذا ما كان يتهرب منه الملأ من قريش، إن إنكارهم للبعث هو تهرب من الجزاء.

(اجتنبوا عبادة الأصنام)، وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ، لَهُمُ الْبُشْرَى! فَبَشَّرَ عِبَادِي¹⁷ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا النَّارِ¹⁸. أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ (طبق عليه حكم الله فألقي به في النار) أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ¹⁹? لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ (في الجنة) غَرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غَرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ: وَعَذَّ اللَّهُ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ²⁰. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ، ثُمَّ يَهِيجُ (يبس) فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا (فتاتا)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّأُولِي النَّارِ²¹ (وكذلك حال البعث). أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ (كمن بقي على ضلاله)، قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ (ينفرون) مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ²².

4- قُرْآنٌ عَرَبِيٌّ غَيْرُ ذِي عَوَجٍ! اْعْمَلُوا عَلَى مَكَاتَتِكُمْ، إِنِّي عَامِلٌ، فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ!

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي⁽⁹⁾، تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ. ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ²³. أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (كمن يدخل الجنة)! وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ (الملقى بهم في العذاب) ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ²⁴. كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاْتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ²⁵، فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ (الذل) فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ²⁶. وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ²⁷، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرُ ذِي عَوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ²⁸: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ (عبدا مملوكا له أكثر من سيد يتنازعون عليه)، وَرَجُلًا (وعبدا آخر) سَلَمًا لِّرَجُلٍ (خالصا لرجل واحد)، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ. بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ²⁹ (10).

9- متشابهها : يشبه بعضه بعضا نظما ومضمونا، مثاني: ثُلثَى وتكرر فيه القصص والمواعظ والحجج والوعود والوعيد...

10 - معنى المثل واضح: وهو أنه ليس من العدل جعل الناس، في الآخرة، كلهم في الجنة أو في النار، لأن وضع الناس في الدنيا قائم على الاختلاف: ومن مظاهر هذا الاختلاف وقوع بعضهم حكاما ظالمين وأسيادا مستغلين وآخرين محكومين مظلومين الخ. وهكذا فوضع الذين يؤمنون بآله واحد يختلف عن وضع الذين يعبدون آلهة متعددة : أولئك يفصل بينهم إله واحد بالعدل، وهؤلاء يقعون تحت طائلة اختلاف آلهتهم، وبهذا المعنى ترتبط الآيات التالية بالسابقة في سياق واحد. على أن هذا المثل الذي ضرب هنا في مجال المعاد ينطبق =

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ (قريش) مَيِّتُونَ³⁰، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ³¹. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصَّدَقِ إِذْ جَاءَهُ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى (مأوى) لِلْكَافِرِينَ³²؟ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ (وهو النبي) وَصَدَّقَ بِهِ (وهم المؤمنون)، أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ³³. لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ³⁴، لِيَكْفُرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ³⁵ (بما كانوا يعملون من الحسنات). أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (النبي)⁽¹¹⁾؟ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ (من دون الله: الأصنام) ! وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ³⁶، وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ. أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ³⁷؟ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ! قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ (الأصنام) كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ؟ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ؟ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ³⁸. قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ (جهنكم التي اخترتم) إِنِّي عَامِلٌ (على جهتي التي تمكنت عندي)، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ³⁹ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَيَحِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ⁴⁰ (مستمر متواصل).

5- فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلِإِمَامٍ يَضِلُّ عَلَيْهَا ...

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ، فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلِإِمَامٍ يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ⁴¹. اللَّهُ يَتَوَفَّى النَّفْسَ (يجعل نهاية نشاطها وحيويتها) حِينَ مَوْتِهَا (عندما تستوفي آجالها)، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ (لم تستوف أجلها، يتوفاها) فِي مَنَامِهَا (يجعل حدا لنشاطها): فَيُمِيسُكَ (عنده) الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْآخِرَى (في الدنيا) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى⁽¹²⁾. إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ⁴². أَمْ (بل) اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ؟! قُلْ (لهم) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ

أيضا على مسألة التوحيد لبيان استحالة وجود أكثر من إله واحد، لأنه لو كان ثمة أكثر من واحد لوقع التنازع بينهم، خصوصا والإله في الإسلام من أسمائه "المالك". وفي هذا المعنى قوله تعالى: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا" (الأنبياء 22)

11 - قيل: "أَنْ قَرِيشًا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ (ص): إِنَّا نَخَافُ أَنْ تَحْبِكَ آلِهَتُنَا، وَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكَ مَعْرَتَهَا لِعَبِكَ إِيَّاهَا"، وجاء الجواب: "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟" : الله يحفظه ...

12- وذلك على معنى أن الحياة هي وجود النشاط الحسي والنفسي والعقلي. والوفاة هي خمود ذلك النشاط، إما بسبب الموت (على سبيل الحقيقة) وإما عند النوم (على سبيل المجاز). جاء في لسان العرب: "وَأَمَّا تَوَفَّى النَّائِمَ فَهُوَ اسْتِيفَاءُ وَقْتُ عَقْلِهِ وَتَمْيِيزُهُ إِلَى أَنْ نَامَ".

يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ⁴³! قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا، لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ⁴⁴. وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ،
وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ⁴⁵. قُلْ اللَّهُمَّ (يا الله)، فَاطِرَ (خالق)
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ⁴⁶. وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ
مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (أي لأعطوه يوم القيامة فداء للعذاب الذي يكونون فيه)؛
وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ⁴⁷ (يظنون) : وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا
كَسَبُوا، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ⁴⁸ (من الوعيد). فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ
دَعَانَا، ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ (ابتلاء).
وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ⁴⁹. قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ⁵⁰، فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا؛ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَوَاءٍ (قريش)
سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا. وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (الله)⁵¹. أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (يضيقه على من يشاء)؟! إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ⁵².

6- حث على الإيمان ووعد ووعد...

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ (اقتربوا ذنوباً ولم يسلموا) لَا
تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا (إذا أسلمتم)، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ⁵³. وَأَنْبِئُوا (ارجعوا) إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ (لتركوا العناد وأخلصوا له) مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ⁵⁴، وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّنْ رَبِّكُمْ
(القرآن) مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً، وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ⁵⁵! (افعلوا ذلك في الدنيا
قبل) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ (يوم القيامة) يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ
(وإنني) كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ⁵⁶، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ⁵⁷،
أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ: لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً (رجعة إلى الدنيا) فَأَكُونُ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ⁵⁸! (جواب من يقول ذلك): بَلَى! قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ
وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ⁵⁹. وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ: وَجُوهُهُمْ
مُسْوَدَّةٌ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى (مقام) لِلْمُتَكَبِّرِينَ؟⁶⁰ وَيَجْجِي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا
بِمَقَارَتِهِمْ (بفورهم بالجنة) لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ⁶¹. اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ
شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (متصرف)⁶². لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ،

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ⁶³. قُلْ أَفَعَيِّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَهْلَ الْجَاهِلُونَ⁶⁴! وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ (يا محمد) وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ: لَنْ أَشْرَكَ لِي خِطْبَةً عَمَلِكُ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ⁶⁵. بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ⁶⁶.

7- خاتمة: مشهد القيامة والجزاء...

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ (ما عرفوا قدره وعظمته): وَالْأَرْضُ جَمِيعًا (تكون في) قَبْضَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ⁶⁷. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ (النفخة الأولى) فَصَبَقَ (مات) مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ؛ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ (من قبورهم) يَنْظُرُونَ (ينتظرون ما سيفعل بهم)⁶⁸. وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (أضيت)، وَوُضِعَ الْكِتَابُ (الذي سجلت فيه الأعمال للحساب)، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ (من الملائكة: يشهدون أن الرسل بلغوا رسالات ربهم كما يشهدون علي ما كان الناس يعملون)، وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ⁶⁹. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ⁷⁰، وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا (جماعات)، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ قَالُوا بَلَى! وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ⁷¹. قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا؛ فَبَسَّ مَتَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ⁷². وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، طَيِّبْتُمْ! فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ⁷³. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ⁷⁴. وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ (محيطين) مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ. وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ⁷⁵.

- تعليق

تدور موضوعات هذه السورة حول محوري التوحيد والمعاد، وهما الركنان الأساسيان في العقيدة الإسلامية، وبهما يفصل الإسلام انفصالا كلياً عن وثنية العرب، التي تقوم على "الشرك" من جهة، وإنكار البعث والجزاء من جهة أخرى. والتركيز على هذين الركنين في الظروف التي نزلت فيها هذه السورة له مغزاه. فالرسول وهو محاصر في شعب أبي طالب بالجبل، أو في مكان آخر ووضعية أخرى، مطالب دوماً

بتبليغ الرسالة. وقد نزلت آيات عديدة في السور السابقة تحثه على الثبات على العقيدة وعدم التنازل.

وكما رأينا فمِنذ أن انتقل القرآن، من الاقتصار على الدعوة إلى التوحيد إلى شجب الشرك وتسفيه عبادة الأصنام وبيان لامعقوليتها، وقريش تحاول بكل الوسائل حمل الرسول على ترك المس بالأصنام... وعندما فشلت في مساومته في هذا الموضوع عمدت إلى تعذيب المسلمين وضرب الحصار على القبائل القرشية لمنع تسرب الدعوة المحمدية، فكان البديل الذي قدمه القرآن هو "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، وَاخْضَعْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ" (الحجر 214-216) الشيء الذي يعني: سلوك سياسة اللين والتعاطف مع من أسلم من عشيرته وتجنب الاصطدام، مع من لم يسلموا وترتيب العلاقة معهم على أساس سلمى قوامه "إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ"، أي لا أتحمل معكم مسؤولية كفركم. وإذا كانت الروايات قد اقتصرَت على ذكر رد فعل عمه أبي لهب، الذي سبق أن نزلت فيه سورة "المسد"، فإنها لا تذكر شيئا عن ردود فعل أخرى سوى أن كثيرا من خصوم الدعوة المحمدية كانوا حائرين لمعرفتهم بصدق وأمانة محمد بن عبد الله، وكان كثير من هؤلاء الحائرين يكشفون في خلواتهم عن اعتقادهم بأن محمدا صادق فيما يقول. وسينكشف بعد مدة قصيرة تأثير "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" في كل من بني هاشم وبني المطلب -وهم عشيرة النبي- في رد فعل قريش عندما قررت التخلص من محمد بن عبد الله بالاغتيال، الشيء الذي حرك التضامن معه داخل عشيرته، فانتقلت كلها معه -باستثناء أبي لهب- إلى شعب أبي طالب، مكان الحصار، لتحميه من أي مكروه ولتفهم قريشا أنها لن تبقى مكتوفة الأيدي إزاء أي عدوان على حياة محمد. لقد استعدنا هذه المعطيات لنبرز الحقيقة التالية: وهي أن وضع النبي عليه السلام خلال مرحلة الحصار كان أقوى مما كان عليه الحال في المراحل السابقة. ففي المراحل السابقة كان النبي (ص) وحيدا يتحدى قريشا، ولم يكن يمنعه، من ذهاب قريش في اضطهاده إلى أكثر من الاستهزاء والإهانة الشخصية، سوى مكانة عمه أبي طالب في الوسط القرشي، ليس فقط لأنه كان عميد الهاشميين بل أيضا لأنه لم يفارق دين قريش، دين آبائه وأجداده، فدافع عن شخص محمد ابن أخيه من زاوية ما نعر عنه اليوم بـ"حرية العقيدة". أما "أتباع محمد"، أي المسلمون فقد سلطت عليهم قريش طغيانها فعذبت حتى الموت المستضعفين منهم، ثم "وثبت" كل قبيلة من قبائل قريش على من فيها من المسلمين أو المتعاطفين معهم. وأمام تلك الحملة الشرسة فتح النبي عليه السلام باب الهجرة إلى الحبشة أمام أصحابه، فاستمرت نحو سنة ونصف لتشمل جميع المسلمين تقريبا مع ابتداء مرحلة الحصار.

وهكذا يبدو وضع النبي خلال مرحلة الحصار أخف وطأة مما كان عليه قبل.
إنه الآن في شعب أبي طالب في أمان تحميه عشيرته، أما أصحابه فهم في الحبشة
عند النجاشي في أمن وأمان عبرت عنهما زوج رسول الله (ص): أم سلمة بنت أبي
أمية بن المغيرة، وكانت من المهاجرات بقولها: "لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها
خيرَ جار، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذَى ولا نسمعُ شيئاً نكرهه".

هذه الوضعية المريحة، قياساً على ما سبقها، هي التي تفسر لهجة هذه
السورة التي كانت أول ما نزل بعد الحصار: لقد ركزت كما قلنا على الركنين
الرئيسيين في العقيدة الإسلامية: التوحيد والمعاد، مع تحدي قريش أن تنفذ ما خوفته
به من تسلط أذى الأصنام عليه. كما أسهبت في الدعوة إلى التوحيد باستعمال العقل،
وفي وصف مشهد للقيامة والجزاء، هو بحق آية في البيان.

59- سورة غافر

- تقديم

هذه السورة تعرف باسم "غافر" و"الطول" و"المؤمن"، يغالب عليها الاسم الأولى في المغرب العربي والثاني في المشرق، والثالث أقل استعمالاً. وهي أول الحواميم السبعة (جمع: حم. وهي: حم/غافر، حم/فصلت، حم/الشورى، حم/الزخرف، حم/الدخان، حم/الجاثية، حم/الأحقاف). وتتميز هذه الحواميم -أو آل حميم- بكونها نزلت متتابعة، كما هي هنا، ورتبت متتابعة في المصحف كما في نوائح ترتيب النزول دون خلاف. وهذا التتابع -دون خلاف أو اختلاف الذي ليس له مثيل في ترتيب سور القرآن- دليل على أنها نزلت خلال الحصار وأن المرجع فيها واحد هو الرسول عليه السلام. وقد ورد في امتداحها عدة روايات منها أحاديث منسوبة إلى النبي عليه السلام فقد روي أنه قال: "الحواميم ديباج القرآن". وأن: "لكل شيء ثمرة وإن ثمرة القرآن ذوات حم، هنّ روضات حسان، مخصبات متجاورات. فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم". وفي حديث ثالث قال: "مثل الحواميم في القرآن كمثل الحبرات في الثياب". وعن أنس بن مالك قال: "سمعت رسول الله (ص) يقول: "إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأعراف، الأنعام، التوبة/الأنفال) مكان التوراة، وأعطاني "الراءات" (جمع الر: ا. ل. ر) (أربعة) إلى الطواسين (ثلاثة) مكان الإنجيل، وأعطاني ما بين الطواسين إلى الحواميم مكان الزبور، وفضلني بالحواميم والمفصل (المفصل: القصيرة من السور، ما بين سورة "ق" وسورة الناس)، ما قرأهن نبى قبلي". وعن ابن عباس قال: "إن لكل شيء لباباً وإن لباب القرآن الحواميم". "الحواميم روضة من رياض الجنة" (1).

1- سبق أن أوردنا (في سورة الفاتحة: التعليق) جملة آراء تعترض على امتداح بعض القرآن دون بعض نقلاً عن القرطبي نوجزها فيما يلي: قال: "اختلف العلماء في تفضيل بعض السور والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض؛ فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن =

يمكن لسائل أن يسأل: لماذا لا تعتبر سورة الزمر والحواميم هي "السبع المثاني"؟ فعلا، كنت أشرت إلى هذه الإمكانية في التعريف بالقرآن الكريم، وقد حملني على ذلك كونها نزلت في فترة الحصار. ولكن تبين لي فيما بعد أن هناك أمرين لا يشجعان على ذلك. أولهما أن قوله تعالى "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ" ورد في سورة الحجر (آية 87) وهذه السورة نزلت قبل الزمر والحواميم، بينما "السبع المثاني" لا بد أن تكون قد نزلت قبل هذه الآية حتى يستقيم الكلام (وفد آتيناك...). أما الأمر الثاني فهو أنه لو كان المقصود بالمثاني هي الحواميم لورد ذكرها ضمن العبارات التي تنسب إلى النبي والتي تشيد بها (أعلاه)...

ومما لفت انتباه المفسرين المناسبة بين أول هذه السورة وآخر التي سبقتها "انتهت سورة الزمر بذكر ما يؤول إليه حال الكافر وحال المؤمن، لتأتي سورة غافر باستهلال يؤكد أن الله "غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول"... ليكون ذلك استدعاءً للكافر إلى الإيمان والإقلاع عما هو فيه". كما لاحظوا أن هناك أوجها للمناسبة بين سورة الزمر والحواميم السبعة منها "تآخي المطالع في الافتتاح بعبارة "تنزيل الكتاب"، ومجيئ الحواميم كلها متتابعة بعد الزمر.

وبقطع النظر عن مدى صحة هذه المرويات فإن تعددها وورودها من جهات مختلفة يدل في نظرنا على أن كثيرين قد لمحوا في الحواميم ميزة خاصة بها. ومع أنني أؤيد الرأي القائل إن القرآن كله واحد ولا ميزة لآية أو سورة منه على الباقي، فإني أرى أن الميزة الخاصة بهذه السور هي كونها نزلت في فترة الحصار: حصار قريش للنبي وعشيرته في شعب أبي طالب. ومع أننا أكدنا في التعليق الخاص بالسورة السابقة أن النبي عليه السلام بدخوله الحصار وهجرة أصحابه إلى الحبشة قد صار في وضعية أفضل من حيث الأمن والأمان على شخصه وعلى أصحابه، فإن المقاطعة التي فرضتها قريش على النبي وأهله واستمرارها نحو ثلاث

جيان اليستي، وجماعة من الفقهاء. ورؤي معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو ترد دون غيرها. وقال عن مالك في قول الله تعالى: "مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ أَلَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: 106) قال: محكمة مكان منسوخة. وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك. واحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يشعر بنقص المفضول؛ والذاتية في الكل واحدة، وهي كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه". وعلى هذه الأقوال تكون الأحاديث السابقة من قبيل الترغيب في قراءة القرآن

سنوات قد خلفت وضعا لا يطاق، خصوصا وقد قطعت عنهم "الميرة" وطاردتهم في الأسواق...

- نص السورة

1- مقدمة: لا يغرك هيمنة قريش على البلاد.

بسم الله الرحمن الرحيم
حم¹. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ². غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ (الإنعام الواسع)، لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ³. مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَا يَغْرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ⁴ (هيمنتهم على مكة وأسفارهم للتجارة وأنت في الحصار. ذلك هو الشأن مع الأقوام الذين كذبوا رسلهم فأملناهم إلى حين).

2- لقد همت كل أمة برسولهم ليعتلوه، أنت تعرف كيف كان العقاب!

أ- مثال نوح! قُلَاغُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ!

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، وَالْأَحْزَابُ (أقوام وأمم) مِنْ بَعْدِهِمْ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ (ليقتلوه) كما همت قريش على فعل ذلك فانتقل النبي وأهله إلى شعب أبي طالب)، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، فَأَخَذْتَهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ⁵؟! (أنت تعرف ذلك). وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا (كفار قريش) أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ⁶. (الملائكة) الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا (قائلين): رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ⁷. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ⁸. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ، وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ⁽²⁾. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

2- يحتمل أن يكون المقصود بهؤلاء المؤمنين الذين تدعو الملائكة لهم ولمن "صلح من" آبائهم وأزواجهم وذرياتهم" بالجنة وأن يقيهم الله السيئات، هم المهاجرين إلى الحبشة، فقد هاجر جلهم ومعهم زوجاتهم وأبنائهم، وهم معرضون في بلاد الهجرة إلى كل احتمال، ولذلك

يُنَادُونَ (يقال لهم) لَمَقْتُ اللَّهَ (لكم في الدنيا ولستم تكفرون) - أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ (يوم القيامة بسبب العذاب الذي حل بكم) - إِذْ (كنتم في الدنيا) تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ¹⁰. قَالُوا (أجلبوا معرفين بالبعث) رَبَّنَا آمَنَّا اثْنَتَيْنِ (جعلنا عملاً مرتين: مرة قبل خلقك لنا ومرة بعد توفيك لنا) وَأَخْبَيْنَا اثْنَتَيْنِ (عندما خلقنا أول مرة، وعندما بعثنا من قبورنا) فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا! فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ¹¹ (إلى العودة إلى الدنيا لنعمل صالحاً؟ الجواب:)، ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا⁽³⁾، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ¹². هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ¹³. فَادْعُوا اللَّهَ (يا محمد وأصحابك) مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ¹⁴: رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ (يُنَزِّلُ الوحي) مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَافِي¹⁵ (يوم القيامة). يَوْمَ هُمْ (يعني الذين جاعتهم نذر الله) بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ! لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ¹⁶. الْيَوْمَ تُجْزَى كُل نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ¹⁷. وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ (القيامة) إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ (ممثلات غما): مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ¹⁸. يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ (ما تسرق من نظر) وَمَا تَخْفَى الصُّدُورُ¹⁹. وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ²⁰. أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ²¹. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ. إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ²². (من ذلك : موسى...)

ب- وَقَالَ فِرْعَوْنُ (=أبو جهل): نُرَوِّنِي أَقْتُلْ مُوسَى (محمداً) وَلْيَدْعُ رَبَّهُ!

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ²³ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ (وزيره) وَقَارُونَ (صاحب الخزينة)، فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ²⁴. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ (استبقوهم

كان الطلب لهم بأن يقيمهم السيئات. والجدير بالإشارة أن هذه هي المرة الأولى والوحيدة التي يذكر فيه القرآن هذا الدعاء "وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ".

3 - لم يكن العرب ينكرون وجود الله بل كانوا يؤمنون به وبوسطاء إليه هم الأصنام.

للخدمة)، وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ²⁵. وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ⁽⁴⁾، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ²⁶.
 وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ²⁷.
 ج- رجل مؤمن من آل فرعون : اتقتلون رجلاً لأنه يقول ربي الله؟

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا (بسبب) أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ⁽⁵⁾ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ! وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ²⁸. يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ (أسيادا) فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى (الرأي هو رأيي)، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ²⁹. وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ³⁰ (الأقوام اللذين تحزبوا ضد الرسل) : مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ³¹. وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ³² (القيامة)، يَوْمَ تَكُونُ مَذْبِرِينَ (ينادي بعضهم بعضا)، مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ! وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ³³. وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ (قبل موسى) بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ³⁴. الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، كَبُرَ (ذلك) مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ³⁵. وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْنَابَ³⁶، أَسْنَابَ السَّمَاوَاتِ (ما يوصلني إليها) فَأَطْلِعْ إِلَيَّ إِلَهَ مُوسَى، وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا! وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ؛ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (خسارة)³⁷. وَقَالَ الَّذِي آمَنَ: يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ³⁸. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ

4- هذه هي المرة الأولى التي يقول فيها فرعون في القصص القرآني "ذروني أقتل موسى". فرعون هنا رمز لأبي جهل، وكان قد طالب باغتيال النبي (ص) قبل الحصار.

5- روي أن أبا بكر قرأ آية "اتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله" (غافر: 28) حين أذى نفر من قريش رسول الله (ص) حول الكعبة، وأن ذلك كان خلال الحملة التي شنتها قريش على النبي وصحبه، وقد ذكرنا ذلك قبل. لكن السياق يشكك في هذه الرواية لأن القتال "رجل مؤمن من آل فرعون يكتُمُ إيمانه"، فالمماثلة بينه وبين أبي بكر غير مستقيمة. وبالتالي فالراجح أي يكون أحد غير المسلمين من القرشيين المتعاطفين مع النبي هو المقصود.

الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ³⁹. مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ⁴⁰. وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ⁴¹! تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ⁴². لَّا جَرَمَ أَنَا (أَنْ مَا) تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ (الشَّرِيكَ مَعَ اللَّهِ) لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ، وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ⁴³. فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ، وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ⁴⁴. فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا، وَخَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ⁴⁵. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا؛ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ (يَقَالُ لَهُمْ) أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ⁴⁶.

د- حوار في جهنم بين الضعفاء والذين استكبروا...

وَإِذْ يَتَحَاوُونَ (الكفار) فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ⁴⁷. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا! إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ⁴⁸. وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ⁴⁹. قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟ قَالُوا بَلَى! قَالُوا فَادْعُوا! وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ⁵⁰. إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ⁵¹، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ⁵².

3- اصبر. إن وعد الله حق. الذين كفروا اليوم كل الذين كفروا بالأمس.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ⁵³، هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ⁵⁴. فَاصْبِرْ (عَلَى الْحَصَارِ)، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ⁵⁵. إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبِيرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ؛ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ⁵⁶. لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ (مِنْ جَدِيدٍ يَوْمَ الْبَعْثِ)، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ⁵⁷. وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ، قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ⁵⁸. إِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ⁵⁹. وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ. إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ⁶⁰ (صَاغِرِينَ). اللَّهُ

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا. إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ⁶¹. ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَأَنَّا تُؤَفَّكُونَ⁶² (تهربون من حججه عليكم). كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ⁶³: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ. ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ⁶⁴. هُوَ الْحَيُّ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ⁶⁵.

4- نهيت أن أعبد الذين تدعون...

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأَمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ⁶⁶. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا؛ وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلِ؛ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى (أجلكم)، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ⁶⁷. هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ. فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ⁶⁸. أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يَصْرِفُونَ⁶⁹! الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ⁷⁰ إِذِ الْأَغْثَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ، يُسْحَبُونَ⁷¹ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ⁷² (يُحرقون)؛ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ⁷³ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا، كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ⁷⁴. ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ⁷⁵. ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ⁷⁶.

5- خاتمة: لصبر. ففي مصير المكسبين في الماضي عزاء...

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَإِمَّا نُرَبِّتْكَ بِغَضٍ الَّذِي نَعِدُهُمْ، أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ، فَإِنَّا يَرْجِعُونَ⁷⁷. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ. وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَضِىَ بِالْحَقِّ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ⁷⁸. اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ⁷⁹، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ، وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ⁸⁰، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ، فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ

تُنْكِرُونَ⁸¹؟ أَقَلَّمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ⁸². فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (فَضَلُّوا) مَعْقِدَاتِهِمْ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ (وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ⁸³) (مَنْ الْيَبْتُ وَالْحِسَابِ وَالْعِقَابِ). فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنًا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَذَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ⁸⁴؛ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بِأَسْنًا: سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ، وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ⁸⁵.

- تعليق

تدور هذه السورة بمجملها حول وضعية الحصار فتوجه "عدة رسائل" - حسب التعبير المعاصر- إلى الجهات المعنية به:

- رسالة إلى سكان مكة وبالأخص منكم الذين يكتمون إيمانهم ويتعاطفون مع الرسول وصحبه غير مقتنعين بما قام به أبو جهل وجماعته من المأ من قريش من فرض الحصار على النبي وأهله بني هاشم وبني المطلب، فإلى هؤلاء تتوجه السورة: تطلب منهم الاستجابة الصريحة للدعوة والتخلي عن الذين يجادلون في آيات الله، فإله غافر الذنب قابل التوبة واسع الرحمة، أما الذين كفروا وجادلوا ويجادلون في آيات الله فمصيرهم العقاب الشديد.

- ورسالة إلى النبي عليه السلام تواسيه وتقوي عزيمته وتطلب منه أن لا يحزن أو يتألم، أو يغتر بكون هؤلاء الذين أصروا على التكذيب والعناد وتآمروا على اغتياله ويجادلون في آيات الله، ومع ذلك يمارسون حياتهم العادية متسلطين متكبرين فيقومون بأسفارهم للتجارة وغيرها، فتؤكد له أن مصير هؤلاء سيكون مثل مصير أمثالهم من الأقوام الماضية الذين فعلوا مثلهم: كذبوا رسلهم وتآمروا على قتلهم. وهنا تقدم شهادتين من التاريخ المقدس، إحداهما لها علاقة مع نوح والأخرى ترتبط بفرعون وملئه. والمثالان جديان، بمعنى أنهما لم يسبق أن ذكرا في إطار قصص الأنبياء، بل وردا في إطار مستقل بهما وأكثر ارتباطا بحادثة الحصار منهما بغيرها من الأحداث التي في قصص الأنبياء. والجامع بين المثالين هو قوله تعالى: "وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ".

بالنسبة للمثال الأول تقتصر السورة على الإشارة إلى نوح ومن تحزبوا ضد رسلهم من بعده. وقصصهم معروضة في سور سابقة. فقد تعرض نوح للرفض الكامل عندما تعرض لأصنامهم، ولما أصر على مواصلة تسفيه عبادة الأصنام قرروا

إحراقه، فدعا عليهم فكان الطوفان الذي أغرقهم باستثناء نوح ومن كان معه، أما قومه الكفار الذين تأمروا ليقتلوه فقد حق عليهم الوعيد فهم "أصحاب النار". وهنا تستطرد السورة، لترسم مشهداً ليوم القيامة يمتزج فيه "الغائب" (المستقبل) بالحاضر: وهكذا فيبينما يعاني الكفار في جهنم من العذاب الذي استحقوه، يتوجه الملائكة "الذين يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ" بالدعاء وطلب المغفرة "لِلَّذِينَ آمَنُوا" قائلين: "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ".⁷ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ".⁸ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ، وَمَنْ تَقِيَ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"، والذين تنطبق عليهم هذه الأوصاف يومذاك هم المهاجرون إلى الحبشة وهم جل المسلمين يومئذ- إن لم يكن كلهم. أما الذين كَفَرُوا فَيُخَاطَبُهُمْ أُولَئِكَ الْمَلَائِكَةُ قَائِلِينَ: "لَمَقَّتْ اللَّهُ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ" وأنتم في النار، لأنكم كنتم تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ". هنا يعترف هؤلاء الكفار بكفرهم ويطلبون السماح لهم بالعودة إلى الدنيا ليحيوا حياة جديدة كلها توبة وإيمان! وترد عليهم الملائكة بالتذكير بخطاب الدعوة وبموقفهم العدائي الرافض وبأن مصيرهم هو نفس المصير المقرر للأقوام الماضية الذين كذبوا رسلهم، "فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ. إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ".

أما المثال الثاني، ويتعلق بفرعون، فيورد عنصراً جديداً في قصة موسى مع فرعون لم يسبق ذكره في ما مضى من قصص، هذا العنصر أفصح عنه قوله تعالى: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ". وواضح أن موقف فرعون هذا يذكرنا بفرعون قريش (أبو جهل)، الذي تحدث مراراً عن ضرورة التخلص من الرسول عليه السلام بالاغتيال بعد أن فشلت محاولاتهم الأخرى. وهنا يأتي الرد، على قرار فرعون قتل موسى، من "رَجُلٍ مُؤْمِنٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ" فيخاطب فرعون وملاه: "أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ! وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ". وواضح أن هذا الاحتجاج يستحضر وضعية الرسول عليه السلام، واعتزام قريش قتله، من حيث إنه لا ذنب لموسى ومحمد إلا أن قال كل منها "ربي الله"... ويتحول احتجاج الرجل الذي يكتم إيمانه إلى عظة بليغة يذكرهم فيها بـ"دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ"... قبل أن يتحول هذا "الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه" إلى رجل يدعو قومه إلى الله، فتتماهي دعوته مع الدعوة المحمدية، فصار يتكلم باسم النبي محمد عليه السلام قائلًا: "يَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ!"⁴¹ تَدْعُونَنِي

لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ⁴². لَنَا جَزَمَ أَنَّمَا (أَنْ مَا) تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ، وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ⁴³. فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ، وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ⁴⁴. بعد ذلك تستعيد السورة مؤمن آل فرعون بعد أن أنهى استطراده لتخبرنا بفشل مكر فرعون إزاءه : "فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ"⁴⁵.

بعد ذلك تتجه السورة بالخطاب إلى النبي عليه السلام توصيه بالصبر والثبات وتؤكد له أن وعد الله حق. وأن في مصير المكذابين في الماضي عزاء له.

60- سورة فصلت

- تقديم

لم يرد شيء يستحق الذكر حول هذه السورة. وهذا عام في الحواميم كلها تقريبا، وما ورد في بعضها من "أسباب نزول" لا يعدو أن يكون عبارة عن التماس وقائع وأحداث "تصلح" أن تعتبر "أسباب نزول، أي أدوات للشرح والإيضاح. والغالب ما يخلطون فيها بين المكي والمدني من النوازل. أما سبب قلة ما ورد بخصوص هذه السور فواضح: ذلك أنها نزلت في فترة الحصار الذي ضربته قريش على النبي (ص) وهجرة جل المسلمين إلى الحبشة، الشيء الذي كان لا بد أن ينعكس أثره على مجال العلاقة مع النبي (ص)، مجال السؤال والرواية عنه وتتبع تحركاته الخ.

- نص السورة

1- مقدمة: كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا فأعرض فأكثروهم...

بسم الله الرحمن الرحيم
حم¹. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ²: كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ (تَبَيَّنَتْ) قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ³ (العربية)، بَشِيرًا وَنَذِيرًا. فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ⁴. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ (حجاب) مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ (ضعف)، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ، فَأَعْمَلْ (بدينك) إِنَّا عَامِلُونَ⁵ (فحن نعمل بديننا).

2- أُنذِرْتُمْ مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ...

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ. وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ⁶ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ (لا ينفقون على الضعفاء)، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ⁷. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ

مَمْنُونٌ⁸ (غير منقوص). قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ أَنْدَادُ، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ⁹. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ¹⁰. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ (لا نجوم فيها ولا ضوء) فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّي نَارُضٌ مُّثَوِّغًا أَوْ كَرِهًا قَالَتَا أَتَيْنَا نَارَافَيْنِ¹¹. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ، وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا (لها من استراق السمع)، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ¹². فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ¹³ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ: أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ. قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً، فَأَيُّ بَآيَاتِنَا يُجْحَدُونَ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً؟ وَكَانُوا بآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ¹⁴. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا (باردة قوية) فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَلْذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى، وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ¹⁵. وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ¹⁶. وَجِئْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ¹⁷. وَيَوْمَ يُخْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ¹⁸ (يساقون إليها)، حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹⁹. وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدَتْمْ عَلَيْنَا؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ²⁰. وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ، وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ²¹. وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ، أَرْدَاكُمْ، فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ²². فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا (يعتذروا) فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ²³. وَقَفِضْنَا لَهُمْ قُرْءَاءَ (شياطين) فَرِيقًا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ²⁴.

3- قَالُوا: لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ!

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ (شوشوا عليه) لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ²⁵. فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ²⁶. ذَلِكَ، جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ: النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ، جَزَاءُ بِمَا كَانُوا

بآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ²⁸. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْقَلِينَ²⁹. إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ (قائلين لهم): أَلَا تَخَافُوا وَكَمَا تَخْزُونَ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ³⁰. نَحْنُ (الملائكة) أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ³¹ (تتمنون). نَزَّلْنَا (عطاء وثواب) مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ³².

4- وَمَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ³³؟! وَمَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ! ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (لا تقابل السيئة بالسيئة، بل تجاوزها إلى ما هو أحسن، وستكون النتيجة:)، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ³⁴ (مناصر قريب). وَمَا يُلْقَاهَا (لا يتحمل دفع السيئة بما هو أحسن) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ³⁵. وَإِمَّا (إِنْ) مَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ (إِنْ يَصْرَفَكَ عَنِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وَيَزِينُ لَكَ الْإِنْتِقَامَ مِثْلًا)، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ³⁶.

5- مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ...

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ³⁷. فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ (الملائكة) يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ³⁸. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً (هادئة يابسة)، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ (انفتحت كأنها حامل)، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخَيِّ الْمَوْتَى، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ³⁹. إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا (يحرفونه) لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا. أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ، أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟! (قُلْ) اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ⁴⁰. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ (القرآن) لَمَّا جَاءَهُمْ (لا ينالون منه شيئاً)، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ⁴¹ (قوي محفوظ) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ⁴². مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ⁴³. وَكُلُّ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْ كُنَّا فَصَّلْتُ آيَاتُهُ (بينت بالعربية)! أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ؟ (أقرآن

أعجمي، ونبيّ عربي؟⁽¹⁾ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً. وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى، أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ⁴⁴
(2). وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ (بعضهم صدق، وبعضهم كذب)،
وَكُنَّا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ (بتأخير الحساب إلى يوم القيامة) لِقَضِي بَيْنَهُمْ،
وَأَنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ⁴⁵.

6- خاتمة: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا...

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ⁴⁶.
إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ
أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ (أصنامهم)؟ قَالُوا آذْنَاكَ
(أعلمناك) مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (على أن لك شريكاً)⁴⁷. وَضَلَّ عَنْهُمْ (غاب عنهم)
مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ (من أصنام) وَظَنُّوا (أيقنوا) مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ
(مهرب)⁴⁸. لَنَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّ
قَنُوطٌ⁴⁹. وَلَكِنْ أَدْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّاهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا
أُظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى. فَلَنُنَبِّئَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا، وَكَانُوا يَكْتُمُونَ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ⁵⁰. وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى
الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ⁵¹ (يطلب
من الله أن يرفعه عنه). قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ (ذلك الشر) مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ثُمَّ
كَفَرْتُمْ بِهِ⁽³⁾ (بالله، فكيف تدعونه ليرفعه عنكم)! (ليس هناك) مَنْ أَضَلَّ مِمَّنْ

1- قالوا: لولا أنزل القرآن بالعربية والأعجمية حتى يفهمه جميع الناس! (انظر التعليق).

2- قال القراء: تقول للرجل الذي لا يفهم كلامك: أنت تنادي من مكان بعيد.

3- جميع المفسرين يعودون بالضمير في "كفرتم به" (الآية 52) إلى "الذكر"، بمعنى
القرآن، في الآية رقم 41 ("إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ...")، وبالتالي يجعلون معنى الآية أعلاه
هكذا: قُلْ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ الذِّكْرُ (الذي كفرتم به) هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ" الآية،
وهذا تفسير ركيك العبارة، فضلاً عن بعد المسافة بين الآيتين (41-52)، فالتفسير لا
ينبغي له أن ينقل العبارة من قالبها اللغوي السليم إلى قالب ركيك فيه تكرار. هذا من
جهة، ومن جهة أخرى فالرجوع بالضمير في الآية 52 إلى "الذكر" في الآية 41، لا مسوغ
له داخل السياق، فليس بين الآيتين ما يمكن اعتباره جملة اعتراضية أو استطراداً طارئاً.
لذلك نرى أن الأولى والأصح الرجوع بالضمير إلى أقرب مذكور كما تقتضي القاعدة - =

هُوَ (مِثْلَكُمْ) فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ⁵²؟ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْفَاقِ (فِي رَحَابَةِ الْكُونِ)،
وَفِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (يَتَبَيَّنُ لَهُمُ الْخَيْرُ وَالْشَّرُّ مِنْ اللَّهِ) (4).
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ⁵³؟! أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ (شَكٍّ) مِنْ
لِقَاءِ رَبِّهِمْ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ⁵⁴.

- تعليق

ميزنا في السورة التي نحن ضيوف عليها بين ست فقرات.

- 1- المقدمة وتحدث عن إعراض قريش عن القرآن مع كونه قرآنا عربيا، ورفضهم الاستماع إليه وردهم على دعوة النبي (ص) بالتمسك بوثنيتهم.
- 2- وفي الفقرة الثانية تنبههم السورة إلى أن إعراضهم عن القرآن والتمسك بالأصنام معناه الكفر بالله الذي خلق السماوات والأرض وقدر أجزاءها، وليلها ونهارها، وأقوات الكائنات فيها... فالموقف خطير! ولذلك تحذره من أن يناله غضب من الله فتنزل عليهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود تفنيهم وتمحوهم من الوجود. وقد سبق أن قص القرآن حالهم وبين مصيرهم في سور سابقة، فأكثفت هذه السورة بالتذكير.

- 3- أما الفقرة الثالثة فقد خصصتها السورة لنوع آخر من ردود فعل قريش على القرآن، يتجاوز الإعراض والتكذيب إلى الدعوة إلى "اللغو" فيه بالتحريف والتشويش والتعيب الخ. وبعد أن تذكروهم السورة بالوعيد الذي ينتظرهم يوم

وهو "الشر" في "إذا مسه الشر". وبذلك يستقيم معنى الآية مع سياقها، والمعنى: عندما ينعم الله على الإنسان بالمطر مثلا يتبخر ويبخر ولا يفكر في الله الذي أنعم به عليه، أما عندما يصاب بضر فهو حينئذ يتذكر الله ويدعوه بكل وسعه أن يرفعه عنه. وهنا يأتي السؤال: أريتم إن كان هذا الضر الذي نزل بكم هو من الله الذي تدعونه، وأنتم به كافرون جاحدون لنعمه! فكيف يستقيم موقفكم؟ وهل هناك أضل منكم، بابتعادكم عن الله وانشغافكم عن سبيله، وفي الوقت نفسه تتوجهون إليه بالدعاء ليرفع الضر عنكم!

- 4 - اختلف المفسرون حول المقصود بالحق هنا على أربعة أقوال: "أحدها أنه القرآن. والثاني الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه. والثالث أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق. والرابع أن محمداً (ص) هو الرسول الحق. وواضح أن هذا الاختلاف والاضطراب ناتجان عن عودتهم بالضمير في "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى غَيْرِ مَحَلِّهِ. وَنَحْنُ نَرَى أَنْ الْمَقْصُودَ بِالْحَقِّ هُنَا هُوَ مَا جَعَلْنَا ذَلِكَ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَيْهِ، وَهُوَ كَوْنُ السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ مِنَ اللَّهِ. وَمَا تَبَقَى مِنَ السُّورَةِ يَعْضِدُ هَذَا الْمَعْنَى، أَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى: "أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟" أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ (شَكٍّ) مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ".

الحساب، والوعد الذي خص الله به الذين آمنوا و"استقاموا"، ترد على قریش: لماذا اللغو في القرآن؟ وهل هناك قول أحسن من الذي جاء به النبي محمد عليه السلام: يدعو إلى الله والعمل الصالح ويعلم انتماءه إلى دين الإسلام والسلام: الإسلام إلى الله بالخضوع له وحده، والسلام مع الناس ببناء العلاقات معهم على السلم والأمان. 4- وهنا تأتي الفقرة الرابعة لتقرر قاعدة أخلاقية تنطوي على استراتيجية للسلام فريدة، تقوم على أربعة أركان:

(أ) وَلَمْ تَسْتَوِيْ الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ! فالقول الحسن الذي جاء به محمد (ص) والذي يدعو إلى الإيمان بالله واحد والعمل الصالح، لا يمكن أن يساويه ما تدعون إليه من اللغو فيه والتشويش عليه. وهكذا في كل شيء: فما هو حسن لا يعادله السيئ، سواء تعلق الأمر بالأقوال أو بالأفعال.

(ب) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ³⁴. لا تقابل السيئة بالسيئة، بل تجاوزها إلى ما هو أحسن، وستكون النتيجة أن الذي أساء إليك سيشعر بالصغار أمامك وسيتحول بغضه لك إلى تقدير ومودة...

(ج) وَمَا يُلْقَاهَا الَّذِينَ صَبَرُوا، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ³⁵. لكن هذا السمو بالأخلاق والتعالي على الإساءة ليس بالأمر الهين على النفس، ولذلك كان لا بد من تعويد النفس على الصبر وتحمل أخطاء الآخرين وإساءاتهم المقصودة وغير المقصودة.

(د) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ³⁶. وإذا حدث أن صعب حمل النفس على الصبر في مثل هذه المواقف بتأثير الشيطان (أو النفس الغضبية واستيقاظ حمية الجاهلية) وشعرت بالميل إلى الانتقام فغلب العقل واستعذ بالله، وعُد إلى رشدك.

5- وتأتي الفقرة الخامسة لتطبيق هذه الإستراتيجية السلمية على أسلوب الدعوة إلى الله وذلك ببنائها على الحجة والإقناع مثل التنبيه إلى أن الأولى بأن يُعبد، ليس الشمس والقمر أو غيرهما من الكواكب كما يفعل العرب وغيرهم، بل الأولى بالعبادة هو الله الذي خلق هذه الكواكب، مثلما يفعل الملائكة فهم لا يسجدون لا للشمس ولا للقمر بل يسبحون لله وحده.

وبمثل هذه الإستراتيجية السلمية ينبغي إقناع الناس بالبعث. فإذا كانوا يستغربون بل يستهزئون من القول بالبعث بعد الموت فيجب نعت انتباههم إلى أن الأرض الميتة تتقلب حية مخضرة بالنبات عندما يرسل الله إليها المطر. فكذا إحياء الموتى. أما الذين لا يعترفون بمثل هذه الحجج فالله يعرفهم جزاؤهم يوم القيامة. أما القرآن الذي يدعو إلى اللغو فيه فهو محفوظ لا يتطرق إليه الباطل.

وتخاطب السورة الرسول عليه السلام لتؤكد له أن: "مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ"! فالذين يكذبون القرآن اليوم ويريدون اللغو فيه هم كالذين فعلوا ذلك بالأمس مع رسلهم. يقول مشركو قريش: لماذا لم يأت هذا القرآن باللغة التي جاءت بها الكتب القديمة -كالتوراة- حتى يفهمه الناس جميعا ويخاطب العرب وغيرهم؟ ويأتي الرد: لو جاءكم أعجميا لطالبتم به عربيا! ثم كيف يأتيكم أعجميا والنبي الذي كلف بتبليغه لكم عربي منكم. وستؤكد هذا المعنى آية أخرى هي قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (إبراهيم.4). ويخبرهم القرآن: "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ (بسبب اختلاف لغته عن بعض لغات اليهود الموزعين في الأرض). فهل تريدون أن يكون كتابكم موضوع اختلاف بسبب اللغة مثلما حدث لكتاب موسى⁽⁵⁾."

وتختتم السورة بتقرير مبدأ أساسي في العقيدة الإسلامية وهو المسؤولية الفردية: "مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا"، وأن الحساب سيأتي يوم القيامة ولا بد. ثم تشير مرة أخرى إلى طبع متأصل في الإنسان، ويخص قريشا بصفة خاصة، وقد عبرت عنه السورة بقوله تعالى: "وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضَ وَتَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ"، قلنا إن هذا الطبع متأصل في قريش خاصة لأن موارد حياتهم خاضعة للتقلب: فأرضهم صحراء معرضة لتعاقب الخصوبة والجفاف. وكذلك تجارتهم معرضة للربح والخسارة. وهذه الثنائية انعكست على تدينهم: هم يعرفون الله ويعترفون به كخالق للكون، ولكنهم يعبدون الأصنام كوسطاء إليه ويعتقدون في التنجيم والكهانة الخ. وهكذا فإذا ضاق بهم الحال بسبب جفاف أو خسارة في تجارتهم لجأوا إلى الله يدعون أن يرفع عنهم الضيق والضرر، أما إذا جاء المطر واخضرت الأرض وتوفر الكلاً لمواشيهم وربحت تجارتهم فهم يبطلون وينسبون ذلك إلى أصنامهم وصدق كهانهم ومنجميهم.

5- هناك اختلاف بين الباحثين حول اللغة التي كتب بها موسى التوراة "بوحى من الله" هل هي العبرية أم غيرها؟ ومما يثار في هذا الصدد أن بني إسرائيل بقوا في مصر، منذ أن جاؤوها مع يوسف إلى أن خرج بهم موسى في اتجاه فلسطين، نحو أربعمئة سنة، كانوا يتعاملون خلالها مع محيطهم داخل مصر وخارجها. الشيء الذي جعل بعض الباحثين يقولون إن التوراة كتبت أولا باللغة المصرية القديمة الهيروغليفية...

61- سورة الشورى

- تقديم -

لم يرد حول هذه السورة ما يستحق الذكر. وما ذكره بعضهم يصد آيات منها يشير إلى نوازل حصلت في المدينة، وهذه السورة، هي والحواميم الأخرى مكية باتفاق. على أن هناك ما يشبه أن يكون تحديدا لتاريخ نزول هذه السورة: ذكر مقاتل بن سليمان أنه بناء على ما فيها من إشارة إلى سني الجفاف الذي أصاب قريشا، تكون قد نزلت في حدود سنة ثمان بعد البعثة. وهذا قريب من الصواب لكون الحواميم نزلت كلها بين السابعة والعاشرة للنبوّة.

- نص السورة

1- مقدمة: الله يوحى إليك وإلى الذين من قبلك...

بسم الله الرحمن الرحيم
حم¹. عسق². كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ (1) اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ³. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ⁴. تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ (تتشققن) مِنْ فَوْقِهِنَّ (من جهة الأعلى)⁽²⁾، وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ! أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ⁵.

2- ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير ...

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (أصناما أو شركاء)، اللَّهُ حَفِيفٌ (رقيق) عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ⁶. وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى

1- "يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه من قبلك إلى رسلة" (الزمخشري).

2- قال الزمخشري: "يكدن ينفطرن من علو شأن الله وعظمته ..."

(مكة: كبيرة القرى) وَمَنْ حَوْلَهَا (3)، وَتُنذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ (يوم القيامة) لَأَرْيَبَ فِيهِ، (حيث يتفرق الناس) فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ⁷. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (إما في الجنة جميعا وإما في النار)، وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (أي الذين يستحقونها، وهم الذين يعبونه وحده)، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ⁸ (وبالتالي فمصيبرهم جهنم). أَمْ (بل) اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (لهم)، قَالَتِ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ، وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁹. وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ (مع الكفار، فقل): حُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ، ذَلِكَ اللَّهُ رَبِّي، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ¹⁰. فَاطِرُ (خالق) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (كنوع: الإنسان) أَزْوَاجًا، وَمِنَ الْأَنْعَامِ (كنوع يجمع الأبل والبقر والضأن والمعز) أَزْوَاجًا، يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ (يكثركم في النوع، نسلا بعد نسل). لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، (يَكُونُ معه زوجا أو نوعا، بل هو واحد لا متكثر). وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ¹¹ (4)، لَهُ مَقَالِيدُ (مفاتيح)

3- قال الرازي في تفسير هذه الآية: "ومن حولها" من أهل البدو والحضر وأهل المدر. فإن قيل فظاهر اللفظ يقتضي أن الله تعالى إنما أوحى إليه لينذر أهل مكة وأهل القرى المحيطة بمكة، وهذا يقتضي أن يكون رسولا إليهم فقط وأن لا يكون رسولا إلى كل العالمين، فالجواب: أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفى الحكم عما سواه، فهذه الآية تدل على كونه رسولا إلى هؤلاء خاصة، وقوله "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ" (سبا: 28) يدل على كونه رسولا إلى كل العالمين، وأيضاً لما ثبت كونه رسولا إلى أهل مكة وجب كونه صادقا، ثم إنه نقل إلينا بالتواتر كان يدعي أنه رسول إلى كل العالمين، والصادق إذا أخبر عن شيء وجب تصديقه فيه، فثبت أنه رسول إلى كل العالمين. قلت (الجابري): وفي رأينا أن الجديد الذي ورد في هذه السورة هو ذكر "من حولها" أي من حول مكة من أهل الحضر والبدو. وعبرة "من حولها" لم تذكر من قبل، وإنما ذكرت في هذه السورة بعد أن بدأ الرسول يدعو القبائل في المواسم والأسواق. أما تخصيص مكة ومن حولها أي العرب فلا يستقيم مع السياق، خصوصا مع قوله مباشرة: "وتنذر يوم الجمع"، يوم القيامة، وهو يوم حساب جميع الناس، ولم يرد ما يخصه بالعرب، فضلا عن أن تخصيصه بهم لا يعقل.

4 - دارت حول هذه الآية خصومات مذهبية لا حد لها بين المعتزلة وأهل السنة من الأشاعرة وغيرهم. فالمعتزلة فهموا من قوله "ليس كمثله شيء" أنه لا يشبه الكائنات في كونها تتألف من ذوات وصفات، ولذلك نفوا عنه الصفات، وجعلوها عين الذات. أما خصومهم -وقد سموها "الصفائية"- فقد أثبتوا له الصفات لأن الذات بدون صفات هي عندهم عدم، قياسا على الشاهد. فإذا نزعنا من التفاحة مثلا حجمها وشكلها ولونها ورائحتها الخ، فما يبقى منها؟ وقد احتجوا بقولهم إن الآية نفسها تثبت الصفات عندما تصفه بـ"السميع البصير". ونحن نعتقد أن الذي أدى إلى هذا الفهم، المعتزلي والأشعري معا، هو تفكيرهم في الآية المعنية بدون اعتبار سياقها. فالسياق هنا هو كون المخلوقات الحية خلقها الله أزواجا، تتناسل، والد ولد... والآية "ليس كمثله شيء": تنفي عنه هذه الزوجية التي

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (ويمسكه عن يشاء)، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ¹².

3- شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا.... والمودة في القربى

شَرَعَ (سَنَّ) لَكُمْ مِنَ الدِّينِ (عقيدة التوحيد) مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ (اعتقدوه وطبقوه) وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ. كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، (من للتوحيد وترك عبادة الأصنام). اللَّهُ يَجْتَبِي (يختار) إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ¹³ (إليه ويرجع). وَمَا تَفَرَّقُوا (أقول أولئك الأنبياء في العقيدة)، إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ (تفرقوا بسبب بغيهم بعضهم على بعض لحزازات واختلاف مصالح)، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ (إرادة وقرار) سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ (بتأخير القيامة والحساب) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، لَفُضِّي بَيْنَهُمْ (وهم في هذه الدنيا). وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ (من بعد أولئك الأنبياء، وهم قريش) (5) لَفِي شَكٍّ مِنْهُ (من القرآن) مُرِيبٌ¹⁴ (يبعث على القلق والكره). فإِذْ ذَٰلِكَ (إلى القرآن) فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ. وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ (عليّ) مِنْ كِتَابٍ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ (يا قريش الذين تعيشون في حالة شقاق)، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (ما يمتم في شك منه مريب)، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ¹⁵. وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ (لفريق من قريش الذين يحاربون للدعوة للمحمدية) مِنْ بَعْدِ

تَقْضِي أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ، وَأَنْ يَكُونَ وَالِدًا، أَوْ وَلَدًا. وَأما قوله "وهو السميع البصير:" فهو كقوله "له مقاليد السماوات والأرض" الخ ... جملة مستقلة.

5 - جل المفسرين على أن الضمير في : "من بعدهم" يعود على اليهود، وهذا في نظرنا لا يستقيم لا مع الظرف ولا مع السياق. فمن جهة، السورة مكية وقد نزلت والنبي عليه السلام في حالة حصار، ولم يكن هناك في مكة وفي هذه الظروف بالذات جدل بينه وبين اليهود، ولم يحدث ذلك إلا بعد الهجرة إلى المدينة. ومن جهة أخرى فقولُه "وأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ" لا يستقيم صرفه إلى اليهود، والنبي في مكة لا علاقة له بيهود المدينة إلا إذا فرضنا أنهم بعثوا إليه من المدينة يتحاكمون لديه في أمر من أمورهم، وهذا لا يركبه السياق هنا! فالآيات التي تلي هذه لا تحتمل تأويلا مثل هذا، وهي قوله "لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا". وعليه فالضمير في قوله: "وَأَنَّ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ" لابد أن يعود على قريش. وإذا نحن استحضرنا أن قريشا كانت منقسمة يومئذ : بعضهم أقام الحصار على النبي وأهله، وبعضهم لم يعجبه ذلك ولم يوافق عليه، الشيء الذي سيجعل بفك الحصار كما سنرى، وجب أن نفهم من قولنا "قريش" في هذا المقام : الفريقين معا، وهما المعنيان بالآيات أعلاه. وسيتأكد هذا في الآيات التالية لها.

مَا اسْتَجِيبَ لَهُ (استجاب للإسلام أئس من أهل مكة وجلهم مهجرون في الحبشة)،
 حَجَّتَهُمْ دَاحِضَةً (ساقطة) عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ¹⁶. اللَّهُ
 الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ¹⁷ (قيامها).
 يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا
 الْحَقُّ. أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ (يشكون) فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ¹⁸. اللَّهُ لَطِيفٌ
 بِعِبَادِهِ، يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ¹⁹. مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ
 (العمل من أجلها) نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا، وَمَا
 لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ²⁰. أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ (آلهة) شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ
 يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ؟ وَلَوْ كَانَتْ كَلِمَةُ الْفَصْلِ (لولا أننا قضينا بأن الفصل يكون يوم القيامة) لَقَضَيْ
 (لَحَكَم) بَيْنَهُمْ (هنا في الدنيا)، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ²¹. تَرَى الظَّالِمِينَ
 مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا، وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ (نازل بهم). وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
 الْكَبِيرُ²²، ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ (به) عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

4- وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ...

قُلْ لَنَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (على الإنذار الذي أقوم به) أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي
 الْقُرْبَى⁽⁶⁾، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ²³. أَمْ

6 - اختلف المفسرون في تفسير المقصود من "المودة في القربى" في هذه الآية. عن ابن عباس قال معناها: "إلا أن تؤدوني في قرابتي منكم؛ أي تراعوا ما بيني وبينكم فتصدقوني" (القرطبي). ومنهم من جعل المعنى هكذا: "لا أسألكم أجرا إلا هذا، وهو أن تؤدوا أهل قرابتي؛ أو: لا أسألكم أجرا قط ولكنني أسألكم أن تؤدوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم" (الزمخشري). وعلى هذا القول الأخير تكلموا كثيرا في موضوع "المودة لقربىة النبي" ورويت أحاديث فيها، من ذلك أن الرسول سئل في إطار هذه الآية: "يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما»، كما رووا حديثا ورد فيه أن علي بن أبي طالب قال: "شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حسد الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وأزواجنا وشمائنا وذريتنا خلف أزواجنا». كما يذكرون حديثا ورد فيه: "حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وأذاني في عترتي. ومن اصطنع صنيعا إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجاز به عليها فاتا أجاز به عليها غدا إذا لقيني يوم القيامة"... انظر مزيدا من مثل هذه الأقوال في (الزمخشري). أما نحن فنرى أن معنى الآية يجب أن يفهم في إطار الظروف التي نزلت فيها. لقد كان الرسول وأهله وأقاربه محاصرين في شعب أبي طالب وقد ضيقت قریش الخناق عليهم، وإذن فطلب الرسول إلى خصوم الدعوة من مشركي قریش أن يراعوا "المودة

يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ (لو كان الأمر كذلك) وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ²⁴. وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ²⁵. وَيَسْتَجِيبُ (يجيب دعاء) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ²⁶. وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ²⁷. وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ⁽⁷⁾، وَهُوَ الْوَكِيُّ الْحَمِيدُ²⁸. وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ²⁹. وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ³⁰. وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ³¹. وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي (السفن) فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ³² (كالجبال) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ (البحر)، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ³³، أَوْ يُوقِعُهُنَّ (يغرق تلك السفن) بِمَا كَسَبُوا (ما اقترفوا، وإن يَشَأْ يُنْجِ تِلْكَ السَّفِينَ) وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ³⁴؛ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ³⁵ (ملجأ: إذا عصفت للرياح بالسفن، أو توقفت وركبت السفن).

5- أخلاق... الشورى

فَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ (من أموال بالتجارة عبر الأراضي والبحار الخ) فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ³⁶، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ³⁷، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ³⁸،

في القبري" في تعاملهم معه. روي عن ابن عباس قوله: "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى": يعني محمدا صلى الله عليه وسلم، قال لقريش: «لا أسألكم من أموالكم شيئا، ولكن أسألكم أن لا تؤذوني لقراءة ما بيني وبينكم، فإتكم قومي وأحق من أطاعني وأجابني». وهذا المعنى ينسجم مع وضعية الحصار الذي وضع فيه النبي وأهله. والملاحظ أن لفظ "القبري" قد جاء مقرونا باليتامي والمساكين وابن السبيل الخ، سواء في القرآن المكي أو المدني. ولم يرد هذا اللفظ قط في القرآن غير مقرون باليتامي والمساكين الخ إلا في هذه الآية. وإن ذكرنا من أخبار حول مكانة قرابة الرسول عليه السلام -أسرته- لا مكان لها هنا كتفسير أو تعليق على الآية التي نحن بصددتها.

7- قالوا نلك إشارة إلى سنوات من الجفاف أصابت قريشا حتى قنطوا وطلبوا من النبي أن يدعو ربه فيسقيهم...

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ (بأن قتل منهم أحد زمن الفتنة مثلا) هُمْ يَنْتَصِرُونَ³⁹ (يأخذون حقهم بالقصاص على أساس:) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا. فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (وهو المرغوب فيه) فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ⁴⁰. وَلَمَنْ اتَّقَصَّرَ (أخذ حقه) بَعْدَ ظَلْمِهِ (بعد أن اعتدي عليه) فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ⁴¹ (لا مؤاخذه عليهم)؛ إِنَّمَا السَّبِيلُ (المؤاخذه والعقاب) عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ. أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ⁴²، وَلَمَنْ صَبَرَ (على حقه) وَعَفَرَ (للمعتدي وعزم على العفو)، إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ⁴³، (من الأمور المستحسنة).

6- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا. إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ...

وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ، وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ (يوم القيامة) يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ (رجوع إلى الدنيا) مِنْ سَبِيلٍ⁴⁴ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا (على النار) خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ؛ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ: (هم) الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ⁴⁵ (مقيم فيهم لا يفرقهم) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ⁴⁶. اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ، مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ⁴⁷ (يستكر ما أنتم فيه ويطلب تغييره). فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا. إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ. وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً (مطرا) فَرَحَ بِهَا، وَإِنْ تَصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ⁴⁸. لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِائًا وَيَنْهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ⁴⁹، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِائًا، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا، إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ⁵⁰ (8).

7- خاتمة: مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ!

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ، إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ⁵¹. وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا (جبريل) مِنْ أَمْرِنَا؛ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ! وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ (القرآن)

8 - لظاهر أن وجه الصلة بين الآيتين 49-50 للخصتين بالإناث والذكور هو الآية 48: فلما كان العرب يتشاعمون من البنات إذا ولدت لهم ويعتبرون ميلاد الذكر حدثا سعيدا فقد وقع ربط الآيات الثلاث بعضها ببعض من حيث أن الجفاف والغيث والبنين والبنات والعقم ... كل ذلك من عند الله.

نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا. وَإِنَّكَ (يا محمد) لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ⁵². صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ؛ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ⁵³.

- تعليق واستطراد

أولاً: فقرات السورة

تتألف السورة من سبع فقرات، حسب توزيعنا. تتناول أركان العقيدة الثلاثة: التوحيد، المعاد، النبوة، مضيفة ركناً آخر بدأ التركيز عليه منذ سورة الأعراف وهو الأخلاق. (الأعراف، الفرقان، الأنعام، لقمان، وفصلت).

1- تبدأ السورة بمقدمة تعلن فيها، كما في أخواتها الحواميم، أن هذا الكتاب الذي يوحى به إلى الرسول محمد (ص) كما أوحى إلى الرسل من قبله: هو من عند إله علي عظيم، هو في السماء العليا، تكاد السماوات يتشققن لعلوه، بينما تنقطع الملائكة إلى تسبيحه وتعظيمه والاستغفار لمن في الأرض.

2- تليها الفقرة الثانية، وفيها تشرح السورة حال مَنْ في الأرض بعد أن أشارت إلى حال مَنْ في السماء: وهكذا ففي مقابل الملائكة المسيحين لله وحده والمستغفرين لمن في الأرض نجد مَنْ بين هؤلاء (الذين في الأرض) مَنْ يتخذ مع الله شركاء. وهذا الفريق من الناس هم تحت مراقبة الله الدائمة. أما أنت يا محمد فليست موكلًا بهم. أنت مهمتك هي أن تبلغ القرآن الذي أنزلنا إليك بلغة القوم الذين كلفناك بإبذارهم -وهم أهل مكة ومن حولها- وتفهمهم أن بعد هذه الحياة بعث يجتمع فيه سائر المخلوقين ليحاسبوا، منهم مَنْ يكون مصيره الجنة ومنهم مَنْ يلقي به في النار. لقد اتخذوا من دون الله أولياء فأبلغهم أن الله هو الولي وأنه يحي الموتى، فإذا اختلفتم في شيء فحكمه إلى الله، خالق السماوات والأرض كما خلق الكائنات الحية بما فيها الإنسان؛ ولضمان استمرار هذه الكائنات إلى أجل مسمى جعلها، وأقم منها، أرؤسًا تتأسلون، يبسط الرزق لمن يشاء ويضيق على من يشاء!

3- وهذا الدين الذي شرع لكم هو نفسه ما وصى به الأنبياء السابقين فخذوه جميعاً ولا تتفرقوا فيه كما تفرق من كانوا قبلكم، بسبب مصالح وحزازات. فإلى هذا الدين ادع يا محمد سالكا الصراط المستقيم. أما الذين يعارضونك بعد أن بدأ هذا الدين ينتشر فحججهم ساقطة ولن ينجحوا، وسينالون جزاءهم يوم " للظالمين جهنم وللمؤمنين الجنة. ومن يأت بحسنة نزده منها.

4- أما أنت فقل لهم: إني لا أطلب منكم أجرا ولكن أطلب فقط أن تراعوا القريبى التي تجمعني بكم وما تقتضيه من المودة. وذكرهم بأن الله يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ويستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات. فليبادر المترددون إلى إعلان إسلامهم قبل قوات الآوان، فكما أن الله يأتي بالمطر بعد القحط وينقذ السفن من الغرق، فهو غفور رحيم يعفو عن كثير.

5- ومن هنا الفقرة الخامسة التي تقرر قواعد أخلاقية تشيد بخصال وفضائل تتكامل مع ما سبق في سورتي الأنعام ولقمان، وهي تخص هذه المرة خصال المؤمنين وهي: الزهد في متاع الدنيا، والتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، وعدم المواخذة فيما يغضب، والاستجابة لله، وإقامة الصلاة، والتشاور في الأمور، وأخذ الحق للقتيل على أساس "جزاء سيئة سيئة مثلها"، والعفو والصلح أفضل، وتجنب الظلم والبغي، والصبر والمغفرة أفضل من الأخذ بالثأر. إن على الرسول أن يدعو إلى التحلي بهذه الخصال. وإذا أعرض عنها المكذبون فعليه أن لا ينزعج، لأن الله لم يرسله عليهم حفيظا رقيبا. **إِنَّ عَلَيْهِ إِلاَّ الْبَلَاغُ**، وأما جزاؤهم فعند الله.

6- وكما جرت العادة تختم السورة باستعادة موضوع المقدمة، فتبين الكيفية التي يوحى بها الله إلى أنبيائه. يقول تعالى: **"وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ"**. والمعنى: ليس لأحد من البشر **"أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ"** على ثلاثة أوجه: (1) إما على طريق الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده ... (2) وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجسام، من غير أن يبصر السامع من يكلمه، لأنه في ذاته غير مرئي. وقوله: **"مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ"**، أي كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب، فيسمع صوته ولا يرى شخصه، وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة. (3) وإما على أن يرسل إليه رسولا من الملائكة فيوحي الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى (الزمخشري). أما ما عدا هذه الطرق الثلاثة، مثل التنجيم والكهنة وادعاء النبوة وما أشبه فكلها كذب. وأما أنت، يا محمد، فقد أوحينا ونوحي إليك بواسطة جبريل، منه عرفت ما الإيمان وما الكتاب، وبهما تهدي إلى الصراط المستقيم.

ثانيا استطراد: مسألة الرؤية والكلام وخلق القرآن

هذا وقد اتخذ المتكلمون هذه الآية (الآية 51، الفقرة الأخيرة) مرجعا لوجهات نظرهم، كل من زاوية مذهبه، خصوصا في مسألتين من أهم مسائلهم :

"مسألة الروية" (إمكانية رؤية الله يوم القيامة) و"مسألة كلام الله". وقد عرض الرازي في تفسيره لهاتين المسألتين رأي المعتزلة ورأي الأشاعرة نورد هاهنا ما قاله بشأنهما، ثم نعقب بما نراه صواباً. قال: "قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أنه تعالى لا يرى (يوم القيامة)، وذلك لأنه تعالى حصر أقسام وحيه في هذه الثلاثة، ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أنه يتكلم مع العبد حال ما يراه العبد، فحينئذ يكون ذلك قسماً رابعاً زائداً على هذه الأقسام الثلاثة، والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله "وَمَا كَانَ لِنَبِّئٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ" إلا على هذه الأوجه الثلاثة! يرد الرازي على رأي المعتزلة -هَذَا- من موقعه كأشعري يقول برؤية الله يوم القيامة فيقول: "تزيد في اللفظ قيداً فيكون التقدير: وما كان لنبي أن يكلمه الله في الدنيا" إلا على أحد هذه الأقسام الثلاثة، وحينئذ لا يلزم ما ذكرتموه." ويضيف: "وزيادة هذا القيد وإن كانت على خلاف الظاهر لكنه يجب المصير إليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية في يوم القيامة!"

هنا لا مفر من القول إن الرازي يقترح الزيادة في لفظ القرآن حتى يصير الحق إلى ما عليه مذهبه. وهذه الزيادة غير جائزة وغير مستقيمة لأن المسألة برمتها مبنية على قوله تعالى: "وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ" (القيامة 22-23)، وقد سبق أن عرضنا لهذه المسألة وبيننا كيف أن التقابل في السياق بين "ناضرة" و"ناظرة" يفيد بأن المطروح ليس مسألة الروية (انظر تفسيرنا للآية وما قلناه في التعليق: سورة القيامة رقم 30 القسم الأول من هذا الكتاب).

وأثار الرازي مسألة كلامية أخرى تخص "كلام الله" فقال: "اجمعت الأمة على أن الله تعالى متكلم. ومن سوى الأشعري وأتباعه، أطبقوا على أن كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والأصوات المؤلفة (التي هي القرآن). وأما الأشعري وأتباعه فإنهم زعموا أن كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف والأصوات. أما الفريق الأول: وهم الذين قالوا كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات فهم فريقان أحدهما: الحنابلة الذين قالوا بقدّم هذه الحروف، وهؤلاء أخس من أن يذكرُوا في زمرة العقلاء" (كذا!!)، وأضاف: "واتفق أنني قلت يوماً لبعضهم لو تكلم الله بهذه الحروف إما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالي؟ والأول باطل لأن التكلم بجمله هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم (نظم القرآن) المركب على هذا التعاقب والتوالي، فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف المتوالية كلام الله تعالى، والثاني: باطل لأنه تعالى لو تكلم بها على التوالي والتعاقب كانت محدثة. ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال: الواجب علينا أن نفر ونمر، يعني نفر بأن القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ما سمعناه. فتعجبت من سلامة

قلب ذلك القائل. وأما العقلاء من الناس فقد أطبقوا على أن هذه الحروف والأصوات (حروف وأصوات القرآن) كائنة بعد أن لم تكن حاصلة، بعد أن كانت معدومة. ثم اختلفت عباراتهم في أنها هل هي مخلوقة، أو لا يقال ذلك، بل يقال إنها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى" واختلفوا أيضاً في أن هذه الحروف هل هي قائمة بذات الله تعالى أو يخلقها في جسم آخر، فالأول: هو قول الكرامية والثاني: قول المعتزلة. وأما الأشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الألفاظ والعبارات فقد اتفقوا على أن قوله "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ..." هو أن الملك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزّه عن الحرف والصوت من وراء حجاب، قالوا وكما لا يبعد أن ترى ذات الله مع أنه ليس بجسم ولا في حيز، فأَيُّ بَعْدٍ في أن يسمع كلام الله مع أنه لا يكون حرفاً ولا صوتاً؟ وزعم أبو منصور الماتريدي السمرقندي أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة، وإنما المسموع حروف وأصوات يخلقها الله تعالى في الشجرة (التي كلم الله موسى عندها) وهذا القول قريب من قول المعتزلة.

ويضيف الرازي: "قال القاضي⁽⁹⁾ هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه الأول: أن قوله تعالى: "أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ" يدل عليه، لأن كلمة "أَنْ" مع المضارع تفيد الاستقبال. الثاني: أنه وصف الكلام بأنه وحي لأن لفظ الوحي يفيد أنه وقع على أسرع الوجوه. الثالث: أن قوله "أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ" يقتضي أن يكون الكلام الذي يبلغه الملك إلى الرسول البشري مثل الكلام الذي سمعه من الله، والذي يبلغه إلى الرسول البشري حادث، فلما كان الكلام الذي سمعه من الله مماثلاً لهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري، وهذا الذي بلغه إلى الرسول البشري حادث، ومثل الحادث حادث، وجب أن يقال إن الكلام الذي سمعه من الله حادث. الرابع: أن قوله "أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ" يقتضي كون الوحي حاصلاً بعد الإرسال، وما كان حصوله متأخراً عن حصول غيره كان حادثاً". ويرد الرازي على كلام القاضي بما يلي: "أنا نصرف جملة هذه الوجوه التي ذكرتموها (=للبهنة على حدوث كلام الله) إلى الحروف والأصوات (=بدل صرفها إلى كلام الله جملة كما فعلتم)، ونعترف بأنها (الحروف والأصوات) حادثة كائنة بعد أن لم تكن. وبديهة العقل شاهدة بأن الأمر كذلك، فأَيُّ حاجة إلى إثبات هذا المطلوب الذي علّمت صحته ببديهة العقل وبظواهر القرآن؟"

ومما يتصل بمسألة قدم أو حدوث "كلام الله"، مسألة "خلق القرآن" وهي في الحقيقة الموضوع الذي يدور عليه ما هو مسكوت عنه هنا. لقد شرحنا بتفصيل

9- ربما يعني القاضي عبد الجبار أحد كبار المعتزلة المتأخرين الذي جمع المذهب في المعنى، وفي الأصول الخمسة...

"مسألة خلق القرآن" وخلفياتها السياسية في كتابنا "المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد"، فليجع عليه. أما هنا فسنقتصر على إجمال الخلاف بين المتكلمين حولها من زاوية "العقيدة"، فنقول:

افترقت آراء المتكلمين وتنوعت في هذه المسألة التي كانت القضية المركزية المحورية في مناقشاتهم ومجادلاتهم في العصر العباسي الأول، إلى درجة أن "علم الكلام" نفسه إنما سمي بهذا الاسم، في رأي بعض مؤرخي الفرق الكلامية في الإسلام، "لأن أظهر مسألة تكلموا فيها وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام" (10)، كلام الله.

والقضية من الناحية العقديّة، هي باختصار كما يلي: كان المعتزلة قد شيدوا مذهبهم على فكرة "التوحيد" المطلق، فنفوا الشريك مع الله من كل جهة، وكان ذلك في أول الأمر رداً على المانوية (نسبة إلى ماني، زعيم ديني فارسي) القائلين بمبدأين للكون: النور والظلمة (الخير والشر). لقد خاض المعتزلة معارك فكرية ضد هذا المذهب فقالوا إن كل ما عدا الله مخلوق له. وعندما طرحت مسألة العلاقة بين ذات الله وصفاته جعلوا الصفات هي عين الذات وذلك فراراً من أن تفهم صفات الله، كالحياة والقدرة والعلم والسمع والبصر والكلام الخ، على أنها زائدة على الذات فتكون قديمة مثلها، الشيء الذي يؤدي إلى تعدد القدماء وبالتالي إلى هدم فكرة التوحيد. وبما أن من صفات الله "الكلام"، والقرآن كلام الله فلا بد أن يكون القرآن "مخلوقاً"، غير قديم، وإلا وقعنا في القول بقديمين، وهذا منافي لفكرة التوحيد.

وفي مقابل القول بـ "خلق القرآن" وكرد فعل ضده قام رجال من أهل السنة الذين كانوا خصوماً للمعتزلة، فرفعوا شعاراً مناقضاً تماماً وهو القول بـ "القرآن غير مخلوق". وكان منهم أولئك المشبهة المتطرفون الذين تصوروا الله على غرار البشر، فقالوا في القرآن إنه قديم أزلي وأن الحروف والأصوات والرقوم المكتوبة قديمة أزلية. وقد برروا ذلك بالقول إن القرآن كلام الله، ولا يعقل كلام ليس بحروف ولا كلم، واستدلوا بأخبار منها ما روي عن النبي عليه السلام: "ينادي الله تعالى يوم القيامة بصوت يسمعه الأولون والآخرون". ورووا: "أن موسى عليه السلام كان يسمع كلام الله كجر السلاسل" (11).

أما التيار السلفي من أهل السنة فقد رفض هذا التطرف في التشبيه والتجسيم وميز بعضهم بين عنصرين في مفهوم الكلام: المعاني وقد عبروا عنها بـ "الكلام النفسي"، أما العبارة عن تلك المعاني فألفاظ وحروف. ثم قالوا: إن

10 - الشهرستاني، الملل والنحل. ج1، ص وما بعدها 92، القاهرة 1968

11 - نفس المرجع ص 106

المقصود بقولنا: "القرآن غير مخلوق"، هو معانيه أي كلام الله النفسي، أما الألفاظ فهي مخلوقة. من هؤلاء أبو الحسن الأشعري الذي أراد الخروج بمذهب وسط فميز بين الدلالة والمدلول في عبارة "القرآن كلام الله": فالألفاظ والعبارات المنزلة على لسان جبريل إلى النبي عليه السلام دلالات على الكلام الأزلّي، وهي مخلوقة. أما المدلول، أي المعنى، فهو قديم غير مخلوق. وشبه القراءة والمقروء بالذكر والمذكور، فالقراءة مخلوقة مثلها مثل الذكر. أما المقروء فقديم غير مخلوق مثله مثل المذكور⁽¹²⁾! وبهذا المعنى يكون المتكلم هو "من قام به الكلام"⁽¹³⁾، وليس من فعل الكلام كما يقول المعتزلة.

أما المعتزلة فقد جعلوا مسألة "كلام الله" متفرعة عن باب "صفات الأفعال"، فالكلام عندهم فعل، "لأنه يصح أين يقع على وجه فيقبح، وعلى وجه آخر فيحسن، وما هذه خاصيته هو من باب "العلل". فمن عدل الله "أنه أنزل القرآن على نبيه "ليكون علما ودالا على نبوته، وجعله دلالة لنا على الأحكام لنرجع إليه في الحلال والحرام". فهو بهذا المعنى "مفعول" لنا، وما هو مفعول فهو مخلوق. وهذا المخلوق الذي نسمعه اليوم ونتلوه، وإن لم نقل إن الله أحدثه وخلق على الحقيقة، فهو مضاف إليه على الحقيقة، كما يضاف إلى امرئ القيس على الحقيقة ما ننشده اليوم من شعره، وإن لم يكن مُحَدِّثاً له الآن"⁽¹⁴⁾. على أن من المعتزلة من حسم في الأمر فقال: القرآن مخلوق لفظاً ومعنى. هو "مخلوق لفظاً" لأنه مركب من حروف والمركب محدث. وهو "مخلوق معنى"، لأنه أمر ونهي وأحكام وأخبار الخ، موجهة إلى مخاطبين مخلوقين. وقال آخرون منهم: "إن الله تعالى خلق القرآن في اللوح المحفوظ، ولا يجوز أن ينقل (إلينا)، إذ يستحيل أن يكون الشيء الواحد في مكانين في حالة واحدة. (وبالتالي فما) نقرأه فهو حكاية عن المكتوب الأول في اللوح المحفوظ، وذلك فعلنا وخلقنا"⁽¹⁵⁾.

هذا النزاع العقدي حول كون القرآن "مخلوقاً" أو قديماً غير مخلوق، كانت وراءه خلفية سياسية هي وحدها تعطي المعنى لأصول هذا النزاع ولما انتهى إليه من محنة، كان حجمها وعواقبها أكبر كثيراً مما يمكن أن يتصوره من يقف في هذه المسألة عند هذه النقطة (انظر التفاصيل في كتابنا للمذكور).

12 - الشهرستاني. نفس المرجع.

13 - أي الذي يمارس عملية الكلام، دون أن يعني ذلك أنه هو الذي يخلق كلامه، ومثل ذلك قولنا: عالم، فهو من قام به العلم، أي اتصف بالعلم، وليس الذي خلق العلم في نفسه.

14 - القاضي عبد الجبار بن أحمد. شرح أصول المعتزلة. تحقيق عبد الكريم عثمان. مكتبة وهبة. القاهرة 1965، ص 528

15 - الشهرستاني المرجع نفسه نفسه ص 70

62- سورة الزخرف

- تقديم

وردت أخبار عن لقاءات واعتراضات ربطوها ببعض آيات هذه السورة. من ذلك: قول بعضهم إن قريشا قالت: قَيِّضُوا لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ رَجُلًا يَأْخُذُهُ، فَيَقْيِضُوا لِأَبِي بَكْرٍ طَلْحَةَ، فَأَتَاهُ وَهُوَ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِيَّاهُ تَدْعُونِي؟ قَالَ أَدْعُوكَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا اللَّاتُ قَالَ: رَبِّنَا! قَالَ: وَمَا الْعُزَّى قَالَ: بَنَاتُ اللَّهِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَمَنْ أَمَهُمْ؟ فَسَكَتَ طَلْحَةُ وَلَمْ يَجِبْهُ. فَقَالَ طَلْحَةُ لِأَصْحَابِهِ: أَجِيبُوا الرَّجُلَ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَقَالَ طَلْحَةُ: قُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ وَ"مَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا" الْآيَةَ. وَمِنْ ذَلِكَ مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقُرَيْشٍ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِيهِ خَيْرٌ؛ فَقَالُوا: أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عِيسَى كَانَ نَبِيًّا وَعَبْدًا صَالِحًا وَقَدْ عُبِّدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ "وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا" الْآيَةَ. وَقَالُوا: بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ بَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَسْتَارِهَا، فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: أَتُرُونَ اللَّهَ يَسْمَعُ كَلَامَنَا؟ فَقَالَ آخَرُ: إِذَا جَهَرْتُمْ سَمِعَ وَإِذَا أَسْرَرْتُمْ لَمْ يَسْمَعْ، فَتَزَلَّتْ: "أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ" الْآيَةَ. هَذَا وَقَدْ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي الثَّامِنَةِ أَوْ التَّاسِعَةِ. وَهَذَا يَتَسَقَّى مَعَ تَرْتِيبِنَا لِلْحَوَامِيمِ بِوَصْفِهَا نَزَلَتْ فِي فِتْرَةِ الْحَصَارِ الَّذِي دَامَ مِنَ السَّابِعَةِ إِلَى حُدُودِ الْعَاشِرَةِ لِلنَّبِوَةِ.

- نص السورة

1- مقدمة: إنه في أم الكتاب ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَمْ¹. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ². إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ³ (تفهمون).
وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ⁽¹⁾ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ⁴ (مكانته عندنا رفيعة وهو مملوء حكمة).

1- قيل: "أم الكتاب" هو اللوح المحفوظ. انظر التعريف بالقرآن. الفصل الثامن. فقرة 2

2- وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا. وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَدْنَاهُمْ!

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ⁵ (2). وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ⁶، وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ⁷، فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ (من قريش) بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ⁸ (سبق أن تحدثنا عنهم). وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ⁹. (هو) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (فراشا وبساطا)، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (للعيش) لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ¹⁰؛ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ (بقدر الحاجة) فَأَنْشَرْنَا (أحيينا) بِهِ بَلَدًا (أرضاً) مَيِّتًا، كَذَلِكَ تَخْرُجُونَ¹¹ (من قبوركم عند قيام الساعة كما يخرج النبات من الأرض)؛ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا (السماء والأرض، الذكر والأنثى الخ)، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ¹² لَتَسْتَوتُوا عَلَى ظُهُورِهِ (المركب)، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ¹³ (مطيقين، ضابطين)، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ¹⁴! (ومع هذه الدلائل البينة على وحدته فإن قريشا أشركوا بالله): وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا (نصيباً هم: الملائكة سموها بنات الله)⁽³⁾! إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ¹⁵. أَمْ اتَّخَذَ (هل اتخذ الله) مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم (اختصكم) بِالْبَنِينَ¹⁶ (لكونكم تفضلون البنين على البنات)؟ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا (إذا أخبر بأنه ولدت له بنت) ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ¹⁷ (حزيناً متسائلاً باستكار: هل ولدت لي أنثى؟ مبرراً استكاره بالقول) أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ (الزينة) وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ؟ (هو ما ولد لي؟)⁽⁴⁾.

2- اختلف المفسرون في هذه الآية، وأقرب الأقوال إلى المعنى في نظرنا هو قول من قال: "أفَنَمْسُكُ عَنْ انْتِزَالِ الْقُرْآنِ فَلَا نَنْزِلُهُ عَلَيْكُمْ لِأَنْتُمْ لَا تَوْمِنُونَ بِهِ؟".

3- اختلف المفسرون في معنى "الجزء" هنا. قال بعضهم "الجزء عند أهل العربية يعني البنات". وقد تحفظ صاحب لسان العرب على هذا وقال: "قال أبو إسحاق: وقد أنشدت بيتاً يدل على أن معنى جزءاً معنى الإناث، قال: ولا أدري البيت هو قديم أم مصنوع". ثم ذكر المعنى الذي أثبتناه أعلاه. أما الزمخشري فقال: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به، وقد جعلوا له، مع ذلك الاعتراف، من عبادته جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى "مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا" أَنْ قَالُوا الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، فَجَعَلُوهُمُ جُزْءًا لَهُ وَبَعْضًا مِنْهُ، كَمَا يَكُونُ الْوَلَدُ بَضْعَةً مِنْ وَالِدِهِ وَجُزْءًا لَهُ". وأضاف: "ومن بدع التفاسير: تفسير الجزء بالإناث، وادعاء أن الجزء في لغة العرب: اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث منحول".

4 - شرح المفسرون هذا الآية بما يفيد أن قائل معناها هو الله تعالى. واختلفوا: بعضهم يجعل معناها أن الله يتساءل -باستفهام إنكاري- هل تَخْصُونَ اللَّهَ بِالْمَرْأَةِ الَّتِي تَنْشَأُ فِي-

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا! أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ (كيف عرفوا أنهم إناث وليسوا نكورا؟) (5) سَكَتَتْ شَهَادَتُهُمْ (تلك) وَيَسْأَلُونَ (عنها يوم القيامة) (6). وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ (6). مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا

الزينة وتنشغل بها ولا تعرف كيف تجادل ولا كيف تقنع؟ ومنهم من قال إن المقصود هم أصنام قريش المصنوعة من الحلي، ذهباً وفضة، والتي لا تتكلم ولا تجيب. ونحن نرى أن المسائل المتعجب في قوله تعالى: "أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ؟" هو نفسه الذي ذكرته الآية السابقة لهذه مباشرة والذي قالت عنه: "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ"، بمعنى أن "أحدهم"، هذا، هو نفسه الذي تساءل، مبرراً حزنه وتشاؤمه، من ازدياد بنت لديه. وتتضح الصورة أكثر لو وضعنا قبل "أو من ينشأ..." كلمة: "قائلاً" أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين"، يعني الأثني، والاستفهام هنا إنكاري. والفرق بين ما ذهب إليه المفسرون وبين ما قررنا هو أن نسبة ذلك الكلام عن البنت إلى الله فيه تحقير للمرأة أو على الأقل صدور عن رؤية تحط من شأنها. أما ما قررناه فهو ينسب ذلك الكلام إلى الإنسان، إلى قريش، وهذا فعلاً يعكس نظرهم إلى المرأة.

5- معروف أن لفظ "الملائكة" بالعربية هو جمع ملاك وهذا مفرد مذكر. وكلمة "ملاك" عبرية، ولعلها من الألفاظ المشتركة في اللغات السامية. وقد وردت في التوراة بهذه الصيغة maleak وتعني ما تعنيه في الإسلام: الملائكة رسل الله. ففي التوراة بصدد طرد آدم من الجنة: "23 فَأَخْرَجَهُ مِنْ جَنَّةٍ عَدْنٍ لِيَقْلَعَ الْأَرْضَ الَّتِي أَخَذَ مِنْ تَرَابِهَا. 24 وَهَكَذَا طَرَدَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ مِنْ جَنَّةٍ عَدْنٍ، وَأَقَامَ مَلَائِكَةَ الْكُرُوبِيمِ وَسِيفًا نَارِيًّا مُتَقَلِّبًا شَرْقِيَّ الْجَنَّةِ لِحِرَاسَةِ الطَّرِيقِ الْمُنْفِصِيَةِ إِلَى «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ». (التكوين 3). والكروبيم جمع كروب بالعبرية cherub والجمع بالعربية "كرويون" ملائكة يقيمون جنب حضرة الله يرسلهم إلى حيث يشاء ولهم أجنحة (قارن: الملائكة المقربون). وفي التوراة عن حلم يعقوب: "12 وَرَأَى حُلُمًا شَاهَدَ فِيهِ سَلَامًا قَائِمَةً عَلَى الْأَرْضِ وَرَأْسُهَا يَمَسُّ السَّمَاءَ، وَمَلَائِكَةُ اللَّهِ تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ عَلَيْهَا، 13 وَالرَّبُّ نَفْسُهُ وَقَفَ فَوْقَهَا يَقُولُ: «أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَقَ» (التكوين 28). وهناك غير الكروبيين من الملائكة، منهم ملائكة الهلاك: "وَأُطْلِقَ عَلَيْهِمْ حَمَلَةً مِنْ مَلَائِكَةِ الْهَلَاكِ. (المزامير 49)، و"مَلَائِكَةُ الْقُدِّيسُونَ (المزامير 5)، و"مَلَائِكَةُ السَّرَافِيم، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ، يقيمون بالحضرة الإلهية يسبحون"، (إشعيا). وأيضاً الساقطين: "21 ذَلِكَ الْيَوْمَ يُعَاقِبُ الرَّبُّ الْمَلَائِكَةَ السَّاقِطِينَ فِي السَّمَاوَاتِ، وَالْمُلُوكَ الْمُتَغَطِّسِينَ عَلَى الْأَرْضِ (إشعيا).

6 - اختلف المفسرون حول الآية بسبب الانتماء المذهبي فالقرطبي خصم المعتزلة يفسرها بقوله: قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية: لو شاء الرحمن على زعمكم ما عبدنا هذه الملائكة. وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل وكل شيء بإرادة الله، وإرادته تجب وكذا علمه فلا يمكن الاحتجاج بها؛ أما الزمخشري المعتزلي فهو يرفض هذا الرأي وينسبه للمجبرة الذين ينفون عن الإنسان حرية الإرادة. يقول: "فإن قلت: ما أنكرت على من يقول:="

يَخْرُصُونَ²⁰. أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ (القرآن) فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ²¹؟ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (على طريقة ومذهب)، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ²². وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِنَّا قَالَ مُتَرْفَوْهَا (أغنياؤها) إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ (مذهب وطريقة)، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ²³. (وَإِذَا قَالَ (النذير لهم) أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ بِهَادِيٍّ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ (أَتَقْلِدُونَهُمْ مع ذلك؟) قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ²⁴. فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ²⁵. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ²⁶. إِنَّا (لَكِنْ) الَّذِي فَطَرَنِي (خَلَقَنِي) فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي²⁷. وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ (أَي قَوْلِهِ ذَلِكَ) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ²⁸ (إِلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ)، بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ²⁹. وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ³⁰.

3- فَاسْتَمْسَكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ...

وَقَالُوا (قريش) لَوْلَا (هَلَا) نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ³¹ (من عظماء مكة أو الطائف). أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ (أَي النبوة)؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا (يسخر الأغنياء من الأفقر غنى)، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ (النبوة) خَيْرٌ

قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، ولو قالوه جادين لكانوا مؤمنين؟ قلت: لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين، وادعاء ما لا دليل عليه باطل. على أن الله تعالى قد حكى عن ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر، أنهم جعلوا له من عباده جزءاً، وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين، وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثاً، وأنهم عبدوهم وقالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم، فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء: لكان النطق بالمحكيات قبل هذا المحكى الذي هو إيمان عنده، لو جدوا في النطق به، مدحا لهم من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء؛ فبقي أن يكونوا جادين، وتشترك كلها في أنها كلمات كفر. فإن قالوا: نجعل هذا الأخير وحده مقولاً على وجه الهزء دون ما قبله! فما بهم إلا تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لتسوية مذهبهم الباطل. ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزءاً لم يكن لقوله تعالى: "مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ" معنى، لأن من قال لا إله إلا الله على طريق الهزء: كان الواجب أن ينكر عليه استهزأؤه ولا يكذب، لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جاداً كان أو هازئاً. قلت (الجابري): وفي رأينا أن الآية واضحة: القرآن يقول عنهم إن ما قالوه عن كون الملائكة إناثاً وكونها بنات الله ليس لهم به علم بل هم يخرصون، أي يتكهنون ويخمنون. فهم في الحقيقة لم يقولوا ذلك على سبيل الاستهزاء بل بسبب تقليدهم آباءهم، إن موقفهم الحقيقي هو قولهم لاحقاً: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، وقولهم للرسول عليه السلام مثل الذي قالته الأقوام الماضية لرسولهم أي: "إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ".

مِمَّا يَجْمَعُونَ³² (من الأموال). وَلَوْنَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (مترفين كافرين) لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَانِ لَبِئُوتَهُمْ سَفَقًا مِنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ (درجا) عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ³³ (وهم في الأعالي)، وَلِبِئُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكِنُونَ³⁴، وَزُخْرَفًا، وَإِنْ (وما) كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا (إلا) مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ³⁵. وَمَنْ يَغْشَ (يعرض) عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ³⁶. وَإِنَّهُمْ (الشياطين) لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ³⁷، حَتَّى إِذَا جَاءَنَا (الكافر يوم القيامة) قَالَ (لِلشيطان قرينه): يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدُ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ³⁸. وَكَانَ يَفْعَعُكُمُ الْيَوْمَ (يا قريش) إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ³⁹ (مع شياطينكم). أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ⁴⁰. فَمَا نَذَرْتَنِي بِكَ (نتوفاك)، فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ⁴¹ (من بعدك)، أَوْ نَرِيكَ (مصيرهم في الدنيا) الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ، فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ⁴². فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ⁴³. لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ⁴⁴. وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا (اسأل أهل الكتاب) أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ⁴⁵ (7).

4- فرعون استخف يعقول قومه فأطاعوه...

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ⁴⁶. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ⁴⁷. وَمَا نَرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ (معجزة) إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا، وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ (الجفاف للطوفان: الآيات التسع) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (عن الكفر)⁴⁸. وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ (من إزالة العذاب إذا آمنّا) إِنَّا لَمُهْتَدُونَ⁴⁹. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَتَكَبَّرُونَ⁵⁰. وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ: يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مَلَكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ⁵¹؟ أَمْ (تبصرون أني) أَنَا خَيْرٌ مِنْ (موسى) هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ (ضعيف) وَلَنَا يَكَادُ يُبِينُ⁵². فَلَوْنَا (هلا) أَلْقَى عَلَيْهِ (إن كان صادقاً) أَسُورَةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ⁵³ (ملازمين يشهدون بصدقه)! فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ (اعتبرهم ضعاف العقول) فَأَطَاعُوهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ⁵⁴. فَلَمَّا آسَفُونَا (أغضبونا) انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ (قومه) أَجْمَعِينَ⁵⁵. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا (عبرة للأولين) وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ⁵⁶.

7 - انظر موقف التوراة والإنجيل من الأصنام في الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة الثالثة.

5- قالوا عن عيسى: أَلَهْتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ قل: هو عبد جعلناه مثلاً...

وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا، إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ⁵⁷ (انظر التقديم).
 وَقَالُوا أَلَهْتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ (هذا مثل) مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا (من أجل إحراجك)، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ⁵⁸ (هم خصوم لك وأعداء). إِنَّ هُوَ (عيسى) إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ⁵⁹ (آية وعبرة يستدل منها على أنه رسول من الله إليهم، وليس ابن الله كما تقول النصارى). وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ⁶⁰ (يكونون بدلا عنكم). وَإِنَّهُ (=القرآن) لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ (يخبركم بها وبأحوالها)، فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا (تتشكون فيها)؟ وَاتَّبِعُونِي (أطيعوني)، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ⁶¹. وَلَآ يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ⁶². وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي⁶³. إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ⁶⁴. فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ (اختلفت فرقهم هل هو الله أم ابنه)، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ⁶⁵. هَلْ يَنْظُرُونَ (ينتظرون) إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ⁶⁶. الْأَخِلَّاءُ (الأصدقاء) يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ⁶⁷، (يقال لهم) يَا عِبَادِ لَا خِزْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَخَزِنُونَ⁶⁸، (إنهم) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ⁶⁹ (يقال لهم): ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ⁷⁰ (تكرمون). يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ⁷¹. وَتِلْكَ (هي) الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْرَثْنَاهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁷²، لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ⁷³. إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ⁷⁴. لَا يَفْتَرُ (يخفف) عَنْهُمْ، وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ⁷⁵ (صامتون يائسون). وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ⁷⁶. وَبَادُوا يَا مَلَكُ (خازن جهنم) لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ! قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُوثُونَ⁷⁷. لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ، وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ⁷⁸. أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا (هل دبروا مكيدة للرسول⁸¹) فَإِنَّا مُبْرَمُونَ⁷⁹ (مُحْكَمُونَ الحماية لك)؟ أَمْ يَخْسِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ؟ بَلَى! وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ⁸⁰. قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ⁸¹ (لهذا الولد لو كان له فعلا ولد). سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ⁸². فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَأْتِيَ الْيَوْمَ الَّذِي يَوْمَعُونَ⁸³.

6- خاتمة: قال الرسول رب هؤلاء قوم لا يؤمنون! الجواب: اتركهم!

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ⁸⁴.
وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ
تَرْجَعُونَ⁸⁵. وَكَأَيُّ مَلَكٍ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ⁽⁹⁾ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ
يَعْمُونَ⁸⁶. وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ⁸⁷. وَقِيلَ لَهُ (قال
الرسول) يَارَبَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ⁸⁸. فَاصْفَحْ عَنْهُمْ (أعرض عنهم ولا
تتشغل بهم ولا تحزن عليهم) وَقُلْ سَلَامٌ (اتركهم ولمض في طريقك) فَسَوْفَ
يَعْمُونَ⁸⁹.

تعليق

تكاد هذه السورة تقتصر على الرد على اعتراضات قريش على الركن
الأساس في العقيدة المحمدية وهو "التوحيد". والاعتراضات التي تحتج بها قريش هنا
ليست بنت ساعته، فقد سبق أن ردت عليها سور سابقة. وهذه مسألة عامة، ذلك
أنه نادرا ما يأتي الرد في القرآن المكي على ما تقول قريش في الحين، فالأمر يتعلق
بالعقائد، وعرضها والدفاع عنها لا يكون مرة واحدة، بل هي موضوع جدل متكرر.
ولما كان الرسول، في هذه المرحلة، محاصرا في شعب أبي طالب فلنا أن نفترض أن
تكرار هذه السور (الحواميم) للرد على اعتراضات قريش هو من أجل تسليته وتثبيت
فؤاده. وهذا واضح من تكرار دعوته إلى الصبر وعدم اليأس وانتظار الفرج.

ولعل هذه السورة ومثيلاتها نموذج من "علم الكلام" مارسته قريش قبل أن
يظهر هذا "العلم" بنحو قرن من الزمان؟ ومن الأمثلة التي يمكن تصنيفها ضمن "علم
الكلام" القرشي، قولهم في هذه السورة: "وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ"
(الآية 20). وهذا تلبيس وتغطية للسبب الحقيقي، وهو تقليدهم لآبائهم وعدم قدرتهم
التحرر مما وجدوهم عليه، وقد كشفت السورة الغطاء عنه حينما ردت عليهم "بَلْ
قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ" (الآية 22). ومن ذلك
أيضا قولهم "لَوْ كُنَّا نُنْزِلُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْفَرِثَيْنِ عَظِيمٍ" (الآية 31) حتى
يتبعهما الناس، مشيرين بذلك إلى كون الرسول عليه السلام ليس من الأغنياء وأنه

9- روي أن نفرا من قريش قالوا: إن كان البعث حقا كما يقول محمد فنحن نعيد الملائكة،
فهم أحق بالشفاعة منه، فجاء الجواب: الملائكة لا يشفعون إلا لمن آمن بالبعث والحساب
والجزاء وشهد أن ذلك حق وتصرف على أساسه.

بسبب ذلك لم يتبعه إلا الفقراء من المولى والعبيد وبعض أبناء القبائل الصغيرة الخ. وترد عليهم السورة : ومتى كان الغنى أساسا للنبوة؟ إن الغنى مصدر الفرقة، فالأكثر غنى يسخر ويستعزئ بالأقل غنى، وهل رأيتهم غنيا اجتمع عليه الأغنياء وأحبوه واتبعوه؟ أليست العلاقة بين الأغنياء علاقة تنافس وتطاحن؟ إن النبوة التي يطلبون رحمة، وهم بغناهام يقعون خارج نطاق هذا النوع من الرحمة! قال تعالى: "أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ (أي النبوة)؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (يسخر الأغنياء من الأقل غنى)، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (الآية 32). ثم تلتفت السورة إلى النبي (ص) بعد أن عيروه ضمينا بالفقر وضعف المنزلة فتخاطبه بما يثبت فؤاده ويشد من عضده، قال تعالى: "فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"⁴³. وَإِنَّهُ لَذَكَرُكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ" (الآية 44).

ومن ذلك أيضا قولهم: إذا كان النصارى وهم من أهل الكتاب يعتقدون في عيسى أنه ابن الله ويعبدونه فلماذا تنكر علينا اعتقادنا في الملائكة أنها بنات الله وتطلب منا ترك عبادتها هي والأصنام التي نقيمها تماثيل لها كما يقيم النصارى تماثيل وصورا لعيسى ومريم ويعظمونهما؟ وقد ردت عليهم السورة بأن هذا المثل الذي ضربتموه هو قول جدلي محض لا يراد به البحث عن الحقيقة وإنما المقصود منه إحراج الخصم. ذلك أن الدين الذي جاء به عيسى هو نفسه دين إبراهيم كما ورد في التوراة، أما ما أنعم به الله على عيسى من الآيات والمعجزات فهي لإفناع بني إسرائيل أنه فعلا مبعوث من عند الله، فهو في هذا مثل موسى الذي أنعم عليه الله بسبع آيات معجزات: ذلك ما عبرت عنه السورة بقوله تعالى: "وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا، إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ"⁵⁷. وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ (هذا مثل) مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا

63- سورة الدخان

- تقديم

لم يرد في شأن هذه السورة ما يستحق الذكر سوى خبر ربطه كثير من المفسرين بقوله تعالى: "فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ، هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ" (الآيات 10-12) هذا الخبر مفاده - حسب رواية عبد الله بن مسعود وقد ذكرها البخاري - "أَنْ قَرِشُوا أَبْطَوْا عَنِ الْإِسْلَامِ، فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ (ص) فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبِعِ يَوْسُفَ؛ فَأَخَذْتَهُمْ سَنَةً (من الجفاف) حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ، وَبَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ، فَجَاءَهُ أَبُو سَفْيَانَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، جَنَّتْ تَأْمُرُنَا بِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنْ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللَّهَ. فَقَرَأَ: "فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ - إِلَى قَوْلِهِ - عَائِدُونَ" (الدخان: 10 - 15) (قال ابن مسعود) أَفْكَشَفَ عَنْهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ إِذَا جَاءَ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: "يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى" (الدخان: 16) يَوْمَ بَدْرٍ. وَاضِحٌ مِنَ الرِّوَايَةِ (ذكر غزوة بدر) أَنَّ أَحْدَاثَهَا تَنْتَمِي إِلَى الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ، أَمَا السُّورَةُ فَهِيَ مَكِّيَّةٌ بِاتِّفَاقٍ، أَمَا الْقَوْلُ بِأَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْآيَاتِ مَدَنِيَّةٌ، فَقَوْلٌ غَيْرُ مُعْتَبَرٍ، خُصُوصًا وَالسُّورَةُ مَبْنِيَّةٌ كُلُّهَا حَوْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ، كَمَا سَيَتَضَحُّ فِي "التعليق".

- نص السورة

1- مقدمة: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ

باسم الله الرحمن الرحيم
 حم¹، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ²، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ⁽¹⁾، إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ³.
 فِيهَا يُفْرَقُ (ينزل) كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ⁴ (2): أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ⁵ رَحْمَةً

1- فسرها معظم المفسرين بأنها "ليلة القدر" وذلك بناء على قوله تعالى: "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ" (البقرة: 185). وقوله: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ" (القدر: 1). واختلفوا في سورة القدر: هل هي مكية أم مدنية؟ ونحن قد رجحنا هذا القول الأخير فاعتبرناها مدنية وسنشرح ذلك في حينه. أما الآية أعلاه فهي والسورة التي وردت فيها

(نبوة) مِنْ رَبِّكَ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ⁶؛ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ⁷. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ⁸.

2- اَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ، إِنَّا مُنْتَظِمُونَ.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ⁹ (ويستهزئون مما ينذرهم به القرآن من الوعيد). فَاَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ¹⁰ يَغْشَى النَّاسَ (كغيار الرمل الذي تعرفه جزيرة العرب فيقولون): هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ¹¹، (قد يقولون) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ (عذاب الدخان) إِنَّا مُؤْمِنُونَ¹². (وحينئذ سنقول) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى (لو استجيبنا لطلبهم هل سيوفون بما قالوا) وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ¹³ (ولم يؤمنوا)، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ (له من يعلمه) مَجْنُونٌ¹⁴؟ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا، إِنَّكُمْ عَائِدُونَ¹⁵ (إلى تكتيكم وكفركم)! يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى (يوم القيامة) إِنَّا مُنْتَقِمُونَ¹⁶.

3- أَغْرَقْنَا قَوْمَ فِرْعَوْنَ... فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ...

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ¹⁷، (موسى: قال لهم) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ (أعطوني بني إسرائيل) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ¹⁸، وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ¹⁹، وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِي²⁰، وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِي²¹ (اتركوني وشأني ولا تقتلونني). فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَوِّلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ²²، (فكان الجواب:) فَاسْرِ بِعِبَادِي (أخرج ببني إسرائيل) لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ²³ (يتبعكم فرعون وجنده)، وَاتَّركَ الْبَحْرَ رَهْوًا (يبسا) إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ²⁴ (3). كَمْ تَرَكُوا (جند فرعون،

مكيتان. وعليه فالليلة المباركة هي التي نزل فيها جبريل بـ"اقرأ باسم ربك" الخ، على الرسول في غار حراء.

2- نظير قوله تعالى عن سورة القدر: "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (القدر 4).

3- تقوم السورة هنا بالتذكير بقصة فرعون، من خلال ذكر وقائع منها، فقد سبق أن عرضت في سور سابقة. وهكذا فقولهُ "اترك البحر رهوا" تذكير بقوله تعالى في سورة الشعراء: "فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ، فَاثْلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ" (الشعراء 63-66). والمعنى اضرب بعصاك في البحر ينشق فيه طريق يابس عريض كالجبل لتجتاز أنت=

مِنْ وَرَائِهِمْ بَعْدَ غُرْقِهِمْ) مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ²⁵، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ²⁶، وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ²⁷؟ كَذَلِكَ (حصل)، وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ²⁸. فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ²⁹ (ممهلين حتى يتوبوا). وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ³⁰: مِنْ فِرْعَوْنَ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنْ الْمُسْرِفِينَ³¹، وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ (بني إسرائيل)، عَلَى عِلْمٍ⁽⁴⁾، عَلَى الْعَالَمِينَ³²، وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْأَيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ³³.

4- إنما يسرناه بلسانك وبطريقة التجوز فيه... لعلهم يتذكرون.

إِنَّ هَؤُلَاءِ (قريش) لَيَقُولُونَ³⁴ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ³⁵ (بمبعوثين) فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ³⁶! أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبَعَ (5) وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ! إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ³⁷. وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ³⁸، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ³⁹. إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ مِيقَاتَهُمْ أَجْمَعِينَ⁴⁰، يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى (سيد) عَنْ مَوْلَى (عبد، والعكس) شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ⁴¹ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ، إِنَّهُ هُوَ الْغَزِيُّزُ الرَّحِيمُ⁴². إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ⁴³، طَعَامُ النَّائِمِ⁴⁴ (الناجس)⁽⁶⁾، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ⁴⁵، كَغَلِي الْحَمِيمِ⁴⁶ (الماء الحار جدا: يقال لخزنة جهنم) خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ (جروه) إِلَى سَوَاءٍ (وسط) الْجَحِيمِ⁴⁷، ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ⁴⁸، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ

وقومك، واترك الطريق وراءك يابسة كي يدخلها جند فرعون الذين يطاردونك، فسنعيد الماء إلى وضعه ويغرقون...

4- المعنى: كقولنا اليوم "ونحن نعرف ما نفعل". والمعنى الكلي: اخترنا إنقاذ بني إسرائيل من طغيان فرعون دون غيرهم - ونحن ننوي تخصيصهم بآيات ونبوات كي نختبرهم: هل يستقيمون ويشكرون؟ أم أنهم سيزيغون ويضلون؟ وبما أن هذا قد ورد في خطاب موجه إلى قريش فمن الواضح أنه يقدم لهم مثال بني إسرائيل ليأخذوا منه العبرة. ذلك أن الله قد خص قريشا فاختر منهم رسولا وأصبحوا هم أيضا "أهل كتاب" كي يختبرهم كما اختبر بني إسرائيل.

5 - ملوك اليمن: كانوا يسمون التبابعة. فَتَبَعَ لَقِبَ لِلْمَلِكِ مِنْهُمْ مِثْلَ كِسْرَى عِنْدَ الْفُرسِ.

6 - قال المفسرون: "وشجرة الزقوم: شجرة خلقها الله في جهنم، فإذا جاع أهل النار التجنوا إليها فاكلوا منها، فغلطت في بطونهم كما يغلي الماء الحار. وشبه ما يصير منها إلى بطونهم بالمهْل، وهو النحاس المذاب". والمعنى هنا هو أبو جهل الذي سبق أن سخر منها وقال: الزقوم هو التمر والعسل. وكان يكنى: "أبا الحكم" ويقول عن نفسه إنه أعز من في مكة فخاطبته الآية "ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ".

الكَرِيمُ⁴⁹. إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ⁵⁰ (تسكون فيه في الدنيا). إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ⁵¹، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ⁵²، يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ⁽⁷⁾ مُتَقَابِلِينَ⁵³. كَذَلِكَ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ⁵⁴ (8)، يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ⁵⁵، لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى (في الدنيا، وبعدها هم خالدون في الجنة) وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ⁵⁶: فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ⁵⁷.

5- خاتمة: إنما يسرنا القرآن بلساتك لعلمهم يتذكرون...

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ (القرآن) (9) بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ⁵⁸، فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ⁵⁹.

- تعليق

تناولت هذه السورة، بعد المقدمة، موضوعاً واحداً هو موضوع المعاد. أما المقدمة فتشير لأول مرة حسب ترتيب النزول إلى أن القرآن نزل في "ليلة"، اقتضت السورة على وصفها بـ"مباركة"، فلم تطلق عليها اسماً ولم تحدد لها تاريخاً، ولم تبين هل هي ليلة فريدة وحيدة أم أنها تتكرر. وقد رجح كثير من المفسرين أنها "ليلة

7 - السُّنْدُسُ: ما رَقَّ من الديباج. والإِسْتَبْرَقُ: ما غلظ منه. والديباج ثياب منقوش: فارسي.
8 - "والحور: البيض؛ جمع حوراء. والخوراء: البيضاء التي يرى ساقها من وراء ثيابها، ويرى الناظر وجهه في كعبها كالمرآة من دقة الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون" (القرطبي).

9- المعنى أن هذا الذي قلناه عن مشاهد القيامة والجنة والنار قد عبرنا عنه باللسان العربي ومعهود العرب اللغوي والحضاري العالم، من ذلك استعمال المثال والمجاز والتشبيه والتشخيص الخ، كل ذلك من أجل أن نقربه لأفهامهم ويكون يسير الفهم عليهم. قلت (الجابري): هذا يعني أن ما ذكر من نعيم الجنة مثالات لما سيكون، معبراً عنه وفق معهود العرب، أما حقيقة ما سيكون، وفق أنواع المعهود لجميع البشر منذ الخليفة إلى يوم القيامة، فعلمه عند الله! هذا وقد لاحظ الشاطبي أن الله خاطب العرب بما يعرفون ولم يخاطبهم بما لا يعرفون، وقال في شأن ما وصف به القرآن نعيم الجنة: "وأخبروا عن نعيم الجنة وأصنافه بما هو معهود في تنعماتهم في الدنيا، لكن مبرأ من الغوائل والآفات التي تلازم التنعيم الدنيوي: كقوله وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود إلى آخر الآيات، وبين من مأكولات الجنة ومشروباتها ما هو معلوم عندهم كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والأعنان وسائر ما هو عندهم مألوف، دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى وغير ذلك من فواكه الأرياف وبلاد العجم، بل أجمل ذلك في لفظ الفاكهة". (الموافقات للشاطبي. ج 2 ص 78).

القدر"، وقد سميت باسم "القدر" سورة خاصة ورد فيها، "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ"، وأن من الأمور التي نزلت فيها القرآن. وسنعود إلى عرض ومناقشة ما ذكره المفسرون بشأنها عندما نصل إليها، فقد رجحنا الرأي القائل إنها مدنية، ورتبناها مع القرآن المدني. أما الآن فلنواصل صحبتنا لسورة "الدخان" المكية التي وصفت الليلة المباركة المذكورة بأن "فيها يفرق ويوزع بأمر الله كل أمر حكيم، بما في ذلك إرسال الرسل رحمة بالناس: تبين لهم بأن الله وحده هو الإله، وأنه هو رب السماوات والأرض وما بينهما وأنه هو الذي يحيي ويميت وأنه هو رب الآباء الأولين.

بعد هذه المقدمة تنتقل السورة إلى موضوعها، الذي عبرت عنه في القسم الأخير من المقدمة، وهو الرد على قريش خصوصاً في إنكارهم البعث، وذلك انطلاقاً من آخر المقدمة: "لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ". وهكذا تتوالى فقرات السورة، مرتبة منظمة؛ فتبدأ هذه المرة، لا بالتذكير بمصير الأقوام الماضية الذين كذبوا رسلهم، بل بالإعلان عن المصير الذي ينتظر المشركين من قريش والطريقة التي سيكون بها هلاكهم، ومشهد قيام الساعة عندهم (الدخان/الغبار)، إذا هم استمروا في تكذيب رسول الله إليهم وإلى الناس كافة وواصلوا الاستهزاء بالقرآن الذي ينزل عليه من عند الله.

وهكذا فالهلاك سيأتيهم من جنس الظاهرة الكونية التي يعرفونها وتشكل جزءاً من معيشتهم، وذلك بحدوث عاصفة من الغبار الذي يعم أجزاء من الجزيرة العربية بين حين وآخر على شكل عواصف رملية تغطي السماء وتمنع الرؤية وتحول الحياة جحيماً، فيشعرون وكأن الأمر يتعلق بقيام القيامة فيخافون ويندمون ويدعون الله أن يكشف عنهم هذه الغمة الطبيعية القاتلة ويمنحهم فرصة أخرى من الحياة الطبيعية، يتحولون فيها إلى مؤمنين يعملون صالحاً كما أمرهم الكتاب المنزل على الرسول المبعوث إليهم. وبما أن الله رحيم بعباده، وأن إرسال الرسل إلى الناس هو تشخيص لهذه الرحمة، فإنه سيرفع العذاب عنهم وهو يعلم أنهم عندما يتبدد الغبار/الدخان وتعود الحياة إلى وضعها الطبيعي سيعودون إلى ما كانوا عليه: يكذبون رسولهم ويستهزئون بالقرآن ويسخرون من الاعتقاد في البعث والحساب. هنا، بعد أن اختاروا الضلالة من جديد، فعادوا إلى ما كانوا عليه، يخاطبهم الذكر الحكيم: "إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ"¹⁵، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى (يوم القيامة) إِنَّا مُنْتَقِمُونَ".

وبعد أن تذكرهم السورة بالمصير الذي لقيه فرعون وملؤه، بعد أن رفضوا الاستجابة للرسول الذي بعثه الله إليهم، إذ سلط الله عليهم عدة كوارث كانوا يطلبون

الرحمة عند كل واحدة فيستجاب لهم، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى ما كانوا عليه، ليكون مصيرهم في النهاية الغرق والهلاك، أقول بعد أن ذكرت السورة مشركي قريش بمصير فرعون وملئه تنبيهاً لهم إلى أن استجابة الله لطلبهم الرحمة لا تعني تغيير المصير المحتوم وإنما إتاحة الفرصة لهم ليتوبوا ويعملوا صالحاً، تخاطبهم السورة بآيات بليغة الدلالة: ترد أولاً على عناد قريش -بإنكارهم البعث وتأكيد اعتقادهم في أنه ليس هناك إلا موتة واحدة ولا شيء بعدها، ويتحذّثهم الرسول والقرآن والمؤمنين جميعاً قائلين: إذا كنا سنبعث حقاً بعد أن نموت "فَأَتُوا بِآبَاتِنَا" كدليل على صدقكم - ترد عليهم السورة بدليلين: الأول من تاريخ العرب أنفسهم وذلك بتذكيرهم بمصير الملوك المتابعة باليمن جارهم، ومن كان قبلهم، ممن قاموا بحملات متتالية لغزو مكة. هؤلاء كانوا أشد قوة منهم فأفشل الله محاولاتهم وأهلكهم جميعاً. أما الدليل الثاني فهو التأكيد لهم مرة أخرى أن الله لم يخلق السماوات والأرض لهوا ولعباً وأنهم لو كانوا يتفكرون لتساءلوا عن الغاية من خلقها. أما الجواب فسيجدونه جاهزاً بينا في القرآن الذي وضح الغرض من خلق آدم وما جرى له حين أغواه الشيطان، وأن طرده من الجنة وهبوطه إلى الأرض هو من أجل اختباره وتحميله مسؤولية الأسماء (الخير والشر، المسؤولية والجزاء الخ) التي علمها له. وبعد أن رسمت السورة مشهدين لنوعي الجزاء، جهنم والجنة، شخصت فيهما تشخيصاً بليغاً صورة كل منهما، تستعيد مقدمتها في الخاتمة -كما هي العادة- فتعود إلى القرآن المنزل في "ليلة مباركة": وتخطب الرسول: "فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا (القرآن) بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"⁵⁸، فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ"⁵⁹.

والمعنى إن هذا الذي قلناه عن الدخان/الغبار الذي سنسلطه على مشركي قريش والصورة التي رسمناها للجنة والنار، قد عبرنا عنه بطريقة اللسان العربي في استعمال المثال والمجاز والتشبيه والتشخيص الخ، كل ذلك من أجل أن نقربه لأفهامهم ويكون يسير الفهم عليهم. إنها مثالات لما سيكون، مبينة وفق معهود العرب، لغة وحضارة. والأمر نفسه يصدق على الرسل السابقين فقد بعثهم الله بلسان أقوامهم وضرب لهم الأمثال بما هو معهود عندهم، وفاقاً مع قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ". والجدير بالإشارة أن لفظ "اللسان" في لغة العرب واسع الدلالة، فهو يعني: "اللغة، والرِسالة، والمَتَكَلِّم عن القَوْم". لسان بني فلان: ينطق باسمهم حسب معهودهم الخ، ويطابقه اليوم قولنا: "الناطق باسم الحكومة".

64- سورة الجاثية

- تقديم

لم يرد حول هذه السورة من المرويات ما يستحق الذكر. فجميع ما ذكر من مناسبات لنزول هذه الآية أو تلك وقائع حدد روايتها مكانها أو زمانها في العهد المدني من البعثة، هذا في حين أن هذه السورة مكية باتفاق، مثلها مثل أخواتها الحواميم. روايتان وردتا، حول آيتين، تفسران مضمونهما بالرد على معتقدات كان العرب يعتقدونها في الجاهلية، إحداهما "عن سعيد بن جبير قال : كانت قريش تعبد الحجر حيناً من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول، وعبدوا الآخر، فنزلت "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه"، وهذا شيء معروف وقد سبق أن ذكرنا ذلك في الاستطراد الذي خصصناه لموضوع الأصنام في آخر "المرحلة الثالثة" (بعد سورة يوسف، آخر القسم الأول من الكتاب). والرواية الثانية عن أبي هريرة قال: "كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار، فأنزل الله "وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر". واضح أن الروایتين كلتيهما ليستا من "أسباب النزول" وإنما هما من قبيل "التفسير" لا غير. أما الرواية الوحيدة التي قد تكون لها علاقة بـ "أسباب النزول" على الرغم من كونها تنسب من قبل الأكثرية إلى العهد المدني "فسنعرض لها في "التعليق".

- نص السورة

1- مقدمة: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ...

بسم الله الرحمن الرحيم

حم¹. تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ² (العزیز: القوي المنيع). إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ³، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ⁴. وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَا أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ، آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ⁵. تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ (حديث) اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ⁶؟

2- وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ: يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا..

وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ (كذاب) أَثِيمٍ: 7 يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ (1) ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا، فَيُبْشِرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ⁸. وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوءًا (موضوع استهزاء)، أُولَئِكَ (أمثال هذا الشخص) لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ⁹: مِنْ وَرَائِهِمْ (=من أمامهم، بين أيديهم) جَهَنَّمُ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا، وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ¹⁰. هَذَا هُدًى! وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزِ أَلِيمٍ¹¹. اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْزِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ، وَكَتَبْتُمْغُوا مِنْ فَضْلِهِ (=التجارة)، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ¹². وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ (=إنعاما منه)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ¹³. قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا (يتغاضوا عما يصيبهم من أذى من جانب المشركين، أي) لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ (لا يحسبون حسابا لنقلب الأحوال فلا يستشعرون انقلابها عليهم)، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ¹⁴ (أي أن جزاءهم سيكون يوم القيمة). مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَرْجَعُونَ¹⁵.

3- "جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا"...

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ (العلم، القضاء) وَالنَّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ¹⁶؛ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ (من شؤون الدين) فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (بغى بعضهم على بعض)، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ¹⁷. ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا⁽²⁾، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ¹⁸

1 - اختلفوا في اسم الرجل المعنى هنا: بعضهم قال أبو جهل، وبعضهم قال الحارث بن كلدة...

2 - المعنى الذي يقتضيه السياق لهذه الآية هو : كلفناك برسالة التوحيد فبلغها ولا تتبع ديانات الذين لا يَعْلَمُونَ (قریش). وقد فهم كثير من المفسرين هذه الآية فهما فقها (الحلال والحرام) فاختلفوا: هل شريعة الأنبياء السابقين شريعة لنا أم لا؟ قال ابن العربي: "ظن بعض من يتكلم في العلم أن هذه الآية دليل على أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا؛ لأن الله تعالى أفرد النبي (ص) وأمته في هذه الآية بشريعة" ويضيف: "ولا ننكر أن النبي (ص) وأمته منفردان بشريعة، وإنما الخلاف فيما أخبر النبي (ص) عنه من شرع من قبلنا في معرض المدح والثناء هل يلزم اتباعه أم لا؟ (ذكره القرطبي). ونحن نرى أن السياق هو سياق =

(قريش). إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ،
وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ¹⁹. هَذَا بَصَائِرُ (بينات) لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ²⁰.
أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا (اكتسبوا) السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ، سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ؟! سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ²¹. وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ²². أَفَرَأَيْتَ مَنْ
اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ (يعبد ما يميله عليه هواه كالأصنام والملائكة والجن) وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى
عِلْمٍ (بكونه اختار الشريك)، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً،
فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ²³! وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ
وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ (الزمان)، وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ، إِنْ هُمْ إِلَّا
يَظُنُّونَ²⁴. وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَاتِنَا
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ²⁵. قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ
فِيهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ²⁶.

4- وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ...

وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ! يَوْمَئِذٍ، يَخْسِرُ
الْمُبْطِلُونَ²⁷ (المكذبون). وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً (على ركبها)، كُلُّ أُمَّةٍ تَدْعِي إِلَىٰ
كِتَابِهَا: (يقال لهم) الْيَوْمَ تَجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ²⁸: هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ
بِالْحَقِّ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ²⁹. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ³⁰. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا: (فيقال
لهم) أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ³¹? وَإِذَا قِيلَ: إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ، إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا
وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِينَ³². (وعندما قامت الساعة تيقنوا) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتِ مَا عَمِلُوا
وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ³³. وَقِيلَ (لهم): الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا، وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ³⁴. ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ
هُزُوءًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ³⁵
(يستعرضون).

القول في التوحيد وليس في الشريعة. فالقرآن المكي في جملته قرآن يدور حول العقيدة
وليس حول الشريعة، وهو مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل على مستوى قصص
الأنبياء السابقين وكفاحهم من أجل عقيدة التوحيد وما يتصل به فقط.

5- خاتمة: فالحمد لله: له الكبرياء، العزيز الحكيم.

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ: رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ، رَبِّ الْعَالَمِينَ³⁶، وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ³⁷.

- تعليق

تتميز هذه السورة بوحدة الموضوع، فمنذ المقدمة التي افتتحتها، كأخواتها الحواميم، بالتأكيد على أن القرآن تنزيل من الله "العزيز الحكيم"، وهي تعرض وتشرح هذين الوصفين وتبرهن عليهما في إطار الرد على موقفين من مواقف مشركي قريش لا تذكر -كما هي العادة- أسماء المعنيين بهما⁽³⁾. وهكذا ففي المقدمة ذاتها نجد التذكير بالبرهان القرآني على وجود الله: دلائل في خلق السماوات والأرض، في خلق الإنسان وغيره من الكائنات الحية، وفي اختلاف الليل والنهار، وتصريف الرياح والأمطار وتهيته الظروف للنبات والشجر الخ، لتختتم المقدمة بالتساؤل: إذا كان مشركو قريش لا يقتنعون أن ذلك دليل على وجود الله، فأبي دليل يمكن أن يقنعهم؟ هنا تشير الآية ضمناً إلى شخص بعينه -ولو أنها وردت على صيغة العموم- فتتوعد بالويل والعذاب الأليم، وتصفه بـ "الأفك الأثيم"، كذاب يرتكب الإثم: "يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا". وأكثر من ذلك يسخر ويستهزئ بما سمع منها، ناسياً أو متناسياً أن الله هو الذي سخر له ولقريش، بل وللناس جميعاً، البحر الذي تحملهم عليه السفن للتجارة كما سخر لهم "ما في السماوات وما في الأرض جميعاً". هؤلاء المنكرون للنعمة الذين يؤذون المسلمين ويظلمونهم، لا ينبغي الانشغال بهم ولا الرد عليهم أو الانتقام منهم، بل على المؤمنين أن يتغاضوا عما يصيبهم منهم من أذى، أولئك لا يحسبون حساباً لتقلب الأحوال فلا يستشعرون انقلابها عليهم، فجزاؤهم سيكون يوم القيامة، حيث سيكون الحساب مبنياً على أساس: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا".

هذا المبدأ تقرر في الرسالات السابقة وخاصة عند بني إسرائيل الذين آتاهم الله خلال تاريخهم "الكتاب والحكم (العلم، القضاء) والنبوة" فقدم لهم بينات في هذا الأمر، لكنهم اختلفوا فيه عندما بغى بعضهم على بعض، وسيقضي الله بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

3- نذكر هنا بما نبهنا عليه سابقاً (سورة المسد) من أن أبا لهب هو الاسم الوحيد الذي ذكره القرآن. ذلك أن ما جرى عليه منهج القرآن في هذا الشأن هو تجنب ذكر الأسماء سواء في معرض المدح والوعد أو في معرض الرد والوعيد.

ثم تتجه السورة إلى النبي (ص) بقوله تعالى: "ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا"، بمعنى كلفناك برسالة التوحيد فبلغها، "وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" (قريش). هؤلاء الجاهلون الظالمون هم من جنس الذين أشارت إليهم السورة في الفقرة الثانية - إن لم يكونوا هم أنفسهم - سيجازون على أساس المبدأ نفسه: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا". وسيكونون مخطئين إذا هم ظنوا أن مصيرهم بعد الموت سيكون كمصير "الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ". لقد اختاروا الضلال واتخذوا أهواءهم آلهة لهم، يعبدون الأصنام والكواكب والشياطين، وأصرروا على الكفر حتى صار طبعاً فيهم، فأضلهم الله لأنه يعلم أنهم اختاروا الضلال ولن يرجعوا عنه، فختم على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم فأصبحوا غير قادرين على التراجع عن الضلال، ولا الاستجابة لهدى القرآن! إذن لا تطمع في هدايتهم!

هم ينكرون وجود الله فمن أين ستأتيهم الهداية؟ هم يكون البعث الذي يقوم عليه مبدأ المسؤولية القاضي بـ "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا"، فكيف يمكن أن يرجى منهم الإيمان، خوفاً من جهنم أو طمعا في الجنة؟ إنهم يقولون بصريح العبارة، ليست هناك بعد الممات جنة ولا نار: "مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ"؟ عجباً! ومن أين علموا ذلك، "إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ"! وإذا أنت حاولت إقناعهم بأن الله يؤكد أن البعث سيكون، وسيكون بعده حساب وجزاء، لا تجد عندهم من حجة يردون بها "إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"، أي ابغضوهم لنا لنسألهم ونرى حالهم! تجيبهم السورة برسم مشهد مشخص لما سيجري يوم القيامة، حيث سيواجهون أولاً بكتاب استنسخت فيه جميع أعمالهم في الدنيا وسيقدم لهم الدليل المشخص على ما أخبروا به قبل مماتهم، وعبثاً سيحاولون الاستعطف وطلب المغفرة، سيقال لهم: "الْيَوْمَ نُنْشَاكُمْ كَمَا نُسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ".

65- سورة الأحقاف

- تقديم

وردت في شأن آيات من هذه السورة أخبار نذكر بعضها فيما يلي: فعن قوله تعالى "وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ" الآية. ورد عن ابن عباس: "لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله (ص) رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء فقصصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا فيها فرجاً مما هم فيه من أذى المشركين. ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك فقالوا: يا رسول الله متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت؟ فسكت رسول الله (ص)، فأنزل الله تعالى "وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ"! يعني لا أدري أخرج إلى الموضع الذي رأيته في منامي أولاً! ثم قال: إنما هو شيء رأيته في منامي ما أتبع إلا ما يوحى إلي". ومضمون هذه الرواية لا يستقيم أصلاً مع سياق الآية كما سنرى.

وهناك روايات قد تكون لها فائدة على مستوى السيرة نذكر منها ما يشير إلى أمور محتملة في مكة ضاربين صفحا عما يحيل إلى وقائع حدثت في المدينة لأن السورة مكية باتفاق. من ذلك ما روي عن ابن عباس من أنه قال في قوله تعالى: "حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً" الآية: "أنزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أنه صحب رسول الله (ص) وهو ابن ثمان عشرة ورسول الله (ص) ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في التجارة فنزلوا منزلاً فيه سدره، فقعده رسول الله (ص) في ظلها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين فقال له: من الرجل الذي في ظل السدره؟ فقال: ذاك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. فقال: هذا والله نبي، وما استظل تحتها أحد بعد عيسى بن مريم إلا محمد نبي الله. فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، وكان لا يفارق رسول الله (ص) في أسفاره وحضوره، فلما نبئ رسول الله (ص) وهو ابن أربعين سنة وأبو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة أسلم وصدق رسول الله (ص). فلما بلغ أربعين سنة قال "رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ"... وسنرى أن السياق لا يستقيم مع هذا. ومن ذلك ما ذكر من أنه كانت لعمر ابن الخطاب أمة أسلمت قبله، يقال لها زنين، فكان عمر يضربها على إسلامها حتى يفتري. وكان كفار قريش يقولون، لو كان (الإسلام) خيراً ما سبقتنا إليه زنين، فأنزل الله في شأنها "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لو كَانَ خَيْرًا" الآية. كما روي عن

ابن مسعود أنه قال : "إن الجن هبطوا على النبي (ص) وهو يقرأ القرآن ببطن مكة في "تخلة" (مكان)، فلما سمعوه قالوا : أنصتوا، وكانوا تسعة، أحدهم زوبعة، فأنزل الله "وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن" إلى قوله "ضلال مبين" من هذه السورة. (انظر ما كتبناه في "تعليق واستطراد"، سورة الجن رقم 40). وسنرى أن جميع هذه الروايات لا تستقيم مع الآيات التي ربطت بها. ونحن إنما ذكرناها لما قد يكون فيها من فائدة في التعرف على جوانب من وقائع السيرة، إذ يجوز أن يكون بعض ما تحكيه هذه الروايات صحيحا كأحداث دون أن تكون بالضرورة ذات علاقة بالآيات التي ربطت بها.

- نص السورة

1- مقدمة: ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم...

بسم الله الرحمن الرحيم
حم¹. تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم². ما خلقتنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى. والذين كفروا، عما أُنذروا، مغضون³!

2- قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ. وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ!

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ؟ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا (القرآن) أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ (أو أي صحيفة من الصحف الأولى فيها وحي نبوي) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁴؟ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ⁵! وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا (يعني الهتهم) لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ⁶. وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ : هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ⁷. أَمْ (بل) يَقُولُونَ افْتَرَاهُ! قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ (تخوضون فيه). كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ⁸. قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ. وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ! إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ⁽¹⁾، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ⁹. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ

1- واضح أن رواية ابن عباس التي ذكرناها في التقديم، حول هذه الآية، لا تستقيم مع سياق الآية: فالكلام هنا متصل والخطاب موجه للمشركون!

عِنْدَ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ (على مثل ما جئتمكم به) فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ¹⁰. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ⁽²⁾، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ¹¹. وَمِنْ قَبْلِهِ (من قبل القرآن نزل) كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً، وَهَذَا (القرآن) كِتَابٌ مُصَدِّقٌ (لكتاب موسى) لِسَانًا عَرَبِيًّا (نزل بلسان عربي)، لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ¹². إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ¹³. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹⁴.

3- وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا: وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفٍّ لَكُمْمَا ...

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا (مع مشقة) وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا، وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا⁽³⁾، حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي (ألهمني) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَصْلَحْ لِي فِي نَرِيتِي، إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ¹⁵. أُولَئِكَ، الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ، (هم) فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ⁽⁴⁾: وَعَدَ الصَّنِقُ الَّذِي كَتَمُوا يُوعَدُونَ¹⁶. وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ (طلبا منه أن يسلم) أَفٍّ لَكُمْمَا، أَتَعَذِّبُنِي أَنْ أُخْرِجَ (أبعث بعد الموت) وَقَدْ خَلَيْتَ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي، وَهُمَا (الوالدان) يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ: وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ¹⁷! أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ¹⁸ ⁽⁵⁾. وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ¹⁹.

2 - ذكروا أن المشار إليه في قوله "ما سبقونا إليه هم العبيد والموالي وكانوا من أوائل المسلمين. وهذا لا يستقيم مع السياق. انظر التعليق.

3 - مدة الحمل والرضاعة معا.

4- واضح أنه ليس في هذه الآية ما يجعلها خاصة بأبي بكر كما ورد في الرواية التي ذكرناها في التقديم.

5- قالوا إن الآيات الأولى، ابتداء من "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا"، نزلت في أبي بكر الصديق، كما ذكرنا في التقديم، وأن الآيات التالية لها، ابتداء من قوله "وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفٍّ لَكُمْمَا"، نزلت في ابنه عبد الرحمان، أعني عبد الرحمان بن أبي بكر، الذي قالوا عنه إنه رفض أن يسلم وعاب على أبويه ترك دين الآباء والأجداد وسخر من البعث الخ. وهذا الجمع بين تلك الآيات وهذه من أغرب الأمور، فالسياق يكذب مثل هذا الجمع، ويبدو أن الروایتين مختلفتين معا، وأنهما من مظاهر الصراع بين المطالبين بدم عثمان وعائلة أبي بكر الذي اتهم ابنه محمد بالمساهمة في قتل عثمان (انظر كلاما في القرطبي، يشعر بذلك).

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ (يقال لهم): أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا، وَأَسْتَمْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ²⁰.

4- وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ

وَاذْكُرْ (هودا) أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ⁽⁶⁾ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ: أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ²¹. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ (لتصرفنا) عَنْ آلِهَتِنَا، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ²². قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ²³. فَلَمَّا رَأَوْهُ (مَا يَعِدُهُمْ) عَارِضًا (سحابا) مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا! (قيل لهم) بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ (=الساعة): رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ²⁴، تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا، فَاصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ²⁵. وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ، فِيمَا (فِي) الَّذِي) إِنْ (زائدة) مَكَانَكُمْ فِيهِ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ، إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَحَاقَ (نزل) بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ²⁶. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم (يا قريش) مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ²⁷. فَلَوْلَا (هلا) نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً، بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ، وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ²⁸.

5- وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ⁽⁷⁾، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا: أَنْصِتُوا! فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ²⁹. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ³⁰. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ (يحميكم) مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ³¹. وَمَنْ لَا يُجِبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ³². أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي

6- جبال من الرمل مستطيلة، قالوا: موقعها ما بين عمان وحضرموت (ياقوت).

7 - انظر سورة الجن رقم 40 : التقديم. القسم الأول سورة 40

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ، بِقَابِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّ الْمَوْتَى؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ³³. وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ: أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا! قَالَ: فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ³⁴.

6- خاتمة: فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ...

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَئِنْ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (لقريش بالعذاب)، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ (من العذاب، سيخيل إليهم أنهم) لَمْ يَلْبَثُوا (في انتظاره) إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ! (هذا) بَلَاغٌ! فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ³⁵.

- تعليق

كانت السورتان الأخيرتان مخصصتين، كما رأينا، لمحوري التوحيد والمعاد، أما هذه فمخصصة لركن النبوة. لقد ميزنا فيها بين ست فقرات:

اتجهت في المقدمة مباشرة إلى تقرير موقف قريش من نبوة الرسول عليه السلام، مؤكدة أن الذين كفروا مصرون على الإعراض عما يدعوهم إليه القرآن، مكذبون بما ينذرهم به، متسائلة: أنتم تعبدون أصناما وتتوسلون إليهم! فهل خلقوا شيئا يدل على قدرتهم على إعانتكم والاستجابة لكم مثلما تدل السماوات والأرض التي خلقها الله؟ هل خلقوا شيئا في الأرض؟ هل هم شركاء مع الله في خلق السماوات وتدبيرها؟ إن كان الأمر كذلك فأتوني بكتاب من الكتب المنزلة يتحدث عن هذا، أو بأية آثار أو دلائل من ظواهر الطبيعة أو من الصحف الأولى تعززه؟

إن قريشا قوم ضالون! هم مصرون على عبادة الأصنام وتوجيه الدعاء إليها؛ إنها لن تستجيب لهم حتى ولو استمروا يدعونها إلى يوم القيامة، ذلك لأنها جامدة لا حياة فيها، إنها لا تشعر بهم، "غافلة" عن دعائهم. وعندما تقوم القيامة وينطقها الله ستبترأ منهم وتعلن عن كفرها بعبادتهم لها. ذلك موقف مشركي مكة من أصنامهم وذلك ما سيؤولون إليه.

أما موقفهم من القرآن فشيء آخر: عندما يسمعون ما يأتيهم به من آيات بينات تدل على صنع الله وتدعوهم إلى عبادته وحده لا شريك له يقولون هذا مجرد سحر، وأن محمدا ينسبه إلى الله افتراء! وترد عليهم السورة على لسان الرسول: إن كان الأمر افتراء كما تدعون فماذا عساكم تقولون على فعله لإثبات صحة ذلك؟ الله يعرف ما تفترون علي، وكفى به شهيدا بيني وبينكم. هو يعلم أنني رسوله إليكم وأنتم تعرفون أنه قد بعث رسله إلى الأقوام السابقين، وما أنا إلا واحد منهم، فلست بدعة

فيهم، بل أنا مجرد واحد في سلسلتهم؟ كل ما هناك هو أنكم لا تريدون أن تصدقوني. أنا لا أستطيع حملكم على تصديقي، وليس من شأني ذلك. إن الأمر لله وحده، وليس لي علم بما سيفعل بي ولا بكم؟ كل ما عليّ هو اتباع ما يوحى إلي وإبلاغكم إياد. أما أنتم فأنتم تضعون أنفسكم في مأزق بإصراركم على تكذيبني: افترضوا أن ما أقوله لكم هو فعلا من عند الله، وأن أحدا من علماء اليهود الذين تعترفون أنهم أهل كتاب من الله، قد سمع ما أقول وشهد علي أن هذا الذي آتيكم به موجود مثله في كتابهم وأنه من الله حقا، فآمن هو واستكبرتم أنتم؟! إنه الظلم بعينه و"إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ". وإذا سألهم أحد من المسلمين : لماذا لا تصدقون به وقد صدق به من لهم علم بالكتاب من بني إسرائيل؟ فإنهم سيجيبون: لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنَ خَيْرًا مِنْ دِينِنَا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ (8) وبالتالي سيكررون قولهم: "هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ". والحق أن القرآن قد جاء من بعد كتاب موسى فشهد بصدقه من له من اليهود علم بالتوراة تماما كما يصدق القرآن التوراة باللسان العربي، الذي هو لسان الذين جاء "لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ" ويبيش الذين استقبلوه بنية وأعمال حسنة وقالوا "رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا". هؤلاء "لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، هُمْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ".

يلي ذلك في الفقرة الثالثة موضوع يبدو وكأنه لا علاقة له بما سبق. والواقع أنه امتداد للفقرة التي سبقتها، بل لآخر آية فيها: لقد انتهت هذه الفقرة إلى التمييز في الناس بين "الذين ظلموا" وبين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، وتأتي الفقرة الثالثة لتضرب مثلا لهؤلاء برجل يحترم والديه ويقدر المشاق التي تكبدوها من أجله الخ، حتي إذا اكتملت رجولته ونضج عقله وبان رشده " قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي (الهمني) أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ". أما الآخرون "الذي ظلموا" فتضرب السورة مثلا لحالهم برجل عصا والديهم وأصر على رفض دعوتهم له إلى الإيمان بالرسالة المحمدية صائحا في وجهيهما : "أَفْ لَكُمْ؟" متهمكما بما يؤكد القرآن من

8 - ذكروا أن المشار إليه في قوله "ما سبقونا إليه هم العبيد والموالي وكانوا من أوائل المسلمين"، لكن السياق يحيل إلى رجال من اليهود المفترض فيهم أنهم سمعوا القرآن وصدقوا به وشهدوا أن في التوراة مثله. بعض المفسرين يقولون إن المشار إليهم هنا هو عبد الله بن سلام اليهودي وأصحابه الذين أسلموا. وهذا مردود لأن إسلام هؤلاء لم يحدث إلا بعد الهجرة، والسورة مكية. وبما أن المقام مقام جدل فلا حاجة لوجود أشخاص معينين هم المشار إليهم. بل يكفي أن السياق يفترض وجودهم. وهكذا يتضح أنه لا شيء يبرر ما ذكره المفسرون من أن ضمير الجمع في "ما سبقونا إليه" يعود إلى فقراء المسلمين، فالجدل مع الذين كفروا، وهم الذين يردون على شهادة "أهل الكتاب" المفترض أنهم صدقوا بالقرآن، قائلين: لو كان الدين الذي يدعو إليه محمد (ص) خيرا من ديننا ما سبقنا إليه هؤلاء اليهود.

القيامة والبعث والحساب والجزاء، محتجا بأنه قد مرت قرون وقرون ولم يبعث أحد يخبر بذلك، وبالتالي فـ "مَا هَذَا إِلَّا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ".

وترد السورة بشهادة من التاريخ المقدس، "تاريخ الأنبياء وصراعهم مع أقوامهم، فتحيل إلى قوم تعرفهم قريش وتتناقل أخبارهم، هم قوم عاد، فتذكر بالمصير الذي آل إليه أمرهم بعد أن كذبوا نبيهم هود، ثم تلتف إلى قريش لتذكرهم بما قصه القرآن من قبل عن سكان قرى تقع حولهم ويمرون عليها في أسفارهم، وكان مصيرهم الدمار والهلاك، منبهة إلى أن أصنامهم التي كانوا يعبدون من دون الله لن تنفعهم يوم القيامة في شيء، بل لن يعثروا لها على أثر. لقد كذبوا رسلهم فكان ذلك نتيجة لتكذيبهم إياهم. وإلى هذه الشهادة من القرون الماضية تضيف السورة (الفقرة الخامسة) شهادة فريدة عاصرها النبي (ص) عندما أوحى إليه في سورة سابقة (سورة الجن): "أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا" (الجن 1-2).

وتختتم السورة بدعوة النبي إلى الصبر، وهي دعوة تكررت في الحواميم السابقة كما في غيرها من السور. وتتميز هذه الدعوة في هذه السورة بدعوة النبي إلى اتخاذ "أولي العزم من الرسل قدوة". وقد اختلف المفسرون في تحديد أسمائهم. ونحن نرى أن لفظ "العزم" هنا يحيل إلى تجربة آدم، الذي أوصاه الله بعدم الأكل من شجرة، فنسي وأكل منها: "وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا" (طه 115) أي لم يثبت ولم يصمد. وإذن فالمقصود هو الاقتداء بالرسل الذين ثبتوا وصمدوا، فلم يستعجلوا العذاب لأقوامهم كما فعل بعض الرسل (نوح)، ولا تخلوا عن تبليغ رسالتهم وطلبوا النجاة لأنفسهم كما حدث لآخرين (يونس)، ولا أغرتهم نساء فتعاملوا مع الأصنام نوعا من التعامل (سليمان).

وأضافت الخاتمة إلى الصبر صورة بيانية "لطيفة" وهي أن مشركي قريش سينظرون يوم القيامة إلى حياتهم في الدنيا، التي كانوا يعدونها بعشرات السنين، وكان زمنها لا يعادل إلا ساعة من نهار. وإذا كان الأمر كذلك فكم سيعادل الزمن الذي ستقضيه، يا محمد، هنا في الحصار؟ وتضيف: "بلاغ"... لمن؟ ليس هناك مخاطب آخر غير النبي عليه السلام! والمعنى واضح: إن المدة التي تقضيها هنا في الحصار ستبدو لك بعد انحلاله، وكأنك لم تلبث فيه "إلا ساعة من نهار".

بالفعل لقد اتحل الحصار بعد هذا البلاغ؛ فليتنا أن تنتقل إلى المرحلة التالية: مرحلة ما بعد الحصار، ولكن بعد استطراد!

استطراد

مسألة الهداية والإضلال ...

أولاً: مقدمة

عبارات الهداية والإضلال كثيرة في القرآن، وقد وردت في السور التي نودعها (الحواميم) بصورة لافتة، ولذلك ارتأينا أن نخصص هذا الاستطراد لهذه المسألة "الكلامية" التي كانت لها وما زالت أصداء مدوية في الفكر الإسلامي، وذلك إلى درجة صَنَّف -ويصنّف- جميع المسلمين بموجبها إلى "قدرية" وجبرية"، أي إلى القائلين بـ"الاختيار" والقائلين بـ"الجبر"، وبعبارة أخرى: إلى القائلين بأن الهداية والضلال من الله، والقائلين بأن ذلك يرجع إلى إرادة الإنسان واختياره.

وبما أن الرازي قد عرض في تفسيره -بتفصيل- آراء الفريقين وردود بعضهما على بعض، فقد ارتأينا أن ننقل إلى القارئ هنا جملة ما ذكره. وفخر الدين الرازي (ابن الخطيب) (544هـ - 606هـ)، المتكلم الفيلسوف الأشعري، قد عاش في عصر انتقل فيه "علم الكلام" من "طريقة المتقدمين" التي كانت تعتمد، إلى عصره، الاستدلال بالشاهد على الغائب وهي طريقة المعتزلة وأهل السنة، إلى طريقة المتأخرين" التي كان هو من أبرز من رسخها، والتي جرى الاعتماد فيها على الاستدلال الصوري الأرسطي، بدل اعتماد الاستدلال بالشاهد على الغائب⁽¹⁾.

1- مسألة الهداية والضلال زمن النبوة

وقبل أن نشرع في نقل ما أورده الرازي في الموضوع الذي يهمنا -وقد أجرى الكلام فيه على طريقة المتقدمين تلك- نرى من المفيد الرجوع بالمسألة،

1- انظر التفاصيل في كتابنا "بنية العقل العربي" القسم الرابع، الفصل الأول، فقرة 2

مسألة الهداية والضلال، إلى زمن النبوة، أي المرحلة التي تنتهي إليها السور القرآنية التي نتوَّج تعاملنا معها هنا بهذا الاستطراد، فنقول:

عندما كان الخطاب موجهاً إلى مشركي مكة لم تكن القضية تتخذ وضعاً إشكالياً. لأن الآيات التي تنسب الضلال للإنسان أو التي تنسبه إلى الله كانت تنزل منجمة مفرقة حسب مقتضى الأحوال، وبالتالي لم يكن التناقض الظاهري فيها قضية عقلية مطلقة بل كان محكوماً بالسياق والظروف، ظروف الجدل مع المشركين بصفة خاصة. وكمثال على ذلك نشير إلى قوله تعالى: "سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ" (الأنعام 147-148). ويرد عليهم القرآن في نفس الآية بقوله تعالى: "قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ" (الأنعام 148)، بمعنى أن قولهم "لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا" ادعاء كاذب، وأن الصحيح هو أن الله لم يرد لهم الشرك والضلال! وهذا يتناقض ظاهراً مع قوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم: "اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ" (الأنعام 106-107). فقوله تعالى هنا: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا" معناه أنه لم يشأ لهم الإيمان، وأنه تركهم يشركون!

لكن هذا التناقض الظاهري يتبخر عندما نلاحظ أن الآية الأخيرة تخاطب النبي عليه السلام لتسليه وتخفف عنه مما كان يحس به من أسى وأسف، لكون قومه قد أعرضوا عن دعوته وكذبوه واتهموه بالجنون وغيره؛ والرسول بشر فكان لا بد أن يقلق ويتخوف من أن يؤدي إصرار قريش على عدم الاستجابة لدعوته إلى فشله في تبليغ رسالته من جهة، وإلى تعرض قومه للعذاب والهلاك كما حصل لأقوام ماضية اتخذت نفس الموقف السلبي من أنبيائهم. فمن أجل تسلية الرسول والتخفيف عنه نزلت الآية هذه لتقول له: لا تقلق ولا تحزن لكون قومك رفضوا الدعوة وأصروا على الشرك، فمهمتك هي التبليغ فقط، وليس أن تفسرهم على الإيمان. في هذا السياق جاء قوله تعالى: "وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا، وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ" أي لا تشغل بكون المشركين مصرين على الشرك، فلو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك رقيباً عليهم ومكلفاً بسلوكهم وتوجيه إرادتهم واختيارهم. أما الآية الأولى فهي تحكي ما قاله المشركون رداً على الحجج التي عرضها عليهم القرآن والتي تبين لا معقولية عبادة الأصنام، وأن العبادة لله وحده وأنه الخالق، وحده لا شريك له، وأن التمييز بين الحلال والحرام هو من الله الخ، فكان ردهم: "لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ". وواضح أن

قول المشركين هنا إنما هو تهرب وإعلان منهم عن عدم قدرتهم على التحول مما اعتادوه ووجدوا عليه آباءهم. وقد أجاب القرآن بأنهم يكذبون: "كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ". ثم قال للنبي عليه السلام: "قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا"، والمقصود بالعلم هنا "الوحي من الله"، لأن الإدعاء بأن الله لو شاء "ما أشركوا" إدعاء لا يمكن إثباته بأية وسيلة أخرى غير الوحي، لأن الأمر يتعلق بمشيئة الله، وبما أنه ليس هناك تبليغ من الله في هذا الموضوع فإن قولهم ذلك لا أساس له، ولذلك خاطبهم تعالى: "إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ"، ثم أضاف: "قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ" (أنتم يا بني آدم)، أي لجعلكم مهتدين منذ البداية، كالملائكة.

وقد سبق أن بيّن في قصة آدم كيف أن هذا الأخير عصى أمر الله وضل بتأثير الشهوة والهوى (الشيطان) وأكل من الشجرة التي أوصاه بعدم الأكل منها. لكن الله تاب عنه، وأنزله إلى الأرض ليعمرها ويتم اختباره فيها: هل سيعتظ ويتحرر من سلطان الهوى، الذي يحركه الشيطان، أم سيبقى سجيناً له.

ذلك هو الإطار الذي تتحدد به الآيات القرآنية التي نزلت في جزئيات تطرح مسألة "الفعل البشري": هل هو، وما يرتبط به من الإرادة والقدرة، فعل وخلق من الله، أم أنه من الإنسان؟ لم يكن هناك مجال لطرح هذه المسألة طرْحاً إشكالياً بهذه الصيغة زمن النبوة، لأن المشركين، الذين كان الخطاب القرآني يوجّه إليهم في هذه المسألة، لم يكونوا يؤمنون بالبعث والحساب والجزاء، بل أنكروا ذلك وسخروا منه، وبالتالي لم يكونوا يربطون هذه المسألة بالمسؤولية في الآخرة. ومع ذلك فقد كان عليهم أن يفسروا أنواعاً من السلوك اللامعقول الذي كانوا يأتونه مثل عبادة الأصنام وانتظار الشفاعة منها وهي لا تسمع ولا تعقل الخ. وهكذا لم يجدوا لتبرير فعلهم ذاك إلا الركون إلى التقليد فقالوا: "إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ (طريقة وسلوك) وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ" (الزخرف 23)، أو التهرب من المسؤولية بإنكار البعث والقول: "مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ". وعندما أخرجوا بالأدلة التي يوردها القرآن في إثبات البعث لم يردوا عليه بحجج في وزنها بل هربوا إلى الأمام وقالوا: "انْتَوَا بِأَيَّانِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (الجاثية 24-25).

2- مسألة الجبر والاختيار بعد الفتنة الكبرى : القدرية والجبرية.

كان ذلك هو "الوضع" الذي كان يُوْطِر، زمن النبوة، ما عُبِّرَ عنه بمسألة "خلق الأفعال" أو "الجبر والاختيار"، بعد "الفتنة الكبرى" (الحرب بين علي ومعاوية التي قُتل فيها عدد كبير من المسلمين، صحابة وتابعين). لقد طرحت بعد هذه الفتنة

مباشرة مسألة ما إذا كان معاوية وأنصاره، الذين انتزعوا الخلافة من علي بن أبي طالب بالقوة واستبدوا بالحكم ومارسوه بعسف وقهر، يتحملون مسؤولية ما قاموا به من أعمال، وفي هذه الحالة تجب الثورة عليهم والحكم عليهم بالمصير يوم القيامة إلى النار حسبما ينص عليه القرآن، أم إنهم إنما تصرفوا بقضاء وقدر، كما قال معاوية في عدد من خطبه؛ منها ما ورد في خطبة له وهو يقف على رأس جيشه في مواجهة علي وجنوده، حيث قال: "وقد كان فيما قضاه الله أن ساقطنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض ولَفَّت بيننا وبين أهل العراق، فنحن من الله بمنظر، وقد قال الله سبحانه وتعالى: "وَكُوْشَاءَ اللّٰهُ مَا أَفْتَتَلُوْا وَلَكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ" (البقرة 253). وعندما فرض ابنه يزيدا وليا للعهد قال: "إن أمر يزيد قضاء وقدر وليس للعباد الخيرة من أمرهم" (2).

تلك هي "الفتنة الفكرية الكبرى" التي أعقبت الفتنة السياسية العسكرية. لقد انقسم المسلمون (أعني علماءهم ومفكرهم) منذ ذلك الوقت، وإلى الآن، إلى فريقين: - فريق يرى أنه بما أن القرآن يحمل الإنسان مسؤولية أفعاله إذ يقول: "مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" (الحديد 7-8)، ويؤكد "أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى" (النجم 38-41)، والآيات كثيرة في هذا المعنى، فإن أفعال الإنسان، التي يسأل عنها يوم القيامة ويعاقب، لا يمكن أن تنسب إلى القضاء والقدر أي إلى الله، بل لابد من نسبتها إليه، إلى إرادته واختياره وفعله.

- وفريق يلتجئ إلى آيات أخرى من مثل قوله تعالى: "مَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَاُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (الأعراف 178)، وقوله "مَنْ يَشَأِ اللّٰهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (الأنعام 39)، وهذا يعني بصريح العبارة أن أفعال الإنسان ليست من اختياره بل هو مجبور عليها.

كان الجدل حول هذا الموضوع، في العصر الأموي، من المسائل التي قام عليها ما عرف بـ "علم الكلام" (أي العلم أو القطاع المعرفي الذي يناقش ويجادل في قضايا العقيدة). وقد أطلق على الفريق الأول اسم "القدرية"، أي الذي يقولون بقدرة الإنسان على إتيان أفعاله وبالتالي يتحمل مسؤوليتها، وقد سُموا في أواخر العصر الأموي باسم "المعتزلة"، أما هم فيطلقون على أنفسهم "أهل العدل" لكونهم يرون أن الحساب والجزاء يوم القيامة قائم على العدل، عدل الله، بمعنى أن الله سيطبق وعده ووعدته يوم القيامة على البشر جميعا، بدون استثناء. وفاقا مع قوله تعالى: "يَوْمَئِذٍ

يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الحديد 6-8)، وعلى هذا فمصير الذين قتلوا الناس في الحرب بين علي ومعاوية، ومصير الحكام الأمويين الذي مارسوا العنف والظلم الخ، هو النار... أما خصومهم القائلين بأن ما ينسب من فعل إلى الأمويين وإلى الإنسان عامة إنما ينسب إليه على سبيل المجاز، فليس الإنسان بفاعل بل الله هو الفاعل (لا فاعل إلا الله) وبمعنى آخر الإنسان مجبور على فعل ما يفعل وليس له اختيار. ولذلك يطلق المعتزلة على خصومهم هؤلاء اسم "المجبرة". لقد احتد الجدل في مسألة الجبر والاختيار في علم الكلام، وقد عُبرَ عنها بمسألة "خلق الأفعال"، أو "الهداية والضلال".

ثانياً: عرض الرازي للمسألة

بعد هذه المقدمة التي وضعنا فيها المسألة في إطارها التاريخي ننقل إلى عرض الرازي لآراء الفريقين، وحجج كل منها النقلية والعقلية، كما سجلها في تفسيره. أما ما قاله في كتبه الأخرى عن الموضوع نفسه فلا يهمنا هنا. وبما أن كلامه قد جاء بأسلوب يتطلب من القارئ أن يكون قد اكتسب "رياضة" ذهنية من خلال "الألفة" مع أسلوب المتكلمين في الحجاج، فإتينا سنحاول عرضه مبسطاً دون الإخلال بمضمونه:

أولاً: الإضلال

قال الرازي في معرض تفسيره للآية 26 من سورة البقرة (3):
"ونريد أن نتكلم ههنا في الهداية والإضلال ليكون هذا الموضوع كالأصل الذي يرجع إليه في كل ما يجيء في هذا المعنى من الآيات، فنتكلم أولاً في الإضلال فنقول:
إن الهمزة تارة تجيء لنقل الفعل من غير المتعدي إلى التعدي كقولك خرج فإنه غير متعدي، فإذا قلت أخرج فقد جعلته متعدياً... إذا ثبت هذا فنقول: قولنا: أضله الله لا يمكن حمله إلا على وجهين:

3- هي قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا؟ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26 البقرة). وبما أنه بنى تفسيره على ترتيب المصحف كسائر المفسرين فإن هذه الآية هي أول آية ورد فيها لفظ الضلال (يضل) والهداية (يهدي).

أحدهما: أنه صيره ضالاً، والثاني: أنه وجده ضالاً. أما التقدير الأول وهو أنه صيره ضالاً فليس في اللفظ دلالة على أنه تعالى صيره ضالاً عما ذا؟ وفيه وجهان: أحدهما: أنه صيره ضالاً عن الدين. والثاني: أنه صيره ضالاً عن الجنة. أما الأول وهو أنه تعالى صيره ضالاً عن الدين فاعلم أن معنى الإضلال عن الدين في اللغة هو الدعاء إلى ترك الدين وتقبيحه في عينه، وهذا هو الإضلال الذي أضافه الله تعالى إلى إبليس فقال: "إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ" (القصص: 15) وقال: "وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ" (النساء: 119) "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا لِلَّذِينَ أُضِلَّاتَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا" (فصلت: 29) وقال: "وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ" (النمل: 24 العنكبوت: 38)، وقال (الشيطان): "وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي" (إبراهيم: 22) وأيضاً أضاف الله تعالى هذا الإضلال إلى فرعون فقال: "وَأَضَلُّ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى". واعلم أن الأمة مجمعة على أن الإضلال بهذا المعنى لا يجوز على الله تعالى لأنه تعالى ما دعا إلى الكفر وما رغب فيه بل نهى عنه وزجر وتوعد بالعقاب عليه، وإذا كان المعنى الأصلي للإضلال في اللغة ليس إلا هذا، وهذا المعنى منفي بالإجماع، ثبت انعقاد الإجماع على أنه لا يجوز إجراء هذا اللفظ على ظاهره. وعند هذا افتقر أهل الجبر والقدر إلى التأويل.

- تأويل الجبرية لمعنى الإضلال: الله خلق الضلال والكفر ...

أما أهل الجبر فقد حملوه على أنه تعالى خلق الضلال والكفر فيهم وصددهم عن الإيمان وحال بينهم وبينه، وربما قالوا هذا هو حقيقة اللفظ في أصل اللغة، لأن الإضلال عبارة عن جعل الشيء ضالاً، كما أن الإخراج والإدخال عبارة عن جعل الشيء خارجاً وداخلاً.

- رأي المعتزلة: هذا غير جائز، الضلال من الإنسان.

وقالت المعتزلة هذا الرأي (=أي القول بأن الله خلق الضلال والكفر) غير جائز لا بحسب الأوضاع اللغوية ولا بحسب الدلائل العقلية:
أما الأوضاع اللغوية فبيانه من وجوه:

أحدها: أنه لا يصح من طريق اللغة أن يقال لمن منع غيره من سلوك الطريق كرهاً وجبراً أنه أضله بل يقال منعه منه وصرفه عنه، وإنما يقولون إنه أضله عن الطريق إذا لبس عليه وأورد من الشبهة ما يلبس عليه الطريق فلا يهتدي له.

وثانيها: أنه تعالى وصف إبليس وفرعون بكونهما مضللين، مع أن فرعون وإبليس ما كان خالقين للضلال في قلوب المستجيبين لهما، بالاتفاق (اتفاق الجبرية والقدرية). وأما عند الجبرية فلأن العبد لا يقدر على الإيجاد، وأما عند القدرية فلأن العبد لا يقدر على هذا النوع من الإيجاد، فلما حصل اسم المضل حقيقة مع نفي الخلفية بالاتفاق، علمنا أن اسم المضل غير موضوع في اللغة لخالق الضلال. وثالثها: أن الإضلال في مقابلة الشهادة، فكما صح أن يقال هديته فما اهتدى وجب صحة أن يقال أضلته فما ضل، وإذا كان كذلك استحال حمل الإضلال على خلق الضلال.

وأما بحسب الدلائل العقلية: فلا يصح (القول عند المعتزلة: بأن الله خلق الضلال) من وجوه:

أحدها: أنه تعالى لو خلق الضلال في العبد ثم كلفه بالإيمان لكان قد كلفه بالجمع بين الضدين وهو سفيه وظلم، وقال تعالى: "وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ" (فصلت: 46) وقال: "لَا يَكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا" (البقرة: 286) وقال: "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" (الحج: 78)

وثانيها: لو كان تعالى خالقاً للجهل وملبساً على المكلفين لما كان مبيناً لما كلف العبد به، وقد أجمعت الأمة على كونه تعالى مبيناً.

ثالثها: أنه تعالى لو خلق فيهم الضلال وصددهم عن الإيمان لم يكن لإتزال الكتب عليهم وبعثة الرسل إليهم فائدة، لأن الشيء الذي لا يكون ممكن الحصول كان السعي في تحصيله عبثاً وسفهاً⁽⁴⁾.

ورابعها: أنه على مضادة كبيرة من الآيات نحو قوله: "فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" (الانشقاق: 20) "فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ" (المدثر: 49)، "وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا" (الإسراء: 94) فبين أنه لا مانع لهم من الإيمان البتة، وإنما امتنعوا لأجل إنكارهم بعثة الرسل من البشر. وقال: "وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ" (الكهف: 55) وقال: "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ" (البقرة: 28) وقال: "فَأَنَّى تُصْرَفُونَ" وقال: "فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ" فلو كان الله تعالى قد أضلهم عن الدين وصرفهم عن الإيمان لكانت هذه الآيات باطلة.

4- نلاحظ أن الرازي الأشعري يستعمل ألفاظا ينسبها إلى خصومه المعتزلة لا تليق به تعالى. خصوصاً وهو لا ينقل من كلامهم بل يروي من عنده آراءهم.

وخامسها: أنه تعالى ذم إبليس وحزبه ومن سلك سبيله في إضلال الناس عن الدين وصرفهم عن الحق وأمر عباده ورسوله بالاستعاذة منهم بقوله تعالى: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" إلى قوله: "مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ" و "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ"، "وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ" (المؤمنين: 97)، "فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ" (النحل: 98) فلو كان الله تعالى يضل عباده عن الدين كما تضل الشياطين لاستحق من المذمة مثل ما استحقوه ولوجب الاستعاذة منه كما وجب منهم، ولوجب أن يتخذوه عدواً من حيث أضل أكثر خلقه كما وجب اتخاذ إبليس عدواً لأجل ذلك، قالوا بل خصيصية الله تعالى في ذلك أكثر إذ تضليل إبليس، سواء وجوده وعدمه فيما يرجع إلى حصول الضلال، بخلاف تضليل الله فإنه هو المؤثر في الضلال فيلزم من هذا تنزيه إبليس عن جميع القبائح وإحالتها كلها على الله تعالى فيكون الذم منقطعاً بالكلية عن إبليس وعائداً إلى الله سبحانه عن قول الظالمين.

وسادسها: أنه تعالى أضاف الإضلال عن الدين إلى غيره وضمهم لأجل ذلك، فقال: "وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى" (طه: 79)، "وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ" (طه: 85)، "وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" (الأنعام: 116)، "إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ" (ص: 26) وقوله تعالى حاكياً عن إبليس: "وَأَضَلَّتْهُمْ وَامْرَأَتُهُمْ" (النساء: 119)، فهو لاء إما أن يكونوا قد أضلوا غيرهم عن الدين في الحقيقة، أو يكون الله هو الذي أضلهم، أو حصل الإضلال بالله وبهم على سبيل الشرقة. فإن كان الله تعالى قد أضلهم عن الدين دون هؤلاء فهو سبحانه وتعالى قد تقول عليهم إذ قد رماهم بدأبه وعابهم بما فيه وضمهم بما لم يفعلوه، والله متعال عن ذلك؛ وإن كان الله تعالى مشاركاً لهم في ذلك فكيف يجوز أن يذمهم على فعل هو شريك فيه ومساوٍ لهم فيه، وإذا فسد الوجهان صح أن لا يضاف خلق الضلال إلى الله تعالى.

وسابعها: أنه تعالى ذكر أكثر الآيات التي فيها ذكر الضلال منسوباً إلى العصاة على ما قال: "وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ" (البقرة: 26). "وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ" (إبراهيم: 27)، "إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (المائدة: 67)، "كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ" (غافر: 34)، فلو كان المراد بالضلال المضاف إليه تعالى هو ما هم فيه، كان كذلك إثباتاً للثابت وهذا محال.

وثامنها: أنه تعالى نفى إلهية الأشياء التي كانوا يعبدونها من حيث أنهم لا يهدون إلى الحق قال: "أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى" (يونس: 35)، فنفي الربوبية عن تلك الأشياء من حيث أنها لا تهدي وأوجب ربوبية

نفسه من حيث أنه سبحانه وتعالى يهدي، فلو كان سبحانه وتعالى يضل عن الحق لكان قد ساوهم في الضلال وفيما لأجله نهى عن اتباعهم، بل كان قد أربى عليهم، لأن الأوثان كما أنها لا تهدي فهي لا تضل، وهو سبحانه وتعالى مع أنه إله يهدي فهو يضل.

وتاسعها: أنه تعالى يذكر هذا الضلال جزاء لهم على سوء صنيعهم وعقوبة عليه، فلو كان المراد ما هم عليه من الضلال كان ذلك عقوبة وتهديداً بأمرهم له ملابسون، وعليه مقبولون، وبه ملتذون ومغتبطون، ولو جاز ذلك لجازت العقوبة بالزنا على الزنا وبشرب الخمر على شرب الخمر، وهذا لا يجوز.

وعاشرها: أن قوله تعالى: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ" (البقرة: 26، 27) صريح في أنه تعالى إنما يفعل به هذا الإضلال بعد أن صار هو من الفاسقين الناقضين لعهد الله باختيار نفسه، فدل ذلك على أن هذا الإضلال الذي يحصل بعد صيرورته فاسقاً وناقضاً للعهد مغاير لنفسه ونقضه.

وحادي عشرها: أنه تعالى فسر الإضلال المنسوب إليه في كتابه، إما بكونه ابتلاءً وامتحاناً، أو بكونه عقوبةً ونكالا، فقال في الابتلاء: "وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا" أي امتحاناً إلى أن قال: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" (المذثر: 31) فبين أن إضلاله للعبد يكون على هذا الوجه من إنزاله آية متشابهة أو فعلاً متشابهاً لا يعرف حقيقة الغرض فيه؛ والضال به هو الذي لا يقف على المقصود ولا يتفكر في وجه الحكمة فيه بل يتمسك بالشبهات في تقرير المجمل الباطل كما قال تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ" (آل عمران: 7). وأما العقوبة والنكال فكقوله: "إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ" (غافر: 71) إلى أن قال: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ" فبين أن إضلاله لا يعدو أحد هذين الوجهين، وإذا كان الإضلال مفسراً بأحد هذين الوجهين وجب أن لا يكون مفسراً بغيرهما دفعاً للاشتراك، فثبت أنه لا يجوز حمل الإضلال على خلق الكفر والضلال.

المعتزلة: الوجوه العقلية لنفي الإضلال عن الله

(قال المعتزلة) وإذا ثبت ذلك فنقول:

بيننا أن الإضلال في أصل اللغة الدعاء إلى الباطل والترغيب فيه والسعي في إخفاء مقابحه، وذلك لا يجوز على الله تعالى فوجب المصير إلى التأويل، والتأويل الذي ذهب الجبرية إليه قد أبطلناه (يقول المعتزلة) فوجب المصير إلى وجوه أخر من التأويلات.

أحدها: أن الرجل إذا ضل باختياره، عند حصول شيء، من غير أن يكون لذلك الشيء أثر في إضلاله، فيقال لذلك الشيء إنه أضله. قال تعالى في حق الأصنام "رَبِّ إِنهْن أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ" (إبراهيم: 36) أي ضلوا بهن، وقال: وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا" (نوح: 23، 24) أي ضل كثير من الناس بهم وقال: "وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا" (المائدة: 64) وقال: "فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا" (نوح: 6) أي لم يزدادوا بدعائي لهم إلا فراراً، وقال: "فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوَكُم ذِكْرِي" (المؤمنون: 110) وهم لم ينسوهم في الحقيقة بل كانوا يذكرونهم الله ويدعونهم إليه ولكن لما كان اشتغالهم بالسخرية منهم سبباً لنسيانهم أضيف الإنسان إليهم. وقال في براءة: "وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَآمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ" (التوبة: 124، 125)، فأخبر سبحانه أن بنزول السورة المشتملة على الشرائع يعرف أحوالهم، فمنهم من يصلح عليها فيزداد بها إيماناً، ومنهم من يفسد عليها فيزداد بها كفراً، فإذن أضيفت الزيادة في الإيمان والزيادة في الكفر إلى السورة، إذ كانوا إنما صلحوا عند نزولها وفسدوا كذلك أيضاً، فكذا أضيف الهدى والإضلال إلى الله تعالى إذا كان إحداثهما عند ضربه تعالى الأمثال لهم وقال في سورة المدثر: "وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ" (المدثر: 31) فأخبر تعالى أن ذكره لعدة خزنة النار (وهم تسعة عشر) امتحان منه لعباده ليمتيز المخلص من المرتاب فألت العاقبة إلى أن صلح عليها المؤمنون وفسد الكافرون، وأضاف زيادة الإيمان وضدها إلى الممتحنين فقال ليزداد، وليقول، ثم قال بعد قوله: "مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ" (المدثر: 31) فأضاف إلى نفسه إضلالهم وهداهم بعد أن أضاف إليهم الأمرين معاً، فبين تعالى أن الإضلال مفسر بهذا الامتحان. ويقال في العرف أيضاً: أمرضني الحب أي مرضت به: ويقال قد أفسدت فلانة فلاناً وهي لم تعلم به، وقال الشاعر: دع عنك لومي فإن اللوم إغراء، أي يغري المعلوم باللوم، والإضلال على هذا المعنى يجوز أن يضاف إلى الله تعالى على معنى أن الكافرين ضلوا بسبب الآيات المشتملة على الامتحانات: ففي هذه الآية: الكفار لما قالوا: ما الحاجة إلى الأمثال وما الفائدة فيها، واشتد عليهم هذا الامتحان حسنت هذه الإضافة.

وثانيها: أن الإضلال هو التسمية بالضلal فيقال أضله أي سماه ضالاً وحكم عليه به، وأكفر فلان فلاناً إذا سماه كافراً ...

وثالثها: أن يكون الإضلال هو التخليّة وترك المنع بالقهر والجبر، فيقال أضله إذا خلاه وضلّاله، قالوا ومن مجازة قولهم: أفسد فلان ابنه وأهلكه ودمر عليه، إذا لم يتعهده بالتأديب... ويقال لمن ترك سيفه في الأرض النديّة حتى فسد وصدئ: أفسدت سيفك وأصدأته.

ورابعها: الضلال والإضلال هو العذاب والتعذيب، قال تعالى: "إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ، يَوْمَ يُنْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ" (القمر: 47، 48)، فوصفهم الله تعالى بأنهم يوم القيامة في ضلال، وذلك لا يكون إلا عذابهم. وقال تعالى: "إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ، فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ، ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ، مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ" (غافر: 71 - 74)، وقد فسر ذلك الضلال بالعذاب.

وخامسها: أن يحمل الإضلال على الإهلاك والإبطال كقوله: "الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ" (محمد: 1) قيل أبطلها وأهلكها. ومن مجازة قولهم: ضل الماء في اللبن إذا صار مستهلكاً فيه، ويقال أضلّته أنا إذا فعلت ذلك به فأهلكته وصيرته كالمعدوم. ومنه يقال أضل القوم ميتهم إذا واروه في قبره فأخفوه حتى صار لا يرى...

وسادسها: أن يحمل الإضلال على الإهلاك والإبطال كقوله: "الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ" (محمد: 1) قيل أبطلها وأهلكها ومن مجازة قولهم: ضل الماء في اللبن إذا صار مستهلكاً فيه ويقال أضلّته أنا إذا فعلت ذلك به فأهلكته وصيرته كالمعدوم ومنه يقال أضل القوم ميتهم إذا واروه في قبره، فأخفوه حتى صار لا يرى. وقال تعالى: "وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ" (السجدة: 10)، أي أنذا اندفنا فيها فخلقنا أشخاصاً فيحتمل على هذا المعنى يضل الله إنساناً أي يهلكه ويعدمه فتجوز إضافة الإضلال إليه تعالى على هذا الوجه، فهذه الوجوه الخمسة إذا حملنا الإضلال على: الإضلال عن الدين.

وسادسها: أن يحمل الإضلال على الإضلال عن الجنة، قالت المعتزلة: وهذا في الحقيقة ليس تأويلاً بل حملاً للفظ على ظاهره فإن الآية تدل على أنه تعالى يضلهم وليس فيها دلالة على أنه عما ذا يضلهم، فنحن نحملها على أنه تعالى يضلهم عن طريق الجنة. ثم حملوا كل ما في القرآن من هذا الجنس على هذا المحمل وهو اختيار الجبائي قال تعالى: "كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ

إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ" أي يضلّه عن الجنة وثوابها. هذا كله إذا حملنا الهمزة في الإضلال على التعدية.

وسايعها: أن نحمل الهمزة على الوجدان، على ما تقدم في أول هذه المسألة بيانه، فيقال أضل فلان بغيره أي ضل عنه، فمعنى إضلال الله تعالى لهم أنه تعالى وجدهم ضالين.

وثامنها: أن يكون قوله تعالى: "يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا" من تمام قول الكفار، فإنهم قالوا ماذا أراد الله بهذا المثل الذي لا يظهر وجه الفائدة فيه، ثم قالوا: يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وذكره على سبيل التهكم، فهذا من قول الكفار. ثم قال تعالى جواباً لهم: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ" أي ما أضل به إلا الفاسق.

قال الرازي هذا مجموع كلام المعتزلة.

رد الجبرية

ثم قال: "وقالت الجبرية رداً على المعتزلة - لقد سمعنا كلامكم واعترفنا لكم بجودة الإيراد وحسن الترتيب وقوة الكلام، ولكن ماذا نعمل ولكم أعداء ثلاثة يشوشون عليكم هذه الوجوه الحسنة؟ والدلائل اللطيفة:

أحدها: مسألة الداعي: وهي أن القادر على العلم والجهل والإهداء والإضلال لم يفعل أحدهما دون الآخر؟

وثانيها: مسألة العلم على ما سبق تقريرها في قوله تعالى: "خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ". وما رأيًا لكم في دفع هذين الكلامين كلاماً محيلاً قوياً. ونحن، لا شك، نعلم أنه لا يخفى عليكم مع ما معكم من الذكاء، الضعف عن تلك الأجوبة التي تكلموا بها. فكما أنصفنا واعترفنا لكم بحسن الكلام الذي ذكرتموه فأنصفوا أيضاً واعترفوا بأنه لا وجه لكم عن هذين الوجهين فإن التعامي والتغافل لا يليق بالعقلاء.

وثالثها: أن فعل العبد لو كان بإيجاده لما حصل إلا الذي قصد إيجاده، لكن أحداً لا يريد إلا تحصيل العلم والاهتداء، ويحتز كل الاحتراز عن الجهل والضلال فكيف يحصل الجهل والإضلال للعبد مع أنه ما قصد إلا تحصيل العلم والاهتداء؟ فإن قيل إنه اشتبه عليه الكفر بالإيمان والعلم بالجهل فظن في الجهل أنه علم فقصده إيقاعه فلذلك حصل له الجهل، قلنا: ظنه في الجهل أنه علم، ظن خطأ. فإن كان اختاره أولاً فقد اختار والخطأ لنفسه، وذلك غير ممكن. وإن قلنا إنه اشتبه عليه ذلك بسبب ظن آخر متقدم عليه لزم أن يكون قبل كل ظن ظن لا إلى نهاية وهو محال.

ورابعها: أن التصورات غير كسبية، والتصديقات البديهية غير كسبية، والتصديقات بأسرها غير كسبية، فهذه مقدمات ثلاثة⁽⁵⁾.

المقدمة الأولى: في بيان أن التصورات غير كسبية، وذلك لأن من يحاول اكتسابها فإما أن يكون متصوراً لها أو لا يكون متصوراً لها، فإن كان متصوراً لها استحال أن يطلب تحصيل تصورهما لأن تحصيل الحاصل محال، وإن لم يكن متصوراً لها كان ذهنه غافلاً عنها والغافل عن الشيء يستحيل أن يكون طالبه⁽⁶⁾.

المقدمة الثانية: في بيان أن التصديقات البديهية غير كسبية لأن حصول طرفي التصديق إما أن يكون كافياً في جزم الذهن بذلك التصديق أولاً يكون كافياً، فإن كان الأول كان ذلك التصديق دائراً مع ذينك التصورين على سبيل الوجوب نفيًا

5- هذا الاعتراض لا يمكن أن يكون من أهل السنة لأنه مبني على مصطلحات منطقية لم تبدأ في الشيوخ إلا مع الغزالي والرازي نفسه. أما قوله "كسبية" فهو نسبة إلى فكرة "الكسب" التي حاول بها أبو الحسن الأشعري الهروب من الجبر. قال: "إن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق عقيب القدرة الحادثة، (أي التي يحدثها في الإنسان) أو تحتها أو معها، الفعل الحاصل إذا أَراده العبد وتجرد له، وسمى هذا كسباً. فيكون خلقاً من الله تعالى إبداعاً وإحداثاً، وكسباً من العبد حصولاً تحت قدرته". وذلك ما لم يستسغه الجويني الذي يرى أن إثبات قدرة لا أثر لها بوجه، كما يقول الأشعري، هو كنفي القدرة أصلاً، وأما إثبات التأثير لهذه القدرة في حالة دون أخرى كما يقول الباقلاني، فشيء لا يعقل، لأن القول بهذا كالتقول بنفي التأثير. من أجل هذا "لا بد من نسبة التأثير إلى فعل العبد وقدرته حقيقة"، ولكن "لا على وجه الإحداث والخلق"، لأن الذي يخلق يشعر باستقلاله، كما أن الخلق يعني الإيجاد من العدم، والحال أن الإنسان، كما يشعر بقدرته على الفعل يشعر أيضاً بعدم استقلاله في فعله "فالفعل يستند وجوده إلى القدرة، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة العقل إلى القدرة، وكذلك يستند سبب إلى سبب حتى ينتهي إلى مسبب الأسباب، فهو الخالق للأسباب ومسبباتها". ثم يضيف الشهرستاني الذي أورد ما ذكرنا قائلًا: "وهذا الرأي أخذه (= الجويني) من الحكماء الإلهيين (أرسطو) وأبرزه في معرض الكلام الشهرستاني. الملل والنحل. ج3 ص97

6- وهذا احتجاج سفسطائي أيضاً! ذلك أن الحجة مبنية على ما سموه بـ "العلم الضروري"، وهو ما تمدنا به حواسنا من دون إرادة منا. فإذا فتحت عينيك ورأيت شجرة، فانطباع صورة الشجرة في ذهنك لم يكن بإرادتك وبالتالي فـ "تصور" الشجرة لم يكن من عملك وكسبك، بل حصل ذلك لديك باضطرار، وهذا معنى أن قولهم إن "التصورات غير كسبية" أو "المعارف الحسية ضرورية".

وإثباتاً، وما كان كذلك لم يكن مقدوراً، وإن كان الثاني لم يكن التصديق بديهياً بل متوقفاً فيه⁽⁷⁾.

المقدمة الثالثة: في بيان أن التصديقات بأسرها غير كسبية وذلك لأن هذه النظريات إن كانت واجبة للزوم عن تلك البديهيات التي هي غير مقدورة كانت تلك النظريات أيضاً غير مقدورة. وإن لم تكن واجبة للزوم عن تلك البديهيات لم يمكن الاستدلال بتلك البديهيات على تلك النظريات، فلم تكن تلك الاعتقادات الحاصلة في تلك النظريات علوماً، بل لا تكون إلا اعتقاداً حاصلاً للمقلد وليس كلامنا فيه، فثبت أن كلامكم (أيها المعتزلة) في عدم إسناد الاهتداء والضلال إلى الله تعالى معارض بهذه الوجوه العقلية القاطعة التي لا جواب عنها⁽⁸⁾. (وهكذا فيعد أن اعترف الرازي بضعف ردود الأشاعرة باستعمال طريقة المتقدمين (الاستدلال بالشاهد على الغائب) أراد أن ينقد الموقف باعتماد طريقة المتأخرين أي طريقة الاستدلال في المنطق الأرسطي، فأتى بمقدمات ادعى لها الصحة والضرورة واستنتج منها ما يريد! بعد هذا قال: "ولنتكلم الآن فيما ذكره (المعتزلة) من التأويلات:

- أما التأويل الأول فساقط لأن إنزال هذه المتشابهات هل لها أثر في تحريك الدواعي أو ليس لها أثر في ذلك؟ فإن كان الأول وجب على قولكم أن يقبح لوجهين:

7- "للتصديقات" هي الأحكام. للتصديق: مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل بصطلاح للنحويين: "فلان سرق"، "سرق فلان". وهذه تصديقات كسبية أي كسبها الإنسان بأفعاله، أما للتصديقات البديهية فهي لا تحتاج إلى فعل وبالتالي ليست كسبية. فقولنا "الكل أكبر من الجزء" (أي من أي جزء من أجزائه) تصديق، أو حكم بديهي، لأنه عقلي محض، لا يحتاج إلى برهان. ومقصود الرازي هو أن الضرورة العقلية التي توصف بها البديهيات "ليست مقدورة للإنسان" بل هي موضوعة في عقولنا وواضحة هو الله.

8 - المقصود بالتصديقات الكسبية هي الأحكام التي نتوصل إليها بالاستدلال، والاستدلال في المنطق الأرسطي الذي يستعين به الرازي هنا، لا تكون نتيجته صادقة إلا إذا كانت مقدماته صادقة. وهذه لا تكون صادقة إلا إذا كانت بديهيات أو مبنية على بديهيات (مثل الكل أكبر من الجزء، ومبدأ السببية، ومبدأ عدم التناقض...) كما هو الشأن في النظريات الهندسية. وبما أنه "ثبت" في الفقرة السابقة أن "للتصديقات البديهية" غير كسبية بمعنى أنها ليست من عندها بل من واضعها في عقولنا وهو الله، فإن النظريات المبنية عليها أي معارفنا وآراءنا واعتقاداتنا المبنية على الاستدلال هي أيضاً غير كسبية. بالتالي فهي إما نتيجة وتقليد سمع ونقل الخ -ويقول وهذا ليس هو المطروح هنا- وإما أنها من وضع الله في عقولنا، وإذا ثبت هذا ثبت أن الإضلال من الله، بمعنى أن وقوع الإنسان في الضلال ليس من مقدره ولا من اختياره.

الأول: أنا قد دللنا في تفسير قوله: "خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ" على أنه متى حصل الرجحان فلا بد وأن يحصل الوجوب وأنه ليس بين الاستواء وبين الوجوب المانع من النقيض واسطة، فإذا أثر إنزال هذه المتشابهات في الترجيح وثبت أنه متى حصل الترجيح فقد حصل الوجوب فحينئذ جاء الجبر وبطل ما قلتموه.

الثاني: هب أنه لا ينتهي إلى حد الوجوب إلا أن المكلف ينبغي أن يكون مزاح العذر والعلّة، وإنزال هذه المتشابهات عليه مع أن لها أثراً في ترجيح جانب الضلال على جانب الاهتداء كالعذر للمكلف في عدم الإقدام على الطاعة، فوجب أن يقبح ذلك من الله تعالى، وأما إن لم يكن لذلك أثر في إقدامهم على ترجيح جانب الضلال على جانب الاهتداء كانت نسبة هذه المتشابهات إلى ضلالهم كصيرير الباب ونعيق الغراب، فكما أن ضلالهم لا ينسب إلى هذه الأمور الأجنبية كذلك وجب أن لا ينسب إلى هذه المتشابهات بوجه ما، وحينئذ يبطل تأويلهم.

- أما التأويل الثاني، وهو التسمية والحكم، فهو، وإن كان في غاية البعد، لكن الإشكال معه باقٍ لأنه إذا سماه الله بذلك وحكم به عليه فلو لم يأت المكلف به لانقلب خبر الله الصدق كذباً وعلمه جهلاً، وكل ذلك محال والمفضي إلى المحال محال، فكان عدم إتيان المكلف به محالاً وإتيانه به واجباً، وهذا عين الجبر الذي تفرون منه وأنه ملائكم لا محالة. وههنا ينتهي البحث إلى الجوابين المشهورين لهما في هذا المقام وكل عاقل يعلم ببديهة عقله سقوط ذلك،

- وأما التأويل الثالث وهو التخلية وترك المنع فهذا إنما يسمى إضلالاً إذا كان الأول والأحسن بالوالد أن يمنعه عن ذلك، فأما إذا كان الولد بحيث لو منعه والده عن ذلك لوقع في مفسدة أعظم من تلك المفسدة الأولى لم يقل أحد إنه أفسد ولده وأضله، وههنا الأمر بخلاف ذلك، لأنه تعالى لو منع المكلف جبراً عن هذه المفسدة لزمّت مفسدة أخرى أعظم من الأولى، فكيف يقال إنه تعالى أفسد المكلف وأضله بمعنى أنه ما منعه عن الضلال مع أنه لو منعه لكانت تلك المفسدة أعظم.

وأما التأويل الرابع فقد اعترض القفال عليه فقال: لا نسلم بأن الضلال جاء بمعنى العذاب، أما قوله تعالى: "إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ" (القمر: 47) فيمكن أن يكون المراد في ضلال عن الحق في الدنيا وفي سعُر: أي في عذاب جهنم في الآخرة ويكون قوله: "يَوْمَ يُسْحَبُونَ" من صلة سعُر وأما قوله تعالى: "إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ" إلى قوله: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ" فمعنى قوله ضلوا عنا أي بطلوا فلم ينتفع بهم في هذا اليوم الذي كنا نرجو شفاعتهم فيه، ثم قوله: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ" قد يكون على معنى كذلك يضل الله أعمالهم أي يحبطها يوم القيامة،

ويحتمل كذلك يخذلهم الله تعالى في الدنيا فلا يوفقهم لقبول الحق إذ ألفوا الباطل وأعرضوا عن التدبر، فإذا خذلهم الله تعالى وأتوا يوم القيامة فقد بطلت أعمالهم التي كانوا يرجون الانتفاع بها في الدنيا.

- وأما التأويل الخامس: وهو الإهلاك فغير لائق بهذا الموضع لأن قوله تعالى: "وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا" يمنع من حمل الإضلال على الإهلاك.

- وأما التأويل السادس: وهو أنه يضلّه عن طريق الجنة فضعيف لأنه تعالى قال: "يُضِلُّ بِهِ" أي يضل بسبب استماع هذه الآيات والإضلال عن طريق الجنة ليس بسبب استماع هذه الآيات بل بسبب إقدامه على القبائح، فكيف يجوز حمله عليه؟

- وأما التأويل السابع: وهو أن قوله: "يُضِلُّهُ" أي يجده ضالاً قد بينا أن إثبات هذه اللغة لا دليل عليه وأيضاً فلا تـدى الإضلال بحرف الباء فقال: "يُضِلُّ بِهِ" والإضلال بمعنى الوجدان لا يكون معدى بحرف الباء.

- وأما التأويل الثامن: فهو في هذه الآية يوجب تفكيك النظم لأنه إلى قوله يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً من كلام الكفار ثم قوله: "وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ" كلام الله تعالى من غير فصل بينهما بل مع حرف العطف وهو الواو، ثم هب أنه ههنا كذلك لكنه في سورة المدثر وهو قوله: "كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ" لا شك أنه قول الله تعالى

قال الرازي: فهذا هو الكلام في الإضلال.

ثانياً: الهدى

رأي المعتزلة:

ثم قال: "أما الهدى فقد جاء على وجوه عند المعتزلة:

- أحدها: الدلالة والبيان قال تعالى: "أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا" (السجدة: 26) وقال: "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ" (البقرة: 38) وهذا إنما يصح لو كان الهدى عبارة عن البيان وقال: "إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى" (النجم: 23)، وقال: "إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" (الإنسان: 3)، أي سواء شكر أو كفر فالهداية قد جاءت في الحالتين، وقال: "وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى" (فصلت: 17)، وقال: "ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ" (الأنعام: 154)، وهذا لا يقال للمؤمن. وقال تعالى حكاية عن خصوم داود عليه السلام: "وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ" (ص 22) أي أرشدنا، وقال: "إِنَّ

الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ" (محمد: 25)، وقال: "أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنَا عَلَيَّ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ" (الزمر: 56) إلى قوله: "أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ" (الزمر: 57) إلى قوله: "بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ" الزمر: 59): أخبر أنه قد هدى الكافر مما جاءه من الآيات وقال: "أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى" (الأنعام: 157) وهذه مخاطبة للكافرين.

- وثانيها: قالوا في قوله: "عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (الشورى: 52) أي لتدعو وقوله: "وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ" (الرعد: 7) أي داع يدعوهم إلى ضلال أو هدى.

- وثالثها: التوفيق من الله بالأنطاف المشروطة بالإيمان يؤتيها المؤمنين جزاء على إيمانهم ومعونة عليه وعلى الازدياد من طاعته، فهذا ثواب لهم، وبإزانه ضده للكافرين وهو أن يسلبهم ذلك فيكون مع أنه تعالى ما هداهم يكون قد أضلهم، والدليل على هذا الوجه قوله تعالى: "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى" (محمد: 17)، "وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى" (مريم: 76)، "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (آل عمران: 86)، "يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ" (إبراهيم: 27)، "كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (آل عمران: 86) فأخبر أنه لا يهديهم وأنهم قد جاءهم البينات، فهذا الهدى غير البيان لا محالة، وقال تعالى: "وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ" (التغابن: 11) أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه" (المجادلة: 22).

- ورابعها: الهدى إلى طريق الجنة قال تعالى: "فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنَّةٍ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا" (النساء: 175) وقال: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ"، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم" (المائدة: 15، 16). وقال: "فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدَ وَامٍ فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ" (محمد: 4 - 6).

والهداية بعد القتل لا تكون إلا إلى الجنة. وقال تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ" (يونس: 90) وهذا تأويل الجبائي.

- وخامسها: الهدى بمعنى التقديم يقال هدى فلان فلاناً أي قدمه أمامه، وأصل هدى من هداية الطريق؛ لأن الدليل يتقدم المدلول، وتقول العرب أقبلت هوادي الخيل. أي متقدماتها ويقال للعنق هادي وهوادي الخيل أعناقها لأنها تتقدمها.

وسادسها: يهدي أي يحكم بأن المؤمن مهتد وتسميته بذلك لأن حقيقة قول القائل هداه جعله مهتدياً، وهذا اللفظ قد يطلق على الحكم والتسمية قال تعالى: "مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ" (المائدة: 103) أي ما حكم ولا شرع، وقال: "إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ" (آل عمران: 73) معناه أن الهدى ما حكم الله بأنه هدى وقال: "مَنْ يَهْدِ اللَّهُ" أي من حكم الله عليه بالهدى فهو المستحق لأن يسمى مهتدياً.

قال الرازي: فهذه هي الوجوه التي ذكرها المعتزلة في الهدى وقد تكلمنا عليها فيما تقدم في باب الإضلال.

رد الجبرية على المعتزلة في الهدى

ثم أضاف: "قالت الجبرية: وههنا وجه آخر وهو أن يكون الهدى بمعنى خلق الهداية والعلم، قال الله تعالى: "وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (يونس: 25) قالت القدرية هذا غير جائز لوجوه:

أحدها: أنه لا يصح في اللغة أن يقال لمن حمل غيره على سلوك الطريق كرهاً أنه هداه إليه وإنما يقال رده إلى الطريق المستقيم وحمله عليه. فاما أن يقال إنه هداه إليه فلا.

وثانيها: لو حصل ذلك بخلق الله تعالى لبطل الأمر والنهي والمدح والذم والثواب والعقاب. فإن قيل هب أنه خلق الله تعالى إلا أنه كسب العبد قلنا هذا الكسب مدفوع من وجهين:

الأول: أن وقوع هذه الحركة إما أن يكون بتخليق الله تعالى أو لا يكون بتخليقه، فإن كان بتخليقه، فمتى خلقه الله تعالى استحال من العبد أن يتمتع منه، ومتى لم يخلقه استحال من العبد الإتيان به، فحينئذ تتوجه الإشكالات المذكورة وإن لم يكن بتخليق الله تعالى بل من العبد فهذا هو القول بالاعتزال..

الثاني: أنه لو كان خلقاً لله تعالى وكسباً للعبد لم يخل من أحد وجوه ثلاثة، إما أن يكون الله يخلقه أولاً ثم يكتسبه العبد أو يكتسبه العبد أولاً ثم يخلقه الله تعالى، أو يقع الأمران معاً: فإن خلقه الله تعالى كان العبد مجبوراً على اكتسابه فيعود

الإلزام، وإن اكتسبه العبد أولاً فالله مجبور على خلقه، وإن وقعا معاً وجب أن لا يحصل هذا الأمر إلا بعد اتفاقهما؛ لكن هذا الاتفاق غير معلوم لنا، فوجب أن لا يحصل هذا الاتفاق. وأيضاً فهذا الاتفاق وجب أن لا يحصل إلا باتفاق آخر، لأنه من كسبه وفعله، وذلك يؤدي إلى ما لا نهاية له من الاتفاق. وهو محال.

قال الرازي: "هذا مجموع كلام المعتزلة"، يعني رد الجبرية على مجمع كلام المعتزلة.

- رأي الجبرية: الله خالق أفعال الإنسان.

ثم قال: "قالت الجبرية: إنا قد دللنا بالدلائل العقلية التي لا تقبل الاحتمال والتأويل على أن خالق هذه الأفعال هو الله تعالى، إما بواسطة أو بغير واسطة، والوجود التي تمسكتم بها وجود عقلية قابلة للاحتمال، والقاطع لا يعارضة المحتمل، فوجب المصير إلى ما قلناه وبالله التوفيق".

وهكذا نرى أن الكلام في الهداية والإضلال ينتهي إلى مسألة "خلق الأفعال"، أفعال الإنسان: هل يأتيها هو، أم أن الله هو خالقها. وهذا تعبير آخر عن نفس المسألة: مسألة الجبر والاختيار. وهي في الحقيقة من المسائل التي لا يمكن الفصل فيها بصورة نهائية. فهناك أفعال يأتيها الإنسان بإرادته ولكن هناك حوادث وأشياء تحدث وتنسب للحظ أو لقوانين الطبيعة أو لغير ذلك من التسميات التي تعني أنها خارجة عن إرادة الإنسان.

وفي هذا المعنى كتب ابن تيمية رسالة صغيرة نختم بها هذا الاستطراد.

ابن تيمية: وجوب الإيمان بالقدر ونفي الاحتجاج به:

قال: "وليس في القدر (بمعنى القضاء والقدر) حجة لابن آدم ولا عذر، بل القدر يؤمن به ولا يحتج به، والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين متناقض، فإن القدر إن كان حجة وعذراً لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتصر منه، وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه إذا ظلم في نفسه وماله وعرضه وحرمة أن لا ينتصر من الظالم ولا يغضب عليه ولا يذمه. وهذا أمر ممتنع في الطبيعة لا يمكن أحداً أن يفعله فهو ممتنع طبعاً محرم شرعاً.

ولو كان القدر حجة وعذراً لم يكن إبليس ملوماً معاقباً ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار، ولا كان جهاد الكفار جائزاً ولا إقامة الحدود جائزاً لا قطع السارق ولا جلد الزاني ولا رجمه، ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتد بوجه من الوجوه. ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلاً في فطر الخلق وعقولهم لم تذهب إليه أمة

من الأمم. ولا هو مذهب أحد من العقلاء الذين يطردون قولهم فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد لا في دنياه ولا آخرته ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة إن لم يكن أحدهما ملتزماً مع الآخر نوعاً من الشرع. فالشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده، لكن الشرائع تتنوع فتارة تكون منزلة من عند الله كما جاءت به الرسل وتارة لا تكون كذلك، ثم المنزلة تارة تبدل وتغير كما غير أهل الكتاب شرائعهم. وتارة لا تغير ولا تبدل، وتارة يدخل النسخ في بعضها وتارة لا يدخل". (رسائل ومسائل ابن تيمية ج 1 ص 95).

المرحلة السادسة

ما بعد الحصار:

مواصلة الاتصال بالقبائل ...

والاستعداد للهجرة إلى المدينة

استهلال

مكث الرسول عليه السلام في الحصار هو وأهله من بني هاشم وبني المطلب نحو ثلاث سنوات، في أغلب الأقوال: من بداية السنة السابعة للنبوّة إلى بداية العاشرة. ومع أن مقام الرسول وعشيرته في شعب أبي طالب قد شهدت أوقاتاً قاسية فإن مقاطعة قريش لم تكن تامة ولا شاملة، ولا بنفس الشدة، مدة الحصار كله. كانت هناك ثغرات "قبليّة"، إذ كان بعض أقارب الهاشميين غير متحمسين للحصار، كما أن العقد الذي أبرمه المأ من قريش بينهم يتعهدون فيه بمقاطعة بني هاشم (وسموه "الصحيفة") كان يُلزم قريشاً وحدها، أما القبائل العربية الأخرى فكانت تتعامل في الأسواق مع بني هاشم وبني المطلب رغم ضغوط أبي جهل وجماعته.

وهكذا، فإذا كانت "الصحيفة" قد أملاها منطق "القبيلة"، فإن "القبيلة" ليست منطقاً وحسب بل هي وجدان أيضاً. وهكذا سينقُضُ وجدان "القبيلة"، ما أبرمه "عقل"ها! ذلك أن شخصاً يدعى هشام بن عمرو، وكان قريباً من ناحية الأم لأحد المحاصرين من بني هاشم، كان يحمل الطعام إليهم كل ليلة. ثم إنه بعد مدة اتصل بأفراد آخرين ممن لهم علاقة قرابية، من ناحية الأم، مع بني هاشم واتفقوا في نهاية الأمر على نقض الصحيفة؛ فجاجعوا مجلس قريش بالكعبة، الواحد بعد الآخر، وأعلنوا عن عدم التزامهم بالصحيفة مبررين ذلك بأنهم لم يكونوا قد وافقوا عليها. وهكذا انفرط عقد حصار قريش، فأخرجت الصحيفة من الكعبة ومزقت وخرج بنو هاشم من الحصار (ابن إسحق).

بعد خروج أبي طالب من الحصار مرض مرض موته، وتقول إحدى الروايات⁽¹⁾ إن زعماء قريش، وعلى رأسهم أبو جهل، تنادوا لمناقشة أمر محمد (ص) فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فنكلمه فيه فلينصفنا منه، فيأمره فليكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه الذي يعبد، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شيء فتُغيّرنا العرب ويقولون: تركوه حتى إذا مات عمه وتناولوه". وهكذا بعثوا رجلاً منهم إلى أبي طالب ليقول له: "يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من

1 - الروايات حول لقاءات قريش مع أبي طالب وما جرى فيها من كلام متداخلة غير مرتبة زمنياً، بعضها يكرر بعضها، ونحن نذكر منها، بين حين وآخر، ما هو أقرب إلى زمن اللقاء وظروفه.

ابن أخيك، فمره فليُكفَّ عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه. وتقول إحدى الروايات إن أبا طالب بعث إلى النبي عليه السلام "فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق! فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه فيه بداءً، وأنه خاذله ومسلّمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله: يا عماء لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته. ثم استعير رسول الله فبكى، ثم قام. فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي! فأقبل عليه رسول الله فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لنشر أبداً⁽²⁾.

ولم تمر إلا أيام حتى توفي أبو طالب، كما توفيت بعده خديجة زوج النبي (ص)، -وقيل بين موتها نحو شهر- "فاجتمعت على رسول الله (ص) مصيبتان فلزم بيته وأقل الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به⁽³⁾، فبلغ ذلك عمه أبا لهب -الخصم اللدود للدعوة المحمدية- وقد تحركت فيه نوازع القرابة فجاءه فقال: يا محمد امض لما أردت، وما كنت صانعا إذ كان أبو طالب حيا فاصنعه! لا، واللوات لا يوصل إليك حتى أموت! وحدث أن سب رجل من كبار قريش النبي (ص)، فأقبل عليه أبو لهب فنال منه، فولى وهو يصيح: يا معشر قريش صبا (أسلم) أبو عتبة (=أبو لهب)! فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال: ما فارقت دين عبد المطلب (أبو لهب)، ولكني أمنع بن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد. قالوا قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم! فمكث رسول الله (ص) كذلك أياما، يذهب ويأتي، لا يعترض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب، إلى أن جاء عقبة بن أبي معيط وأبو جهل بن هشام إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك (أي مصيره وهو ميت)? فقال له أبو لهب يا محمد: أين مدخل عبد المطلب؟ قال مع قومه. فخرج أبو لهب إليهما، فقال قد سألته فقال: مع قومه. فقالا يزعم أنه في النار! فقال (أبو لهب): يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار. فقال أبو لهب: والله لا يرحم (سابقى) لك عدوا أبدا، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار". قال الراوي: فاشتد عليه هو وسائر قريش.

2- تقول إحدى الروايات إن النبي (ص) طلب من عمه أبي طالب أن يسلم وألح في الطلب، فامتنع أبو طالب قائلا: إني أخاف أن يعيرني العرب لكوني أسلمت خوفا من الموت.

3 - روي عن علي بن أبي طالب أنه قال بعد موت أبي طالب: "لقد رأيت رسول الله (ص) أخذته قريش تتجاذبه وهم يقولون له: أنت الذي جعلت الآلهة إلها واحدا؟ قال علي: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، فصار يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟".

وعلى أثر ذلك خرج (ص) إلى الطائف، يلتمس النصرة من أهلها... فعمد إلى سادة ثقيف وأشرفهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام... فقال له أحدهم: "أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟" وقال آخر: "والله لا أكلّمك أبداً. لأن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام! ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلّمك". فقام رسول الله (ص) من عندهم وقد ينس من خير ثقيف. لقد تعصبوا ضده، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجنوه إلى حديقة، ولما رجع عنه سفهاء ثقيف ممن كان يتبعه، عمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه. "وكان خروجه إلى الطائف في شوال سنة عشر من النبوة، وأقام هناك عشرة أيام وقيل معه مولاة زيد بن حارثة".

لم يتجه إلى مكة مباشرة عند رجوعه من الطائف لأنه -كما قيل- خشي أن يثير طلبه النصرة من ثقيف غضب قريش، للتنافس القبلي الذي كان بينهما، فيمنعوه من دخول مكة أو يُمعنون في أديته، خصوصاً بعد وفاة أبي طالب وانقلاب أبي لهب عليه بسبب ما قاله في مصير أبيه عبد المطلب كبير عشيرته ورمز قوتها. من أجل تجنب ذلك سار إلى حراء، ثم بعث إلى بعض معارفه يطلب جوارهم، فامتنع منهم اثنان وقبل ثالث هو المطعم بن عدي. تسلم هذا الأخير هو وأبناؤه وخرجوا حتى أتوا المسجد، فقام على راحلته فنادى: يا معشر قريش إني قد أجرت محمداً فلا يؤذه أحد منكم، ثم بعث إلى رسول الله (ص) أن أدخل، فدخل وقصد المسجد فسلم وطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله⁽⁴⁾.

استمرت هذه المرحلة السادسة من مسيرة الدعوة المحمدية ومسار تنزيل القرآن بمكة أربع سنوات: من خروجه عليه السلام من الحصار في بداية السنة العاشرة، إلى أوائل السنة الرابعة عشرة للنبوة، وهي السنة الأولى للهجرة إلى المدينة. وفي ما يلي بيان لمدارج هذه المرحلة، كما أمكننا استخلاصها من واقع السيرة ومسار التنزيل.

- كانت السنة العاشرة سنة الحزن والشدة بسبب وفاة كل من عمه أبي طالب وزوجته خديجة، ورجوعه من الطائف في أسوأ حال، ودخوله موطنه مكة في جوار أحد المشركين. وفي أواخر هذه السنة تزوج زوجته الأولى بعد خديجة: سودة بنت زمعة ودخل عليها في مكة. وفيها أيضاً عقد عقده على عائشة بنت أبي بكر وكانت في نحو التاسعة من عمرها، ولم يدخل عليها إلا في المدينة.

4- ابن إسحاق - ابن سعد - السيرة الحلبية ...

في أواخر العاشرة وأوائل الحادية عشرة استأنف الدعوة في المواسم والأسواق⁽⁵⁾ متخذاً إستراتيجية جديدة. فبدلاً من دعوة الناس إلى الإيمان بالله والبعث وترك عبادة الأصنام الخ، جهاراً وبشكل جماعي كما جرت عادة الخطباء والقصاص في الأسواق، أخذ في عقد لقاءات مباشرة مع وفود القبائل، صحبة أبي بكر الذي كان خبيراً بالشؤون القبلية في الجزيرة العربية. وكان التركيز هذه المرة على البحث عن قبيلة تأويه وتتبنى دعوته وتحالف معه. وقد أثمرت هذه الإستراتيجية: إذ استجاب له وفد الخزرج من يثرب (المدينة) وأسلموا وحملوا معهم الإسلام إلى بلادهم بعد أن وعدوه بأنهم سيفلقون رغبته في التحالف معه ضد قريش ويأتونه بالنتيجة في العام القادم⁽⁶⁾.

5- وكان قد بدأها قبل الحصار عندما نزل عليه: اصدع بما تؤمر". انظر المرحلة الرابعة في أول هذا القسم من الكتاب. الاستهلال وسورة الحجر 53.

6- تفصيل ذلك: كانت تسكن يثرب قبيلتان يمينتان، الأوس والخزرج؛ قيل نزحنا إليها بعد انهيار سد مأرب. وكانت تقطنها قبلهما قبائل من اليهود أشهرها بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع، وقد بنوا حصوناً يجتمعون بها إذا ضاقوا. فنزل عليهم الأوس والخزرج فابتهتوا المساكن والحصون، إلا أن الغلبة والحكم إلى اليهود". ثم نشب نزاع بينهم وبين الأوس والخزرج فاستجد هؤلاء ببني عمويتهم من اليمنيين الذين كانوا قد نزلوا الشام، فأتجسدهم وتغلبوا على اليهود وصار الأمر إليهم. ومع مرور الزمن حدثت احتكاكات قبلية بين الأوس والخزرج تطورت إلى سلسلة متوالية الحلقات من حروب "الأيام" كان كل طرف فيها يتحالف ضد الطرف الآخر مع اليهود ويبحث عن حلفاء آخرين خارج يثرب. كان من حروبهم "يوم معبس ومضرس"، انهزم فيه الأوس "هزيمة قبيحة لم يهزموا مثلها"، فاضطر قسم منهم إلى موادة عدوهم الخزرج بينما رفض قسم آخر منهم، وهم بنو عبد الأشهل، فأبوا إلا الاستعداد لأخذ الثأر. ثم سارت الأوس إلى مكة لتحالف قريشا على الخزرج وأظهروا أنهم يريدون العمرة". وهناك في مكة التقى بهم محمد (ص) وتعرف على قضيتهم وقال لهم: "هل لكم فيما هو خير لكم مما جئتم له"، فدعاهم إلى الإسلام وشرح لهم قضيتهم فتحس لها أحدهم، وكان شاباً وقال: "هذا والله خير مما جئنا به"، فنهزه رئيس الوفد قائلاً "دعنا منك فقد جئنا لغير هذا فسكت". ثم مضى وفد الأوس في مهمته فعهق حلفاء مع قريش، غير أن أباً جهل زعيمهم كان غائباً، فلما عاد أنكره وسعى في فسخه. ثم نشب نزاع آخر بين الأوس والخزرج فتحالف الأوس مع يهود بني قريظة وبنو النضير فكان "يوم بعاث" الذي انتهى بانتصار الأوس. وفي الموسم التالي ذهب وفد من الخزرج إلى مكة للحج والعمرة فالتقى بهم = الرسول (ص) وعرض عليهم نفسه. وكان اليهود في يثرب قد قالوا لهم، في إطار نزاع كلامي معهم: "إن نبياً مبعوثاً قد أطل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم". فلما كلمهم الرسول (ص) قال بعضهم: "تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقواكم إليه. فأجابوه - أجابوا محمداً (ص) - فيما دعاهم إليه بأن صدقوا وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فمضى أن يجمعهم الله بك، فنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي

- ولما حان وقت الموسم التالي (السنة الثانية عشرة)، جاء وفد منهم يتكون من اثني عشر رجلا فالتقوا بالرسول (ص) في "العقبة" وبايعوه على الإسلام، ولكن دون الالتزام بالقتال معه. وتلك هي بيعة العقبة الأولى. وقد بعث معهم الرسول (ص) مصعب بن عمر بن هاشم بن عبد مناف ليعلمهم القرآن وكان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج، كره بعضهم أن يؤمه بعض. وهكذا بدأ انتشار الإسلام في يثرب بسرعة.

- وفي العام التالي (السنة الثالثة عشرة)، وأثناء موسم الحج كذلك، قدم إلى مكة وفد يثرب وكان يضم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين من المسلمين. فتواعد الوفد أثناء الموسم مع النبي (ص) في "العقبة" مرة أخرى، فتسللوا إليها مستخفين، فجاءهم النبي (ص) ومعه عمه العباس، ولم يكن قد أسلم بعد "إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق منه" - فتكلم العباس مخاطبا الوفد: "إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعاه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وقد أبى إلا الاحياز إليكم والحق بكم. فإن كنتم ترون أكم وافون له بما دعوتموه إليه وماتعوه ممن خالفه، فاتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده". فقبلوا منه ذلك وطلبوا من الرسول (ص) أن يتكلم فقال: "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون به نساءكم وأبناءكم، فوافقوا. واستدرك أحدهم قائلا: "يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإننا قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسييت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟" فأجابهم الرسول (ص): "بل الدم الدم، الهدم الهدم"، أي ما هدمتم من الدماء أهدمه والعكس أيضا، ثم أضاف "أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم"، ثم طلب منهم أن يعينوا اثني عشر نقيبا ينوبون عنهم فعينوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فبايعوه وبايعهم، وتلك هي العقبة الثانية"، وبيعتها "بيعة الحرب" بمعنى "حلف حربي". وفي أواخر هذه السنة (الثالثة عشرة) نزلت الآية التي فيها الإذن بالقتال (سورة الحج)، فأخذ يستعد للهجرة إلى المدينة. قيل بين بيعة العقبة الثانية والهجرة نحو ثلاثة أشهر.

- ومع دخول السنة الرابعة عشر نظمت قريش مؤامرة لاغتياله قبل أن يتمكن من مغادرة مكة، لكن المؤامرة فشلت، فكانت الهجرة فيها في صفر أو في غرة ربيع الأول.

أجبتك إليه من هذا الدين". (استعدنا فقرات من هذا التعليق من كتابنا "العقل السياسي العربي". الفصل الثاني. القبيلة. فقرة 4).

تلك هي مجمل التطورات التي عرفتھا الدعوة المحمدية بعد خروجه عليه السلام من الحصار، قد استعدنا هنا أجزاء مما سبق أن عرضناه في مقدمة الكتاب، حتى يتمكن القارئ من أن يتتبع معنا مسار التنزيل خلالها. وسنستكمل تفصيل هذه التطورات مع تتبعنا لسور هذه المرحلة التي نزل فيها قرآن كثير.

66- سورة نوح

- تقديم

لم يرد شيء يذكر عن هذه السورة سوى أنها رتبت في لوائح ترتيب النزول بين رتبة 66 ورتبة 73. وبالنظر إلى مضمونها وأسلوبها ولهجتها رجحنا أن تكون أول سورة نزلت في مرحلة ما بعد الحصار. وكما ذكرنا في "الاستهلال" فقد عانى الرسول عليه السلام في السنة العاشرة، التي اتهاار الحصار في بدايتها، معاناة شديدة، حتى سميت "سنة الحزن" : فقد توفي فيها مانعه من أذى قريش عمه أبو طالب وتوفيت بعده بأيام زوجته خديجة، كما تراجع أبو لهب عن حمايته، فاتهالت عليه سهام أذى قريش من كل جانب. وحينها ذهب إلى أهل الطائف ليطلب النصرة منهم فكانت ردود فعلهم سيئة جدا. وعندما أراد العودة إلى مكة اضطر إلى طلب جوار أحد معارفه من مشركي قريش ... كل ذلك يرجح القول إنه عليه الصلاة والسلام لم يستأنف الدعوة إلا في أواخر السنة العاشرة، سنة انحلال الحصار.

ومن هنا كان ترتيب سورة نوح في لائحة جابر بن زيد في رتبة 66 مناسبة تماما. هناك من الرواة من ذكر أن النبي عليه السلام سَمِعَ وهو يقرأ "سورة الطارق" عند عودته من الطائف، عندما جاءها يطلب النصرة من أهلها، ولكن هذا لا يقوم دليلا على أن هذه السورة نزلت حينها كما تذكر بعض المصادر، فقد تكون نزلت من قبل، وهذا ما يدل عليه ترتيبها في لوائح الترتيب. (انظر القسم الأول من هذا الكتاب، سورة الطارق، رقم 36: التقديم). أما الرتبة التي وضعت فيها السورة التي نحن بصددنا (سورة نوح)، في بعض اللوائح، والتي تجعلها بعد سورة النحل بموجب خبر ورد فيه أنها "نزلت بعد نزول أربعين آية من سورة النحل وقبل سورة الطور"، فوضع لا يستقيم في نظرنا لأن كلا من السورتين (نوح والنحل) مستقلة بنفسها، بموضوعها ولهجتها وأسلوبها وأفقها، كما سيلاحظ القارئ ذلك بنفسه. من أجل هذا حافظنا لها على رقم ترتيبها ووضعناها في مقدمة السورة التي نزلت في هذه المرحلة.

- نص السورة

1- مقدمة: إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ⁽¹⁾ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوايَ³، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ يَؤُخِرُ وَفَاتِكُمْ) إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى، إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ⁴.

2- نوح: وَإِنِّي كَلَّمَاِ دَعَوْتُهُمْ لِيَتَغَفَّرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ!

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا⁶. وَإِنِّي كَلَّمَاِ دَعَوْتُهُمْ لِيَتَغَفَّرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ (كي لا يسمعون)، وَاسْتَعْصَمُوا ثِيَابَهُمْ (غطوا وجوههم كي لا يروني)، وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا⁷. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا⁸، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (دعوتهم علانية وسرا)⁹، فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا¹⁰: يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا¹¹ (بمطر كثير)، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا¹². مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا¹³؟ (2) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا¹⁴ (نطفة، فعلة...). أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا¹⁵ (بعضها فوق بعض) ؟ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا¹⁶! وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا¹⁷ (أنشأكم في الأصل من الطين فنبتكم)⁽³⁾. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا¹⁸. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا¹⁹، لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا²⁰ (طرقا واسعة).

1- واضح أن المقصود هنا من حكاية كفاح نوح ضد قومه عبدة الأصنام هو إعطاء مثال يطابق حال النبي محمد عليه السلام مع قومه، واعتمادا على هذا يمكن إقامة مماثلة بينهما على مستوى السورة ككل.

2- لعل المعنى الأقرب إلى مضمون الآية هو ما قاله الزمخشري: "ما لكم لا تكونوا على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم".

3 - كان القدماء خلق الإنسان من طين على غرار نشوء الدود فيها. قالوا: يتخمر الطين بفعل اختلاط الماء والتراب فيتكون الدود فيصير كأننا حيا في أدنى درجات التكوين ثم يتطور إلى ما هو أرقى إلى الحيوان، ثم إلى الإنسان. وقد اختلف المفسرون واللغويون في قوله "ينبتكم نباتا" من حيث أن مصدر أنبت هو إنبات. وقال بعضهم إن مصدر فعل "نبت" يأتي=

3- ... وَاتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا²¹
(عصاني قومي أهل مكة واتبعوا المأ منكم)، وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا²² (صدوا

على وجهين: نباتا، وإنباتا. ونحن نرى أن المقارنة بين قوله "ينبتكم نباتا" وقوله "يخرجكم إخراجا" يثوي وراءها معنى خاص: وهو أن استعمال لفظ "إخراج" فيه تأكيد اقتضاه إنكارهم للبعث، فيه نوع من الإكراه لهم، أما في الخلق الأول فيما أنهم لا ينكرونه فقد استعمل لفظا أخف وهو "نباتا" بدل "إنباتا". هذا، وقد يكون من المفيد هنا عرض ملخص لتصور الفكر القديم للعلاقة بين مستويات الوجود، نقتبسه من فصل طويل في مقدمة ابن خلدون لهذا الموضوع. لخص ابن خلدون في مقدمته تصور القدماء لمراتب الموجودات، من أتناها وهي الجمد إلى أعلاها وهي الوجود الروحاني، نقتبس منه الفقرات التالية. قال: "اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وريبط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة (تحول) بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضي عجائبه في ذلك، ولا تنتهي غاياته. وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجسماني، وأوله عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعدا من الأرض إلى الماء، ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلا بعضها ببعض، وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعدا وهابطا، ويستحيل (يتحول) بعض الأوقات، والصاعد منها لطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو أطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط، وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها. ثم تنظر إلى عالم التكوين كيف ابتداء من المعادن ثم النباتات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج: آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا يزر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط! ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول الأرفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرؤية... وكان ذلك أول أفق من الإنسان، وهذا غاية شهودنا. ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثارا متنوعة ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر، وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك تشهد كلها بأن لها مؤثرا مابنا للأجسام فهو روحاني ويتصل بالمكونات، لوجود اتصال هذا العالم في وجودها، وذلك هو النفس المدركة والمحركة ولا يد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة، ويتصل بها أيضا ويكون ذاته إدراكا صرفا وتعقلا محضا، وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للاستلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات في لمحة من اللحظات، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحية بالفعل... وقد تتسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها إلى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الأولى في ذلك" الخ. وهذا النوع من التصور الذي شاع لدى إخوان الصفا والإسماعيلية والباطنية عموما هو خليط من علم النفس الأرسطي والأفلاطونية المحدثة، وعليه تقوم الفلسفة الدينية الهرمسية.

الناس عني -وفود القبائل). وَقَالُوا (لهم) لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ، وَلَا تَذَرُنَّ (أصنامكم):
وَذَا، وَلَا سُوءَاعَا، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا²³، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا، وَلَا تَزِدِ
الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا²⁴.

4- خاتمة : أغرقوا وأدخلوا ناراً.

مِمَّا خَطَبْتَهُمْ (بسبب ظلمهم) أَغْرَقُوا (قوم نوح) فَأَدْخَلُوا نَارًا (4) فَلَمَّ
يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا²⁵. وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ
الْكَافِرِينَ دَيَّارًا²⁶ (ساكن دار). إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَكُونُوا إِلَّا فَاغِرًا
كَفَّارًا²⁷ (5). رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا²⁸ (الهلاك).

- تعليق

لاشك أن المتأمل في آيات هذه، مضمونا ولهجة، يستنتج أنها نزلت في
ظروف صعبة كان يعاني فيها الرسول عليه السلام أشد الضغط والاضطهاد من
قريش. وهذا يبرر وضعها في الرتبة التي وضعناها فيها. وإضافة إلى هذا هناك في
السورة ما يشير إلى أنها نزلت فعلا في الظروف التي تلت انفكاك الحصار واتجاه
النبي عليه السلام إلى الدعوة وسط القبائل في المواسم والأسواق من جهة، وتجدد
قريش لمحاربهته وتحريض القبائل على عدم الاستجابة له وحثها على الاستمرار في
عبادة أصنامها. وهذا ما يشكل في نظرنا الهدف من تخصيص سورة نوح بعدما

4- اختلف المفسرون في شرح هذه الآية. والإشكال الذي طرحوه يتعلق بقوله تعالى
"أغرقوا فأدخلوا ناراً". منهم من قال إنه مباشرة بعد حدوث الغرق أدخلوا "نارا"، وبما أن
"نار جهنم" زمانها بعد قيام القيامة والحساب، فقد قالوا إن "النار" هنا تعني "عذاب القبر"،
وقد اخذ القائلون بـ"عذاب القبر" من هذا القهم لهذه الآية دليلا من القرآن على وجود عذاب
القبر. وواضح أن هذا التأويل مجرد تكلف. فلو كان الأمر يتعلق بعذاب القبر لفصل القرآن
القول فيه تفصيلا كما فعل في كثير من جزئيات قيام الساعة والحساب والجنة والنار. أما
حجة القائلين بأن قوله يفيد ذلك فمبنية على كون "الفاء" تدل على أنه حصلت تلك الحالة
عقيب الإغراق فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة، وإلا بطلت دلالة هذه الفاء، هذا بينما
قال آخرون ومنهم مقاتل والكلبي: معناه أنهم سيدخلون في الآخرة ناراً، ثم عبر عن
المستقبل بلفظ الماضي لصحة كونه وصدق الوعد به كقوله: "وَتَأْدَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ"
(الأعراف: 50)، "وَتَأْدَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ" (الأعراف: 44).

5- استند بعض فرق الخوارج إلى هذه الآية في حكمهم بقتل أطفال مخالفيهم.

وردت قصته في سور عديدة سابقة. واللائق للنظر أن هذه السورة لا تعرض قصة نوح، ولا عناصر منها، كما عرضتها سور سابقة، بل اقتصرت على عرض شكواه من إعراض قومه عن دعوته، وأيضاً - وهذا هو الجديد - قيام الملائكة بتحرير الناس ضده وحثهم على التمسك بآلهتهم وأصنامهم. وقد اختلف المفسرون في شأن هذه الأصنام فمنهم من اكتفى بالقول إنها كانت أصنام خاصة بقوم نوح. ومنهم من قال كانت هذه الآلهة يعبدها قوم نوح، ثم اتخذها العرب بعد ذلك أصناماً لهم. قالوا: "كان وِدٌ لهذا الحي من كلب بدومة الجندل، وكانت سواع لهذيل برياط، وكان يغوث لبني غطف من مراد بالجرق من سبأ، وكان يعوق لهمدان ببلخ، وكان نسر لذي كلاع من حمير". وقيل: "ولذلك سمى العرب يعبد ود، وعبد يغوث". وهذه الأصنام كانت معروفة زمن النبي (ص) وبعضها كان قائماً يعبد؛ وقد بعث الرسول عليه السلام - إثر فتح مكة وكسر أصنامها - سرايا لهدم أصنام القبائل العربية، وذكروا أنه بعث عمرو بن العاص في سرية لهدم الصنم "سواع" الخ.

وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار أن الملائكة هم المقصودون بقوله تعالى: "وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ، وَلَا تَذَرُنَّ (أصنامكم): وَدًا، وَلَا سَوَاعًا، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا"⁽⁶⁾ وأنهم قالوا ذلك لمن هم دونهم بما فيهم قبائل قومهم واستحضرنا ظروف نزول هذه السورة أمكننا أن نفهم من ذلك أن المقصود هم زعماء قريش يصدون القبائل عن الدعوة المحمدية ويوصونهم بالتمسك بأصنامهم. فيكون الكلام هنا من قبيل: "إياك أعني واسمعي يا جارة"، وقد سبق مثل هذا في قوله تعالى: "قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ (يا نوح) وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ؟ قَالَ: وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (الشعراء 11-114)، ثم جاء نفس الجواب، الذي كان قبل على لسان نوح، خطاباً للرسول عليه السلام: "وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنعام 52)".

6- من الجدير بالملاحظة أن أسماء هذه الأصنام تذكر هنا لأول مرة في القرآن. يقول صاحب معجم البلدان: نقلاً عن الكلبي: "كان وِدٌ وسواع ويغوث ويعوق ونسر أصنام قوم نوح وقوم إدريس، عليهما السلام، وانتقلت إلى عمرو بن لحي" (الذي ذكرنا سابقاً حكاية مجيئه بالأصنام إلى مكة. انظر الاستطراد حولاً الأصنام المرحلة الثانية القسم الأول)، وأعطاهما لمن أجابه إلى عبادتها فأجابته إلى عبادتها همدان فدفع إليها يعوق. قال ابن حبيب: وِدٌ كان لبني وبرة وكان بدومة الجندل وكانت سدنته لبني الفرافصة ابن الأحوص الكلبيين الخ.

67- سورة الذاريات

- تقديم

لم يرد في شأن هذه السورة سوى خبرين، أحدهما يربط إحدى آياتها بواقعة حدثت في المدينة، في حين أن السورة مكية باتفاق، ولذلك صرفنا النظر عنه. أما الخبر الثاني، وقد روي عن علي ابن أبي طالب، فمفاده أنه لما نزلت هذه السورة وفيها قوله تعالى "فتول عنهم فما أنت بملوم" فهم منه بعض أصحابه أن "الوحي قد انقطع" وأن مصير قريش سيكون الهلكة. قالوا: فأنزل الله "وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين"، فرال الجزع عن أنفسهم. هذا يفترض أن يكون ثمة فاصل زمني بين الآية الأولى والثانية. وهذا ما لا نستطيع إثباته ولا نفيه. كل ما يمكن قوله هو أن السورة تندرج في السياق نفسه الذي وردت فيه سورة نوح السابقة. وسنرى كيف أن هذه السورة قد استعرضت (في الفقرة الثالثة) تجارب الأنبياء السابقين مع أقوامهم مركزة على الهلاك الذي آل إليه مصيرهم بعد أن كذبوا رسلهم، وقد ختمت بالإشارة إلى قوم نوح ("وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ"⁴⁶)، مع أنه أول المرسلين، واكتفت بهذه الإشارة وكأنها تحيل إلى سورة نوح السابقة. ومن هنا يصير مفهوما أن يقلق بعض المستمعين من صحابة الرسول من قوله تعالى: "كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ"⁵²، أَتَوَاصَوْا بِهِ؟ يَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ"⁵³. فَتَوَلَّ عَنْهُمْ (يا محمد) فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ"⁵⁴، وبالتالي يصير مفهوما أن يتوقعوا نهاية الرسالة إلى قريش والحكم عليهم بالهلكة على غرار ما حدث لقوم نوح.

أما تاريخ نزول السورة فلم يرد عنه شيء يذكر، غير أن ترتبها في لوائح ترتيب النزول تتحرك ما بين رتبتي 64 و 67، وقد احتفظنا بهذا الرقم الأخير لتوافقه مع ترتيبنا. يمكن القول إذن إن هذه السورة من أوائل ما نزل بعد خروجه عليه السلام من الحصار، وبالتالي تكون قد نزلت في أواخر السنة العاشرة عندما استأنف عليه السلام الدعوة في المواسم. ومما ينبغي التنبيه إليه أن السور الأولى التي نزلت بعد خروجه عليه السلام من الحصار قد ركزت على قضية المعاد: البعث والحساب والجزاء، ولكن دون أن يعني ذلك غياب القضايا الأخرى التي تشكل الأركان الرئيسية للدعوة المحمدية في العهد المكي: النبوة، التوحيد، البعث الخ.

- نص السورة

1- مقدمة: البعث آت والحساب واقع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا¹ (الرياح تذرو: تنثر)، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا² (السحب مثقلة بالماء)، فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا³ (الرياح تجري بالسحب)، فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا⁴ (الرياح توزع السحب الممطرة بأمر ربها).⁽¹⁾، إِنَّمَا تُوْعَدُونَ (البعث)، لَصَادِقٌ⁵، وَإِنَّ الدِّينَ (الحساب) لَوَاقِعٌ⁶.

2- في السماء، والأرض، وفي أنفسكم آيات! أفلا تبصرون؟

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ⁷ (حبكت بالنجوم، حبكا منتظما) إِنَّكُمْ (يا قريش) لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ⁸ (مضطرب، حائر) (2)، يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ⁹ (يصرف عن قولكم المختلف من صرفة الإيمان). قُلِ الْخَرَّاصُونَ (هؤلاء الحائرون)¹⁰، الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ (من الجهل) سَاهُونَ¹¹، يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ¹²، يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ¹³ (يبتلون ويقال لهم) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ! هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ¹⁴. إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ¹⁵، آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ؛ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ¹⁶ (في الدنيا)، كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (ينامون)¹⁷، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ¹⁸، وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ¹⁹ (يعطون للصدقات). وفي الْأَرْضِ (كما في السماء ذات الحبك) آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ²⁰ (فيها أدلة على صحة ما يدعوكم

1- اختلف المفسرون في تعيين المقصود من هذه الأشياء المقسم بها، وقد ذهب جلهم إلى أن الذاريات والحاملات هي السحاب، وأن الجاريات هي السفن، وأما المقسمات فهي الملائكة. ويقول الزمخشري: "ويجوز أن يراد: الرياح لا غير؛ لأنها تنثر السحاب وتنقله وتصرفه، وتجري في الجو جريا سهلا، وتقسم الأمطار بتصريف السحاب..." وبه نقول نحن كذلك. ذلك أنه لا معنى لإقحام الملائكة مع الرياح، والقرآن يقسم بالظواهر الطبيعية مبرزا من خلال انتظامها المطرد وتعاقبها الدائم أنها آيات وعلامات على وجود حياة أخرى تغيب هذه. ووجه العلاقة بين عناصر القسم وجوابه هو أنه كما أن الرياح تحمل المطر إلى غاية معينة تنتهي عندها فكذلك الحياة الدنيا، فهي تسير نحو الحياة الأخرى.

2- العلاقة بين القسم وجوابه هو أنه أقسم بانتظام السماء التي هي من خلقه على عدم انتظام رأي قريش في البعث، تارة ينكرونها وتارة يستعجلونه.

إليه محمد)، وَفِي أَنْفُسِكُمْ (أيضا فيها آيات) أَفَلَا تَبْصِرُونَ²¹ (ذلك)؟ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تَوْعَدُونَ²² (من المطر وما ينبت به، وبذلك آيات أخرى). فَارْزُقُوا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ (فما يدعوكم إليه محمد) إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ²³.

3- تلك آيات من كتاب الطبيعة وهذه أخرى من كتاب تاريخ الرسل.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ (ضيوف) إِبْرَاهِيمَ (من الملائكة) الْمُكْرَمِينَ²⁴، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا، قَالَ سَلَامٌ. قَوْمٌ مُنْكَرُونَ! (غرباء لا يعرفهم)²⁵. فَرَاغَ (ذهب سراً) إِلَى أَهْلِهِ (ليأتي بما يكرمهم به) فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ²⁶، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ (ولم يقتربوا من الطعام)، قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ؟ (فلم يجيبوا)²⁷؟ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً (خاف منهم)، قَالُوا لَا تَخَفْ (نحن ملائكة مرسلون)! وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ²⁸ (إسحاق). فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ (تصيح) فَصَكَتْ (لظمت) وَجْهَهَا وَقَالَتْ (أنا) عَجُوزٌ عَقِيمٌ²⁹. قَالُوا كَذَلِكَ (الذي قلنا) قَالَ رَبُّكَ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ³⁰. قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ (شأنكم) أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ³¹؟ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ³² (هم قوم لوط)، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِجَارَةً مِنْ طِينٍ³³، مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ³⁴ (خصصها لعقاب المجرمين). فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ³⁵ (أصحاب لوط)، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ³⁶، وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ³⁷ (أهلكنا الكافرين). وَفِي مُوسَى (أيضا تركنا آية للذين يخافون العذاب) إِذْ أُرْسِلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ³⁸ (هي معجزاته)، فَتَوَكَّلْ (أعرض فرعون محتسباً) بِرَبِّكَ (جنده) وَقَالَ: سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ³⁹؛ فَأَخَذْنَاهُ وَجَنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ (البحر)، وَهُوَ مُلِيمٌ⁴⁰ (أتى بما يلام عليه). وَفِي عَادٍ (تركنا آية كذلك) إِذْ أُرْسِلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحُ الْعَقِيمُ⁴¹، مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْهَرَمِ⁴² (كالشوب للبالى). وَفِي ثَمُودَ (آية كذلك) إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ⁴³، فَعَاوَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ (لم يستجيبوا) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ⁴⁴، فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ⁴⁵. وَقَوْمُ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ لَهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ⁴⁶. وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِإَيْدٍ (بقوة) وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ⁴⁷ (قادرين)، وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ⁴⁸، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ⁴⁹ (3). فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ⁵⁰، وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ⁵¹.

3- المعنى كوننا خلقنا من كل شيء زوجين يجب أن ينبهكم (عن طريق المماثلة) إلى أن الحياة هي أيضا زوجان: حياة وموت الخ، وبالتالي فالبعث آت كما يأتي الليل بعد النهار.

4- خاتمة: مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ ...

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ⁵²،
 اتَّوَصَّوْا بِهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طََاغُونَ⁵³. فَيَقُولُ عَنْهُمْ (يا محمد) فَمَا أَنْتَ بِمَلَكٍ⁵⁴،
 وَتَكْذَرُ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ⁵⁵. وَمَا خَلَقْتَ الْجَنَّ وَالنَّاسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي⁵⁶، مَا
 أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِي⁵⁷. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ
 الْمَتِينِ⁵⁸. فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا (من أهل مكة) ذُنُوبًا⁽⁴⁾ (وبالتالي عذابًا) مِثْلَ ذُنُوبِ
 أَصْحَابِهِمْ (أمثالهم من الأقوال للماضية التي أهلكها الله) فَلَا يَسْتَغْفِرُونِي⁵⁹ (لتنفيذ
 العقاب). فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ⁶⁰.

- تعليق

تبدأ السورة كالعادة بمقدمة تطرح فيها المحور الذي تندرج فيه، وهو هنا
 محور المعاد، فتؤكد بواسطة القسم أن البعث آت لا محالة. ثم تنتقل إلى موضوعها
 فتبدأ بالقسم بالسماء وانتظام حركات نجومها لتلفت النظر بالمقابل إلى حيرة قريش،
 تارة تصف النبي بالمجنون وتارة بالشاعر؛ تارة تنفي البعث نفياً تاماً، وأخرى
 تستعجل العذاب الذي يوعدون به يوم القيامة. والأرض كالسماء فيها آيات تعطي
 اليقين لمن يتدبرها. ويأتي قسم ثالث جامع: "فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ (=البعث)
 لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ". بعد ذلك تستعيد السورة، شهادات من تاريخ الأنبياء في
 صراعهم مع أقوامهم، لتختتم بالعودة إلى القضية المطروحة في المقدمة: "إِنَّمَا
 تُوعَدُونَ (البعث)، لَصَادِقٌ⁵، وَإِنَّ الَّذِينَ (الحساب) لَوَاقِعٌ⁶. "فَلَا يَسْتَغْفِرُونِي⁵⁹ (لتنفيذ
 العقاب).

هذا التركيز على قضية البعث، قضية المصير بعد الحياة كان سلاح الدعوة
 المحمدية كما بينا في الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة الثانية من مسار التنزيل
 (القسم الأول من الكتاب)، حيث بينا كيف أن خطاب الجنة والنار في القرآن : سلاح
 وأخلاق. هو سلاح من حيث إنه ترهيب وترغيب، وأخلاق من حيث أنه يحمل الإنسان
 مسؤولية أفعاله، وبالتالي بحث على العمل الصالح وفعل الخير (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
 خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة 7-8).

4- الذُّنُوبُ بالفتح: الدلو يسقى به من البئر. والمعنى : إن كفار قريش يسقون من نفس
 البئر التي كانت تسقى منها الأقوام الماضية المكذبة لرسولهم.

68- سورة الغاشية

- تقديم

لم يرد شيء يذكر عن هذه السورة سوى ما ذكره الطبري من أنه "لما نعت الله ما في الجنة، عَجَبَ من ذلك أهل الضلالة، فأنزل الله: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ"، فكانت الإبل من عيش العرب ومن خولهم" (من الأنعام الملازمة لهم). ونضيف أنه لم يسبق لقريش أن أبدت مثل هذا التعجب مع أن مشاهد للجنة والنار كهذه قد وردت في كثير من السور التي كانوا هم المخاطبين فيها. وسنعود إلى هذا في التعليق. أما ما عدا ذلك فلا شيء يدل على تاريخ نزولها سوى أنها مكية باتفاق. لكن يبدو واضحاً أنها بمثابة تكملة للتي قبلها.

لقد ركزت السورة السابقة على إثبات البعث، وأشارت إشارة مقتضية إلى عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة، فجاءت هذه لتصف هذا النعيم وذاك العذاب. وإن فالرتبة الذي وضعتها فيه لوائح ترتيب التنزيل (وهي رتبة 68) مناسبة تماماً لما قبلها (الذاريات)، أما مناسبتها للسورة التي بعدها فموضوع سنناقشه بعد.

- نص السورة

1- مشاهد القيامة: عذاب جهنم ونعيم الجنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ¹ (القيامة): وَجُودَ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةً² (ذليلة)،
عَامِلَةً نَاصِبَةً³ (متعبة بالسلاسل والأغلال)، تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً⁴، تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ
آتِيَةٍ⁵ (شديدة الحرارة)، لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ⁶ (شوك تعافه للنواب)، لَا
يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ⁷. وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةً⁸، لَسَعِيهَا رَاضِيَةً⁹، فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ¹⁰، لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاحِيَةً¹¹. فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ¹²، فِيهَا سُرُرٌ (أسرة) مَرْفُوعَةٌ¹³
(عن الماء)، وَأَكْوَابٌ (أواني للشراب) مَوْضُوعَةٌ¹⁴ (جاهزة)، وَنَمَارِقُ (وسادات)
مَصْفُوفَةٌ¹⁵، وَزَرَابِيُّ مَبْنُوتَةٌ¹⁶.

2- أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ؟

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ¹⁷؟ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ¹⁸؟ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ¹⁹؟ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ²⁰؟ فَذَكِّرْ (بهذا)، إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ²¹، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ²². إِنْ (أَمَّا) مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ²³، فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ²⁴. إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ²⁵، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ²⁶.

- تعليق

تقدمت سور من هذا النوع فيها وصف بديع للجنة والنار وحال كل منهما وما يجري فيهما من حوار، سواء بين أصحاب الجنة بعضهم مع بعض، أو أصحاب النار بعضهم مع بعض، أو بين هؤلاء وأولئك. وستأتي سور أخرى في الموضوع نفسه. وقد سبق لنا أن خصصنا لهذا الموضوع الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة الثانية (القسم الأول من الكتاب) التي كان محورها المركزي هو المعاد، تحدثنا فيه عن دور سلاح الوعد بالجنة والوعيد بجهنم كأداة فعالة في الترغيب والترهيب في الإسلام، مشيرين إلى غياب هذا السلاح في كل من خطاب التوراة وخطاب الأنجيل. ما يلفت النظر في ما ذكرته هذه السورة من أوصاف لمظاهر النعيم في الجنة والعذاب في النار هو ما ورد في الرواية الذي ذكرنا في التقديم من كون أناس "من أهل الضلالة" قد تعجبوا من الأوصاف التي نعتت بها السورة الجنة إذ قدمت مشهدا، حيا مشخصا، عما فيها من وسائل الراحة والتمتع والاطمئنان. وإذا كانت الرواية لم تذكر ما قاله "أهل الضلالة"، فإن مجرد وصفهم هذا بـ"الضلالة" كاف ليدلنا على أن الأمر يتعلق بتعجب فيه اعتراض أو استهزاء وما أشبه. وقد سبق أن رأينا في سورة الجاثية (رقم 45) من تجاوز إنكار البعث إلى إنكار الخالق وتوجيه التحدي: "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا (...) وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ خُبْرَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَوْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ الجاثية (24-25)!" وكما رد القرآن عليهم هناك رد عليهم هنا في "الغاشية". فقد خاطبتهم هذه السورة بما معناه: إذا كنتم تعجبون مما ذكر من وسائل الراحة والمتعة في الجنة، فلماذا لا تعجبون مما في حياتكم ومعهدكم من وسائل مسخرة لراحتكم: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ¹⁷؟ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ¹⁸؟ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ¹⁹؟ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ²⁰". والتركيز هنا على الإبل والجبال الخ يشعر بأن المخاطبين هنا هم العرب أهل القبائل، وكذلك الشأن في السورة السابقة. هذا ما يفسر في نظرنا "عجب أهل الضلالة" لما سمعوا ما ورد في

السورة من وصف مشخص للجنة والنار، وهو "عجب" لم يصدر عن قريش من قبل
—عنى الأقل فيما وصلنا من روايات— وإنما أبداه أهل القبائل الذين يسمعون هذا لأول
مرة. وإذن فالخاطب في هذه السورة وما سبقها من سور هذه المرحلة هم أهل
القبائل المرتادون للمواسم والأسواق.

69- سورة الإنسان

- تقديم

رتبت هذه السورة مع القرآن المدني. وقد اتفق المفسرون والمؤلفون في علوم القرآن على أنها من السور التي وقع الاختلاف حولها : هل هي مكية أم مدنية، وقيل بعضها مكي وبعضها مدني.

ومن الذين قالوا إنها مكية ابن عباس وابن أبي طلحة وقتادة ومقاتل، ابن مسعود، وقد رتبها هذا الأخير في مصحفه ضمن السور المكية. وبناء على هذا نسب بعض المفسرين مكيتها إلى الجمهور. أما الذين قالوا إنها مدنية فالحسن وعكرمة والكلبي ولكن استثنوا منها آيات قالوا إنها مكية. ويرى ابن عاشور الذي حقق في أمر هذه السورة أن "الأصح أنها مكية: فإن أسلوبها ومعانيها جارية على سنن السور المكية". وأضاف: "ولا أحسب الباعث على عدها في المدني إلا ما روي من أن آية "يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ" (الإنسان: 8) نزلت في إطعام علي بن أبي طالب بالمدينة مسكيناً ليلة، ويَتِيمًا أُخْرَى، وَأَسِيرًا أُخْرَى، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملاً للفظ أسير على معنى أسير الحرب، أو ما روي أنه نزل في أبي الدحداح وهو أنصاري. وكثيراً ما حملوا نزول الآية على مثل تنطبق عليها معانيها فعبروا عنها بأسباب نزول"... ونحن رجحنا مكيتها وربناها هنا مع الذاريات والغاشية لمشابتها لهما شكلاً ومضموناً.

- نص السورة

1- مقدمة: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ، إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا

بسم الله الرحمن الرحيم
هل (قد) أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ (خليط من ماء الرجل وماء المرأة) نَبْتَلِيهِ (نختبره)

بالخير وبالشّر)، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا²¹ (قادرا على تمييز الخير من الشر). إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا³¹ (1).

2- والنتيجة أن الإنسان سبحانه على أعماله: إما العذاب وإما النعيم...

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا (سلاسل في أعناقهم يسحبون بها إلى النار) وَسَعِيرًا⁴¹ (نار مهيجة). إِنَّ الْأَبْرَارَ (الأخيار الذين في الجنة) يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (تعطي نسمة للكافور)⁵¹، عَيْنًا (هي عين) يَشْرَبُ بِهَا (منها) عِبَادُ اللَّهِ، يَقْرَوْنَهَا قَفْجِيرًا⁶¹ (في كل وقت). يُوَفُونَ بِالنَّذْرِ (كانوا يوفون بالعهد في الدنيا) وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا⁷¹ (عاليا)، وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشْكُونًا وَبَيْمًا وَأَسِيرًا⁸¹، (قاتلين لهم) إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ، لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا⁹¹. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُوبًا قُمْطَرِيرًا¹⁰¹ (كريها مخيفا). فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً (حسنا) وَسُرُورًا¹¹¹، وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً (أدخلوها) وَحَرِيرًا¹²¹ (اللبسوه)، مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ، لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا (حرارة) وَلَا زَمْهَرِيرًا¹³¹ (بردا)، وَذَائِقَةَ غِلَظِهَا (ظلال أشجارها)، وَذَلَّلَتْ قُطُوفُهَا تَهْنِئًا¹⁴¹ (سهلة اللطف). وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ¹⁵¹، قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا¹⁶¹ (على قدر ري الشاربين)، وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا¹⁷¹ (مستطاب كطيب الزنجبيل)، عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا¹⁸¹ (سلاسة مانها). وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (لا يفنون) إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا¹⁹¹، وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ (في الجنة)، رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا²⁰¹، عَلَيْهِمْ (فوقهم) ثِيَابٌ سُنْدُسٌ (حرير) خَضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ (غليظة)، وَكُلُوا (جلي في أيديهم) أَساورَ مِنْ فِضَّةٍ، وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا²¹¹. إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا²²¹.

3- اصبر لحكم ربك ...

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا²³ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ، وَلَا تُطِغْ مِنْهُمْ (من مشركي مكة) إِنَّمَا أَوْ كَفُورًا²⁴¹. وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا²⁵¹، وَمِنَ اللَّيْلِ

1 - تطرح هذه الآيات مسألة المشيئة مرة أخرى، مسألة الهداية والضلال، وقد عرضنا لها بتفصيل في الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة السابقة.

فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا²⁶. إِنَّ هَؤُلَاءِ يَحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا²⁷ (شديدًا: يوم القيامة). نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ (ربطهم)، وَإِذَا شِئْنَا (أهلكناهم) بَدَلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا²⁸.

4- خاتمة: إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا.

إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا²⁹، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ⁽²⁾، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا³⁰. يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ، وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا³¹.

- تعليق

تندرج هذه السورة في أفق السورتين السابقتين من حيث اقتصارها على ذكر تفاصيل أخرى عن نعيم الجنة تبدو وكأنها مكملة لما ورد فيهما، وأن خطابها متجه إلى الذين يسمعون القرآن لأول مرة من الوافدين على المواسم والأسواق، ومن هنا يمكن أن نفهم ما يبدو وكأن هذه السور تكرر ما نزل قبلها في وصف الجنة والنار. والواقع أن القرآن يومذاك لم يكن مجموعاً في مصاحف يمكن أن توزع على الناس في كل مكان وزمان، فيغني ذلك عن تكرار النزول. كلا، لقد كان ما نزل من القرآن من قبل تحفظه أقلية من الناس ويكتبه كتاب الوحي، ولم تكن هناك وسيلة لنشره وتعميمه. وما نزل من قبل كان يخاطب قريشاً، وربما سمعوا منه شيئاً ولم يسمعوا أشياء. أما في هذه المرحلة من مسيرة السيرة، مرحلة مخاطبة الوفود القادمة من جهات مختلفة إلى أسواق مكة ومواسمها فقد كان لا بد، لتعريفهم بالدعوة وبما جاء به القرآن، من قراءة بعض آياته أو سوره عليهم، وكان لا بد من سور جديدة تعبر عما سبق أن نزل، مخاطباً قريشاً، بما يناسب معهود أولئك العرب الوافدين، ولفت انتباههم إلى آيات من بيناتهم ومخايلهم. وهذه السور التي تجمع بين حديث الجنة والنار فيها ترغيب وترهيب كما لا يخفى. وهما سلاح الدعوة كما بينا سابقاً.

2 - الزمخشري قوله: "إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ" : إشارة إلى السورة أو إلى الآيات القريبة. "وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" : أي ما تشاءون طريق الطاعة إلا إذا أجبركم الله عليها.

70- سورة الكهف

- تقديم

ذكرنا قبل، في الاستهلال الذي صدرنا به المرحلة الرابعة من مسار التنزيل، أن النبي عليه السلام بدأ في الاتصال بالقبائل والانتقال بالدعوة، من التحرك على مستوى العلاقات الفردية إلى دعوة العشيرة، ثم الصدع بها في الأسواق والمواسم، وقلنا إن هذا الاتساع في مجال الدعوة قد أزجج قريشا مما جعلها تقرر مقاطعة الرسول وأهله ومحاصرتهم في شعب أبي طالب. وعندما انحل هذا الحصار رأينا الرسول عليه السلام يبادر إلى استئناف الدعوة خارج قريش، وذلك بالذهاب إلى الطائف. ومع أنه قوبل هناك بإساءة بالغة فقد اتجه في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ؛ قيل قبل دخوله مكة، وقيل بعد ذلك. ويبدو أن الخلاف قد توسع في صفوف قريش بعد انحلال حصارهم له وإلغاء عقد "الصحيفة"، ودخول النبي عليه السلام مكة، بعد زيارته الطائف، وحصوله على الحماية فيها بموجب حلف الجوار الذي منحه له المطعم بن عديّ، أحد أشرف قريش، فأخذت الدعوة المحمدية في الانتقال إلى وضع أحسن، وبدأ المستجيبون لها في التكاثر خاصة خارج مكة ومن الوافدين عليها وعلى مواسمها وأسواقها. وقد جاء رد فعل قريش هذه المرة على شكل محاولة الحصول من يهود يثرب (المدينة) على فتوى تكذب نبوءة الرسول عليه السلام.

ذلك ما انتهى إليه زعماء قريش في اجتماع عقدوه لهذا الغرض نقلته عدة روايات أشهرها النص الذي رواه الطبري في تفسيره عن ابن عباس، وقد ورد فيه ما يلي: "بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصِفُوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجوا حتى قَدِمَا المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالوا: إنكم أهل التوراة، وقد جنناكم لتسخبرونا عن صاحبنا هذا، قال الراوي: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فَرَوَا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم فإنّه قد كان لهم حديث عجيب!

وسلوه عن رجل طَوَافٍ، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤده؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك، فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم، فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبه حتى قدما مكة على قريش، فقالوا: يا معشر قريش: قد جنناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أبحار يهود أن نسأله، عن أمور، فأخبروهم بها؛ فجاعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أخبركم غدا بما سألتكم عنه»، ولم يستثن (لم يقل "إن شاء الله") فلانصرفوا عنه، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحرز رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه، من الله عز وجل، بسورة أصحاب الكهف، فيها معانيبه إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف⁽¹⁾. هذا وقد وردت أخبار -منسوبة كلها تقريبا إلى ابن عباس- تخص آيات معينة في السورة لا فائدة في ذكرها، فهي تجزئ وحدة السورة ولا تجدي نفعاً، لا على مستوى "أسباب النزول" ولا على مستوى فهم السورة.

- نص السورة

1- مقدمة: لعلك باخع نفسك أسفاً لكونهم لم يؤمنوا...

بسم الله الرحمن الرحيم
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، فَيَمَّا (معتدلاً) لِيُنذِرَ بَأْسًا (عذاباً) شَدِيدًا (ينزل بالكفار) مِنْ لَدُنْهُ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا² (الجنة)، مَاكِثِينَ فِيهِ (في الأجر: الجنة) أَبَدًا³، وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا⁴ (المشركون الذين جعلوا الملائكة بنات الله) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ، وَلَئِنْ بَيَّنَّاهُمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا⁵. فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ (مهلك) نَفْسَكَ، عَلَى آثَارِهِمْ (بعدهم) إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا

1- أما عن السؤال الخاص بالروح فانظر سورة الإسراء، لاحقاً.

بهذا الحديث، أسفاً (مهلك نفسك حزناً على عدم إيمانهم). إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ (في الدنيا) أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا⁷، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا (يوم القيامة) صَعِيدًا جُرُزًا⁸ (أرضاً خاوية)⁽²⁾.

2- قصة أصحاب الكهف : دليل على أن البعث واقع!

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ (قيل كتاب لهم، وقيل كلبهم) كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا⁹ (آية لا تفهم!)⁽³⁾: إِذْ أَوَى (أولئك) الْفَتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ، فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا¹⁰ (4)، فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ (جعلناهم لا يسمعون = نائمون) فِي الْكَهْفِ (مدة) سِنِينَ عَدَدًا¹¹، ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ (أيقظناهم) لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ (هل الفتية، أم قومهم المشركون؟) أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا¹² (مدة السنين التي لبثوها نائمون في الكهف). نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ. إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزَيْنَاهُمْ هَذِهِ¹³، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ (منحناهم قوة وعزماً) إِذْ قَامُوا (من نومهم) فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَنْ نَذْعُو مِنْ نُوبِهِ إِلَهًا، لَقَدْ قَتَلْنَا إِذَا شَطَطًا¹⁴ (لو دعونا إلها غيره). (قال بعضهم لبعض) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ نُوبِهِ آلِهَةً، لَوْ كُنَّا (هلا) يَتَّقُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كُنْيَا¹⁵. (قال ربهم، وقيل رئيسهم:) وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ (اعتزلتم قومكم) وَمَا يَعْتَبُونَ، إِنَّا لِلَّهِ (لم تعزلوه بل بقيتم تعبدونه)، فَأَوُوا إِلَى

2- وجه اتصال هذه الآية مع قتي قبلها ومع السياق عموماً كما فهمه بعض المفسرين، كما يلي: يَا مُحَمَّد إِنِّي خَلَقْتُ الْأَرْضَ وَزَيَّنْتُهَا وَلَخَرَجْتَ مِنْهَا أَنْوَاعُ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ خَلْقِهَا بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ ابْتِلَاءُ الْخَلْقِ وَلِخْتِبَارِهِمْ. هُمْ يَكْفُرُونَ وَيَتَمَرَّدُونَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا أَقْطَعُ عَنْهُمْ مَوَادَّ هَذِهِ النَّعْمِ. فَكُنْتُ أَيْضاً يَا مُحَمَّدُ يَنْبَغِي أَنْ لَا تَغْرَقَ فِي الْحُزَنِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، إِلَى دَرَجَةٍ أَنْ تَتْرَكَ الْإِسْتِغَالَ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى الدِّينِ الَّذِي أَمَرْتُ بِتَبْلِيغِهِ. وَنَحْنُ نَسْرِي أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى مُنَاسِبٌ لِلظُّرُوفِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا هَذِهِ السُّورَةُ، ظُرُوفِ اشْتِدَادِ مُحَارَبَةِ قَرِيشٍ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُصُوصاً بَعْدَ وَقَاةِ عَمَةِ أَبِي طَلْحٍ، وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي خَرَجَ فِيهَا مِنَ الْحَصَارِ، كَمَا نَكْرُنَا، وَبِذَلِكَ تَكُونُ هَذِهِ السُّورَةُ فَعَلاً مِنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الْحَصَارِ.

3- أَقْطَعَنَّ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ الَّذِينَ سَلَوُكَ عَنْهُمْ، كَانُوا وَحْدَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا الَّتِي تُشِيرُ الْعَجَبِ. كَلَّا، إِنْ آيَاتِنَا كُلُّهَا عَجَبٌ! أَلَيْسَ مِنْ كَلَنَ قَالُوا عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَلْبٍ أَيْضاً عَلَى تَرْبِيَةِ الْأَرْضِ بِأَنْوَاعِ الْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ، ثُمَّ تَحْوِيلِهَا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَكَانٍ خَالٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَلْبَرِ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَحْفَظَ أَهْلُ الْكَهْفِ فِي كَهْفِهِمْ مَنَاتِ السِّنِينَ؟ وَمُسْتَعَدٌّ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى بَعْدَ قَلِيلٍ.

4- هَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ أُولَئِكَ الْفَتْيَةَ كَانُوا مُوَحِّدِينَ وَسَطَ قَوْمِهِ الْمَشْرِكِينَ فَاضْطُرُّوا إِلَى الْإِسْتِغَاءِ فِي الْكَهْفِ، وَهَكَذَا تَمَازَا...

الْكَهْفَ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا¹⁶ (مقاما مناسباً وهو كما يلي) : وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَتَرَاوَرُّ (تَمِيلُ) عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ (تَتَرَكَّهُمْ) ذَاتَ الشَّمَالِ، وَهُمْ فِي فُجُوةٍ مِنْهُ (أَي دَاخِلِهِ)؛ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ⁽⁵⁾ : مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا¹⁷. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ، وَتَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ أَرْعَاهُ بِالْوَعِيدِ (بِفَنَاءِ الْكَهْفِ)؛ لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَتٍ مِنْهُمْ رِيعًا¹⁸ (لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهِمْ، لِهَوْلِ الْمَنْظَرِ)⁽⁶⁾. وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ (أَيْقَظْنَاهُمْ) لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ: قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ، فَابْتَغُوا أَحْنَكُمْ يَوْمَافِكُمْ (بِدِرَاهِمِكُمْ) هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلْيَنْظُرْ لَيْهَا أَرْكَى طِعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا¹⁹. إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ (يَطْلُعُوا عَلَى أَمْرِكُمْ) يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعَذِّبُوكُمْ فِي مَلَبَتِهِمْ، وَكَنْ تَغْلِبُوا إِذَا أُبْدُوا²⁰. وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ (بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ) أَطْلَعْنَا عَلَيْهِمْ (قَوْمَهُمْ)، لِيُظَمُّوا أَنْ وَعَدَ اللَّهُ (كَوْنَهُ يَبْعَثُ الْمَوْتَى) حَقًّا، وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا. إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ (يَتَنَازَعُ قَوْمُهُمْ فِي أَمْرِهِمْ) فَقَالُوا (قَالَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ) ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا، رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ. قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ (أَصْحَابُ النُّفُوزِ فِيهِمْ) لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ (حَوْلَهُمْ) مَسْجِدًا²¹. سَيَقُولُونَ (الْمُتَنَزَّعُونَ زَمَنَ النَّبِيِّ فِي عِدَدِ الْفَتْيَةِ: كَانُوا) ثَلَاثَةَ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةَ سَلَامَتُهُمْ كَلْبُهُمْ، رَجَمًا بِالْغَيْبِ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةَ وَثَمَانِينَ كَلْبُهُمْ! قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ، مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ. فَلَمَّا تَمَرَّ (تَجَادَلَ) فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا (بِمَا لَوْحِينَا إِلَيْكَ)، وَكَأَن تَسْتَفْتِي فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا²². وَكَأَن تَقُولَنْ لَشَيْءٍ إِلَيَّ فَاعْلَمْ ذَلِكَ غَدًا²³، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ⁽⁷⁾. وَانْكَرُ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ، (إِذَا نَسِيتَ قَوْلَ "إِنْ شَاءَ

5- المقصود بـ"الآية" هنا : هذا الوضع الفريد للكهف: فالشمس تشرق على بابه من جهة يمين الناظر إليه وتغرب على جهة يملأه فهو، بالنسبة لمن في مكة، يقع في الشمال الشرقي من الكرة الأرضية، وبالتالي فأشعة الشمس تمر من يمين الباب مائلة غير عمودية من الصباح إلى المساء، والطقس داخل الكهف سيكون بذلك معتدلاً، وهؤلاء الفتية كانوا دخلوا على مسافة (فجوة) من بابه. هذا الطقس المعتدل يهيئ "مرفقاً" مريحاً ومناسباً للنوم، فلا حر ولا برد يوقظ النعم.

6- قالوا في تفسير سبب الفرع منهم أن شعرهم وأظفارهم قد طالت فوق المعهود....

7- قيل: في هذا عتاب للنبي لأنه وعد قريشا، لما سألوه عن أهل الكهف وذي القرنين والروح، قفلاً : "سأتيكم بالجواب غدا"، دون أن يطلق ذلك بمشيئة الله.

الله" ثم تنكرت، فقلها) وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا (مما سئلت عنه) رَشَدًا²⁴. وَلَكِنُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَارْدَاهُمَا تِسْعًا²⁵ (8). قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا، لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أُنَبِّئُ بِهِ وَأَسْمِعُ! (لا أحد أبصر منه ولا أسمع منه) مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ، وَلَئِنْ يَشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا²⁶.

3- اتبع ما ينزل عليك، ونضرب الأمثال لمصير الظالمين من قريش.

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدًّا²⁷ (ملجأ)⁽⁹⁾. وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (لا تطردهم كما يطلب منك المشركون ذلك). وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ

8- اختلف المفسرون في تحديد معنى (ارادوا تسعا) وقد هيمن على تفكيرهم ما نقل عن الإسراقيليات. وأقرب الأقوال إلى ظاهر النص أنهم ارادوا تسع سنين بعد خروجهم من الكهف. غير أن الآية التالية مباشرة (قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا) تبقى العدد الحقيقي مطلقا، لا يحلله إلا الله، إذ يمكن أن يكون تسعة أيام أو شهور أو تسعة آلاف سنة!

9- يشرح الطبري هذه الآية مستقلة عما قبلها وما بعدها، وللشيء نفسه فعل بالنسبة للتي تليها. أما القرطبي فيعتبرها "من تمام قصة أصحاب الكهف" ويفسرها بقوله: "اتبع القرآن فلا مبدل لكلمات الله ولا خلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف". وأما الرازي فيقول عن الآيات التالية لها، أعني قوله تعالى: "وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ" الخ، يقول عنها: "وهذه القصة منقطعة عما قبلها وكلام مبتدأ مستقل"، بينما يعتبر الزمخشري الآيتين منفصلتين، تجيب الأولى على ما كان مشركو مكة يطلبونه بقوله: "هم للنبي قلت بقرآن غير هذا أو بدله، فقل له "وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ" من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل"، وأما الثانية فترد على قول قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله (ص): "نَحْ هَؤُلَاءِ الْمَسْأُولِي، وَهَمْ صَهْبٍ وَعِمَارٌ وَخَبَابٌ وَغَيْرُهُمْ مِنْ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ"، فنزلت: "وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ" وأجسها معهم وثبتها... أقول (الجابري): جميع هؤلاء المفسرين -والآخرين تبع لهم- يقطعون الصلة بين ما ورد في القصة الخاصة بأصحاب الكهف، وما جاء بعدها من حث الرسول على رفض طلب زعماء قريش طرد فقراء المسلمين والاتجاه بالعكس إلى رعايتهم والعطف عليهم والحذر من أن تفره زينة الدنيا التي يتمتع بها زعماء قريش الخ. أما نحن فنرى أن وحدة الميثاق في السورة يقتضي ربط قوله تعالى "وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ" بقوله "وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ"، واعتبار الآيتين بداية لفقرة توارث مقدمة السورة وبالأخص من منها قوله تعالى: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" (في آياتهم) (بعدهم) إن لم يؤمنوا بهذا الحديث، أسفا الخ. وهكذا يكون السياق العام للسورة لحد الآن كما يلي: لا تحزن ولا تأسف لكون قريش يواصلون إغراضهم وتكذيبهم بالبعث، ولا تهتم بتحذيراتهم. لقد أرادوا أن يحرجوك بفتوى لليهود الذين أملا عليهم أن يختبروك بقصة أصحاب الكهف، وسنريهم كيف أن لإحراجهم سيرتد عليهم (انظر ذلك في التعليق).

عَنَّهُمْ (لا تتجاوز عينك إلى غيرهم من أصحاب المال وأصحابه) تريد زينة الحياة الدنيا، ولما تطع من أغفنا قلبه عن ذكرنا، (أي لا تنب مطالب المشركين) واتبع هواه وكان أمره فرطاً²⁸ (وبالغ في اتباع هواه). وقُل : الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا (سورها)، وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ (ماء غليظ ثقيل) يَشْوِي الْوُجُوهَ، بفس الشراب وساعت مرتفعاً²⁹ (رفيقاً). إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا³⁰. أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سَبْذَسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، مَكْنُتِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ، نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا³¹ (متكناً).

أ-مزرعتان مزدهرتان: إحداهما بقيت، والأخرى خلوية على عروشها!

واضرب لهم (لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم على فقراء المسلمين) مثلاً : رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِحَدِيثِهِمَا جَنَّتَيْنِ (بستانين) مِنْ أَغَابٍ وَحَقَّقْنَاهُمَا بَنَخْلَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا³². كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْنِمْ مِنْهُ شَيْئًا، وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا³³. وَكَانَ لَهُ (لأحد الرجلين) ثَمَرٌ، فَقَالَ لَصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: إِنَّا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا³⁴. وَنَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ (تهلك) هَذِهِ أَبَدًا³⁵. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَكِنْ رُبِنْتُ إِلَى رَبِّي لِلْجَنَّتِ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلِبًا³⁶ (مرجعاً). قَالَ لَهُ صَاحِبِيهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا؟³⁷ لَكِنَّا (لكن أنا) هُوَ اللَّهُ رَبِّي، وَلِمَا أَشْرَكَ بِرَبِّي أَحَدًا³⁸. وَلَوْ كُنَّا (هلا) إِذْ نَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ : مَا شَاءَ اللَّهُ! لَوْ قُوَّةٌ إِلَّا بِاللَّهِ! إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَعْلَىٰ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا³⁹، فَصَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا (على جنتك) حُسْبَانًا (صواعق) مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا⁴⁰ (أرضاً ملساء فارغة من النبات)؛ أَوْ يُصْبِحَ مَلَأُهَا غُورًا، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلِبًا⁴¹. وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ (قتل وصاع)، فَاصْبَحَ يَقْلِبُ كَفْيَهُ عَلَىٰ مَا اتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَلْوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا⁴²؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَتَصَوَّرُونَ مِنَ نُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا⁴³. هَٰذَا الْوَلَايَةُ (النصرة) لِلَّهِ الْحَقِّ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا⁴⁴ (عاقبة).

ب- الْحَيَاة الدُّنْيَا كَمَا أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَاصْبِحْ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ

وَاضْرِبْ لَهُمُ (القومك يا محمد) مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أُنْزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ (نباته) هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ⁽¹⁰⁾. وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا⁴⁵. الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا⁴⁶. وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالَ (تخلو منها الأرض) وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً، وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ يُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا⁴⁷، وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا (فيقول لهم): لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا⁴⁸! وَوُضِعَ الْكِتَابُ (سجل الأعمال)، فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا⁴⁹.

ج- اتَّخَذُوا إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ! مَصِيرُكُمْ وَمَصِيرُهُمْ وَاحِدٌ: جَهَنَّمُ

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (إِخْرَجَ عَنْ طَاعَتِهِ)، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟ بَنَسْ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا⁵⁰! مَا أَشْهَدْتُهُمْ (مَا أَحْضَرْتُ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتَهُ لَدَى) خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَأَ خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ، وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ (إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتَهُ) عَضُدًا⁵¹ (حَتَّى تَقُولُوا إِنَّهُمْ لِي شُرَكَاءُ). وَيَوْمَ يَقُولُ (اللَّهُ): نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا⁵² (وَادِيًا يَهْلِكُونَ فِيهِ). وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا (وَاقِعُونَ فِيهَا) وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا⁵³.

د- وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا⁵⁹

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا⁵⁴. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا، إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى، وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا (فِي انْتِظَارِ) أَنْ تَأْتِيَهُمْ (مَنَا) سُنَّةُ الْآلَوَيْنِ (هَلَاكُهُمْ فِي الدُّنْيَا) أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ (فِي الْآخِرَةِ) قَبْلًا (عَيَانًا)⁵⁵ (11). وَمَا نُرْسِلُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛

10- شبه الدنيا بنبات جميل فيبس فتكسر ففرقته الرياح، بمعنى لا شيء في الدنيا يدوم!

11- المعنى: لا شيء يمكن أن ينتظره المشركون بعد أن جاءهم القرآن إلا الهلاك في الدنيا كما كان حال عاد وثمود ... أو العذاب يوم القيامة حيث يرون العذاب عياناً.

وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا⁵⁶. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاہُ (فلأنهم اختاروا الضلالة على الهدى): إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً (أعطية فلا يستطيعون) أَنْ يَفْقَهُوهُ، وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (صمما)، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى قَلَنْ يَهْتَدُوا إِذَا أَبَدًا⁵⁷. وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ، لَوْ يُوَازِئُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ. بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (ملجأ)⁵⁸. وَلَتَكُ الْقُرَى أَهْلُكُنَّاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا⁵⁹.

4- موسى والخضر

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ (لخادمه) لَأَأْتِیْكَ (لا أتوقف عن السير) حَتَّى أَتِلَّكَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ⁽¹²⁾ أَوْ أَمْضِيَ حَقْبًا⁽¹³⁾ (أمدا طويلا حتى أعثر على الرجل : الخضر). فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا (البحرين) نَسِيَا حُوتَهُمَا، فَاتَّخَذَ (الحوت) سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا⁽¹⁴⁾ (مسلكا). فَلَمَّا جَاوَزَا (ذلك المكان) قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا نَادَاكَ غَدَاً لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (تعبا)⁽¹⁵⁾. قَالَ (الفتى) أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ،

12- فتى موسى هو خادمه ومرافقه. وقد اختلف المهتمون بهذا الشأن منذ القديم حول من هو موسى المذكور في قصة الخضر، هل هو موسى رسول الله إلى فرعون أم غيره؟ وقد أورد كل من البخاري ومسلم حديثا عن ابن عباس يرد على من أنكروا أن يكون المعني في قصة الخضر هو موسى فرعون. وقد ورد في الحديث أن موسى عليه السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه. فأوحى الله إليه: بلى عبدنا خضر هو أعلم منك. قال: فأين هو؟ قال: بمجمع البحرين. قال موسى: يا رب اجعل لي علما أعلم ذلك به. قال: تأخذ معك حوتا في مكنل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثم. ثم يورد الحديث بقية القصة كما هي في القرآن. ومهما يكن فقصة موسى والخضر يمكن النظر إليها على أنها تطرح مسألة الخير والشر (انظر التعليق).

13- اختلف المفسرون والرواة حول موقع مجمع البحرين هذا. ومن الأقوال القريبة إلى جغرافية عصرنا ما ذكره ياقوت في معجم البلدان من أنه "اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وغان". أما ابن عاشور الذي استند في استخلاص موقعه من أحداث القصة فيقول: "ومجمع البحرين لا ينبغي أن يختلف في أنه مكان من أرض فلسطين. والأظهر أنه مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية فإنه النهر العظيم الذي يمر بجانب الأرض التي نزل بها موسى عليه السلام وقومه. وكانت تسمى عند الإسرائيليين بحر الجليل، فبان موسى عليه السلام بلغ إليه بعد مسير يوم وليلة راجلا، فعلمنا أنه لم يكن مكانا بعيدا جدا. وأراد موسى أن يبلغ ذلك المكان لأن الله أوحى إليه أن يجد فيه العبد الذي هو أعلم منه فجعله ميقاتا له.

فَأَبَى نَسِيتَ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ! وَاتَّخَذَ (الْحَوْتَ) سَنِيَةً فِي الْبَحْرِ عَجَبًا⁶³ (يتعجب منه موسى وفتاه). قَالَ (موسى) ذَلِكَ (أَي) فَقَدْنَا (لِلْحَوْتَ) مَا كُنَّا نَبْغُ (لَأَنَّا) بِنَتَّبِعُ أَثَارَهُ نَصِلُ إِلَى مَطْلَبِنَا وَهُوَ الْعَثُورُ عَلَى (الْخَضِرِ)، فَارْتَدَّا (رَاجِعِينَ) عَلَى أَثَارِهِمَا (بِقِصَانِيَا) قِصَصًا⁶⁴. فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا (هُوَ الْخَضِرُ)⁽¹⁴⁾ أَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا⁶⁵. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَشْدًا⁶⁶؟ قَالَ (الْخَضِرُ) إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا⁶⁷! وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا (خَيْرًا)⁶⁸؟ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا⁶⁹. قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ (لَمْ تَفْهَمْهُ أَوْ لَمْ تَسْتَغْفِرْهُ) حَتَّى أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا⁷⁰ (أَيِّنْ لَكَ حَقِيقَتُهُ بَعْدَ). فَانْطَلَقَا (عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ)، حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا (اقْتُلَعَ الْوَحَا مِنْ مَقْدَمِهَا)! قَالَ (موسى) أَخْرَقْتُهَا لِتَغْرُقَ أَهْلَهَا، لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا (مِنْكَرًا)⁷¹! قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا⁷²؟ قَالَ لَا تَأْخُذْنِي بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا⁷³. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ! قَالَ : أَقْتُلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ، لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا نُكَرًا⁷⁴. قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا⁷⁵. قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا⁷⁶. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ (أَصْلَحَهُ)، قَالَ (موسى) لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا⁷⁷ (لَطَلَبْتُ أَجْرًا مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُضَيِّقُوا). قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، سَأَتَّبِعُكَ بِتَأْوِيلِ مَا نَمُ تَسْتَطِعُ عَلَيْهِ صَبْرًا⁷⁸: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا⁷⁹. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا

14- اختلفوا حول الخضر من يكون؟ فقيل إنه لقب رجل من صلحاء أو أنبياء بني إسرائيل اسمه "إليّا". وقيل: هو من ذرية عيسو بن إسحاق. وقال بعضهم إن الخضر هو جرجس (مار جرجس) : وقيل: هو نبي بعث بعد شعيب، وأنه ولد في فلسطين وعاش في القرن الثالث الميلادي، الشيء الذي يتناقض مع القول إنه كان في زمن موسى. وهناك قصص كثيرة عنه يكذب بعضها بعضاً، خصوصاً من الناحية التاريخية، وتتخللها الخرافة بقوة. والشائع أن قصة موسى مع الخضر يهودية الأصل، لكنها غير مذكورة في التوراة. وهذا ما يوهن من نسبتها إلى القصص الإسرائيلية مما أثار نزاعاً بين علماء اليهود، بعضهم يعتبر موسى صاحب الخضر هو نفسه موسى فرعون وبعضهم يعتبره موسى آخر. أما في التراث الصوفي في الإسلامي فللخضر مقام كبير وقد نسجت حوله قصص وأخبار وكوامات الخ، لم نجد في القرآن الكريم ما يشهد لها بالصحة.

وَكُفْرًا⁸⁰. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رَحْمًا⁸¹. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ. وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا⁸².

5- ذو القرنين... وياجوج وماجوج.

وَيَسْأَلُونَكَ (السؤال الثاني بعد سؤالهم عن أهل الكهف) عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ⁽¹⁵⁾؛ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا⁸³. إِنَّا مَكَّنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَاتِّبَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا⁸⁴ (طريقاً يوصله إلى مراده): فَاتَّبَعَ سَبِيلًا⁸⁵ (سلك طريقاً، في فتوحاته)، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ⁽¹⁶⁾، وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا. قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ (هؤلاء بالقتل إن كانوا كافرين غير موحدين) وَإِمَّا أَنْ تُتَّخَذَ فِيهِمْ حِسَابًا⁸⁶ (تأسرهم). قَالَ (ذو القرنين) أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا⁸⁷. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا⁸⁸ (نأمره بما يسهل عليه القيام به). ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا⁸⁹ (طريقاً أخرى)! حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا⁹⁰ (من لباس أو سقف بسبب طبيعة أرضهم). كَذَلِكَ (فعل الإسكندر في المشرق مثل ما صنع بأهل المغرب)؛ وَقَدْ أَحْنَا بِمَا لَدَيْهِ (من القوة) خَيْرًا⁹¹ (علماً). ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا⁹²، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ (جبلين) وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا⁹³ (لغتهم مختلفة). قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ: إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ⁽¹⁷⁾ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ

15 - توجد فيما ذكره ابن إسحاق عن ذي القرنين عناصر تتطابق مع الإسكندر المقدوني: فقد نسبته إلى اليونان، وقال عنه إنه فتح مشارق الأرض ومغاربها. وأضاف ابن هشام: "واسمه الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندرية فنسبت إليه". وقد عرفه بعضهم -أعني ذي القرنين، بأنه "الملك اليوناني المقدوني". لكن ذلك مجرد تخمين! فما ذكرته عنه الآيات هنا لا ينطبق عليه تاريخياً.

16- اختلفوا في قراءة هذه الكلمة: بعضهم قرأها "حامية" (ابن مسعود وطلحة وابن عمر وابن عمرو والحسن). وقرأ ابن عباس: "حمئة". قالوا: "كان ابن عباس عند معاوية؛ فقرأ معاوية: حامية، فقال ابن عباس: حمئة. فقال معاوية لعبد الله بن عمرو: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين، ثم توجه إلى كعب الأحبار؟ كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك تجده في التوراة" (أي حمئة).

17- "ياجوج وماجوج" عند جغرافيي العرب القدماء هم سكان ما بين اليابان والصين.

خرجوا (ضريبة تأخذها منا) عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا⁹⁴ (بماجزا بمنعهم من الوصول إلينا). قَالَ مَا مَكْنَتِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَدْعُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا⁹⁵ (أماجزا حصينا). أَتُونِي زَبَرَ الْحَدِيدِ (يقطع منه)؛ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ (جانبَي الجبلين بالحطب والقحم) قَالَ اتَفَخُوا (لنشتعل النار فيها)، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أَفْرَغْ عَلَيْهِ قَطْرًا⁹⁶ (نحاساً مذاباً). فَمَا اسْتَطَاعُوا (بماجوج وماجوج) أَنْ يَظْهَرُوهُ (يصعدوا فوق السد لملاسته)، وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا⁹⁷ (لصلابته). قَالَ (ذو القرنين) هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي (منع بماجوج وماجوج من الخروج إليكم)، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي (قيام الساعة) جَعَلَهُ دُكَّاءً (وكان وعدُ رَبِّي حقاً)⁹⁸ (البعث) - وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ (الخالق) جَمْعًا⁹⁹، وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا¹⁰⁰، الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي، وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا¹⁰¹. (وتعود السورة إلى قريش لتخاطبهم): أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا (أنتم يا قريش) أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي (اليهود) مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ (يستعينون بهم)؟! إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نَزْلًا¹⁰². قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا¹⁰³، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا¹⁰⁴؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا¹⁰⁵. ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا¹⁰⁶. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلًا¹⁰⁷، خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوًّا¹⁰⁸ (تحولاً).

6- خاتمة: من كان يرجو لقاء ربه فليعمل صالحاً ولا يشرك به أحداً

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْلَ دَمِ الْبَحْرِ لَنَفَذَ رَبِّي (آياته وعجائب صنعه) لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جُنَّا بِمِثْلِهِ (ببحر آخر) مِثْلًا¹⁰⁹ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا¹¹⁰.

- تعليق

تشتمل هذه السورة على ست فقرات -حسب توزيعنا: مقدمة، وقصة أهل الكهف، والنهي عن الاستجابة لمطالب قريش وضرب الأمثال لهم، قصة موسى

والخضر، قصة ذي القرنين، خاتمة. فكيف نفهم هذه الفقرات كعناصر في سياق واحد تبرز من خلاله وحدة السورة.

لننقل أولاً إلى هذه السورة تقع ضمن المحور الذي تحدثت فيه السور الثلاث السابقة (الذاريات والناشئة والإسراء)، محور المعاد، وبالتحديد الوعيد لمشركي قريش، وبالتالي فسياق هذه السورة يقع على مستوى مسيرة الدعوة المحمدية في إطار الظروف الصعبة التي عاينها النبي (ص) من قريش أشد الأذى. وبما أنه عليه السلام لم يكن ينجأ، في الفرد على هذا الأذى، إلى استعمال أي نوع من أنواع العنف المادي. والقرآن يدعو باستمرار إلى الصبر. فقد كان من المناسب تماماً أن يركز الخطاب القرآني هنا على جانب الوعيد الذي يتمثل في التأكيد على أن البعث واقع لا محالة، وأن جزاء الظالمين، وهم المملأ من قريش، هو جهنم خالدين فيها أبداً.

في هذا الإطار إذن يجب أن نقرأ فقرات هذه السورة بما فيها قصة أصحاب الكهف وقصة الخضر وقصة ذي القرنين. أما الفقرة الثالثة فهي مخاطبة قريشاً مباشرة بلغة الوعيد : بصيغة التهديد وضرب المثل.

في المقدمة تبدأ السورة بالتأكيد على المهمة التي كلف الله بها رسوله. فالقرآن الكريم الذي لا اعوجاج فيه ولا للتواء صريح في التعبير عن هذه المهمة : لقد اختار الله "لينذر بأساً شديداً" ينزل بالمشركون، وإن فلان موجب لأن يهلك الرسول نفسه أسفاً على كونهم لم يؤمنوا بهذا القرآن. وعلى اتهامهم في منع الدنيا، ذلك لأن زينة الأرض إنما وضعها الله اختباراً نخلفه، ويوم القيامة تتحول إلى خواء، وحينها يجزى كل بعمله. فالذين عملوا صالحاً في الجنة، والظالمون في النار. من هذا المنظور تتصدى السورة للجواب عن أسئلة التحدي التي طرحتها عليه قريش. فتبدأ بقصة "الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول، وما كان من أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجيب"، كما قال يهود "يُربأ" الذي أمدوا قريشاً بتلك الأسئلة. تنبيه السورة أولاً إلى أنه ليس ما حصل لهؤلاء الفتية هو وحده الأمر العجيب، فأيات الله كلها عجب. ولكن العجيب حقاً في قصة هؤلاء الفتية هي أنها تقيم الدليل على أن الوعد بالبعث صادق. كانوا فتية مؤمنين بالله فاضطهدهم قومهم الذين يعبدون الأصنام فلجئوا إلى كهف ليختبئوا فيه، فناموا وأمد الله في نومهم قصار حالهم حال الموتى، سوى أن أجسادهم بقيت سليمة لم يصيبها نفسخ ولا فساد، لأن موقع الكهف كان بحيث لا يتأثر بالبرد لأن الشمس كان تمر عليه، ولا بحرارة الشمس لأن أشعتها كانت تمر مائلة لا تعطي من الدفء إلا ما يحفظ اعتدال الجو. هؤلاء بقوا في حالتهم تلك مدة طويلة، أزيد من ثلاثمائة سنة، انقضت خلالها أجيال من قومهم، ثم أيقظهم

الله وبعثهم من جديد على حالهم الأولى التي كانوا عليها. وعندما أرسلوا أحدهم نيابتيهم بالضغام من السوق، ووقع اتعرف عليهم فاختلف الناس في أمرهم. أما قريش فيسأعلون: كم نبث هؤلاء الفتية في نومهم؟ وسياخذ كل منهم في تقدير ذلك فتتباين تقديراتهم وكان ذلك فتنة لهم (تماما كما حكى السور السابقة عن تساؤل الكفار - حين يبعثون يوم القيامة- كم نبثوا في الدنيا؟).

وهكذا، فالفقصة التي أراد منها مشركو قريش أن تظهر "كذب" محمد قد أقامت لهم "الدليل المنموبر" على صدق الوعد بالبعث. فكما بعث الله أولئك الفتية سيبعث الناس وسيرى منكرو البعث والحساب ذلك بأنفسهم يوم اقيامة. إن فعلى الرسول أن لا بأسف على قومه نكونهم لم يستجيبوا له، ولا يغتر بما يعدونه من الاستجابة إذا هو طرد الفقراء من المسلمين من مجالسه، مدعين أنهم لا يمكن أن يجلسوا وراء موابيهم وعبيدهم أو جنبا إلى جنب معهم، كما أن على الرسول أن لا يغير اهتماما لما يتمتعون به من زينة الحياة الدنيا، بل عليه أن لا يفارق هؤلاء المؤمنين الفقراء وأن لا يفصلهم عنه ولا يضطرهم إلى اللجوء إلى البقاء في "كهوفهم" كما اضطر أولئك الفتية.

بعد هذا تضرب السورة أمثلة لقريش تبين لهم من خلالها أن لا شيء يدوم في الدنيا على حاله، وتدعوهم إلى تأمل حال رجلين لكل منهما مزرعة، كانتا في البداية على حال واحدة من الخصب وحسن المنظر الخ، غير أن أحدهما غلبه الزهو بمزرعته والاعتداد بنفسه فصار يمدح فيها ويرفع من شأنها مستصغرا مزرعة صاحبه مستعليا عليه، قائلا له: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا³⁴. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه، قال ما أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا³⁵. مضيفا "وما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمةً، وَلَئِن رَّدَيْتَ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا"³⁶ ناسيا أن الأحوال يمكن أن تنقلب ضده. أما صاحبه، وكان متواضعا، فرد عليه قائلا: لا تقتر فعسى أن يؤتيني ربي خيرا ويسلط على مزرعتك صاعقة تحرقها أو يغور الماء من بئرها ... وذلك ما حدث بالفعل فقد تلف ثمرها وأصبحت خاوية على غروشها، فنتم صاحبها ولم يجد معينا ينقذ من المصيبة التي حلت به، فتمنى لو أنه لم يشرك بالله، ولكن بعد فوات الأوان.

ثم تنبه السورة قريشا إلى أن زينة الحياة الدنيا التي يتمتعون بها هي كزينة هذه المزرعة، هي كماء أنزل من السماء، فأبليت الأرض به نباتا مخضرا ثمثرا، وقد تأتي صاعقة -وكانها على موعد معها- لتحول كل شيء فيها إلى هشيم تذروه الريح. وهنا تذكرهم السورة بالموعد الذي قرره الله للبشر جميعا، يوم يعرضون على الله فيقول لهم: لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا⁴⁸! حينها يكشف عن "الكتاب" الذي سجلت فيه أعمالهم ليطلعوا عليها وسيكون

رد فعلهم: "يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا"⁴⁹. لقد اتخذوا إبليس وليا لهم فأشركوا بالله، فاستنكر ذلك منهم وتبرأ، وقال لهم: نادوا شركائي الذين زعمتم، فدعوهم! فلم يستجيبوا لهم". فآلقوا جميعا في وادي جهنم...

ثم تتوجه السورة إلى النبي عليه السلام لتذكره بأنباء أهل القرى الذين قص القرآن مصائرهم. لقد أهلكوا جميعا لأنهم اختاروا الضلالة على الهدى وأصرروا على ذلك حتى صار طبعاً فيهم، فلم يكن لهم من مصير آخر.

هنا تنتقل السورة إلى قصة "موسى والخضر، لتبين للأول أنه ليس أعلم الناس (كما صرح بذلك في خطبة له) بل هناك من الناس من هو أعلم (كما ورد في الحديث... انظر الهامش رقم 11 أعلاه). وإذا كان ظاهر آيات القصة يفيد فعلاً أن المسألة المطروحة هي مسألة "العلم" (الآيتان 65-66)، فإن وراء هذا الظاهر مغزى عميقاً يطرح، لا العلم بكيفية عامة، بل يطرح مشكلة المعرفة على مستوى الخير والشر: أي الأشياء خير وأيهما شر؟ وهل ما نعتبره خيراً، أو شراً، هو كذلك بالفعل دائماً؟

تنص الآيات السابقة، وآيات أخرى في غير هذه السورة، على أن ما يتمتع به المشركون في الدنيا من زينة الحياة هو شيء مؤقت، وأنهم سيحاسبون عليه يوم القيامة. وهذا قد يثير في ذهن المستضعفين الفقراء أسئلة من قبيل: وما الفائدة في أن نبقى نحن محرومين من زينة الدنيا، ونحن مؤمنون...؟ إن المسألة مسألة فلسفية تتعلق بمشكلة الشر في العالم. وفي نظرنا فإن قصة موسى والخضر جاءت في هذا المكان من السورة لتجيب عن هذا السؤال بالذات، بطريقة تمثيلية بيانية: نبي الله موسى، من أكبر الأنبياء والرسل، يقف مشدوهاً أمام أفعال مضرّة ومحرمّة يأتيها رجل، ثم يتبين لموسى أن وراء "الشرور" التي اقترفها هذا الرجل أمامه كان وراءها خير أكبر! فكيف نعرف الخير من الشر؟ وما الفائدة من وجود الشر في العالم؟

أما الفلاسفة فقد أجابوا عنها بلغتهم "البرهانية" كما يلي: إن ما يحدث من الشرور في العالم هو قليل بالنسبة للخير الكثير الحاصل فيه. وأن هذا الشر القليل ضروري للخير الكثير. فلو لم يكن هناك شر، لما كان هناك خير، لأن الخير إنما يعرف بالشر: "وبضدها تتميز الأشياء"... إن الخضر قد ارتكب أمام موسى أفعالا يصنفها الناس في خاتمة الشر، وذلك بناء على ما هي عليه في الظاهر: خرق سفينة مما يهدد ركبها بالغرق، قتل نفس بدون ذنب ارتكبته، عدم مطالبة المحسن إليه (أو المسيء) بمقابل، أعني مجازاة سيئة بحسنة الخ. لكن لما شرح الخضر ما وراء تلك الأفعال السيئة في ظاهرها، بدا واضحاً أن وراء الشر القليل خير كثير. فقصة موسى

والخضر، إذن، ليست دخيلة على السورة بل هي جزء من سياقها، إنها تسلية للفقراء والمستضعفين من أصحاب النبي (ص) الذين طالبته قريش بإبعادهم عنه. إن السورة تسليهم وتطيب خاطرهم بإفهامهم أن وجودهم كفقراء ضروري لوجود الأغنياء في هذه الدنيا، وأن الحال سينقلب رأسا على عقب يوم القيامة، حيث سيصبح وجود الكفار في النار ضروري لتمتع الفقراء المؤمنين في الجنة، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله تعالى: "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا جَنَّاتٍ مِنْ دُونِ الَّتِي هَذِهِ لِيُزِيلَ عَنْهَا عَنْقَابًا وَيَجْعَلَ فِيهَا شَجَرَاتٍ كُنُوزٍ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ أُنْجُسٍ ذُنُوبًا وَذُنُوبًا كَثِيرًا وَلَهُمْ فِيهَا رِزْقٌ ذَرِيرًا وَلَهُمْ فِيهَا مِزَابٌ وَاسِقٌ" (الشورى 7-8)، وقوله: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (هود 118-119)...

قصة موسى والخضر مثال يشرح مسألة وجود الشر في العالم، وهذا ما يفيد السياق الذي تنتمي إليه والذي توطره الآيتان التاليتان: قوله تعالى "إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا"⁷، وقوله: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تَطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا"²⁸. أما ذكر خطبة موسى (النبي) ومحدودية علمه بالنسبة للمحدودية علم "الولي" الخضر. فلا أساس له هنا. وإنما يجد أساسه فيما يقول "العارفون" من المتصوفة، قبل الإسلام وبعده⁽¹⁸⁾.

هذا، ولا تخرج قصة ذي القرنين عن السياق العام للسورة. لقد منحه الله حرية التصرف في أقوام غزاهم في جهة غروب الشمس فخيره بين أن يبيدهم وبين أن يبقى عليهم أحياء، وكذلك الشأن في أقوام غزاهم في جهة شروقها، فكان جواب ذي القرنين: "أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا"⁸⁷. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ، وَنَسْأَلُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا"⁸⁸. ذلك يعني أن عقاب الظالم في الدنيا عقاب مؤقت، وليس نهائيا، بل سيبقى متبوعا بعقاب الآخرة، وكذلك ثواب المحسن في الدنيا ثواب مؤقت والثواب الدائم الكامل في الآخرة. هذا جانب من القصة. أما الجانب الآخر فهو اتجاه ذي القرنين شمالا ليطلب منه سكان إحدى المناطق أن يجعل حدا لقوم مفسدين بجوارهم يعتدون عليهم، فشيء بين هؤلاء وأولئك سدا عظيما لا يستطيع المعتدون اختراقه، ولكنه لا يحميهم يوم تقوم الساعة، بل سيتركهم لكا وسيخرجون متدافعين ليوم الحساب وسيعرض الكافرون على النار عرضا ... هنا أيضا إشارة إلى أن "السود" التي يقيما الناس بينهم في الدنيا، لتفصل بعضهم عن بعض:

¹⁸ - راجع في هذا الموضوع كتابنا: بنية العقل العربي، الفصل الرابع من قسم العرفان: النبوة والولاية.

أغنياء/فقراء، أسياد/عبيد، مستكبرين/ مستضعفين الخ، جميع هذه السدود ستنتهار يوم تقوم الساعة وستنك نكا، ليقتب الجميع متساوين يوم الحساب!

وتأتي الخاتمة لتؤكد لقريش أن محاولتهم إحراج النبي بأسئلة وإثارة موضوعات كهذه لن تفيدهم في شيء، ذلك لأن الوحي يأتيه من خبير عليم لا حدود لعلمه: "قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جُنْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا". وأكد لهم مرة أخرى أن محمدا لا يأتي بالقرآن من عنده حتى يعجزوه : "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ، فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا".

71- سورة النحل

- تقديم

وردت حول بعض آيات هذه السورة جملة من الأخبار أكثرها لا يستقيم، إما لأنها تجزئ الآيات بصورة غير معقولة وإما لأنها تربطها بنوازل حدثت في المدينة.

من الأخبار التي تجزئ الآية الواحدة، بل العبارة الواحدة بعيدا عن المعقول، ما نسب إلى ابن عباس من أنه قال : "لما نزلت "أتى أمر الله" (أول عبارة في هذه السورة) وغر أصحاب رسول الله (ص) (اغتاظوا)، حتى نزلت (بعدها مباشرة) "فلا تستعجلوه" فسكتوا". وفي رواية أخرى : "لما نزلت "أتى أمر الله"، قاموا، فنزلت "فلا تستعجلوه". وقال الزمخشري: "روي أنه لما نزلت "اقترَبَتِ السَّاعَةُ" (القمر: 1) قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما يعملون حتى ننظر ما هو كائن! فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئا! فنزلت "اقترَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ" (الأنبياء: 1) فأنشققوا وانتظروا قريبا، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئا مما تخوفنا به، فنزلت "أتى أمرُ الله" فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت "فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ" فاطمأنوا. وهذا الإخراج المسرحي لا يأخذ بعين الاعتبار الفارق الزمني بين السور الثلاث ولا ترتيبها. فسورة القمر رقم ترتيب نزولها 37، ووقت نزولها يقع حوالي السنة الخامسة/السادسة للنبوّة. أما سورة الأنبياء وترتيبها 74 فقد نزلت بعد سورة النحل التي نحن ضيوف عليها ورتبتها 71، وهاتان السورتان نزلتا في أواخر السنة الحادية عشرة، أي بينهما وبين سورة القمر نحن ست سنين، فكيف يستقيم ما ذكر في الرواية السابقة؟

هذا من جهة. ومن جهة أخرى نحن لا نتصور أن ينزل قوله تعالى "أتى أمر الله" منفردا، ثم يكون رد الفعل الذي تحدث عنه الروايات، وهو رد فعل يستغرق وقتا، ثم ينزل قوله تعالى "فلا تستعجلوه" تسليّة لهم وتهدئة! إن الأمر في نظرنا يتعلق بجملة واحدة: "أتى أمرُ الله فلا تستعجلوه" بمعنى سيأتي، وقد استعمل الماضي لتأكيد مجيئه؛ وهذا النوع من التأكيد كثير في القرآن. وإذن فالمعنى: سيأتي أمر الله لا محالة، فلا تستعجلوه لأنه مقيد بأجل مسمى. (انظر هامش رقم 1 أدناه).

ومن الأخبار التي لا تفيد جديدا قول من قال: "كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به : والذي أرجوه بعد الموت إنه كذا وكذا.... فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت؟ فاقسم بالله جهد يمينه "لا يبعث الله من يموت" فنزلت الآية. والواقع أن هذه الآية نزلت بمعناها في سور سابقة. والبعث مدار الجدل في السور السابقة كما رأينا. يمكن أن تكون الحادثة قد وقعت فعلا، ومع ذلك فربطها بالآية كـ "سبب نزول" فيه تجاوز كبير. ومن هذه الأخبار ما ذكر من "أن أعرابيا أتى النبي (ص) فسأله، فقرأ عليه: "والله جعل لكم من بيوتكم سكنا". قال الأعرابي: نعم. ثم قرأ عليه السلام: "وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم"، قال : نعم. ثم قرأ عليه ... وهو يقول نعم، حتى بلغ "كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون"، فولى الأعرابي. "فأنزل الله : "يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون"، وهذا الخبر مفيد لا كسبب نزول بل من حيث إنه يشير إلى المخاطب، وهو "أعرابي"، وبالتالي يسمح بربط هذه الآيات بمرحلة الدعوة وسط الأسواق والقبائل.

ومن الأخبار التي وردت كـ "سبب نزول" لقوله تعالى: "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ" قول بعضهم : "قال المشركون: إن محمداً (ص) سخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم، وما هو إلا مفتر، يقوله (أي القرآن) من تلقاء نفسه.. أما حول قوله تعالى: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ"، فقد روي عن أحد الصحابة أنه قال: "كان لنا عيدان : أحدهما يقال له يسار والآخر جبر، وكنا صيقلين (يصقلان السيوف) فكانا يقرآن كتابهما ويعلمان علمهما، وكان رسول الله (ص) يمر بهما فيستمع قراءتهما، فقالوا : إنما يعلم منهما"، فنزلت.

- نص السورة

1- مقدمة: أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ..!

بسم الله الرحمن الرحيم
 أَتَى أَمْرُ اللَّهِ (الوحي من الله) ⁽¹⁾ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ¹. يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ (جبريل) بِالرُّوحِ (بالوحي) مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِي².

1- اختلف المفسرون في فهم هذه الآية، وقد ذهب معظمهم إلى أن الآية عبارة عن تحذير بقرب قيام الساعة وهلاك المشركين، بينما ذهب آخرون إلى أن المقصود بـ"أمر الله" هو =

2- سخر لكم الأنعام، والخيل والبغال والحمير... والماء والشجر الخ

(والدليل على ذلك أنه هو الذي) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ (يحيث لا يضطرب نظامها)، تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ³. (والذي) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ فَيَاذًا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ⁴ (ينكر البعث ويجادل في وحدانية الله الخ)، وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا، لَكُمْ فِيهَا بَفءٌ وَمَتَاعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ⁵، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ (زينة) حِينَ تَرْجِعُونَ (ترجعونها إلى مرلحها بالعشي) وَحِينَ تَسْرَحُونَ⁶ (تخرجون بها في النهار)، وَتَحْمِلُ أَوْتَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَا بِشِقِّ النَّفْسِ. إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ⁷. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ (خلقها) لَتَرْكَبُوهَا، وَزِينَةً؛ وَيَخْلُقَ مَا لَا تَعْلَمُونَ⁸. وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ (بيان الطريق للمستقيم)، وَمِنْهَا جَائِرٌ (ومن الطرق ما هو غير مستقيم)، وَكَوْ شَاءَ لَهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ⁹ (إلى الطريق المستقيم). هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ، مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ¹⁰ (ترعون توبكم). يَنْبُتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعُ وَالزَّيْتُونُ وَالنَّخِيلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ¹¹. وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَالنَّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ¹². وَمَا ذَرَأَ (خلق) لَكُمْ فِي الْأَرْضِ (من نبات) مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ،

"أوامر الله وأحكامه وفرائضه" الخ. وقد رد الطبري الذي ذهب مع الرأي الأول بأن أحدا لم يكن يستعجل فرائض الله وأحكامه، وقال آخرون إن الإشارة هنا إلى غزوة بدر، وهذا الرأي مثل الذي سبقه لا يستقيم لأن السورة مكية. ونحن نرى أن معنى هذه الآية تشرحه الآية التي بعدها مباشرة وهي قوله تعالى: "يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ (جبريل) بِالرُّوحِ (بالوحي) مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ: أَنْ أَنْذِرُوا: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِي"². والرابط بين عبارات الآيتين هو قوله تعالى بينهما "سُبْحَانَكَ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ"، الشيء الذي يدل على أن مَوْضِعَ الْآيَتَيْنِ معا هو التوحيد وليس المعاد، والسورة كلها تدور حول التوحيد كما سنرى. وإذن فقوله "لَتَىٰ أَمَرَ اللَّهُ" معناه: سيأتي "أمر الله"، ينزل به جبريل على من يشاء من عباده، والمقصود هنا هو النبي عليه السلام. أما مضمون هذا الوحي "المعبر عنه هنا بـ"أمر الله" فيمكن استشفافه من ربط هذه الآية بظروف نزول هذه السورة، إذ يمكن القول إن له علاقة بقاء الرسول عليه السلام في موسم السنة الحادية عشرة للنبوّة بوفاة من يثرب، أسلموا ووعدوه أن ينقلوا إلى قومهم رغبته في أن يكون الحليف الذي يبحثون عنه مقابل أن يتحالفوا معه ضد قريش، وضربوا معه موعدا في موسم العام القادم ليأتوه بالنتيجة، وقد وفوا بوعدهم فكانت بية العقبة الأولى (انظر التفاصيل في الاستهلال). ومن هنا يمكن قراءة الآية التي نحن بصدها على أنها نوع من البشارة بالحصول على حليف، مع الدعوة إلى الصبر. ولنا أن نتصور أن جميع السور التي ستترى ابتداء من هذه السورة إلى آخر سورة نزلت بمكة، ستكون ذات علاقة بمسلسل التفاوض مع أهل يثرب وردود فعل قريش والاستعداد للهجرة للمدينة. إنه القسم من السيرة النبوية المتساق مع مسار التنزيل في هذه المرحلة من تاريخ النبوة.

إِنَّ فِي تِلْكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ¹³. وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا (سماك)، وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًّا تَبْسُوتُهَا (أولوا ومرجانا). وَتَرَى الْفَلَكَ مُوَاجِرًا فِيهِ (تشق لبحر بكم)، وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (تسافرون بها بالتجارة)، وَتَعْلَمُونَ¹⁴. وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ (كي لا تميل بكم)، وَأَنْهَارًا وَسَبِيلًا (طرقا)، لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ¹⁵. وَعَلَّمَتِ الْبَحْرَ بِهَا عَلَيَّ الطَّرِيقَ)، وَيَالْأَنجُمُ هُمْ (المسافرون) يَهْتَدُونَ¹⁶ (إلى الاتجاه الذي يريدون). لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْشَأَ¹⁷ تَنكِيرُونَ¹⁷. وَإِنْ تَعْلُوا نَعْمَةً لِّاللَّهِ لَا تَحْصُوهَا، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ¹⁸. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَسْخَرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ¹⁹.

3- الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يَنْكَرُونَ نِعَمَ اللَّهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ.

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ (يدعوه للمشركون) مِنْ دُونِ اللَّهِ (أي الأصنام) لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ²⁰، أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ! وَمَا يَشْعُرُونَ (المشركون) أَلَيَّانَ يُنْعَبُونَ²¹! إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ. فَلِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ، وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ²². لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ²³. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَيْكُمْ؟ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ²⁴. لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ (وهكذا يحملون ذنوبهم معهم) كُلَّ يَوْمٍ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَهُمْ (يحملون كذلك)، أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ (يحملون)²⁵. قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهَ بِبَنِيائِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ (ضربها من أسسها بالزلازل وغيرها) فَخَرَّ (سقط) عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ²⁶. ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ: أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفِقُونَ فِيهِمْ (تدفعون عنهم)؟ قَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ: إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ²⁷. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لِمَ لَمْ تَسْأَلُوا اللَّهَ لِمَ لَمْ تَسْأَلُوا؟ قَالُوا مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ! (الجواب): بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ²⁸؛ فَانْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، فَلَيْسَ مَوْتٌ لَكُمْ (مقام) الْمُتَكَبِّرِينَ²⁹. وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا خَيْرٌ: (وَعَدَ أَنْ) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَلِذَلِكَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ³⁰. جَنَّاتٌ عَنْ دُونِهَا يُنْخَلُوعُهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ؛ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ³¹. الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ (لهم): سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، انْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ³². هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ (بقِيَامِ الْقِيَامَةِ)، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَمَا

ظلمهم لله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون³³، فأصليهم سيئات ما عملوا وحلق بهم ما كانوا به يستهزئون³⁴. وقال الذين أشركوا: لو شاء الله ما عبثنا من نونه من شيء، نحن ولا آبائنا، ولا حرمانا من نونه من شيء⁽²⁾! كذلك فعل الذين من قبلهم! فهل على الرسل إلا البلاغ المبين³⁵؟ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت (الأوثان)، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة³⁶، فسيروا في الأرض فاعظروا كيف كان عاقبة المكذبين³⁷. إن تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضر⁽⁴⁾ وما لهم من ناصرين³⁸. وأقسموا بالله جهد أيمانهم (أن) لا يبعث الله من يموت. (الجواب) بلى، (لقد صار البعث) وعدا عليه حقا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون³⁹. ليبين لهم (عند قيام القيامة) الذي يختلفون فيه، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين⁴⁰. إنما قولنا لشيء إذا أردناه: أن نقول له: كن، فيكون⁴⁰ (وكذلك البعث).

4- وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين، إنما هو إله واحد ...

والذين هاجروا (المقصود هنا الهجرة إلى الحبشة) في الله من بعد ما ظنموا تنبؤناهم في النبأ حسنة، وكأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون⁴¹. الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون⁴². وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم، (ولم

2 - الإشاعة يقولون، إن ما صرح به هؤلاء، أعني قولهم "لو شاء الله ما عبثنا من نونه من شيء الخ، إنما قالوه استهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين" بالقضاء والقدر، وبالتالي بالدين. وأما المعتزلة فيرون أن هؤلاء كذبوا، وأنهم عبدوا غير الله يارسلهم، وأن القرآن يرد عليهم بأن الله لم يجبرهم على ذلك بل استكره وبعث الرسل تحذيرهم منه.

3 - يفسر الزمخشري ذلك بقوله: "فمنهم من هدى الله" أي لطف به لآله عرقه من أهل اللطف. وللطف عند المعتزلة بمعنى التوفيق. فإذا كان الشخص لم يتخذ موقفا معتادا عن معرفة وإصرار فهو من أهل اللطف، أي يستحق أن يرشده الله إلى الهدية. أما إذا كان معتادا رفضا عن سابق معرفة وإصرار فهذا ليس من أهل اللطف ولا يستحق الهدية والتوفيق. فهو ممن حقت عليهم الضلالة.

4- وأنه "لا يهدي من يضل"، أي من لاختار الضلالة. كان الرسول يحرص على أن يستميل إلى الإسلام كبار قريش مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل الخ، طمعا في أنهم إن أسلموا تبعهم أهلهم وأشياعهم. لكن هؤلاء كانوا رافضين للدعوة المحمدية عن "عقيدة"، إما بدافع من مصالحهم أو بدافع من الصراعات القبلية، فكان من المؤكد أنهم لن يؤمنوا. وبالتالي فلا فائدة من الطمع في هدايتهم. كما أنه من لعبت مخاطبة من لا يسمع ولا يريد أن يسمع.

نرسل ملائكة كما تطلب قريش) فاسألوا أهل الذِّكْرِ (اليهود) إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ⁴³! (أرسلنا الرسل) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبُورِ (الكتب)، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ (القرآن) لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ⁴⁴. أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ⁴⁵؟ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ (في أسفارهم للتجارة)؟ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ⁴⁶، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ (متخوفين بسبب ما رآه من هلاك الذين قبلهم)، فَإِنْ رَيْبُكُمْ لِرُءُوفِ رَبِّحِمِ⁴⁷ (ومع ذلك لم يفعل فهو بفضل ترك الفرصة لهم كي يؤمنوا ويتجنبوا العذاب). أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ (له ظل)، يَتَقَيَّأُ (ينشر) ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (صاغرون)⁴⁸؟ وَلَكِنَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ⁴⁹. يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَيَقْعُدُونَ مَا يُمْرُونَ⁵⁰. وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَإِذَا يَافَى فَارْهُوْنِي⁵¹. وَلَكِنَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا (الطاعة دائما) أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ⁵². وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ، ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ⁵³ (ترفعون أصواتكم: تدعون). ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ: إِذَا فَرِقَ مِنْكُمْ بَرِيَّتُهُمْ يَشْرِكُونَ⁵⁴! لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ! فَتَمَتَّعُوا (يا هؤلاء) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ⁵⁵. وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ (لأنها تضر ولا تنفع: الأصنام) نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ! تَاللَّهِ لَتَسْلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ⁵⁶! وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ، وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ⁵⁷ (يخصون أنفسهم بالذكور، لأنهم لا يحبون الإناث)! وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ⁵⁸ (حزين محبط). يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، أَيُمْسِكُهُ (يتساعل مع نفسه: أحتفظ بما بشر به: المولودة) عَلَى هُونٍ، أَمْ يَمْسِكُهُ فِي التُّرَابِ (محترق بين أن يبقى عليه متحملا لهوان، وبين أن ينفقه حيا: بيده)؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ⁵⁹! لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ السُّوءِ⁽⁵⁾، وَلَكِنَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ⁶⁰. وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ، وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَكَانَ يُسْتَفْتَمُونَ⁶¹. وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ، وَتَصِفُ (تقول) أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ: أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى. لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ⁶² (متروكون فيها).

5- "صفة السوء: وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكرهه الإناث وواهن خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ"

5- فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ، فَرُدُّوهُ إِلَى الْفَقَرِ حَقَّهُمْ ...

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا (رسلاً) إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَكُيْهِمُ الْيَوْمَ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ⁶³ (في الآخرة). وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ (من أمور الديانات) وَهَدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ⁶⁴. وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ⁶⁵ (آية تلهبهم على أنه كما أحيأ الأرض بعد موتها يحييكم بعد موتكم). وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ: نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ، مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ (المأكول) وَدَمٍ، لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ⁶⁶. وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ⁶⁷ (6). وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا، وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ⁶⁸ (يبنون لك من أماكن)، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا (بسهولة): يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ⁶⁹ (7). وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ (ولأنتم في صحة جيدة)، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ (يُمد في أجله) إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ (الشيخوخة المتقدمة) لَكِي لَا يَعْلَمَ (وهو في أَرْدَلِ العمر) بَعْدَ عِلْمٍ (بعد أن كان ذا علم) شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ⁷⁰ (8). وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ (9)، فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ. أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ⁷¹ (10). وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (من نوعكم

6- معنى الآية: حياتكم متوقفة على ما خلقنا لكم مما تتغذون، أنتم عندما تجوعون تكونون قريبين من الموت، ثم تعود فيكم قوة الحياة عندما تأكلون، فكذاك شأن البعث!

7- المعنى: قد تمرضون فتشربون العسل فتشفون، والعسل من النحل الذي خلقه الله ويسر له سبيل إنتاج العسل... فكذاك البعث نهاية سلسلة من تدبير الله.

8- المعنى: أن الله يتوفاكم وأنتم قادرون على الحياة، ومنكم من يترك حيا وهو في أَرْدَلِ العمر، غير قادر على الحياة، حياة عادية، يصاب بخرف الشيخوخة، فا يتذكر ولا يعرف...

9- يميزون بين المال والرزق. فالمال هو الثروة، استهلكها صاحبها أو ترك منها، أما الرزق فهو ما منه كان معاشه. وبالجمله فالرزق هو ما انتفع منه صاحبه من ماله أو ما أعطيه. ومنه عبارة "أرزاق الجند": أي ما يعطونه لياكلوا، ويدخل فيها الميرة والدراهم.

10 - قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: "جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق مواليككم، وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا، فضل ما رزقتموه، عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم. كما يحكى عن أبي ذر أنه سمع النبي (ص) يقول: "إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون".

الإنساني) أَرْوَاجًا (نكروا وإنثا)، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ⁷² وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ⁷³! فَلَمَّا تَضَرَّبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالُ⁽¹¹⁾، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ⁷⁴.

6- يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ⁸³.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ (لا يملك شيئاً)، وَمِنْ رِزْقِنَاهُ مِنْهَا رِزْقًا حَسَنًا (كالإنسان) فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا، هَلْ يَسْتَوُونَ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ⁷⁵. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا: رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ كَلٌّ (ثِقَل) عَلَى مَوْلَاهُ، أَيْنَمَا يُوَجِّهْ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ! هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ⁷⁶. وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا أَمَرَ السَّاعَةَ إِلَّا كَلِمَةٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁷⁷. وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ⁷⁸. أَلَمْ يَرْوِ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ، مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ⁷⁹. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا (خياماً) تَسْتَخِفُّونَهَا (خفيفة) يَوْمَ ظَعْنِكُمْ (سفركم) وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ، وَمِنْ أَصْنَافِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثَاتًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ⁸⁰. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا (مخابئ)، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ (قمصاناً) تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ (بدروعاً)، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ⁸¹. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ⁸². يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ⁸³.

7- وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا... وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ!

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا (هو نبيها)، ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا (بالاعتذار)، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ⁸⁴ (لا نقاش معهم). وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ

11- قال الرازي: "يَحْتَمِلُ أَنْ عِبْدَةَ الْأَوْثَانِ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ إِلَهَ الْعَالَمِ أَجَلٌ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَعْْبُدَهُ الْوَاحِدُ مِنْهَا، بَلْ نَحْنُ نَعْبُدُ الْكَوَاكِبَ أَوْ الْأَصْنَامَ، وَهِيَ عِبِيدَةُ إِلَهِ الْكَبِيرِ الْأَعْظَمِ. وَالْدَّلِيلُ عَلَيْهِ الْعَرَفُ، فَإِنْ أَصَاغَرَ النَّاسُ يَخْدُمُونَ أَكْبَرَ حَضْرَةَ الْمَلِكِ، وَأُولَئِكَ الْأَكْبَارُ يَخْدُمُونَ الْمَلِكَ فَكَذَا هَهُنَا. فَعِنْدَ هَذَا قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: أَتَرْكُوا عِبَادَةَ هَذَا الْأَصْنَامِ وَالْكَوَكِبِ وَلَا تَضَرَّبُوا اللَّهُ الْأَمْثَالَ الَّتِي ذَكَرْتُمُوهَا."

فَمَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ، وَلَئِنْ هُمْ يُنْظَرُونَ⁸⁵ (بمهلون). وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ النُّقُولَ (فردوا عليهم) إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ⁸⁶. وَأَلْقُوا إِلَيَّ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ (استسلموا لحكمه) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ⁸⁷ (لم يجدوا ما كانوا يدعون من أن آلهتهم ستشفع لهم). الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ⁸⁸. (واذكر) يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (هو نبيهم). وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ! (وقد) تَزَلَّنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ⁸⁹.

8- إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ... وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ...

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ (الزنا) وَالْمُنْكَرِ (ما هو غير مقبول ديناً وعقلاً) وَالْبَغْيِ (الظلم)، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ⁹⁰. وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ (بقسمكم بالله) إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ (ما تعهدتم به بالقسم) بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا (حيث حلفتكم به)، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ⁹¹. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا⁽¹²⁾، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا (فساداً وخديعة) بَيْنَكُمْ (بسبب) أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ (قبيلة أو مجرد جماعة) هِيَ أَرْبَى (أقوى) مِنْ أُمَّةٍ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ⁹². وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَلَتَسْلُتَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁹³ (13). وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ (بصدودكم) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ⁹⁴. وَلَا تَشْتَرُوا

12- جمع نكث، من نكث العهد إذا لم يوف به. يقال: كانت بمكة امرأة تغزل في الصباح لزبون بسعر، فإذا جاءها بعده زبون بسعر أغلى نقضت عهدها ورمت بما غزلته وبدأت تغزل للزبون الجديد، وإذا جاء ثالث فعلت الشيء نفسه، وهكذا يكون عملها سلسلة من نكث العهد، بدون فائدة لها ولا غيرها. وكانوا يفعلون مثل هذا يتحالفون مع جماعة فإذا جاءت أخرى أقوى نكثوا عهدهم مع الأولى وتحالفوا مع هذه. وهذا ينطبق أكثر على القبائل.

13 - قال بعضهم معنى: "يضل من يشاء": يضل الله الشخص الذي يشاء الضلال واختاره، مثل الذي اختار عبادة صنم معين. أما الزمخشري فيقول: "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة"، حنيفة مسلمة، على طريق الإلجاء والاضطرار، طريق ممارسة القسر والقهر عليكم وهو قادر على ذلك. "ولكن" للحكمة اقتضت أن يضل "من يشاء" وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه، ويهدي من يشاء" وهو أن يلفظ بمن علم أنه يختار الإيمان.

بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، إِنَّمَا (إِنْ مَا) عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ⁹⁵. مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ¹⁴. وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ⁹⁶. مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ⁹⁷.

9 - وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ!

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ⁹⁸ (المطروود). إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ (نفوذ) عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ⁹⁹. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَكَّلُونَهُ (يُحِبُّونَهُ وَلِيَا عَلَيْهِمْ) وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ (بِاللَّهِ) مُشْرِكُونَ¹⁰⁰. وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (حِكْمًا أَوْ مُعْجِزَةً بِدَلْ أُخْرَى، مِنْ نَبِيِّ إِلَى آخَرَ)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ، قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ¹⁰¹. قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ (جَبْرِيلُ) مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِنُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ¹⁰². وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي، وَهَذَا لِسَانٌ

14- قال الرازي في هذه الآية: "اعلم أنه تعالى لما حذر في الآية الأولى (رقم 91) عن نقض العهود والإيمان على الإطلاق، حذر في هذه الآيات فقال: "وَلَا تَتَّخِذُوا إِيمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ"، وليس المراد منه التحذير عن نقض مطلق الإيمان، وإلا لزم التكرير الخالي عن الفائدة في موضع واحد، بل المراد نهى أولئك الأقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض إيمان مخصوصة أقدموا عليها، فهذا المعنى قال المفسرون: المراد من هذه الآية نهى الذين بايعوا رسول الله (ص) عن نقض عهده، لأن هذا الوعيد هو قوله: "فَتَزَلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا" لا يليق بنقض عهده قبله، وإنما يليق بنقض عهد رسول الله (ص) على الإيمان به وشرائه. وقوله: "فَتَزَلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا" مثل يذكر لكل من وقع في بلاء بعد عافية، فإن من نقض عهد الإسلام قد سقطت عن الدرجات العالية ووقع في مثل هذه الضلالة، ويدل على هذا قوله تعالى: "وَتَذُقُوا أَلْسُوءَ" أي العذاب: "بِمَا صَدَقْتُمْ" أي بصدقكم: "عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" أي ذلك السوء الذي تذوقونه سوء عظيم وعقاب شديد. ثم أكد هذا التحذير فقال: "وَلَا تَتَّخِذُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا" يريد عرض الدنيا وإن كان كثيرا، إلا أن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون، يعني أنكم وإن وجدتم على نقض عهد الإسلام خيرا من خيرات الدنيا، فلا تلتفتوا إليه. لأن الذي أعهد الله تعالى على البقاء على الإسلام خير وأفضل وأكمل مما يجدونه في الدنيا على نقض عهد الإسلام إن كنتم تعلمون التفاوت بين خيرات الدنيا وبين خيرات الآخرة". وأضاف الرازي "ثم ذكر الدليل القاطع على أن ما عند الله خير مما يجدونه من طيبات الدنيا فقال: "مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٌ" الخ. قلت (الجابري): وهذا الذي يقوله الرازي ينتهي بأن المقصود هو طيبات الآخرة، وبالتالي فالمفكر فيه عنده كان خاليا من استحضار ظروف نزول هذه السورة. أما نحن فنرى أن الخطاب هنا يستحضر وعد وفد يثرب للرسول، وقد شرحناه أعلاه، ويحذرهم من أن ينكثوا بما تعهدوا به للنبي (ص) بتأثير الحملة التي كان يقوم بها كبار قريش، وكان فيها إغراء وتهديد.

عَرَبِيٌّ مُبِينٌ¹⁰³. (15) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ¹⁰⁴. إِنَّمَا يَقْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ¹⁰⁵. مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ، إِنَّا مِنْ أَكْرَدِهِ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ¹⁰⁶، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْنَاهُمْ غَضَبًا مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ¹⁰⁶. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ¹⁰⁷. أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَارِهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ¹⁰⁸. نَا جَرِمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ¹⁰⁹. ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ¹¹⁰ (17) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادُلٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ¹¹¹.

15 - عن ابن عباس قال: كان رسول الله (ص) يعلم قينا بمكة اسمه بلعام وكان أعجمي اللسان وكان المشركون يرون رسول الله (ص) يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله: 'وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ' الآية. وعن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان: أحدهما يقال له: يسار، والآخر: جبر، وكانا صيقليين (يشحذان السيوف)، فكانا يقرآن كتابهما ويعلمان علمهما، وكان رسول الله (ص) يمر بهما فيسمع قرأتهما، فقالوا: "إنما يتعلم منهما".

16 - قيل: إن ناساً من أهل مكة أسلموا ثم ارتدوا عن الإسلام تحت التعذيب، فأجروا كلمة الكفر على ألسنتهم وهم معتقدون للإيمان، منهم عمار، وأبواه ياسر وسمية وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم: فأما سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجيء (أدخل) في قلبها بحربة، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام. وأما عمار فقد أعطاه ما أرادوا بنسائه مكرهاً، فقيل يا رسول الله، إن عساراً كفر، فقال: "كلا، إن عماراً ملئ عيماً إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه". فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل النبي (ص) يمسح عينيه وقال: "ما لك؟ إن عادوا لك فعد لهم بما قلت". ومنهم جبر مولى الحضرمي أذره سيده فكفر ثم أسلم مولاه وأسسم، وحسن إسلامهما، وهاجرا. ذكر القرطبي هذه الرواية عن ابن عباس وأضاف إليها روايات ليست ذات بال ثم خلاص إلى النتيجة التالية. قال: "لما سمع الله عز وجل بالكفر به، وهو (نقض) أصل الشريعة، عند الإكراه ولم يؤاخذ به، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب عليه حكم؛ وبه جاء الأثر المشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم: 'رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه' (حديث). ثم أخذ هذا المبدأ بعد ذلك يطبق على حالات معينة...

17 - القرطبي: 'قيل نزلت في ابن أبي سرح، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة، فاستجار بعثمان فأجاره النبي صلى الله عليه وسلم... وهذا لا يستقيم إلا إذا قلنا إن هذه الآية نزلت في المدينة وبعد فتح مكة وهذا التاريخ لا يستقيم مع الطابع المكي للسورة. أما إذا احتفظنا لهذه الآية بموقعها في سورة النحل المكية فإن الإشارة هنا ستكون للمهاجرين إلى الحبشة، أو يكون معنى 'هاجروا' هنا: أرغوا على ترك الإسلام، كما اضطر المهاجرون إلى الحبشة على ترك بيوتهم وأولادهم...'

10- إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ

وضرب الله مثلا: قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ (مثل أهل مكة)، فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ¹¹² (عندما جاءهم القحط). وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ (القحط) وَهُمْ ظَالِمُونَ¹¹³. (هذا المثل ضرب لأهل البادية مرتادي الأسواق، والخطاب التالي لهم) فَكُلُوا مِنْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ¹¹⁴. إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ¹¹⁵. وَلَا تَقُولُوا، لِمَا تَصِفُ السِّتَنُكُمْ، الْكَذِبَ: هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ، لَتُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ¹¹⁶. (الكَذِبُ) مَتَاعٌ قَلِيلٌ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ¹¹⁷. وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا (اليهود) حَرَمًا مِمَّا قُصِّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ¹¹⁸، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ¹¹⁹. ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ (كبدو العرب)، ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا، لَغَفُورٌ رَحِيمٌ¹²⁰. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ (جد العرب) كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ، حَنِيفًا، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ¹²¹؛ شَهِيرًا لِنِعْمِهِ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ¹²². وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ¹²³. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ: أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ¹²⁴. إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ²⁴ (20).

يُزِيدُ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ: "مَنْ بَعْدَ مَا فَتَنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا"، فَالْهَجْرَةُ بَعْدَ الْفِتْنَةِ ثُمَّ الرَّجُوعُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْجِهَادُ وَالصَّبْرُ عَلَى أَدَى الْمُشْرِكِينَ أَنْسَبُ هُنَا مِنْ قَوْلِهِمْ إِنْ فَلَانَا ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالْمُشْرِكِينَ. وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَقْصُودُ مَنْ هَاجَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَبْلَ هَجْرَةِ النَّبِيِّ كَمَا سَنَرَى.

18 - لَا تَقُولُوا هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَصِفُونَهَا بِهَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ، تَنْسِبُونَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، إِنَّهُ افْتَرَأَ مِنْكُمْ عَلَيْهِ. الْخُطَابُ لِلْبُدُو مِنَ الْعَرَبِ.

19 - فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ الْأَسْبَقُ نَزُولًا.

20 - وَجِهَ اتِّصَالُ هَذِهِ الْآيَاتِ بِبَعْضِهَا وَاضِحٌ خُصُوصًا إِذَا اسْتَحْضَرْنَا مَا قُلْنَاهُ قَبْلَ مِنْ كَوْنِ الْخُطَابِ هُنَا يَنْدَرُجُ فِي إِطَارِ الدَّعْوَةِ وَسَطِ الْقِبَالِ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْمَوَاسِمِ. فَبَعْدَ أَنْ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا بِمُشْرِكِي مَكَّةَ وَكَفَرَهُمْ بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ (عَائِدَاتِ الْحَجِّ وَالتَّجَارَةِ) الَّتِي أَبْرَزَهَا غَيْرُهَا مَرَّةً إِضَافَةً إِلَى تَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ... اتَّجَهَ (الْخُطَابُ) إِلَى أَهْلِ الْقِبَالِ قَائِلًا: "فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، حَلَالًا طَيِّبًا، وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمُ الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ فِي الْأَكْلِ، وَأَشَارَ إِلَى مَا حَرَّمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ كَانَ أَشَدَّ وَثَقُلَ لَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا، وَبَعْدَ أَنْ أَشَارَ إِلَى أَنَّ مَنْ أَكَلُوا الْمَحْرَمَاتِ أَوْ حَرَمُوا الْحَلَالَ مِنَ الْعَرَبِ =

12- خاتمة: ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة...

ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وبما يهيم
الأسواق والقبائل) يأتي في آيتين. إن الله هو أشد من علم عن سبيله وهو
أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ¹²⁵. وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ
خَيْرَ لِلصَّابِرِينَ¹²⁶. والصبر وما مضى. إن الله. وقد تحلى عليهم (على
مشركي قريش لكونهم لا يبرحون). ولم تكن في سبيل بئس ما يشررون¹²⁷. إن الله مع
الذين اتقوا، والذين هم صابرون¹²⁸.

- تعليق

قد يلاحظ أن هذه السورة تكرر كثيراً مما سبق في السور السابقة... وإضافة إلى
ما قلناه من قبل عن التكرار في القرآن عموماً من حيث أن الأمر يتعلق بخطاب دعوة
تزل مفرقا على مقتضى الأحوال خلال أزيد من عشرين سنة. فإنه من الضروري
إبراز أن المخاطبين هنا ليسوا سكان مكة وحدهم، بل هم في الغالب أناس جدد، هم
القبائل العربية التي تتراد الأسواق في مكة وقريبا منها وكانت كثيرة، في وقت كان
النبي عليه السلام قد استأنف الدعوة فيها. وكما بينا في التقديم الذي خصصناه
للسورة السابقة (الكهف) فقد كان من نتائج اتجاذ الرسول عليه السلام إلى القبائل أن
عمدت قريش إلى الاستعانة بيهود يثرب فطلبت منهم وسيلة لإحراج النبي وإظهار ما
يدعونه من أنه إنما يأتي بالقرآن من عنده وأنه ليس من الله، فكان أن أمدهم اليهود
بأسئلة اختبارية، وقد جاء الجواب عنها عكس ما أرادت قريش، لقد جاء الجواب

قبل إسلامهم إن يؤخذوا بذلك لأنهم فعلوا ذلك عن جهل، ذكرهم بإبراهيم عليه السلام جد
العرب وأنه كان "أمة قانتا لله، حنيفا، ولم يكن من المشركين"، أي كان أصل هذا الدين،
"شيخ الأنبياء" ملازما لعبادة الله موحدا لم يشرك بالله أحدا بل ثار على الأصنام... وأن الله
أوحى إلى محمد باتباع دين إبراهيم، وربما سألوه عن يوم السبت عند اليهود، فجاء
الجواب: "إن يوم السبت" جعل يوما دينيا خاصا باليهود كلّفوا فيه بثقل العبادة والأعمال،
وهم مختلفون في تبرير ذلك وتحديده، والله سيحكم بينهم...

21- فسر معظم المفسرين هذه الآية بأحداث ومناسبات وقعت بعد الهجرة إلى المدينة
والسورة مكية. وفي رأينا أنه ليس هناك ما يبرر هذا النوع من التفسير فالسورة مكية
وسياق الآية منسجم مع ما قبلها وما بعدها والخطاب واقع تحت قوله تعالى: ادعُ إلى سبيل
ربك بالحكمة والموعظة الحسنة... ثم إن احتمال حدوث نزاع بين المسلمين ومشركي مكة
أو مرتادي المواسم والأسواق احتمال قائم.

عنها لفائدة الدعوة فكانت مادة لنشر الدعوة فضلا عن كونها أجابت اليهود بما يثبت نبوته.

كانت السورة السابقة إذن نوعا من "انقلاب السحر على الساحر"، وبالتعبير القرآني "يكيدون وأكد كيدا". أما في هذه السورة فقد اتجه الخطاب، لا إلى قريش التي لم يعد الأمل في استجابتها للدعوة بعد أن أصرت سنين على الإعراض عنها ويات من الصعب جدا على رجالها التراجع والاعتراف بالهزيمة، بل اتجه الخطاب القرآني هنا في سورة "النحل" إلى من هم من عالم "تربية النحل"، إلى العرب سكان الأرياف والبادية. يتجلى ذلك واضحا من اتجاه الخطاب ومفرداته. فالشهادات التي تقدمها السورة في موضوع أركان العقيدة الإسلامية الثلاثة (النبوة والمعاد والتوحيد)، مأخوذة في الأغلب الأعم من عالم الأرياف والبادية : سخر لكم الأنعام، والخيل والبغال والحمير... والماء والشجر الخ، وقد تكررت في السورة مرارا.

ومما تجدر ملاحظته أن السورة التي نزلت مباشرة بعد سورة "الحجر" -التي جاءت بالأمر بالدعوة في أواسط القبائل ("اصدع بما تؤمر") قبل الحصار قد سميت بـ "سورة الأنعام" (إشارة على عالم القبائل) وقد وردت فيها أحكام تتعلق بحياة القبائل: الحلال والحرام، الماشية، عادات العرب الخ. واليوم بعد أن استأنف الرسول الدعوة في الأسواق، بعد الحصار، تأتي هذه السورة التي بين يدينا وهي تحمل اسما يحيل إلى عالم الأرياف والبادية "النحل"، وتتضمن أحكاما مؤكدة ومكملة لما ورد في السورة السابقة (يتعلق الأمر بصفة خاصة بالعدل والإحسان، وتجنب الفحشاء والمنكر والبغى، والوفاء بعهد الله، وعدم نقض الأيمان أو التلاعب بها...)، كما ذكرت قضايا مطروحة في البادية خاصة، قضية المساواة في الرزق، الشيء الذي ليس من مجال الملأ من قريش الذي يكسبون ثروتهم من عائدات الحج والتجارة، وتسخير الموالي والعبيد. وأخيرا تتميز هذه السورة بخاتمها التي تناسب الدعوة في البادية والأرياف: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ¹²⁵. وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ صَبِرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ¹²⁶."

وهنا تستعيد الخاتمة مضمون المقدمة: إِنْ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي الْخَاتَمَةِ: وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَمَّا تَحَزَنَ عَلَيْهِمْ (على مشركي قريش)، وَلَمَّا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ¹²⁷. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ¹²⁸، يذكرنا بقوله في بداية السورة: "أَتَى أَمْرُ اللَّهِ (بمعنى نصر الله باستجابة وفد يثرب) فَلَمَّا تَسْتَعْجِلُوهُ". ولا بد من الإشارة إلى أن الدعوة إلى الصبر قد تكررت في هذه السورة خمس مرات: في الآيات 42، 96، 110، 127. هذا له مغزاه: هناك فرج آت فلا بد من الصبر...

72- سورة إبراهيم

- تقديم

لم يرد في شأن هذه السورة شيء على مستوى مرويات أسباب النزول غير روايات ذكرها الطبري حول قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ" (الآية 28). من هذه الروايات واحدة جاء فيها أن الخليفة عمر بن الخطاب سئل عن المقصود بهذه الآية فأجاب: "هما الأفجران من قریش: بنو المغيرة، وبنو أمية. فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين". وقد ذكر الطبري رواية أخرى تقول إن علي بن أبي طالب سئل السؤال نفسه فأجاب: "بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فقطع الله دابرهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين". وقد أخذ بهذا التفسير اعتمادا على تلك الروايات - نقلا عن الطبري - بعض المفسرين مثل الزمخشري من المتقدمين، والألوسي من المتأخرين.

وواضح أن هذا النوع من التفسير ذو بعد سياسي واضح، إنه والروايات التي اعتمدها ينطوي على قبح مغرض في بني أمية، وهو شيء غير مستقيم مع الآية وغير موضوعي. ذلك أن السورة التي وردت فيها هذه الآية مكية، أما غزوة بدر فقد وقعت في العهد المدني. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليس من المستساغ أن يقدح عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب في بني أمية وأن يساويا بينهم وبين بني مخزوم في وقت لم يكن فيه بنو أمية قد برزوا بعد كطرف في الفتنة التي حدثت عقب مقتل عثمان. أما قتلى بدر فأغلبهم أو على الأقل أهمهم كانوا فعلا من بني مخزوم أما بنو أمية فمعروف أن أبا سفيان عميدهم -والذي كان يرأس قافلة قریش التجارية، التي كانت عائدة من الشام ومستهدفة من المسلمين بقيادة الرسول في بدر- لم يحضر غزوة بدر فقد تلافى اللقاء مع المسلمين وعاد إلى مكة من طريق أخرى. هناك عنصر آخر وهو أن موقف أبي سفيان وقومه من الدعوة المحمدية لم يكن في مستوى سوء موقف أبي جهل والمخزوميين. فقد سبق أن رأينا أبا سفيان يرد على أبي جهل في تعرضه واستهزائه بالرسول، مدافعا عن الرسول لكونه من بني عبد مناف القبيلة التي يلتقي عندها بنو هاشم وبنو أمية.

أما أن يقول عمر بن الخطاب في بنى أمية ما تسببه هذه الرواية السابقة، وهو خبيث، فهذا إما لا يستلزم ولا ينافي، فقد كان عدو من الأمويين عدلاً له، وسنجد معوية الذي كان عدلاً على الشام، وأذن فالرواية التي اعتمدها الطبري رواية موضوعية بدون شك، ولا بد أن تكون قد وضعت أثناء الصراع بين الأمويين والعباسيين، الصراع الذي تحالف فيه هؤلاء مع العلويين، فيكون الجمع بين عمر وعمر في رواية واحدة ضد الأمويين مفهوماً زمن الطبري، العصر العباسي...

أما نحن فنرى أن ظروف نزول هذه السورة، ظروف الدعوة في القبائل والاسواق، تقتضي أن الخطاب الموجه إلى النبي عليه السلام في هذه الآية: "ألم ترى..." موجه كذلك إلى أهل القبائل الذين كان يدعوهم النبي إلى الإسلام، فعندما كانت الدعوة المحمدية محصورة في مكة كان خطابها موجهاً إلى قريش يدعوهم إلى الاعتراف بما منحهم الله من نعم وما حص به مئة مسكنهم "فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أضغنهم من جوع وأستهم من حرّ" (قريش 3-4)، أما عندما رفضوا الدعوة وأصرّوا على محاربتها وكفروا بالنعم التي أنعم الله بها عليهم فإن "الأسن من الجوع ومن الخوف أخذ ينقلب إلى سنوات من الجفاف وإلى وعيد، أضف إلى ذلك بدء انتشار الإسلام بين العرب مما أخذ يقتل من هبة قريش وسطوتها، وهكذا "أحلوا قلوبهم دار النوار" (دار الكساد، لا نعمة فيها).

لقد توقفنا بعض الشيء مع الرواية التي وضعت للآية المذكور لننبه إلى أن التفسير والحديث قد تأثرا كثيراً بالصراعات السياسية، وأن "فهم القرآن" لم يكن مقتولاً بسبب اتباع المفسرين ترتيب المصحف دون ترتيب النزول فحسب، بل كان مقتولاً كذلك من حيث إن المفسرين كانوا يعتمدون -عن قصد أو عن غير قصد- روايات وتأويلات بعيدة، متأثرة بالصراعات التي حدثت في ظروف بعيدة كل البعد عن العصر النبوي.

- نص السورة

1- مقدمة: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...

بسم الله الرحمن الرحيم
الرَّ كِتَابٍ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ⁽¹⁾ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ: اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ

1 - سنناقش هذه المسألة في التعليق.

من عذاب شديد: الَّذِينَ يَسْتَحْيُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا (الناس) عِوَجًا أَرْتَدَّ فِي نُفُوسٍ بَعِيدَةٍ. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا يَدْعُوهُ لِقَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ (2) فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. (3) وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

2- قال الكفار: لن سلهم سنخز حكم من أرضنا إن لم تعبدوا ربنا.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (4) وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ (ما كان فيها من نعم ومحن). إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِكُلِّ صَبَّارٍ

2- "زعمت طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية أن محمداً رسول الله، لكنه مبعوث إلى العرب لا إلى سائر الطوائف، وتمسكوا بهذه الآية من وجهين: الأول: أن القرآن لما كان نازلاً بلغه العرب ثم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة إلا العرب، وحينئذ لا يكون القرآن حجة إلا على العرب، ومن لا يكون عربياً لم يكن القرآن حجة عنده. الثاني: قالوا: إن قوله: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ" (إبراهيم: 4) المراد بذلك اللسان لسان العرب، وذلك يقتضي أن يقال: إنه ليس له قوم سوى العرب، وذلك يدل على أنه مبعوث إلى العرب فقط. وقد أجاب الرازي الذي أثار هذه المسألة بما يلي، قال: لم لا يجوز أن يكون المراد من "قومه"، أهل دعوته، وليس أهل بلده. والدليل على عموم الدعوة قوله تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا" (الأعراف: 158) بل إلى الثقلين، لأن اتحدى كما وقع مع الإس قد وقع مع الجن بدليل قوله تعالى: "قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" (الإسراء: 88).

3- سبق أن شرحنا الخلاف في هذا الموضوع. بين أهل السنة والأشاعرة من جهة، والمعتزلة من جهة أخرى. وبناء عليه، قال الزمخشري في معنى هذه الآية: "لأن الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن. ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن. والمراد بالإضلال التخليع ومنع الأنطاف، وبالهداية التوفيق واللطف، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان". أما نحن فنرى أن ظروف نزول الآية، ظروف الاتجاه بالدعوة إلى العرب في المواسم والأسواق يسمح بافتراض أن الخطاب في هذه الآية موجه إلى هؤلاء العرب، أعني قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ"، وبالتالي يكون المعنى "من يشاء الهداية من العرب" ومن يشاء الضلال منهم"، وذلك في مقابل قريش الذين قالت فيهم الآية السابقة لهذه: "الَّذِينَ يَسْتَحْيُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ".

4- مما تنبغي ملاحظته أن هذه أول مرة في القرآن المكي يتجه موسى إلى قومه بهذه الصيغة التي تماثل خطاب الرسول محمد عليه السلام إلى قومه. لقد كان خطاب موسى من قبل موجهاً إلى فرعون في إطار قصته معه كرسول من الله إليه، ولم يرد من قبل خطاب إلى موسى مستقل عن هذه القصة وموجهاً لبني قومه مباشرة. أما في القرآن المدني فالأمر يختلف كما سنرى. ومن هنا يمكن القول إن مناسبة نزول هذه الآية لها علاقة بانحياز اليهود في المدينة إلى قريش من خلال الأسئلة الثلاثة التي أوصوا قريشاً بطرحها على=

شُكُور⁵. وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ (يَسْتَبِقُونَ) نِسَاءَكُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ⁶. وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ (أَعْلَمَكُمْ) لَنْ شَكَرْتُمْ لِلرَّبِّدِكُمْ، وَلَنْ كَفَرْتُمْ إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ⁷. وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِي حَمِيدٌ⁸. أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ: قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودُ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ (لِيَعْصُوا عَلَيْهَا مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ)، وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ⁹. قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ، فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى؟ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا، تَرِيدُونَ أَنْ تَصْنَعُوا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَاتُّوْنَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ¹⁰. قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ¹¹. وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آتَيْتُمُونَا، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ¹². وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ¹³. وَلَنَسُكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ، نَظَرًا لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٌ¹⁴. وَاسْتَغْفِرُوا (اسْتَغْفِرَ الرُّسُلَ بِاللَّهِ عَلَىٰ خُصُومِهِمْ) وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَظِيمٍ¹⁵: مِنْ وَرَائِهِ (أَمَامِهِ) جَهَنَّمُ وَيَسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَنِيدٍ¹⁶ (فِيهِ وَدَمٌ) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ، وَمِنْ وَرَائِهِ (أَمَامِهِ) عَذَابٌ غَلِيظٌ¹⁷.

3- الَّذِينَ كَفَرُوا: أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .

مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ¹⁸. أَلَمْ تَرَىٰ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ¹⁹؟ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ²⁰. وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) فَقَالَ الصُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ (فِي الدُّنْيَا) تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا (هَذَا فِي الْآخِرَةِ) مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ، سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرَعَا أَمْ صَبَرْنَا، مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ²¹ (مَلْجَأٍ). وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَمَا كَانَ

النبي عليه السلام بغرض إخراجها، الأسئلة المتعلقة بأهل الكهف وذي القرنين (سورة الكهف) وحقيقة الروح.

لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ (بمعنيكم) وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ²². وَأَنْخَلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ، تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ²³.

4- أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ!

أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ²⁴ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا! وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْمَثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ²⁵. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ²⁶. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ²⁷. أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ²⁸ (دار الكساد، لا نعمة فيها)⁽⁵⁾: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ²⁹. وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا (قريش تضل الناس : العرب) عَنْ سَبِيلِهِ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ³⁰. قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا (حديثاً: من العرب) يَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بِنِعْعِ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ³¹ (ولا تبرع). اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ³²، وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَاتَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ³³. وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ³⁴.

5- إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ³⁵ (أبعدنا من عبادتها). رَبِّ إِنِّي أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَاتَّبِعْنِي مِنْ أَعْصَابِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ³⁶⁽⁶⁾. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي (من زوجته هاجر وإسماعيل) بَوَادِ

5- مع أن هذه الآية يطبعها العموم فلا شيء يمنع من أن يكون كفار قريش من بين عناصر هذا العموم، أما جعلها خاصة بفريق من مشركي قريش، هم الذين سيقتلون في غزوة بدر فلا شيء يبرره لا على مستوى اللفظ ولا على مستوى السياق (انظر التقديم).

6- اختلف المفسرون في هذه الآية. قال الطبري: "ومن خالف أمري فلم يقبل مني ما دعوته إليه، وأشرك بك، فإني غفور لذنوب المذنبين الخطائين بفصلك، رحيم بعبادك تغفو عن تسيء"

غَيْرَ ذِي زَرْعٍ (مكة) عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْتَدَ مِنَ النَّاسِ
(وفي مقدمتهم العرب القبائل) تَهْزِي إِلَيْهِمْ رَأْسَافَهُمْ مِنَ الشَّجَرَاتِ نَعْبُدُ بِسُتُرُونِ.³⁷
رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْنِي، وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ.³⁸ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ.³⁹ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ⁴⁰. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي
وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ.⁴¹

6- وَلَمَّا تَحَسَّنَ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ...

وَلَمَّا تَحَسَّنَ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ (أهل مكة)، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخِصُ
فِيهِ الْأَبْصَارُ.⁴² مُهْطِعِينَ (مسرعين) مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ لَمَّا يَرْتُدُّ إِلَيْهِمْ طَرَفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ
هُوَ⁴³. وَأَنْذَرَ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا (مشركو مكة) رَبَّنَا أَخْرَبْنَا
إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبَ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرَّسُولَ! (وجوابهم): أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ
مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ⁴⁴ (من الدنيا)؟ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ⁽⁷⁾ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ

منهم". وقال الزمخشري: "أغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا لي فيه واستحدث الطاعة لي".
وقيل: معناه ومن عصياني فيما دون الشرك". وقال القرطبي: "وقيل: غفور رحيم لمن تاب من
معصيته قبل الموت". وقال الرازي: ثبت أن هذه الآية شفاعة في إسقاط العقاب عن أهل الكبائر
قبل التوبة، وإذا ثبت حصول هذه الشفاعة في حق إبراهيم عليه السلام ثبت حصولها في حق
محمد صلى الله عليه وسلم". وقال ابن عاشور: "والمعنى ومن عصياني أفوض أمره إلى رحمتك
وغفرتك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصي... أما نحن (الجبابرة) فنرى أن السياق
والظروف التي نزلت فيها الآية يسمحان بفهم قوله تعالى: "فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي
فَلَيْكَ غُفُورٌ رَحِيمٌ، عَلَى اعْتِبَارِ أَنْ "مَنْ تَبِعَنِي" يعود على "بَنِي" في قوله (وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ). أما
قوله "رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ" فهو خبر وليس داخلا في الدعاء. وبالتالي فالمعنى: "إن
من لم يتبعني من بني وذررتي وتابع آخرين وعبد الأصنام تقليدا أو جهلا (مثل تبعية أهل
القبائل من العرب لقريش أو لغيرهم) فإن باب مغفرتك ورحمتك مفتوح أمامهم إن هم آمنوا. وهذا
موقف يغلب فيه الخصوص، فالخطاب ورد على لسان إبراهيم والمعنى به هم أهل القبائل العربية
بوصفهم من ذرية إبراهيم. وبالتالي فالقصد هنا هو حث أهل القبائل على الاستجابة للدعوة. وهذا
من باب الترغيب. وبالتالي ففقوال المفسرين المذكورة أعلاه تنفع خارج السياق، لأن القران
المرفقة للآية تدل كلها على الخصوص، فلا ضرورة بل ولا مجال لطرح مسألة مرتكبي الكبائر
والشفاعة الخ.

7- جميع المفسرين يذهبون إلى أن معنى السكنى هنا الإقامة، والذين ظلموا هم قوم ثمود
وعاد الذين كانت قريش تمر على مساكنهم في أسفارها إلى الشام واليمن. هذا في حين أن
هذه المساكن كانت مجرد أطلال زمن العرب المخاطبين. ولتلافي هذا التناقض قال ابن
عاشور إنهم كانوا ينزلون فيها كمحطات حين السفر. ونحن نرى أن السياق لا يزكي هذا=

كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَالَ⁴⁵. وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ (قريش مكرت وتآمرت) وعند الله مكرهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال⁴⁶ (8). فَمَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مَخْلُفًا وَعِدَهُ رَسُولُهُ (بأنه يحفظهم من مكر خصومهم)، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ⁴⁷: يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، وَبَرَزُوا (يبرزون) لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ⁴⁸، وَتَرَى (يا محمد) الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ⁴⁹ (هم وقرنائهم في القيود والأغلال) سَرَابِيلُهُمْ (قمصانهم) مِنْ قَطْرَانٍ (نحاس)، وَتَعْشَى وَجُوهُهُمْ النَّارُ⁵⁰، لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ⁵¹.

7- خاتمة: هَذَا بَلَاغٌ لِأَهْلِ الْقِبَائِلِ، وَلِيُنْذِرُوا بِهِ ...

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ (المخاطب بـ"الناس" هنا هم أهل القبائل) وَلِيُنْذِرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلِيَذْكُرُوا أَوْلُوا الْآلِيَابِ⁵².

- تعليق

طرحنا مقدمة هذه السورة ثلاثة أفكار:

الفكرة الأولى أن القرآن كتاب منزل من عند الله، والهدف منه إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

الفهم ولا ذاك. ذلك أن الخطاب هنا موجه للنبي عليه السلام "وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ"، والناس هنا هم قريش بالتحديد. والله يقول لهم، في الآخرة: "أَوَلَمْ نَحْنُوا (يا قريش) أَقْسَمْتُمْ مِنْ قِيلَ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ"، أي أنكروا البعث واعتقدتم بخلودكم كبشر (من خلال تناسلكم الذي لا نهاية له) فقلتم "مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا". ثم أضاف "وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ"، والمعنى في نظرنا: "سكنتم" من السكون، أي تمسكتكم بموقف الذين ظلموا لأنهم ينكرون ليس البعث وحسب، بل ينكرون وجود الله فقالوا "وَمَا يَهْدِيهِمْ إِلَّا الدَّهْرُ" (الجاثية 24)، لقد تمسكتكم بهذا الموقف وجمدتم عليه، مع أننا بينا لكم كيف فعلنا بهم، إذ أهلكناهم بالصواعق فما عادوا يتناسلون، ثم ضربنا لكم الأمثال حول حقيقة الدنيا. من هذه الأمثال: تشبيهها بالنبات الذي لا بد أن يأتي عليه يوم يصير هشيما فيرى الله الأمطار فيبعث النبات من جديد كما كان".

8- المعنى: صنعوا مكرًا عظيمًا في مستوى أن ترتفع منه الجبال. والمكر في القرآن ينصرف معناه إلى الحيلة وما أشبهه... ويذكرون في هذا المجال خرافة قديمة من الموروث الفارسي مفادها أن نسورا ارتفعت بتايوت رجل وضع نفسه فيه وصعدت به إلى السماء بعيدا مما أذهل الجبال وأخذت ترتعد. والإشارة إلى هذه الخرافة التي كانت معروفة عند العرب تعني أن المكر الذي مكروه هو مؤامرة على قتل الرسول (ص)، المؤامرة التي لو نبت وتمكنوا من قتله لكان وقعها أشبه بوقع ذلك التايوت الذي حملته النسور بعيدا فوقها.

الثانية أن الذين يفضلون الحياة الدنيا على الآخرة "وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا"، وهم قريش، هم في "ضلال بعيد"، ولذلك فهم لا يريدون الخروج من الظلمات إلى النور لأن ذلك ليس من مصلحتهم كما يفهمونها.

الثالثة أن الله ما بعث من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم: "فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ"، الضلال، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ الهداية.

وحول هذه الأفكار الثلاثة بوصفها تشكل بنية خطابية واحدة يدور هذا التعليق.

نتكرر القول أولا إن هذه هي المرة الأولى -حسب ترتيب النزول- الذي نتبعه - التي يخاطب الله رسوله الكريم فيها بهذه العبارة: "تُخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ". لقد ورد اللفظان (ظلمات ونور) مرات عديدة من قبل، منفصلين، وضمن سياقات واضحة لا تطرح أي إشكال. والغالب ما يتضح المعنى المقصود باللفظين بمجرد الرجوع إلى السياق الذي يصرفهما إلى المعنى اللغوي (ظلام الليل في مقابل ضوء النهار) أو إلى دلالة مجازية ترتبط بالشؤون المعنوية (مثل الجهل في مقابل العلم، والإيمان في مقابل الكفر الخ). هذا بصورة عامة. أما هنا، في السورة التي نحن ضيوف عليها، فالجديد فيها هو وصفها لمخاطبيها (الناس): وهم القبائل العربية تحديدا كما سيتضح بعد) يكونهم في وضعية "الظلمات"، وأن مهمة الكتاب/القرآن هو إخراجهم إلى وضعية النور. فكيف نفهم معنى "الظلمات" و"النور" في هذه الآية؟

كثيرا ما يكرر الناس أن القرآن يشرح بعضه بعضا، ونحن قد فعلنا الشيء نفسه، وأعلنا مرارا عن اتخاذنا لهذه المقولة، منهجا لطلب الفهم وأساسا للرؤية؟ فكيف يمكن أن نتعامل مع هذه الآية الكريمة على هذا الأساس؟ جميع المفسرين يشرحون "الظلمات" بـ "الكفر"، و"النور" بـ "الإيمان" في هذه الآية، ويلتمسون لهذا النوع من الشرح ما يزيكه من المعاني المجازية التي يستعمل فيها اللفظان في اللغة العربية، مع ربط مأل "الظلمات" بالضلال في الدنيا وبالعذاب في الآخرة، ومأل "النور" بالهداية في الدنيا والنعيم في الآخرة. وهذا صحيح على مستوى العموم، مستوى المبدأ العام الذي يقرره القرآن، كواحد من أركان العقيدة. غير أن منهج "القرآن يشرحه القرآن" لا يعني أنه منهج يقع على مستوى "العام" وحده، وإلا كانت هذه المقولة فارغة من المعنى، أي مجرد تكرار لفظ القرآن. القرآن يشرحه القرآن معناه أن القرآن أنواع من الأقاويل ينظمها معنى كلي، منه تستقي الأجزاء ما فيها من المعنى الكلي، باعتبار أن في كل جزئي أو في كل خاص شيء من الكل أو العام (الشجرة مفهوم كلي، وهذه النخلة أحد أفراد هذا الكلي وفيها "معنى الشجرة" وليس معنى الزرافة مثلا) هذا جانب. لكن ثمة جانب آخر وهو أن في جميع الأقاويل -بما

فيها الخطاب القرآني- ما هو متشابه، وفي هذه الحالة فالمعنى الخاص في كل عبارة قد يعبر عنه خاص آخر يشبهه، وبالتالي فقولنا: "القرآن بشرحه القرآن" معناه أن بعض القرآن يجد معناه في بعض آخر منه. وهذا في الحقيقة هو معنى وصفه تعالى للقرآن بكونه "متشابهاً مثاني" (الزمر 23) : يشبه بعضه بعضاً وبشيء، أي يكون بعضه بمنزلة "الثاني" بالنسبة لبعض آخر منه يكون بمنزلة "الأول" له.

هذا المعنى (المتشابه المثاني) نجده في الآية التي نحن بصدددها. فقولته تعالى: في الآية الأولى من هذه السورة كَتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ يجد شبيهه المثني له في الآية الخامسة من السورة نفسها حيث نقرأ قوله تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ". وواضح أن المقصود بـ"آياتنا" هنا هو تلك الآيات التسع "الخارقة للعادة" التي مكن الله موسى منها في صراعه مع فرعون. أما "الظلمات" فهي الوضعية التي كان عليها بنو إسرائيل تحت استبداد فرعون وطغيانه، وأما "النور" فهو إخراجهم من تلك الوضعية والذهاب بهم إلى فلسطين... يتعلق الأمر إذن بالانتقال من وضعية مادية (فقر، قهر، استبداد) إلى وضعية أخرى مادية وهي التحرر من طغيان فرعون والرجوع إلى "الوطن الموعود". إن المعنى الكني أو "العام" حاضر في هذه الآية، ففرعون كان كافراً بالله كفر كينونة وكفر نعمة، لكن مهمة موسى لم تكن مقتصرة على دعوة فرعون إلى الإيمان بالله رب العالمين، لم تكن محصورة على هذا المستوى المعنوي (العقيدة)، بل كانت محددة بالخصوص في الجانب المادي، أي إخراج بني إسرائيل من مصر. فقد أمر الله موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون: "فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" (الشعراء 16-17).

هناك جانب آخر في الموضوع، وهو أن الصلة بين الفقرة الثانية من السورة (الآية الخامسة) ستبقى غير مفهومة بدون ربطها بكل من: أولاً: الفقرة الأولى (الآية الأولى)، ثانياً: الفقرة الرابعة التي تبتدئ بقوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ" وبين ما قبلها وما بعدها، ثالثاً: الفقرة الأخيرة التي سميناها "خاتمة" أعني قوله تعالى: "هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ، وَلِيُنذِرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أَوَّلُوا الْأَلْبَابَ"، وبين ما سبقها.

لنقل باختصار إن فهم السورة ككل يتوقف على فهم معنى ومعزى قوله تعالى: "كِتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ". لقد سبق أن قلنا إن هذه هي المرة الأولى -حسب ترتيب النزول- التي ترد فيها هذه العبارة، فلا بد إذن أن يكون هناك ما يبرر نزولها في الوقت الذي نزلت فيه، وأوضحنا أن معناها يجب أن يفهم على ضوء شبيبتها و"ثانيتها" التي تذكر بالمهمة التي كلف الله بها موسى=

وهي إخراج بني إسرائيل من مصر حيث كانوا يعانون من طغيان فرعون وهامان وقارون، ثم أضفنا إلى ذلك عنصرا آخر وهو التذكير بإبراهيم جد العرب من نبتة إسماعيل ودعائه الذي قال فيه: "رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ"³⁵. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضَلَّتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"³⁶. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ"³⁷. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلُنَ، وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ"³⁸. وهكذا فاعتمادا على هذه المعطيات يتعين القول: إن الخطاب في هذه السورة - كما هو الحال في سور هذه المرحلة السادسة من مسار التنزيل في القرآن المكي - موجه إلى "العرب أهل القبائل" بوصفهم "الآخر" الذي تتحدد به "هوية قريش" في تلك المرحلة. لقد كان الخطاب قبل هذه المرحلة موجها لقريش، وبالتحديد إلى الملأ منهم الذين وصفتهم السورة بكونهم "يَسْتَحْبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا (السبيل) عِوَجًا"، وقد كانوا فعلا يصدون الناس في المواسم والأسواق عن الاتصال بالرسول عليه السلام ويصرفونهم عنه. وهذا التوجه لـ "العرب" بعد إصرار قريش على الإعراض عن الدعوة والإمعان في إيذاء النبي (ص) والمسلمين، هو الذي دفع النبي إلى الإعراض عنهم تلبية (لقوله تعالى: "فَاصْنَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ" - الحجر 94-95)، والتوجه إلى "العرب"، أهل البادية" وسكان القرى المحيطة بمكة الذين كانوا واقعين تحت سلطة قريش دينيا واقتصاديا، مستغلين في ذلك مكانة مكة على المستويين الديني (الحج) والتجاري (الأسواق والمواسم)، مع أن باني الكعبة هو جد العرب جميعا، إبراهيم الذي أسكن فيها قسما من ذريته الخ، أقول إن التوجه إلى العرب، في إطار "تَخْرِجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" هو من أجل إخراجهم من وضعيتهم القاسية على مستوى العيش الخ إلى وضعية أفضل، وبالتالي فإن الأمر يتعلق بحشد "العرب" من خارج مكة للقضاء على استبداد الملأ من قريش بالسلطة المزدوجة التي تشبه السلطة التي كانت تمارس في مصر على الناس (اليهود: وهم قسم آخر من ذرية إبراهيم) : سلطة "الصنم" الأكبر (=فرعون) مدعى الألوهية، وسلطة العسكر الذي يرأسه هامان (=أبو جهل) وسلطة المال التي كانت لأخيه "المغيرة، (=قارون).

73- سورة الأنبياء

- تقديم

ذكر الواحدي: "أن ابن عباس قال: آية لا يسألني الناس عنها لا أدري أعرفوها فتم يسألوا عنها، أو جهلوها فلا يسألون عنها! قيل: وما هي؟ قال: لما نزلت "إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ"، شق على قريش، فقالوا: أيشتم آللهتنا؟ فجاء ابن الزبيري فقال: ما لكم؟ قالوا يشتم آللهتنا! قال فما قال؟ قالوا قال: "إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ". قال: ادعوه لي! فلما دعي النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا محمد هذا شيء آللهتنا خاصة أو لكل من عُد من دون الله؟ قال: بل لكل من عُد من دون الله. فقال ابن الزبيري: خصمت ورب هذه البنية، يعني الكعبة! ألسنت تزعم أن الملائكة عباد صالحون وأن عيسى عبد صالح؟ وهذه بنو ملبح يعبدون الملائكة وهذه النصارى يعبدون عيسى عليه السلام وهذه اليهود يعبدون عزيزاً. قال: فصاح أهل مكة! فأنزل الله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ". قلت (الجابري): هذا يقتضي أن تكون الآيات التي بعدها إلى الآية 105 جزءاً من الرد، وهذا غير بين بنفسه.

- نص السورة

1- مقدمة: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ¹! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ (متجدد) إِلَّا اسْتَمْعَوْهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ²، لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ.

2- قريش تشكك في صدق الدعوة المحمدية في الأسواق...

وَأَسْرَوْا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا (قريش قالوا لرواد الأسواق): هَلْ هَذَا (الرسول) إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَةَ (تتبعونه) وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ؟ قَالَ

(الرسول): رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ⁴. بَلْ قَالُوا: أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْوَلُوتُونَ!⁵ (الجواب): مَا أَمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا (بتكذيبها للرسول)، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ؟⁶ (1) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا (وليس ملائكة) نُوحِي إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ (أهل الكتاب عن أنبيائهم) إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ⁷: وَمَا جَعَلْنَاهُمْ (الرسول) جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ (بل يأكلون)، وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ⁸، ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ، وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ⁹. لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ (يا قريش) كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ (خطاب إلهي إليكم) أَفَلَا تَعْقِلُونَ¹⁰؟ وَكَمْ قَصَمْنَا (أهلكنا) مِنْ قَرِينَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ¹¹، فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا (بالحلاك) إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ¹²! (قيل لهم) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ¹³؟ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ¹⁴! فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ¹⁵. وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ¹⁶. لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ لَا تَتَّخِذَنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ¹⁷، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ (فيبطله) فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (مهزوم)، وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ¹⁸. وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلََّا يَسْتَحْزِرُونَ¹⁹ (لا يتعجبون)، يَسْتَبْخُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتَرُونَ²⁰.

3- لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةَ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ...

أَمْ (هل) اتَّخَذُوا آلَهِةَ مِنَ الْأَرْضِ، (من الحجر) هُمْ يُنْشِرُونَ²¹ (يحْيون الموتى)؟ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةَ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ²². لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ (لأنه غير مخلوق لأحد ولا شريك له) وَهُمْ

1- معنى الآية: إنهم، أي قريش، لو أعطينا هم ما يطلبون لكانوا أنكث وأنكث من الذين طلبوا من أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم تكفروا أو خالفوا، فأهلكهم الله.

2- اختلفت آراء اللغويين حول "أم" في مثل هذا التعبير: منهم قال إنها "استفهام الجحد"، أي لم يتخذوا آلَهِةَ تقدر على الإحياء. وقيل: هي بمعنى "هل" أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلَهِةَ مِنَ الْأَرْضِ يحْيون الموتى؟ وقيل: "أم"، عطف على المعنى أي: أخلقنا السماء والأرض لعباً، أم هذا الذي أضافوه إلينا من عندنا فيكون لهم موضع شبهة؟ أو هل ما اتخذوه من الآلهة في الأرض يحيي الموتى فيكون موضع شبهة؟ وقيل: لا تكون "أم" هنا بمعنى "بل" لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدر "أم" مع الاستفهام فتكون "أم" المنقطعة فيصح المعنى. والواضح أنها بمعنى "هل": استفهام الجحد.

يَسْأَلُونَ²³ (لأنهم مخلوقون من أجل اختبارهم). أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ! (أما أنا - محمد - فبرهاني هو:) هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ (القرآن كتاب المسلمين) وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي (التوراة والإنجيل وهي تشهد بأن الإله هو الله وحده)، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ²⁴! وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ²⁵. وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (كانوا يقولون الملائكة بنات الله)! سُبْحَانَهُ. بَلْ (هم) عِبَادٌ مُكْرَمُونَ²⁶ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ (لا يتخون أية مبادرة من عندهم أنفسهم) وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ²⁷. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى (الله) وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ²⁸. وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ (من دون الله) فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ²⁹. أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا (متصلتين كما تبدوان في الأفق) فَفَتَقْنَاهُمَا (فصلنا الواحدة عن الأخرى) وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا، أَفَلَا يُؤْمِنُونَ³⁰? وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيً (جبالا اتقاء) أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا (مسالك) سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ³¹. وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا (لا يسقط)، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا (كالشمس والقمر والنجوم وحركاتها) مُعْرِضُونَ³². وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ³³. وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ، أَفَأَنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ³⁴? (3) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ³⁵.

4- سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ.

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ (=هم لا) يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا (موضوع سخرية، يقول بعضهم لبعض) أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ (يتهمج على) آلِهَتِكُمْ؟ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ³⁶. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ! سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ³⁷. وَيَقُولُونَ: (قل لنا أنت وصحبك) مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ³⁸. لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا (حالهم) حِينَ لَا يَكْفُونَ (يدفعون) عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ³⁹ (لما سألوا عن ذلك)، بَلْ تَأْتِيهِمُ (الساعة) بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

3- قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ: "كَانُوا يَقْدَرُونَ أَنَّهُ سَيَمُوتُ فَيَسْمَعُونَ بِمَوْتِهِ، فَنفَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ الشَّمَاتَةَ بِهَذَا، أَيْ: قَضَى اللَّهُ أَنْ لَا يَخْلُدَ فِي الدُّنْيَا بَشَرًا، فَلَا أَنْتَ وَلَا هُمْ إِلَّا عَرْضَةٌ لِلْمَوْتِ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَإِنْ مِتَ أَنْتَ أَيْبَقَى هَؤُلَاءِ؟ وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُ الْقَائِلِ:
فَقُلْ لِلشَّمَاتِيِّينَ بِنَا أَفْيَقُوا سَيَقْلَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا."

رَدَّهَا وَكَأَ هُمْ يَنْظُرُونَ⁴⁰ (لا يمهلون). وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ⁴¹ (كانوا يستهزئون بالهالك فجاءهم). قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ (من يحفظكم من عذاب الله) ؟ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ⁴² (لا يفكرون فيه لأنهم لا يؤمنون بالقرآن) ! أَمْ (هل) لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا؟ (الهِتَم) لَأَيَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ (فينصرفوا)، وَكَأَ هُمْ (أي الكفار) مِمَّا يُصْحَبُونَ⁴³ (لا أحد يجبرهم ويمنعهم منا). بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ! أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ⁴⁴؟ (4) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ. وَكَأَيَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ⁴⁵! وَلَكِنَّ مَسْئَلَهُمْ نَفْحَةً مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ⁴⁶. وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ⁴⁷.

5- كيف نصر الله رسوله على أقوامهم المكذبين : بيان لأهل القبائل!

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ (التوراة) وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ⁴⁸. الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ⁴⁹. وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ، أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ⁵⁰؟! وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ (نضجه العقلي) مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ⁵¹. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاقِفُونَ⁵²؟ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ⁵³. قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ⁵⁴. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ⁵⁵؟ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ⁵⁶، وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ⁵⁷ فَجَعَلَهُمْ جَذَاذَا (كسر أصنامهم حتى صارت فتاتا) إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ⁵⁸! قَالُوا: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهِتَانِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ⁵⁹؟ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ⁶⁰. قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ⁶¹. قَالُوا: أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهِتَانِ يَا إِبْرَاهِيمُ⁶²؟ قَالَ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ⁶³. فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا (بينهم وبين أنفسهم)

4- أي ننقص مساحة الشرك والكفر من أطراف الأرض، أي خارج مكة. هذه إشارة إلى بدء انتشار الإسلام خارج مكة بعد الاتجاه بالدعوة إلى المواسم والأسواق. ومن المحتمل جدا أن تكون هذه الآية إشارة إلى اللقاء الأول مع وفد الخزرج الذي أسلم وحمل معه الدعوة إلى بلدهم. السنة الحادية عشرة للنبوّة. راجع استهلال هذه المرحلة.

إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ⁶⁴، ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ (وقالوا يا إبراهيم:) لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ⁶⁵ (أنت تعرف أنهم لا ينطقون). قَالَ: أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ⁶⁶: أَفَ (فيما) لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ، أَقُلْنَا نَعْقِلُونَ (أليس لكم عقل تفكرون به؟) قَالُوا: حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ⁶⁸ (تريدون نصرتها). قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ⁶⁹. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ⁷⁰ وَجَعَلْنَاهُ وَلَوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ⁷¹ (5). وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ (ابنا) وَيَعْقُوبَ (حفيدا) نَافِلَةً (زيادة في المسؤولية) وَكُلًّا (أي الثلاثة) جَعَلْنَا صَالِحِينَ⁷²، وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَاتَبْنَا لَنَا عَابِدِينَ⁷³. وَلَوطًا أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا (حكمة ونبوة) وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْقُرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ (يأتون الرجال دون النساء) إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ⁷⁴. وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ⁷⁵. وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ⁷⁶، وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ⁷⁷. وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ (بين متناضين) إِذْ نَفَثَتْ (أكلت) فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ⁽⁶⁾ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ (لحكمهما) شَاهِدِينَ⁷⁸. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ، وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَنَسَخْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ⁷⁹، وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ (الدروع تلبسونها حين

5- جرت حوادث هذه القصة في العراق حيث كان إبراهيم مقيما، وقد هاجر بعد ذلك إلى بلاد كنعان ومعه ابن أخيه لوط بن هاران. في التوراة: "وَقَالَ الرَّبُّ لِإِبْرَاهِيمَ: «اتْرَكَ أَرْضَكَ وَعَشِيرَتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ وَاذْهَبْ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَاكَ، 2 فَأَجْعَلَ مِنْكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَأَبَارِكَ وَأَعْظَمَ اسْمَكَ، وَتَكُونُ بَرَكَةً (لكثيرين). 3 وَأَبَارِكَ مَبَارِكَكَ وَالْعَيْنَ لَاعَيْنِكَ، وَتَتَبَارَكَ فِيكَ جَمِيعُ أَسْمِ الْأَرْضِ». 4 فَارْتَحَلَ إِبْرَاهِيمُ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ، وَرَافِقُهُ لُوطُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ فِي الْخَامِسَةِ وَالسَّبْعِينَ مِنْ عُمُرِهِ عِنْدَمَا غَادَرَ حَارَانَ. 5 وَآخَذَ إِبْرَاهِيمُ سَارَى زَوْجَتَهُ وَلُوطُ ابْنُ أَخِيهِ وَكُلُّ مَا جَمَعَاهُ مِنْ مَقْتَنِيَّاتٍ وَكُلِّ مَا امْتَلَكَاهُ مِنْ نَفُوسٍ فِي حَارَانَ، وَأَنْطَلَقُوا جَمِيعًا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَنْ وَصَلُوها" (سفر التكوين 12).

6- قَالُوا: "دَخَلَ رَجُلَانِ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَحَدُهُمَا صَاحِبُ حَرْثٍ وَالْآخَرُ صَاحِبُ غَنَمٍ. فَقَالَ صَاحِبُ الْحَرْثِ: إِنَّ غَنَمَ هَذَا دَخَلَتْ حَرْثِي وَمَا أَبَقْتُ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اذْهَبْ فَإِنَّ الْغَنَمَ لَكَ. فَخَرَجَا فَمَرَا عَلَى سُلَيْمَانَ، فَقَالَ: كَيْفَ قَضَى بَيْنَكُمَا؟ فَأَخْبَرَاهُ: فَقَالَ: لَسَوْ كُنْتُ أَنَا الْقَاضِي لِقَضِيَّتِ بَغِيرِ هَذَا. فَأَخْبِرْ بِذَلِكَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِدْعَاهُ وَقَالَ: كَيْفَ كُنْتُ تَقْضِي بَيْنَهُمَا؟ فَقَالَ: أَدْفَعُ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِ الْحَرْثِ فَيَكُونُ لَهُ مَنَافِعُهَا مِنَ الدَّرِّ وَالنَّسْلِ وَالْوَبَرِ حَتَّى إِذَا كَانَ الْحَرْثُ مِنَ الْعَامِ الْمُسْتَقْبَلِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ أَكَلِ دَفْعَتِ الْغَنَمِ إِلَى أَهْلِهَا وَقَبِضُ صَاحِبِ الْحَرْثِ حَرْثَهُ".

القتال - والخطاب للقبائل) لَتُخَصِّنَكُمْ مِنْ بَاسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ⁸⁰. وَكَسَلِيْمَانَ (سخرنا) الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا (قيل: الشام، بما فيها فلسطين) وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالَمِينَ⁸¹، وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ⁸². وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْتَجِيءُ الضُّرَّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ⁸³ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ (مرض وضائقة وعزلة) وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ⁸⁴. وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ⁸⁵، وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ⁸⁶. وَذَا النُّونِ (يونس صاحب الحوت) إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ⁽⁷⁾ (في بطن الحوت) أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ⁸⁷ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ⁸⁸. وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا (بدون ولي وارث) وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ⁸⁹. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَذَعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ⁹⁰. وَالَّتِي

7- مما فسروا به هذه الآية القصة التالية المنسوبة إلى ابن عباس، قال "كان يونس عليه السلام وقومه يسعون فلسطين، فغراهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا، وبقي سبطان ونصف. فأوحى الله تعالى إلى شعيب النبي عليه السلام أن اذهب إلى حزقيل الملك وقل له حتى يوجه نبيا قويا أمينا فأبى ألقى في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فقال له الملك: فمن ترى؟ وكان في مملكته خمسة من الأنبياء، فقال يونس بن متى: فإنه قوي أمين، فدعا الملك بيونس وأمره أن يخرج، فقال يونس: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا، قال فهل سماني لك؟ قال: لا، قال فهنا أنبياء غيري، فألحوا عليه فخرج مغاضبا للملك ولقومه فأتى بحر الروم (الأبيض المتوسط) فوجد قوما هياؤا سفينة فركب معهم فلما تلجلجت السفينة انكفأت بهم وكادوا أن يغرقوا، فقال الملاحون: ههنا رجل عاص أو عبد آبق لأن السفينة لا تفعل هذا من غير ريح إلا وفيها رجل عاص، ومن رسنا (قانوننا) أنا إذا ابتلينا بمثل هذا البلاء أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة، فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام، فقال: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق، وألقى نفسه في البحر فجاء حوت فابتلعه، فأوحى الله تعالى إلى الحوت لا تؤذ منه شعرة. فإني جعلت بطنك سجنا له ولم أجعله طعاما لك، ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد، فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقبل له: أتحنن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون، حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتهم. ثم أوحى الله إليه وأمره أن يذهب إليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس عليه السلام". وهذه القصة نسجت على مثال قصة يونس في التوراة، وقد أوردناها سابقا (انظر هوامش سورتي القلم رقم 35 ويونس 52: القسم الأول من الكتاب).

أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا (مريم) فَتَفَخَّنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ⁹¹ (وَقُلْنَا لِقَوْمِهَا) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ⁹². وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ⁹³: فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ (لَا بَطْلَانَ لثَوَابِ عَمَلِهِ)، وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ⁹⁴ (عمله). وَحَرَامٌ عَلَى (أهل) قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ⁹⁵ (إِلَيْنَا، بَلْ يَبْعَثُونَ كَالْآخَرِينَ. حَرَمْنَا عَلَيْهِمُ الرُّجُوعَ وَالتَّوْبَةَ)، حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ (تَهْدِمُ سُدُومَ لَصِيحَةِ الْقِيَامَةِ)⁽⁸⁾ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ⁹⁶ (يَجِينُونَ)، وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا (وَحَالَهُمْ يَقُولُ) يَا وَيْلَتَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ⁹⁷! (يَقَالُ لَهُمْ) إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ⁹⁸ (مُلَقُونَ فِي جَهَنَّمَ كَالْحَصْبَاءِ). لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهِ مَا وَرَدُوهَا، وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ⁹⁹ (لَوْ كَانُوا آلَهِ لَشَفَعْتَ لَهُمْ كَمَا يَعْتَقِدُونَ! وَلَكِنْ لَيْسُوا آلَهِ! إِذِنْ هُمْ وَإِيَّاهَا خَالِدُونَ فِي جَهَنَّمَ)، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ¹⁰⁰. إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ¹⁰¹، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَتَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ¹⁰². لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ (قَائِلِينَ) هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ¹⁰³، يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ! (9) كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ، وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ¹⁰⁴.

6- خاتمة: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ...

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ (كِتَابِ دَاوُدَ) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ (تُورَةِ مُوسَى) أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ¹⁰⁵، إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ¹⁰⁶ (10). وَمَا

8- انظر قصة ذي القرنين في سورة الكهف رقم 71.

9- نظير قوله تعالى: "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ" (الزمر 67)

10- رسالة واضحة لليهود المدينة: والمعنى: كتب الله في الزبور الذي أنزل على داود الملك، والذي انقضى ملكه بعد ابنه سليمان، "أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ". وإذن فالوعود التي أعطيت لموسى تحققت مع داود وسليمان، وحل محلها وعد آخر هو "أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ"، والمقصود المسلمون. وإذن فعلى اليهود في "يثرب" أن يفهموا هذا فينبضوا إلى الأنصار والمهاجرين - وهم عباد الله الصالحون - ويعترفوا بنبوّة محمد وأن القرآن من عند الله، مثله مثل التوراة والزبور... وهذه الرسالة ستكرر بصورة أوضح في القرآن المدني. وهذا المعنى غاب عن جميع المفسرين من الطبري البخ، فقد فسروا قوله تعالى "أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ" تفسيراً لا يستحضر ترتيب النزول

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ¹⁰⁷. قُلْ (يا محمد) إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ (أيها اليهود في يثرب) إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ¹⁰⁸؟ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ (بمعنى : قل لهم إني أخبركم بصراحة باني وإياكم سنكون في حالة حرب) وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ¹⁰⁹ (هنا من الحرب) (11). إِنَّهُ (الله) يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ¹¹⁰. وَإِنْ أَدْرِي (ولا أعلم متى سيحصل هذا، ف-) لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَّكُمْ (خبر يفتنكم أو) وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ¹¹¹. قَالَ (الرسول): رَبِّ احْكُمْ (بيني وبين اليهود) بِالْحَقِّ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ¹¹².

- تعليق

كل شيء في هذه السورة يشير إلى أنها من آخر من نزل في مكة. والشواهد الكثيرة التي ذكرناها في الشرح والهوامش تفيد أنها نزلت في الوقت الذي كان النبي عليه السلام منهما في التفاوض مع وفود القبائل، والأرجح أنها نزلت في الموسم الذي أسلم فيه وقد الخرج وسمي إسلامهم "بيعة العقبة الأولى" (انظر الاستهلال الذي صدرنا به هذه المرحلة).

في السورة ست فقرات :

المقدمة وفيها تعلن عن اقتراب ساعة الحساب، والحساب المقصود هنا ليس حساب الآخرة كما يذهب إلى ذلك المفسرون بل هو الحساب الذي سيقوم به المؤمنون الذين كانوا يتجمعون في المدينة سواء من المهاجرين إليها من مكة أو الذين أسلموا فيها منذ أن بدأ الاتصال بين الرسول والوافدين إلى الحج وهو الاتصال الذي توج ببيعة العقبة الثانية ...

ولا من هو المخاطب هنا فقال معظمهم إن المقصود بـ"الأرض" هنا "أرض الجنة"، قال الرازي : "فالمعنى أن الله تعالى كتب في كتب الأنبياء عليهم السلام وفي اللوح المحفوظ أنه سيورث الجنة من كان صالحاً من عباده وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد= وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وأبي العالية". قَلِبَ (الجابري) : وهذا لا يستقيم لأنه يسقط قوله تعالى "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ" ولا يعطيه أي معنى ولا أي دور في الخطاب. أما قوله تعالى: "إِنَّ فِي هَذَا لَبَكَاهَا لِقَوْمٍ غَابِينَ" فهو حسب السياق الذي أبرزناه خطاب لليهود. أما المفسرون فقد ذهبوا في تفسير الآية بما يصرها إلى العبادات في الإسلام مثل للصلوات الخمس والزكاة الخ.

11- صرف المفسرون الخطاب في هذه الآية إلى قريش كما فعلوا في الآيات السابقة. وفي هذا الصدد ذكر القرطبي أنه قيل في معنى الآية "آذَنْتُكُمْ [يا قريش] بالحرب ولكنني لا أدري متى يؤنن لي في محاربتكم". ونحن نرى أن الأقرب إلى السياق ما قلناه أعلاه.

أما الفقرات الثانية والثالثة والرابعة فتعرض السورة فيها للحملة التي شنتها قريش لصد أهل المواسم والأسواق عن الرسول- فتذكر نماذج من دعاياتهم ضده وتجيب عنها، وفي نفس الوقت تشجب عبادة الأصنام وتؤكد على الأركان الأساسية في الإسلام: النبوة والتوحيد والبعث؛ مؤكدة أن ما يوعدون به من قيام الساعة والحساب سيأتي وقته، وأن استعجالهم ليوم القيامة، كتحد منهم، دليل على أنهم غافلون: فالإسلام ينتشر خارج مكة، وأرض الشرك تتناقص، والمواجهة آتية.

وتأتي الفقرة الخامسة لتؤكد لهم وللذين ينتهقون بالإسلام أن النصر في هذه المواجهة سيكون للرسول والمؤمنين، وأن ذلك ما حدث للرسل السابقين في صراعاتهم مع أقوامهم بدءاً من إبراهيم إلى مريم، لقد انتصر الرسل وانهزم المكذبون والظالمون في كل زمان ومكان، ويوم القيامة مأواهم جهنم.

أما الخاتمة فتستعيد المقدمة كالعادة، لترتفع بها إلى أعلى بعد أن أثبتت صحتها الفقرات الوسطى (التحليل والجدل والبرهان...). وهكذا لم يعد الأمر مقتصرًا على الإعلان عن "اقتراب للناس حسابهم"، بل لقد انتقلت الخاتمة بالسورة إلى بيان المقصود بـ"الناس" وبيان النتيجة، وذلك من خلال التأكيد على أن الله قضى في الزبور، أي بعد داود وسليمان، أن "الوعد بالأرض" لم يعد مقصوراً على بني إسرائيل الذين انتهى ملكهم مع سليمان، بل إن ذلك الوعد التوراتي الموسوي صار وعداً لعباد الله الصالحين، وهم المسلمون في يثرب، وأن هذا الوعد ليس مجرد خبر من الأخبار بل هو "بلاغ لقوم عابدين" الله من اليهود والمسلمين، وعليه يجب إنذار يهود يثرب بذلك (حتى لا يقولوا خدعنا أو فوجئنا): "قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟¹⁰⁸ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ (أَعْلَمْتُكُمْ بصراحة). انظر الهامشي الأخيرين: 10 و 11).

74- سورة المؤمنون

- تقديم

لم يرد عن هذه السورة ما يستحق الذكر. وكل ما هناك أنهم يذكرون أن عمر بن الخطاب قال : وافقت ربي في أربع، قلت: يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله تعالى "وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى"، وقلت: يا رسول الله "لو اتخذت على نساءك حجاباً، فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فأنزل الله تعالى "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ"، وقلت لأزواج النبي (ص) لتنتهين أو ليبدلن الله سبحانه أزواجاً خيراً منكن فأنزل الله "عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّفَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنْكُمْ" الآية، وهذه الآيات نزلت في المدينة فلا علاقة لها بهذه السورة. أما الآية الرابعة وهي قوله تعالى "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ" إلى قوله تعالى "ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ" فهي من السورة التي نحن ضيوف عليها، وفي الرواية المذكورة أن عمر لما نزلت تلك الآية قال: "فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"، فنزلت هذه. وفي رواية أخرى أن شخصاً آخر كان يكتب هذه السورة للرسول حين نزولها فلما انتهى إلى قوله تعالى: "خَلْقاً آخَرَ" عجب ذلك الشخص من ذلك وقال: "فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" فقال رسول الله (ص): "اكتب، فهكذا نزلت"، فشك ذلك الكاتب وقال إن كان محمد صادقاً فيما يقول فإنه يوحى إلي كما يوحى إليه، وإن كان كاذباً^١ خير في دينه". ونقطة الضعف في هذه الرواية هي قول الراوي "فهرب إلى مكة"، الشيء الذي يعني أن النازلة حدثت في المدينة، والسورة مكية.

- نص السورة

1- مقدمة: خصال المؤمنين الذين سيدخلون الجنة خالدين فيها...

بسم الله الرحمن الرحيم
قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ^١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ^٢، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
اللُّغُوِ مَغْرُضُونَ^٣، وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ^٤، وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ^٥ إِلَّا

عَلَى أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ^٦ -فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ (زيادة على أَرْوَاجِهِمْ وما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُ) فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ^٧ (المعتدون) - وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ^٨، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ^٩، أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ^{١٠}، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ^{١١}. (١)

2- خلقنا... وخلقنا لكم... ويوم القيامة تبعثون.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ^{١٢}، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ^{١٣} (في رحم المرأة)، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْإِطْقَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ^{١٤}. ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ^{١٥}، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ^{١٦}. وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ (سماوات) (٢) وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ^{١٧} (٣)، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ، فَأَسْكَنْنَا فِي الْأَرْضِ (أبارا وترعا)، وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ^{١٨}. فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ نَاقَتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ، لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ^{١٩}، وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْتَاءَ (هي شجرة الزيتون) تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلنَّالِكِينَ^{٢٠} (زيتون يؤكل مع الخبز). وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسْقِيكُمْ مِنْهَا

١- هذه الفقرة تشعر بأن جماع المسلمين أخذت تنمو مما استوجب تشريعات أخلاقية تميز سلوك المؤمنين عن غيرهم. ولا بد من استحضار أن الخطاب في هذه السور موجه أساساً إلى البدو من العرب في المواسم والأسواق، ولذلك يستعيد ما سبق أن رأيناه في الخطاب الذي كان موجهاً من قبل إلى قرش. والاستعادة هنا ليست تكراراً حرفياً بل هي صيغة جديدة تركز في الغالب على دلالة وحجج من بيئة عالم الأرياف والبادية، كما هو واضح أعلاه.

2- قالوا: "أي سبع سموات" وإنشأ قيل لها طرائق لتطابقها بمعنى كون بعضها فوق بعض. يقال طارق الرجل نعليه إذا أطبق نعل على نعل، وطارق بين ثوبين إذا لبس ثوباً فوق ثوب. هذا ومفهوم "السموات السبع" يطابق مفهوم العرب في ذلك الوقت الذي يرجع إلى المورث "العلمي" القديم الذي كان يتمثل في النظام الفلكي الذي شيده بطليموس (عالم يوناني عاش في الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي) وقوامه كواكب سبع سيارة والأرض في مركزها، وهذه السبع السيارة هي: زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، القمر. وقد بقيت نظرياته مهيمنة على علم ذلك إلى القرن السادس عشر.

3- عن الخلق: يعني المخلوقات: لم تكن غافلين عنها عند خلقنا السماوات فجعلناها لفائدتها: فالشمس والقمر والنخ، والأجرام وحركاتها، وما ينتج عنها من ضوء ومطر وفصول الخ، كلها أمور ضرورية لحياة المخلوقات الأرضية. والآية التالية تشير إلى هذا المعنى، فلا ضرورة لتأويلات بعيدة عن السياق كما فعل بعض المفسرين.

فِي بُطُونِهَا وَكَفَّمْ فِيهَا مَنَافِعَ كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ²¹، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ²².

3- سفينة نوح ... حياتهم كانت ابتلاء والمصير: الحساب والجزاء.

وَكَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ²³؟ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ (يترأس) عَلَيْكُمْ، وَكَوْا شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزِلَ مَلائِكَةً! مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ²⁴، إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ (جنون) فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ²⁵. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِي²⁶ (أي لتكذيبهم إياي). فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا (برعايتنا) وَوَحَيْنَا، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ (صعد الماء على جوانب السفينة قلنا له) فَاسْلُكْ (ضع) فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ (الذين لم يؤمنوا)، وَلَمَّا خَاطَبْتِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ظَلَمُوا أَنَّهُمْ مَغْرُوقُونَ²⁷. فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ²⁸. وَقُلْ رَبِّ أُنْزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ²⁹، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ³⁰ (حياتهم كانت اختبارا لهم).

4- إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ...

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا (قوما) آخِرِينَ³¹، فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ: أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، أَفَلَا تَتَّقُونَ³². وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ³³؛ وَلَكِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ أَنْتُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ³⁴! أَيْعِدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ³⁵ (من قبوركم)، هِيَئَاتِ هِيَئَاتِ لَمَّا تُوَعَدُونَ³⁶ (لا بعث)! إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا (نحيا ونموت) وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ³⁷؛ إِنْ هُوَ (الرسول) إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ³⁸. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِي³⁹. قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ⁴⁰. فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ، فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً (كنبات يابس)، فَبَعَثْنَا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ⁴¹. ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرُونًا (أقوما) آخِرِينَ⁴²، مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ (ما من أمة تسبق) أَجَلُهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ⁴³. ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

تَنَرَى ، كُلُّ مَا (كلما) جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ! فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (عن ماض، يتداولها الناس) قَبْعَدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ⁴⁴.

5- الرسل كيان واحد والمؤمنون أمة واحدة ...

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ⁴⁵ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ⁴⁶. فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا (بنو إسرائيل) لَنَا عَابِدُونَ؟⁴⁷ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَاتُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ⁴⁸. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ⁴⁹، وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ (في الشام) ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ⁵⁰ (الماء مستقر فيها). يَا أَيُّهَا الرَّسُلُ⁽⁴⁾ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ⁵¹. وَإِنَّ هَذِهِ (أيها الرسل) أُمَّتُكُمْ

4- اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية، وسبب الاختلاف: تعيين المخاطب. وقد أجمل الرازي ذلك فقال: "اعلم أن ظاهر قوله: "لَمَّا كَذَّبُوا الرَّسُلَ" خطاب مع كل الرسل وذلك غير ممكن لأن الرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة متفرقة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب إليهم، فلهذا الإشكال اختلفوا في تأويله على وجود: أحدها: أن المعنى الإعلام بأن كل رسول فهو في زمانه نودي بهذا المعنى ووصى به، ليعتقد السامع أن أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به تحقيق بأن يؤخذ به ويعمل عليه. وثانيها: أن المراد نبينا عليه الصلاة والسلام لأنه ذكر ذلك بعد انقضاء أخبار الرسل، وإنما ذكر على صيغة الجمع، كما يقال للواحد: أيها القوم كفوا عني إذاكم ومثله: "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ" (آل عمران: 173) والمعنى شخص واحد هو نعيم بن مسعود، كأنه سبحانه لما خاطب محمداً (ص) بذلك بين أن الرسل بأسرهم لو كانوا حاضرين لما خاطبوا إلا بذلك ليعلم رسولنا أن هذا التثني ليس عليه فقط، بل لازم على جميع الأنبياء عليهم السلام. وثالثها: وهو قول محمد بن جرير الطبري أن المراد به عيسى عليه السلام لأنه إنما ذكر ذلك بعدما ذكر مكانه الجامع للطعام والشراب ولأنه روى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه، ويضيف الرازي: "والقول الأول أقرب لأنه أوفق للفظ الآية". قلت (الجابري): أما نحن فنرى أنه لا إشكال في هذا الخطاب إذا ما راعينا السياق ككل، والسياق هو إخبار العرب من أهل الأسواق بما ذكره القرآن مفصلاً في سور سابقة عند مخاطبة قريش. فالخطاب يخص هنا تجارب الرسل مجتمعة بقطع النظر عن الزمان والمكان. ذلك أنه تعالى لما ذكر بتجارب هؤلاء الرسل، خاطبهم بوصفهم خاضوا تجربة واحدة وكانت دعوتهم دعوة واحدة، وهي دعوة الناس إلى الإيمان. فالموضوع الذي استهلكت به السورة هو مدح المؤمنين، وما تلا ذلك هو بيان كيفية تكون المؤمنين في التاريخ، من نوح إلى محمد عليهما السلام. فشكر الرسل هنا جاء بوصفهم جنوداً كلّفوا عبر التاريخ بمهمة واحدة هي نشر التوحيد، والذين استجابوا لهم يشكلون جماعة أو أمة واحدة، هي جماعة المؤمنين عبر التاريخ. هذا بينما تفرق غير المؤمنين فلا يجمعهم جامع ولا يمكن إطلاق اسم "أمة" عليهم لأنهم لا شيء يجعل منهم جماعة لأنهم لا يجمعهم قصد واحد ولا إيمان بيانه واحد.

أُمَّةٌ (ملة) وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي⁵²؛ فَتَقَطُّوا (أَقْوَامِ الرسل، ومن بينهم قريش قوم النبي محمد) أَمْرُهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا (تفرقوا فرقا)، كل حزب بما لديهم فرحون⁵³. فذَرَهُمْ (اترك قريشا) فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ⁵⁴. أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا (أَنْ مَا) نَعِذُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَتَيْنٍ⁵⁵ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ؟! (كلا) بَلْ لَا يَشْعُرُونَ⁵⁶ (أَنْ الْأمر سينقلب عليهم بعد حين).

6- أما المؤمنون فهم يسارعون إلى العمل الصالح...

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ⁵⁷، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ⁵⁸، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ⁵⁹، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا (من الأعمال الصالحة) وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ (بسبب) أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ⁶⁰: أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ⁽⁵⁾ (في الأعمال الصالحة) وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ⁶¹ (يسابقون). وَلَكِنْ نَكْلِفُ نَفْسًا إِنْهَا وَسْعَهَا (إلا بما تستطيع فعله من الأعمال الصالحة)، وَلَدَيْنَا مِكْتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ (بما فعله كل منهم) وَهُمْ⁽⁶⁾ لَا يُظْلَمُونَ⁶²، بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَذَا (غير مشغولة بتعداد ما يفعلون من الخيرات)، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ (غير تلك التي يسابقون بها في الخيرات) هُمْ لَهَا عَامِلُونَ⁶³.

7- أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ؟!

حَتَّى⁽⁷⁾ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ (مترفي مكة) بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ (يضجون)⁶⁴. (يقال لهم) لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنكُمْ مِنَّا لَا تُتَضَرَّوْنَ⁶⁵ (كما كنتم في

5- لاحظ الفرق بين قوله متحدثا عن الكفار: "أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا (أَنْ مَا) نَعِذُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَتَيْنٍ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ"، فهم يظنون، وأهمين، أَنْ الله هو الذين يمدّهم بالخيرات متتابعة متسارعة، وبين قوله عن المؤمنين: "أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ". وهذا رد على الكفار بأن الخيرات يسارع المؤمن إليها، لا العكس. أما ما يعطى للكفار فهو، باصطلاح القرآن، ابتلاء واختبار. وبما أنهم لا يؤمنون فسيحاسبون عليه يوم القيامة ويمكن أن يسحب منهم في الدنيا.

6- اختلف المفسرون في من يعود إليه هذا الضمير (هم) والضمائر المماثلة التالية له: هل للمؤمنين أم للكفار؟ ونحن نرجح أنها تعود إلى الذين يسابقون في الخيرات. فبهذا يستقيم السياق.

7- الزمخشري: "حتى" هذه، هي التي يبتدئ بعدها الكلام، أي: الجملة الشرطية: "إذا أخذنا مترفيهم".

الدنيا تنصرون بأموالكم). قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ (ينكركم بها الرسول عندما يتلوها في المسجد) فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تُكْصِنُونَ⁶⁶ (لا تستجيبون للرسول)، مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا (متسامرين في تجمعاتكم ونواديكم ليلاً) تَهْجُرُونَ (ما تسمعون من القرآن)⁶⁷. أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ (لا يفهمون القرآن؟) أَمْ (لأنه) جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ⁶⁸؟ (جاءهم بالتوحيد الذي ينهى عن عبادة ما كان يعبد آباؤهم من الأصنام)؟ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ؟⁶⁹ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ (جنون)؟ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ (التوحيد)، وَكَثُرَهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ⁷⁰؟ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ (بأن اعترف بتعدد الآلهة) لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ (بالكتاب الخاص بهم: القرآن) فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ⁷¹. أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا (هل يعتقدون أنك ستطلب منهم ثمنًا إذا آمنوا)؟ فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ⁷².

8- محاجة المشركين. ويوم القيامة مواعدهم...

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ⁷³. وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَابِرُونَ (خارجون عنه)⁷⁴. وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ (وَأَتَيْنَاهُمْ بِالْمَطَرِ بَعْدَ قَحْطٍ) لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ⁷⁵ (لتمادوا في ضلالهم). وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ (الجوع) فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ⁷⁶، حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ (يوم القيامة) إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُونَ⁷⁷ (يائسون). وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ⁷⁸، وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ (أَنشَأَكُمْ) فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ⁷⁹، وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ أَفَلَا تَعْقِلُونَ⁸⁰؟ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ⁸¹: قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ⁸²؟ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ⁸³. قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ⁸⁴؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ! قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ⁸⁵؟ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ⁸⁶؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ؛ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ⁸⁷؟ قُلْ مَنْ يَدِّه مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَكَأُ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ⁸⁸؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ، قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ (تصرفون الناس عن الله)⁸⁹؟ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ⁹⁰. مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ، إِذَا (لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَه) لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ، وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ⁹¹. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ⁹². قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ⁹³ (إن كان ولا بد أن تريني ما يوعدون من العذاب)، رَبِّ فَلِمَ تَجْعَلْنِي فِي (من جملة) الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ⁹⁴ (الذين لهم ذلك العذاب). (الجواب:) وَإِنَّا عَلَى أَنْ تريك (يا محمد) مَا نَعِدُهُمْ لِقَابِرُونَ⁹⁵. ادْفَعْ بِأَيْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ (=أذا هم إياك)، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ⁹⁶. وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ (وسوسات) الشَّيَاطِينِ⁹⁷، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِي⁹⁸ (الشَّيَاطِينِ). حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي⁹⁹، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ! كَلَّا، إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (لا فائدة له فيها)، وَمِنْ وَرَائِهِمْ (أمامهم: بعد موتهم) بَرَزَخ (حاجز يصدهم) إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ¹⁰⁰. فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَمَّا أَنْسَابَ (فلا علاقات قرابة) بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَكُنَّا نَسْأَلُونَ¹⁰¹ (لا يسأل بعضهم عن بعض)، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ¹⁰²، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ¹⁰³: تَلَفَحَ وَجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ¹⁰⁴ (ملاحمهم متقلصة). (يقال لهم) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ¹⁰⁵. قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ¹⁰⁶، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ¹⁰⁷، قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَكُنَّا نَكْمُونِي¹⁰⁸. إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ: رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ¹⁰⁹، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ¹¹⁰. إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ¹¹¹. قَالَ (الله) كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ (قبل البيع) عَدَدَ سِنِينَ¹¹²، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، فَاَسْأَلِ الْعَادِينَ (الذي يحصون أعمال الخلق)¹¹³. قَالَ: (فعلا) إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا، نَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ¹¹⁴ (كم ستبقون في جهنم). أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا، وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ¹¹⁵.

9- خاتمة : والذين لا يؤمنون حسابهم عند ربهم : لا يفلح الكافرون.

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ¹¹⁶. وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ، فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ¹¹⁷. وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ¹¹⁸.

- تعليق

كان المحور الذي دار حوله الخطاب في السورة السابقة هو تفنيد ادعاءات مشركي قريش في نجواهم مع القبائل في المواسم والأسواق لصددهم عن الاستجابة

للدعوة المحمدية، وقد اشتملت الردود القرآنية على استعادة ما أبطلت به هذه الدعوة الاعتراضات التي وجهها مشركو مكة إلى النبي عليه السلام في المراحل السابقة، عندما كانت الدعوة محصورة في مكة (قبل "اصدع بما تؤمر")، لتنتقل بعد ذلك إلى التأكيد على أن النصر للدعوة المحمدية مؤكد وقريب، مستشهداً من جهة بدروس من الماضي المقدس الذي يشهد بأن انتصار أنبياء الله هو ما انتهى إليه صراعهم مع أقوامهم، فقد خرجوا جميعاً منتصرين، ومن جهة أخرى استدلت السورة على حتمية انتصار الدعوة المحمدية بما كان يشهد به حاضرها وهو أن الاستجابة لها بدأت تظهر خارج مكة الشيء الذي يقلص شيئاً فشيئاً من هيمنة قريش وسلطنتهم الاقتصادية والمعنوية (الدينية القبلية) على القبائل العربية بحيث باتت أرض الشرك تنقص من أطرافها.

وفي هذه السورة ينتقل الخطاب القرآني إلى المحور التالي: جميع الرسل مبعوثون برسالة واحدة، رسالة التوحيد، ومع أن لغة خطابهم تختلف باختلاف ألسنة أقوامهم فإنهم والمؤمنون بهم يجمعهم شيء يعلو على "اللغة" بوصفها أداة وصل وتواصل، إنه الإيمان بنفس الرسالة، رسالة التوحيد والمسؤولية (البعث). وتريد هذه السورة أن تبين ما يجعل من المؤمنين في كل زمان "أمة واحدة"!

بدأت السورة في المقدمة بتعريف للمؤمن من خلال ذكر الخصال التي تفرق بين المؤمن وغير المؤمن، وذلك على مستويين: على مستوى العلاقة مع الله (العبادات : الخشوع في الصلاة والمحافظة عليها)، ومستوى العلاقة مع الناس (الأخلاق: الإعراض عن اللغو، وإيتاء الصدقات، وتجنب الزنا، والحفاظ على الأمانة). بعد ذلك تأتي الفقرة الثانية لترتفع بالتعريف بالمؤمن إلى مستوى أعلى، إلى الإيمان بأن الله هو الخالق، خلق السماوات والأرض بصورة تخدم الإنسان (وهنا نلمح حضوراً واضحاً للبيئة البدوية مقابل حضور البيئة الدينية التجارية التي كانت بارزة في الخطاب إلى قريش (مثلاً: لإيلاف قريش...)).

ثم تنتقل السورة إلى الاستشهاد بالتاريخ المقدس فتختار قصة نوح، وتبرز فيها ما لم يكن بارزاً عند الاستشهاد بها من قبل عندما كان الخطاب موجهاً إلى قريش. ذلك أن قوم نوح اعترضوا هذه المرة بقولهم: "فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ (يتشرف: يترأس) عَلَيْكُمْ". وواضح أن الخطاب هنا قد صيغ على لسان قريش بطريقة تفهم منه القبائل أن غرض محمد هو أن يترأس عليهم. ويأتي الجواب: بأن هذا الذي قاله قوم نوح، كان دليلاً على اختياريهم النهائي للضلال، فكان ذلك مما أوجب تدخل الإرادة الإلهية فكان هلاكهم بالطوفان.

وتوالت الرسل بعد نوح وتكررت مواقف التكذيب لهم من طرف أقوامهم فتكررت معها طرق إهلاكهم : "ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى (تتابع)، كُلٌّ مَّا (كلما) جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَاهُ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (لم يبق منهم إلا أخبارهم يتداولها الناس) فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ"⁴⁴. والخطاب موجه هنا للقبائل العربية وللمؤمنين الجدد من خارج مكة وبكيفية خاصة في يثرب.

بعد الإشارة إلى نوح وعاد وثمود الخ، تأتي النتيجة: "وَإِنَّ هَذِهِ (أيها الرسل) أُمَمُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي"⁵². أما أقوامهم المكذبون: "فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا، كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ"⁵³، وهنا يتم الانتقال إلى قريش المكذبين لرسلهم: "فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ"⁵⁴. أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا (أن ما) نُمِذُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ⁵⁵ نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ؟! (كلا، هم خاطئون) بَلْ لَا يَشْعُرُونَ⁵⁶.

بعد ذلك تعود السورة لخصال المؤمنين الذين يشكلون أمة واحدة (يؤمنون بالله واحد) في مقابل المشركين الذين تمزقت بهم السبل (لكل منهم صنم يعبده)، لتؤكد أن من شمائل المؤمنين أنهم "يسارعون في الخيرات"، وهذا خطاب للمؤمنين الجدد. أما قريش فقد ضلوا واستكبروا، والحساب يوم القيامة. ثم ترسم السورة مشهدا لحالهم في جهنم حين يحاسبون ويذكرون بما كانوا يفعلون في الدنيا: بما كانوا يدعون وبما كان القرآن يرد به عليهم (والخطاب إخبار لأهل القبائل الخ): "فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ: "رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ"¹⁰⁹... ومن جملة ما أثير في هذا الخطاب مع أصحاب النار يوم القيامة، والمقصود هنا قريش، أنهم "قَالُوا (في الدنيا) مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ"⁸¹، قَالُوا أَأَنْذَأُ مَتَنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمِيعُو ثُورُونَ"⁸²، لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ". لَكِنْ عِنْدَمَا سَيُلْقَوْنَ فِي جَهَنَّمَ فَيَقُولُونَ: "رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ"¹⁰⁶، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ"¹⁰⁷...

وتأتي خاتمة السورة لتستعيد مقدماتها ولترتفع بها من مستوى الإشادة بخصال المؤمنين، كما فعلت في مقدماتها، إلى مستوى التأكيد على عقيدتهم. ذلك أن تلك الخصال وحدها لا تكفي إذ قد يأتيها المؤمن وغير المؤمن. وإذن فالعقيدة هي الأساس، وقد جاء التعبير عنها مركزا على التوحيد والمعاد، كما يلي: "فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ"¹¹⁶. وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا يَرْهَانَ لَهُ بِهِ، فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ، والخطاب دائما لأهل القبائل.

75- سورة السجدة

- تقديم

وردت حول آيات من هذه السورة روايات "أسباب نزول" جلها لا يستقيم لا مع السياق ولا مع كون السورة مكية ولا مع الظروف التي نزلت فيها. ومع ذلك نذكر بعضها كعادتنا لما قد يكون فيها من فائدة على مستوى السيرة.

ذكر البخاري أن أحدهم قال: كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة أنفار، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم: قرشي وختناه ثقفان، أو ثقفى وختناه قرشيان، فتكلموا بكلام لم أفهمه، فقال بعضهم: أترون الله سمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر إذا رفعنا أصواتنا سمع، وإذا لم نرفع لم يسمع. وقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله؟ قال: فذكرت ذلك للنبي (ص) فنزل عليه "وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ" إلى قوله تعالى "فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ".

وحول قوله تعالى "وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ" الآية، قالوا: نزل في قوم من أهل "الصفة" (وهم جماعة من الصحابة الفقراء أنزلهم النبي عليه السلام بعد الهجرة في مكان قرب مسجده بالمدينة يسمى الصفة)، منهم خباب بن الأرت الذي قال: "فيما نزلت هذه الآية وذلك أنا بطرنا إلى أموال (يهود) قريظة والنضير فتمنيناها فأنزل الله تبارك تعالى هذه الآية". وواضح أن هذا لا يستقيم فالآية والسورة مكيتان!

- نص السورة

1- لَتَنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ!

بسم الله الرحمن الرحيم
الم¹. تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَنَا رَبِّبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ². أَمْ (هل) يَقُولُونَ
افتراء؟ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتَنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ³.

2- الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ...

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ (يتولى مصالحكم) وَلَكَا شَفِيعَ (ناصر) أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ؟⁴ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ يَرْجِعُ (الأمر) إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ⁵ (1). ذَلِكَ، (وهو) عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ⁶. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ⁷، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ⁸ (ضعيف، النطفة)، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ⁹.

3- إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ...

وَقَالُوا (مشركو مكة) أَئِنَّا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ (غيبنا فيها وصرنا تراب) أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ؟ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ¹⁰ (يعني: حقيقة هذا السؤال أنهم كافرون بالبعث)، قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ¹¹.

1- اختلف المفسرون في معنى هذه الآية: فقال بعضهم: معناه: أن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض، ويصعد من الأرض إلى السماء في يوم واحد، وقد ذكر ذلك ألف سنة مما تعدون من أيام الدنيا: خمسمائة علم بين الأرض إلى السماء صعودا، ومثلها نزولا. وقال آخرون: "خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكل يوم من هذه كل سنة مما تعدون فتم". وقال فريق آخر: "يدبر الأمر من السماء إلى الأرض بالملائكة يبعثهم إلى الأرض، ثم ترجع إليه الملائكة، في يوم كان مقداره ألف سنة من أيام الدنيا". بمعنى: "ما بين السماء والأرض مسيرة ألف سنة". يختار الطبري الذي أورد هذه الأقوال القول الأول لأنه في نظره "أظهر معنيته، وإنشبهها بظاهر التنزيل". لكن هذا لا يستقيم مع قوله تعالى: "تَرْجِعُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" (المعارج: 4). ولتجاوز هذا الإشكال قال الرازي: إن ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، وذلك لأن من نفذ أمره غلبة لنفاذ في يوم أو يومين وقطع، لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطولة فقوله تعالى: "فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ" يعني: "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ" في زمان، يوم منه ألف سنة، فكم يكون شهر منه، وكم تكون سنة منه، وكم يكون دهر منه؟ وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لأن تلك إذا كانت إشارة إلى دولم نفاذ الأمر، فسواء يعبر بالألف أو بالخمسين ألفا لا يتفاوت إلا أن المبالغة تكون في الخمسين أكثر. وقال لزمخشري: "وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم يرجع إليه ذلك الأمر كله، أي يصير إليه ليحكم فيه" في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة. ونحن نرى أن التحقيق في مثل هذه المسائل لا يخلو من ورقة، فالأمر يتفق بتقدير لا يقصد لذقه بل بما يفيد، وهو يفيد أن علم الألوهية لا يقلس بعلم البشر. ومثل هذا نقول في قوله "ستة أيام". أما قوله "استوى على العرش"، فمفهوم منه الاستيلاء، ومن أسمائه تعالى "المليك"، و"المهيمن" الخ، أي نسبته إلى مخلوقاته كنسبة الملك إلى الرعية، والمعنى الاستيلاء والحكم والهيمنة...

وَكَلَوْ تَرَى (يا محمد يوم القيامة) إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (يقولون): رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا، فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ¹²! (الجواب): وَكَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَذَاهَا⁽²⁾ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ¹³ (الجن والإنس معا). فَذُوقُوا، بِمَا نَسِيتُمْ (بسبب نسيانكم) لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، إِنَّا نَسِينَاكُمْ؛ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ¹⁴. إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ¹⁵، تَتَجَافَى (ترتفع) جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ (عن الفراش لقيامهم الليل) يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ¹⁶. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (ما تقرر به أعينهم) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹⁷. أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا؟ لَا يَسْتَوُونَ¹⁸. أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا (منزلا) بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹⁹، وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمْ النَّارُ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا، وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكَذِّبُونَ²⁰. (وقيل ذلك) وَلَنَذِيقَنَّ هُمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ⁽³⁾ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ²¹.

2 - قال الزمخشري "لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَذَاهَا" على طريق الإلجاء والفسر، ولكننا بنينا الأمر على الاختيار دون الاضطرار، فاستحبوا العمى على الهدى، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء". وأضاف: ألا ترى إلى ما عقبه به من قوله: "فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ" فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم: من نسيان العقابة وقلة الفكر فيها وترك الاستعداد لها. والمراد بالنسيان: خلاف التذكر، يعني: أن الإهمال في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العقابة وسلط عليكم نسيانها، ثم قال: "إِنَّا نَسِينَاكُمْ"، على المقابلة، أي: جازيناكم جزاء نسيانكم. وقيل: هو بمعنى الترك، أي: تركتم الفكر في العقابة، فتركناكم من الرحمة، وفي استئناف قوله إِنَّا نَسِينَاكُمْ وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم. والمعنى فذوقوا هذا، أي ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء، وذوقوا العذاب المخلد في جهنم بسبب ما عملتم من المعاصي والكبائر الموبقة".

3- اختلف المفسرون في تفسير "العذاب الأدنى"، أما العذاب الأكبر فهم متفقون على أنه جهنم. وقد جمع القرطبي ما قيل في الموضوع فقال: "قوله تعالى: وَلَنَذِيقَنَّ هُمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ": قال الحسن وأبو العالية والضحاك وأبي بن كعب وإبراهيم للنخعي: العذاب الأدنى مصعب الدنيا وأسقلها مما يبتلى به العباد حتى يتوبوا؛ وقاله ابن عباس. وعنه أيضا أنه الحدود. وقال ابن مسعود والحسين بن علي وعبد الله بن الحارث: هو القتل بالسيف يوم بدر. وقال مقاتل: الجوع سبع سنين بمكة حتى أكلوا الجيف؛ وقاله مجاهد. وعنه أيضا: للعذاب الأدنى عذاب القبر؛ وقاله البراء بن عازب. قالوا: والأكبر عذاب يوم القيامة. قال القرطبي: وقيل عذاب القبر. وفيه نظر (=يقول القرطبي)؛ لقوله: "وَلَنَذِيقَنَّ هُمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" (والحال أنهم لا يرجعون من القبر). قال (القرطبي -دالما): ومن حمل العذاب على القتل قال: "وَلَنَذِيقَنَّ هُمُ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" أي يرجع من بقي منهم. ولا=

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا، إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ²².
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، فَلَمَّا تَكُنَ فِي مِرْيَةٍ (في شك) مِنْ لِقَائِهِ (مع الله) وأخذ الكتاب منه: (لأواح التوراة)، وَجَعَلْنَاهُ (موسى أو الكتاب) هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ²³.
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ²⁴. إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ²⁵. أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ (بَيِّنِينَ
لقريش) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ (الأقوام) يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ (في
طريق تجارتهم إلى الشام)، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ²⁶؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَا
نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ (الأرض التي لا نبات فيها) فَخَرَجَ بِهِ زُرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ²⁷ (وبالتالي ألا تستنجون من ذلك أن البعث آت).

4- خاتمة: فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرُوا، إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ (نزول العقاب بهم) (4) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ²⁸؟ قُلْ
يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْتَظَرُونَ²⁹ (يمهلون). فَأَعْرَضَ
عَنْهُمْ وَانْتَظَرُوا إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ³⁰.

- تعليق

أمران اثنان اختصت بهما هذه السورة ضمن الإطار العام الذي تتحرك فيه
سور هذه المرحلة:

أولهما التأكيد على أن هناك عقاباً، أقرب زمنًا، ينتظر مشركي قريش إضافة
إلى عقاب يوم القيامة. وكما كانوا من قبل يحاجون مرارا في عقاب الآخرة قائلين:
"مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ها هم يقولون اليوم "مَتَى هَذَا الْفَتْحُ (نزول العذاب
بهم في الدنيا) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وكان الجواب "وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ"؛ وهذا يعني

خلاف أن العذاب الأكبر عذاب جهنم". ونحن (الجلبري) نرى أن استحضار ظروف نزول السورة
يقضي حمل الآية على ما كان يستعد له الرسول من الهجرة إلى المدينة من حيث سيقوم
باعتراض قوافلهم وال دخول معهم في صراع مسلح الخ. وهذا وفقا مع الآية التالية: "إِنَّا مِنَ
الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ"، وأيضا مع خاتمة السورة.

4- قال بعض المفسرين: الإشارة إلى فتح مكة. وقال آخرون: يعني يوم القيامة". قلت:
والواقع أن المقصود هو ما عبر عنه قيل بـ "العذاب الأليم". والتعبير بـ "الفتح" إشارة إلى أن
المقصود هو النصر في الدنيا، وما كان منتظرا في ظروف نزول هذه الآية ليس فتح مكة فهذا بعيد، بل
لتنصر تحالف الرسول مع أهل يثرب ضد قريش.

أنهم كانوا على علم باتصالات النبي عليه السلام مع أهل المدينة، وليس من المستبعد أن تكون هذا السورة قد نزلت كسابقاتها (النحل، إبراهيم، الأنبياء، المؤمنون) عقب بيعة العقبة الأولى (السنة الثانية عشرة).

أما الأمر الثاني فهو أن السورة ذكرت بني إسرائيل بما يفيد إرسال رسالة سلام إلى يهود المدينة الذين لا شك أنهم قد توجسوا من انتشار الإسلام في المدينة وقرب قدوم الرسول إليها. ذلك قوله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ، فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ (في شك) مِنْ لِقَائِهِ (مع الله الذي ضرب معه مواعدين)، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ. وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ". وهذه الإشادة بموسى وبني إسرائيل يمكن أن تفهم على أن الإسلام الذي يدعو إليه الرسول (ص) يريد أن يعيش مع يهود المدينة في جو من التسامح والاعتراف المتبادل. وبهذا تكون هذه الرسالة مكملة لما ورد قبل في سورة الأنبياء التي أخبرتهم أن الوعود التي وعد الله بها موسى في التوراة قد تحققت، وأن الله قد قضى في الزبور (كتاب داوود) أن الأرض يرثها عباده الصالحون دون تمييز...

76- سورة الطور

- تقديم

أخرج الطبري عن ابن عباس أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم قاتل قاتل منهم : أحبسوه في وثاق ثم تريضوا به المنون حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء : زهير والنابغة، فبما هو كأحدهم. فأنزل الله في ذلك أم يقولون شاعر نتريص به ريب المنون".

وهذه الرواية جزء من رواية طويلة حكاها ابن إسحاق تتحدث عن اجتماع كبلر قريش وقراراهم باغتيال النبي، ومحاولة تنفيذهم لهذا القرار وعلم الرسول بذلك في نفس الليلة التي ذهبوا فيها لاغتياله فلم يجنوه في مكان نومه، ووجدوا في على فراشه علي بن أبي طالب، وكان الرسول قد أوصاه بذلك، للإفلات منهم، وغادر مكة مهجراً إلى المدينة. وقد نجأ فعلاً. وبناء على هذه الرواية تكون سورة "الطور"، التي وردت فيها الآية المذكورة، آخر ما نزل في مكة! وهذا لا يستقيم، لا باعتبار رتبة هذه السورة في لوائح ترتيب النزول ولا باعتبار مضمونها.

وما نراه هو أن الاجتماع الذي تحدثت عنه رواية ابن إسحاق قد وقع بعد بيعة العقبة الثانية التي فتحت المجال لهجرة المسلمين إلى المدينة. أما قول تعالى : "أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرِيبُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ"، فيعبر عن حيرة قريش وعدم قدرتهم على اتخاذ قرار نهائي في شأن اغتياله، وهو رد فعل يمكن أن يكون قد صدر عنهم في أي وقت.

- نص السورة

1- مقدمة: إن عذاب ربك لواقع.. ما له من دافع ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالطُّورُ¹ (الذي كلم الله فيه موسى)، وَكِتَابٍ مُنطَوَّرٍ² (القرآن) ؛ فِي رَقٍّ مُنشُورٍ³ ، وَالْبَيْتِ الْمَغْمُورِ⁴ (الكعبة)، وَالسَّقْفِ الْمَرْقُوعِ⁵ (السماء)، وَالْبَحْرِ

الْمَسْجُورُ^٦ (الذي يغلي، في جهنم)، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ^٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ^٨ (وهذا تفصيل ذلك):

2- مصير المكذبين ومصير المتقين...

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (تتحرك حبة ذهابا)^٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا^{١٠}، قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ^{١١} الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ^{١٢}، يَوْمَ يَدْعُونَ (يدفعون بعنف) إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعًّا^{١٣}: (يقال لهم) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ^{١٤}، أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ^{١٥}؟ لَصَلَوْهَا، فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^{١٦}. إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ^{١٧}، فَلَكَاهِنَ (ممتنعين) بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ. وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ^{١٨}؛ كُلُوا وَاشْرَبُوا، هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^{١٩}: (يقال لهم ذلك بينما كانوا) مُكْنِبِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْقُوفَةٍ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ^{٢٠} (زوجاتهم متكئات معهم). وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ، أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ^(١)، وَمَا أَفْتَانَاهُمْ (ما نقصنا) مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، كُلْ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ^{٢١} (يجزى حسب عمله). وَأَمْنَكْنَاهُمْ بِفَلَكَاهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ^{٢٢}. يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كُلًّا (يتناولها بعضهم من بعض)، لَا نَقُوعٌ فِيهَا (الجنة) وَلَا تَلَيُّمْ^{٢٣} (لا كذب). وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُجْجَانٌ لَهُمْ، كُلُّهُمْ لَوْلُؤٌ مُكْنُونٌ^{٢٤}. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ^{٢٥}: قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ^{٢٦} (كنا في الدنيا محرومين خائفين)، فَمَنْ لَئِلَهِ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ^{٢٧} (ريح حارة)، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ (الله). إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ^{٢٨}.

3- فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ، بِنِعْمَةِ رَبِّكَ، بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ...

فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ، بِنِعْمَةِ رَبِّكَ^(٢)، بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ^{٢٩}. أَمْ (هل) يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا أَلْمُتُونُ^{٣٠}؟ (حوادث الأيام) قُلْ تَرَبَّصُوا فَلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ^{٣١}، أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَلْعَلَّاهُمْ بِهِذَا؟ أَمْ (بل) هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ^{٣٢}؟ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ؟ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ^{٣٣}! فَلْيَلْزِمُوا بَحْثِ مِثْلِهِ إِن كُنُوا صَادِقِينَ^{٣٤}. أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ^{٣٥}؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، بَلْ لَا يُوقِنُونَ^{٣٦}! أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ، أَمْ هُمُ الْمُسْتَظِرُّونَ^{٣٧}؟

1 - يقول للمخشري : "يجمع الله لهم أنواع السرور بسعائهم في أنفسهم، ويمزوجة الحور العين، ومؤنسة الإخوان المؤمنين، ولبتماع أولادهم ونسلهم بهم".

2- قيل: "بنعمة ربك" : قسم. وقيل ليست بقسم وإنما هو بمثابة قولنا : "فما أنت، والحمد لله، بكاهن..."

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ (إلى السماء) يَسْمَعُونَ فِيهِ؟ قُلَيْتَ مُسْمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ³⁸! أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ؟ وَلَكُمْ الْبَنُونَ³⁹! أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ⁴⁰! (يشعرون بنقل الأجر عليهم)، أَمْ عَنْدهُمْ (علم) الْغَيْبِ فَهُمْ يَكْتُمُونَ!⁴¹ (ذلك العلم، ولين هو)! أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا (يتآمرون عليك)? فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ⁴² (المكيد بهم). أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ⁴³! وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا (قطعا كالحجر ونحوه مما أهلك به الأقدمون) يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ⁴⁴! فَتَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ⁴⁵. يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ⁴⁶. وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا تُونَ تِلْكَ (قبل ذلك)⁽³⁾، وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْمُونَ⁴⁷ (ما سينزل بهم بعد هجرة النبي إلى المدينة).

4- وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (تحت رعايتنا)، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ⁴⁸، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِنَبَارَ النُّجُومِ⁴⁹.

- تعليق

تتميز هذه السورة والسور السبع التالية لها بخصائص ثلاث: فمن جهة وربت متتابعة في معظم لوائح ترتيب النزول، ومن جهة ثانية هي ذات حجم قصير، مع بعض التفاوت، ومن جهة ثالثة هي ذات موضوع مركزي واحد هو البعث، والخطاب فيها موجه إلى قريش، في الغالب، وبأسلوب جدلي.

أما أن تكون رتبها في لوائح ترتيب النزول مطابقة لمسار التنزيل فهذا لا تشهد له بالأصحة بعض الإشارات في هذه السور وسنبررها في حينها (وقد سبق أن عرضنا للرواية التي ترتبط بقوله تعالى "أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ" والتي تحيل إلى أواخر العهد المكي). وأما ما يفسر وجود هذه السور في هذه الرتب، حاملة الخصائص المذكورة، فهذا ما ليس واضحا الآن بالقدر الكافي. كل ما يمكننا قوله هو أن السور التي نزلت بعدها جاءت من جنس التي نزلت قبلها مضمونا وشكلا، الشيء الذي جعل هذه السور الثماني تبدو وكأنها "جملة اعتراضية"، داخل نفس السياق.

3- ووضح أنه هو نفسه العذاب المشار إليه في السورة السابقة بقوله تعالى: "لَعَذَابُ الْآخِرَى" (الآية 21) أي ما سيشتبه عليهم المسلمون من غزوات بعد الهجرة إلى المدينة التي كانوا قد بدؤوا فيها. وتطابقا من حقيقة أن القرآن نزل مفرقا على مقتضى الأحوال فإنه يمكن القول إن "الحال" الذي نزلت هذه السور مناسبة له هو وضعية المسلمين في مكة بين بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية (بين السنة الثانية عشرة والثالثة عشرة).

تؤكد هذه السورة عن طريق القسم أن مصير المشركين إلى جهنم أمر واقع ليس له من دافع. ثم ترسم مشهدا لقيام الساعة، وآخر لما يلاقيه الكفار من عذاب في جهنم من جهة، وما يتمتع به المتقون من أنواع النعم في الجنة من جهة أخرى. بعد هذا تنتقل إلى مخاطبة النبي عليه السلام طالبة منه الاستمرار في الدعوة وعدم الاهتمام بما يصفونه من الجنون وغيره، فاتحة جدلا مع قريش، ترد فيه على ما يتداولونه من مكائد للتخلص منه، من قول بعضهم، اتركوه للزمن وحوائث الأيلم، وانتظروا فسيموت كما مات الشعراء السابقون له، ويأتي جواب القرآن، في نوع من التحدي، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ. وتستمر السورة في مجادلتهم إلى أن تعود إلى مخاطبة النبي عليه السلام : فَنَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ⁴⁵. يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ⁴⁶. ثم تضيف: "وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ (قبل ذلك)"⁽⁴⁾، ولكن أكثرهم لا يعلمون⁴⁷، مشيرة إلى عذاب سيلاقونه في الدنيا قبل الآخرة، كناية عن قرب دخول الدعوة مرحلة الحرب معهم، بعد أن أصروا على التكذيب بها والتكليل بالمسلمين. ثم تختتم بدعوة الرسول إلى التزام الصبر، فإنه تحت رعاية الله وعنايته ولن ينالوا منه شيئا: "وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (تحت رعايتنا)، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ⁴⁸، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِنَبَارَ النُّجُومِ⁴⁹.

4- واضح أنه هو نفسه العذاب المشار إليه في السورة السابقة بقوله تعالى: "الْعَذَابُ الَّذِي" (الآية 21) أي ما سيحدثه عليهم المسلمون من غزوات بعد الهجرة إلى المدينة التي كانوا قد بدؤوا فيها. وتطابقا من حقيقة أن القرآن نزل مفرقا على مقتضى الأحوال فإنه يمكن القول إن "الحال" الذي نزلت هذه السور منسبة له هو وضعية المسلمين في مكة بين بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية (بين السنة الثانية عشرة والثالثة عشرة).

77- سورة الملك

- تقديم

نم يرد حول هذه السورة شيء يستحق الذكر سيوى أنها مكية باتفاق وأن قوله تعالى في السورة: "وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"، نزل -حسب رواية عن عباس- في جماعة من قريش كانوا يناقشون أمر النبي عليه السلام وكيفية التخلص منه، فقال بعضهم لبعض لا ترفعوا أصواتكم حتى لا يسمعا إله محمد؟

- نص السورة

1- مقدمة: خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...

بسم الله الرحمن الرحيم
تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ¹، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ
وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ².

2- مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ،
فَارْجِعِ الْبَصَرَ، هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ³ (شقوق) ؟ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْتَلِبْ إِلَيْكَ
الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ⁴ (العدم رؤية أي خلل). وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمِصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ (تضربها عندما تحاول استراق السمع) وَأَعْتَدْنَا
لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ⁵.

3- وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ⁶. إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا
لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ⁷. تَكَادُ تَمَيَّزُ (تتمزق) مِنَ الْغَيْظِ (غضبا على الكفار)، كَلِمًا

أَلْقَى فِيهَا فَوْجَ سَالَمٍ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ⁸؟ قَالُوا بَلَى! قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ، فَكَذَّبْنَا (رسلنا) وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ⁹. وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ¹⁰! فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ، فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ¹¹. إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ (1) لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ¹²، وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ (2)، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ¹³. أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ¹⁴.

4- أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ؟

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ دَلُولًا (سهلة) فَاَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا (سبلها)، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (البعث)¹⁵. أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ¹⁶ (تتحرك تنزل)! أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا، (ريحا ترميك بالحجارة) فَسْتَغْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ¹⁷. وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ¹⁸ (إنكاري عليهم)! أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ (يطلقن أجنحتهن ويقبضنها)، مَا يُمْسِكُهُنَّ (من السقوط) إِلَّا الرَّحْمَنُ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ¹⁹. أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ، يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ؟ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ²⁰. أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ (الرحمان) رِزْقَهُ؟ بَلْ لَجُوا (تمادوا) فِي عَتُوٍّ وَتَفُورٍ²¹! أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًا (واقعا) عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ²²؟

5- وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ²³. قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ (خلقكم) فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ²⁴. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ²⁵؟ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ

1- سبق أن قلنا إن المقصود بـ"الغيب" هنا هو الإيمان بالله من دون طلب أدلة حسية كالمعجزات كما كانت تطلب قريش من النبي عليه السلام.

2- روي عن ابن عباس أنها نزلت في جماعة من قرش كانوا يناقشون أمر النبي عليه السلام وكيفية التخلص منه، فقال بعضهم لبعض لا ترفعوا أصواتكم حتى لا يسمعنا إله محمد؟

مُبِينٌ²⁶. فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً (عندما يرونه قريباً منهم)، سَيِّئَتْ (تغيرت واسودت) وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ²⁷ (أنكم لا تتبعون).

6- خاتمة: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ ... فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ ؟

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا، فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (لا مجير لهم)²⁸؟ قُلْ (مجبرنا الذي يحمينا) هُوَ الرَّحْمَنُ، أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ²⁹ (نحن أم أنتم)؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا (غار في الأرض)، فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ³⁰.

- تعليق

واضح من مضمون هذه السورة أنها تندرج ضمن السياق العام الذي تتحرك فيه سور هذه المرحلة. فهي تتحدث عن البعث، عن عذاب النار ونعيم الجنة. ومع أن خطاب الوعيد فيها موجه إلى قريش فإن الأدلة التي تعرضها هي من بيئة العرب خارج مكة، الشيء الذي يعني أن خطاب الدعوة موجه إليهم : السماوات الطباق، والكواكب زينتها، الأرض الذلول، والمشى في مناكبها، الطيور الصافات تجري في السماء دون أن تسقط. أضف إلى ذلك إشارة السورة إلى انشغال قريش بأمر التخلص من الرسول والرد عليهم (التقديم والخاتمة).

78- سورة الحاقة

- تقديم

لم يرد في شأنها ما يستحق الذكر سوى اتفاقهم على أنها مكية، وتحديد رتبها في لوائح ترتيب النزول ما بين الرتبتين 77 و 78.

- نص السورة

1- مقدمة: الحاقة ما الحاقة ؟

بسم الله الرحمن الرحيم
الْحَاقَّةُ¹ (القيامة)، مَا الْحَاقَّةُ²! وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ³؟! (تهويل أمرها).

2- ثمود، عاد فرعون، لوط ، إشارات للتهديد والتخويف

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارَعَةِ⁴ (القيامة)! فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا⁵ بالطاغية⁵ (الصيحة الطاغية)، وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا⁶ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ⁶ (شديدة الصوت قوية)، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا (متتابعات ككتابع الكي الذي يحسم فيما يشكو منه المكوي) فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا⁷ نَخْلٌ خَاوِيَةٌ⁷ (جذوع نخل لا جريد فوقها)! فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ⁸؟! وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمِنْ قَبْلَهُ، وَالْمُؤْتَفِكَاتُ (أهل قري لوط) بِالْخَاطِنَةِ⁹، فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ¹⁰ أَخَذَةً رَابِيَةً (زائدة في الشدة). إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ (حدث الطوفان) حَمَلْنَاكُمْ (أي حملنا آبائكم وأنتم في أصلابهم، أي الإنسان كنوع) فِي الْجَارِيَةِ¹¹ (في سفينة نوح). لَنَجْظِئَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً (عظة) وَنَعِيهَا أُنْزِلَ وَأَعْيَتْ¹².

3- مشهد قيام الساعة والحساب والجزاء : الجنة أو النار...

فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً¹³، وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً¹⁴ وَاحِدَةً¹⁴، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ¹⁵. وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ¹⁶ وَالْمَلَكُ

عَلَى أَرْجَائِهَا، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ¹⁷ (من الملائكة). يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ¹⁸. فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ (خذوا)⁽¹⁾، اقْرَءُوا كِتَابِيهِ¹⁹. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ²⁰. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ²¹، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ²²، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ²³، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ²⁴، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ²⁵، وَلَمْ أَذْرَ مَا حِسَابِيهِ²⁶، يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ²⁷، مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ²⁸، هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةً²⁹ (سقطت عن حجتِي). (قِيلَ) خُذْهُ فَغُلُّهُ³⁰ (اجمعوا يديه إلى عنقه)، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلْوُهُ³¹ (الْقَوْد)، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا (قِيَاسُهَا) سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ³² (كَتَقْوَهُ). إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ³³، وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ³⁴، فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ³⁵، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ³⁶ (شجر في جهنم)، لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ³⁷ (أخطئوا في الدنيا طريق الرشاد).

4- خاتمة: إنه لقول رسول كريم

فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ³⁸ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ³⁹: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ⁴⁰، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ، قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ⁴¹! وَلَا يَقُولُ كَافٍ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ⁴²! تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ⁴³. وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا (النبي محمد) بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ⁴⁴، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ⁴⁵ (لما قبضناه عقاباً شديداً). ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ⁴⁶ (شريان القلب). فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ⁴⁷ (مانعين عنه العقاب). وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ⁴⁸. وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ⁴⁹، وَإِنَّهُ (القرآن) لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ⁵⁰ (عندما يرون تحقق ما يخبرهم به)، وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ⁵¹ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ⁵².

- تعليق

تندرج هذه السورة ضمن سور هذه المرحلة من حيث تركيزها على البعث والحساب. وتتميز هذه السورة القصيرة بكونها تستعيد مضمونا وشكلا سورا أخرى نزلت في المرحلة الثانية تدور حول "البعث ومشاهد القيامة" (القسم الأول من هذا الكتاب). وكما قلنا في تعليق سابق فالتكرار الملاحظ في هذه السور يرجع إلى اختلاف المخاطب. كان المخاطب في المرحلة الثانية، خلال السنة الرابعة والخامسة للنبوة، هم مشركو قريش، خوطبوا بحديث البعث ومشاهد القيامة. أما هنا في

¹ - هازم: للجمع المذكور، كما أن هاكم للجمع المؤنث، وهاك للمفرد (الخ).

المرحلة السادسة، التي استغرقت أربع سنوات (العاشرة - الرابعة عشرة) فالمخاطبون هم أهل القبائل والمسلمون الجدد في المدينة وغيرها من أطراف الجزيرة العربية، فضلا عن أهل مكة. وقد سبق أن قلنا إنه أمام غياب وسائل النشر والاتصال، لم يكن هناك من سبيل لتبليغ الدعوة سوى إعادة التذكير بما سبق أن نزل. كان المسلمون الأوائل الذين عايشوا نزول القرآن في المرحلتين الأولى والثانية قد هاجروا إلى الحبشة ولم يبق مع النبي إلى أفراد من قدماء المسلمين (أبو بكر وعمر وعلي ...). فكان استئناف الدعوة بعد الخروج من الحصار يكتسي طابع الإعادة - خصوصا وأركان الدعوة بقيت هي هي : النبوة، التوحيد، البعث. أما القصص فالمناسب في هذه المرحلة هو ذلك الذي يشكل جزءا من موروث العرب - أهل القبائل خاصة- أعني قصص عاد وثمود وما يسمونه عن فرعون مصر وهو ما تستعيده هذه السور وبشكل مركز ومناسب لمقتضى الأحوال.

79- سورة المعارج

- تقديم

كل ما ورد في شأن هذه السورة من "أسباب نزول" خير ورد فيه أن قوله تعالى "سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ" الآيات، نزل في النضر بن الحارث حين قال: "اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ" الآية، فدعا على نفسه وسأل العذاب. وهناك خبر آخر مؤداه أن قوله تعالى "أُطِمَعُ كُلُّ إِمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةً نَعِيمٍ كَلَّا..." (الآية 38) نزل ردا على المشركين الذين كانوا يرون النبي (ص) وحوله المستضعفون يستمعون القرآن يتحدث عن الجنة فقالوا: لنن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم وليكون لنا فيها أكثر مما لهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وكما سبق أن قلنا غير ما مرة فإن معظم الآيات التي يقال عنها إنها نزلت بسبب "كذا" لا شيء يثبت أنها نزلت فعلا بسبب ذلك، فلم يكن هناك تسجيل بهذا المعنى، بل كل ما هناك هو أن المهتمين بتفسير القرآن في مراحل لا حقة كانوا يسألون الصحابة أو التابعين عن النوازل التي يمكن أن تكون لها علاقة بهذه الآية أو تلك. وهكذا فقولهم إن الآية الفلانية "نزلت بسبب كذا" لا يعني بالضرورة أن الأمر كذلك بالفعل، كل ما هناك هو أن الآية قد تجد ما يعين على فهمها في هذه الحادثة أو تلك، بناء على أن القرآن نزل منجما حسب مقتضى الأحوال. لكن القرآن كما نزل وجمع وكما نقرؤه في المصحف هو مجموعة سور، تتناول أكثر من موضوع، وذات خطاب ميني، أي عبارة عن آيات (أي مقاطع كلامية) ترتبط ببعضها داخل سياق معين. فالآيات، -أو بعض أجزائها- التي يقال عنها إنها نزلت بسبب النازلة الفلانية هي مندرجة في سياق معين، والغالب ما يصعب فصلها عن سياقها لكي تلبي مقتضيات ما اعتبر "سببا لنزولها". ولذلك كان الأساس في فهم القرآن هو السياق، أما ما يذكر من أسباب نزول ففائدته هو أنه يمدنا بعناصر تساعدنا على موضعة الآية في موقعها المحتمل على مستوى السيرة النبوية، أما على مستوى التنزيل فلا اعتبار للسياق أولا وأخيرا⁽¹⁾.

¹ - يصدق هذا على القرآن المكي خاصة. أما علاقة "أسباب النزول" بالقرآن المسدني فسنتعرف عليها حين نتعاملنا معه.

- نص السورة

1- مقدمة: سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ¹ لِلْكَافِرِينَ، لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ²، (عذاب) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ³ (للسماوات، في السماء العليا، كناية عن علو المقام): تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ (جبريل) إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ⁴ (كناية عن علو وسمو مقام الله). فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا⁵ (على أذى قومك، وتكذيبهم بيوم القيامة فسيلاقون العذاب الذي عنه يسألون). إِنْهُمْ يَرَوْنَهُ (العذاب يوم القيامة) بَعِيدًا⁶، وَتَرَاهُ قَرِيبًا⁷.

2- يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمُنْذٍ بَيْنِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ..

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (كالفتات)⁸ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (الصوف المنفوش)⁹، وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا¹⁰ (ولا يطلب قريب قريباً) يُبْصِرُونَهُمْ (يرشدونهم. حينذاك). يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمُنْذٍ بَيْنِيهِ¹¹ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ¹² وَقَصِيلَتِهِ (عشيرته) الَّتِي تُوْوِيهِ¹³، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، ثُمَّ يُنْجِيهِ¹⁴ (2). كَلَّا، إِنَّهَا لَظَى¹⁵ (جهنم)، نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (تنزع جلد الرأس)¹⁶، تَدْعُوا (تطلب وتمسك من جلد رأسه) مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى¹⁷، وَجَمَعَ (المال) فَأَوْعَى¹⁸ (حفظه في وعاء).

3- خصال المؤمن ... ومشهد القيامة

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا¹⁹ (شديد الفزع)، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا²⁰ (تراه خائفا)، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا²¹ (بخيلا)، إِلَّا الْمُصَلِّينَ²² الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ²³، وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ²⁴ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ²⁵ (3). وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ²⁶، وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ²⁷ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ²⁸ (4). وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ²⁹، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا

2- المعنى: يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي عَذَابَ جَهَنَّمَ بِجَمِيعٍ مِنْ ذَكَرْتَهُمُ الْآيَةُ.

3- مدح للمؤمنين الذين يجعلون في أموالهم حقا للسائل والمحروم.

4- بمعنى أنهم يخشون عذاب ربهم باستمرار لأن القيام بما ذكر لا يمنعهم بصفة نهائية من العقاب، ولذلك يحترزون من افتراء ذنوب أخرى بعد أن يكونوا قد قاموا بما تقدم.

مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ³⁰، فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ³¹ (المعتدون). وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ³² (لَا يَخْلِفُونَ)، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ³³ (يُؤَدُّونَ شَهَادَةَ الْحَقِّ)، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ³⁴. أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ³⁵.

4- أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِيْلَكَ مُهْطِعِينَ³⁶ (مركزين أنظارهم فيك)، عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ عِزِينَ³⁷ (متحلقين حولك)، أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ³⁸؟ كَلَّا، إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ³⁹ (من نطفة، متساوون، والجنة يتوقف الدخول إليها على العمل لها). فَلَمَّا أَقْسَمَ رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ (5) إِنَّا لَنَاقِدِرُونَ⁴⁰ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْتُوقِينَ⁴¹ (بمعجزين).

5- خاتمة: فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ...

فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ⁴²، يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا (من القبور مسرعين إلى المحشر) كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُوبٍ (رايات وما أشبه) يُوفَضُونَ⁴³ (يسارعون)، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ، تَرَاهُمْ ذِلَّةً. ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ⁴⁴.

تعليق

كان خصوم الدعوة المحمدية من مشركي مكة يعترضون على عقيدتها التي تقوم على المبادئ الثلاثة الرئيسية: النبوة، والتوحيد والبعث:

كان اعتراضهم على نبوة محمد مبنيًا على عدة حجج : منها أنه بشر مثلهم يأكل الطعام، وأنه لم يأت بمعجزة كما فعل أنبياء سابقون مثل موسى وعيسى الخ، وهذه الحجج كانت ضعيفة أمام دعوة القرآن لهم إلى استعمال عقولهم والنظر في نظام الكون وفي أنفسهم. وأمام إصرارهم واتهامهم النبي بافتراء القرآن تحداهم أن يأتوا بسور أو حتى بسورة واحدة مثله، فَعَجَزُوا.

5- تشرق الشمس وتغرب كل يوم في نقطة خاصة من الأفق، متحركة حركتها الظاهرة من المشرق إلى المغرب. والقسم هنا يربط المشارق والمغرب يناسب الموضوع وهو أن قدرته تعالى على إعادة خلق البشر، كقدرته على جعل الشمس تشرق وتغرب ثم تعود فتشرق ...

وكان اعتراضهم على التوحيد، بمعنى نفي الشريك عن الله، بإبداء عجبهم من كون محمد عليه السلام جعل الآلهة إلها واحدا! وهنا أيضا كان رد القرآن عليهم حاسما، فلم يجدوا ما يردون به إلا القول بأنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون.

أما اعتراضهم على المبدأ الثالث، أعني، البعث والجزاء، فقد بنوه على حجتين: الأولى قولهم باستحالة إحياء العظام "وهي رميم". ومعلوم أن القول باستحالة وجود شيء، لا يقوم حجة إلا إذا كانت هناك تجربة أو تناقض منطقي. أما الحجة الثانية فهي نوع من مطالبة الخصم بإثبات دعواه بالإتيان بما يدعيه. وفي الجدل العقلي لا يصح هذا، ذلك لأن على صاحب الدعوى أن يثبت عقليا إمكانية حدوث ما يدعيه، لا أن يأتي به شخصا، وعلى خصومه أن يردوا على حججه بما يفسدها أو يوهنها. ولما لم يكن في إمكان قريش القيام بمثل هذا الرد عمدوا إلى التمسك بسؤال يعرفون مسبقا أنه لا أحد يستطيع الجواب عنه: متى تقوم القيامة ويكون البعث؟ وأحيانا يتحول السؤال إلى تحد باستعجال قيامها! هذا في حين أن البعث ليس مجرد حادثة، بل هو حساب وجزاء، وبالتالي تحميل الإنسان مسؤوليته، والذين ينكرون البعث إنما يتهربون من تحمل مسؤولية سينات أعمالهم، ومسؤولية تقصيرهم في تحصيل الحسنات التي يذهبن السيئات.

من هنا كان الجدل حول البعث حاميا بينهم وبين الدعوة المحمدية، فالقضية ليست مجرد مسألة ما ورائية، بل هي مسألة تخص الدنيا قبل الآخرة. وإلى هذا الصنف من الجدل ينتمي الخطاب القرآني في هذه المجموعة من السور القصيرة نسبيا التي نزلت في هذه المرحلة الأخيرة من مسار التنزيل في مكة.

لنقرأ السورة التي نحن ضيوف عليها من هذا المنظور:

1- تنطلق السورة من التأكيد على أن العذاب الذي وعد الله به المشركين واقع لا محالة يوم القيامة. أما استعجالهم له، أي لقيام القيامة وفناء العالم، فهو ناتج عن اعتقادهم أو توهمهم بأن فناء العالم أي انتهاء زمان الدنيا يمكن قياسه بمقاييس البشر. وتضرب السورة لذلك مثلا بملك يصدر أوامره لحكام أقاليم مملكته فإذا كانت هذه المملكة واسعة جدا فإن حاملتي تلك الأوامر إلى أولئك الحكام سيحتاجون إلى زمن طويل (بقياس وسائل الاتصال آنذاك). وإذا شبهنا مهمة الملائكة بمهمة حاملتي أوامر الملك إلى الأقاليم البعيدة في مملكته، فإنه سيكون على الملائكة أن يصعدوا إلى الله في إطار زمن كل يوم فيه يعادل خمسين ألف سنة من أيام البشر. ومن هذا المثل يتبين أن الوعد الإلهي بقيام الساعة ومعاقبة المكذبين يحتاج تنفيذه من طرف الملائكة إلى زمن طويل جدا. وإذن فعلى الرسول أن لا يخضع لمنطق قريش حين يطلبون منه تحديد "تاريخ" قيام القيامة. إن عليه أن يصبر كما صبر الرسل من قبل،

بدون قلق ولا فقدان ثقة في النفس، إنه الصبر الجميل المطلوب منه. خصوم الدعوة المحمدية يقبسون المسافة التي تفصلهم عن يوم القيامة بزمهم البشري فيرونه بعيدا جدا، يرونه حدثا ضائعا في أفق لا حد له، تماما كما يبدو لهم "تاريخ" بداية خلق الكون ضائعا في الأفق المقابل.

2- يوم القيامة هو يوم "البعث" بعد فناء العالم بما فيه الزمان. ومن مشاهد هذا الفناء: أن السماء تفقد تماسكها فتصير فئاتا، والجبال تفقد صلابتها فتصير منقوشة كالصوف. أما البشر فيصيبهم الذهول: فلا يسأل قريب عن قريب يقوده أو يرشده. لا يهتم المجرم الذي ينتظره العذاب بالبحث عن أقارب أو أصدقاء، بل هو مستعد -إن أمكنه ذلك- أن يقدم بنيه وزوجته وأقاربه "ومن فالأرض جميعا" ثمنا لنجاته من العذاب، ولكن هيهات! إن نار جهنم تخطفه إليها، تمسك إليها بجلد رأس كل من أعرض عن الدعوة المحمدية وانقطع لجمع المال وخزنه.

3- ذلك هو طبع الإنسان الذي طبعه الله عليه: إذا مسه الشر فزع وخاف، وإذا مسه الخير بخل به على الضعفاء والمحتاجين. ذلك هو سلوك المشركين. أما المؤمنين الذي يداومون على عبادة الله، ويتصدقون على المحتاجين، ليس من موقع المراءاة والتفاخر أو المن على الضعفاء، بل هم يفعلون ذلك من موقع شعورهم بأن في أموالهم حق للسائل والمحروم، وإيمانهم باليوم الآخر، يوم الحساب، وخوفهم على أنفسهم من عذاب ربهم، وإشفاقهم على أنفسهم من أن يقصروا فيصيبهم نصيب المقصر من العذاب. ليس هذا فحسب، بل إن من خصال هؤلاء المؤمنين أنهم لا يزنون ولا ينكثون العهد ولا يضيعون الأمانة ولا يتهربون من أداء شهادة الحق، ولا يسهون عن صلاتهم. هؤلاء مصيرهم الجنة، يقيمون فيها مكرمين.

4- لماذا يجلس الذين كفروا في حلقات من حولك ويركزون أن "أرهم فيك وأنت تقرأ هذا الذي يوحى إليك؟ هل يطمع كل منهم في الجنة؟ كيف؟ وبأي حق؟ هل يمكن إشراكهم مع المؤمنين لمجرد أنهم خلقوا من نطفة؟ هل يعتبرون أنفسهم أرفع أصلا ومنزلة من المؤمنين؟ ليس الأمر كذلك! المصير إلى الجنة يتوقف على العمل الصالح. هل يتعقدون أن وجودهم ضروري لبقاء الدنيا كما هي؟ لا! إن وجودهم غير ضروري في الدنيا حتى يطمعوا في الجنة بدون عمل. إن الله قادر إلى أن يبدلهم خيرا منهم؟

5- هؤلاء مغرورون مفتونون بالدنيا، فلتتركهم يلهون ويلعبون حتى يفاجئهم اليوم الذي يوعدون، يوم البعث، اليوم الذي سيخرجون فيه من قبورهم، مسرعين إلى المحشر، يسابق بعضهم بعضا من شدة الفرع، أبصارهم خاشعة وعلى وجههم منة. ذلك هو اليوم الذي يوعدون.

80- سورة النبأ

- تقديم

لم يرد في شأن هذه السورة سوى أنها مكية وأن رتبها في لوائح ترتيب النزول تقع بين الرئبتين: 72 و 80. أما الأخبار التي تعود بنزول هذه السورة والصور المجاورة لها هنا إلى السنوات الأولى من البعثة، فلا شيء يزكيها سوى تشابه مضمونها مع تلك السور، وقد سبق أن بينا أن هذا التشابه يجب أن لا يخفى عنا ما بينهما من اختلاف يرجع إلى نوع المخاطب. من تلك الأخبار أن ابن عباس قال: "كانت قريش تجلس لما نزل القرآن فتتحدث فيما بينها، فمنهم المصدق ومنهم المكذب به" فنزلت: "عم يتساءلون". والقول إن كون قريش كانت تجتمع وتتساءل الخ، لا يصح دليلا على أن هذه السورة نزلت لهذا السبب، فقد كان تداول قريش في أمر محمد عليه السلام شغلها الشاغل منذ نبوته إلى انتهاء أمر قريش بفتح مكة...

- نص السورة

1- مقدمة: يَتَسَاءَلُونَ، عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ!

بسم الله الرحمن الرحيم
عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ¹؟ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ² (قيام القيامة)³ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ!
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ⁴، ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ⁵.

1- بعض المفسرين فسروا النبأ العظيم بالنبوة: بمعنى أن قريشا كانوا يتساءلون عن حقيقة نبوة محمد (ص). والواضح أن السياق يدل على أن موضوع السؤال هو "البعث". فالوعيد "كلا سيعلمون..." يدل عليه: كلا سيعلمون ما يسألون عنه يوم حدوثه: يوم تقوم الساعة. أما كونهم مختلفين فيه فلأن بعضهم ينكره إنكارا وبعضهم متردد، وبعضهم يشك الخ. وقد سبقت الإشارة إلى حيرة قريش في هذا الأمر. ثم هناك الآية التالية بعد، التي تتحدث عن يوم الفصل بوصفه ميقاتا أي موعدا محددا.

2- أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا...

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (فراشا)⁶، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا⁷، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا⁸، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (راحة)⁹، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا¹⁰، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا¹¹ (الطلب المعاش)، وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا¹² (سماوات لا يؤثر فيها الزمن)، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا¹³ (الشمس)، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ (السحاب) مَاءً ثَجَّاجًا¹⁴ (صبابا)، لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا¹⁵، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا¹⁶ (بساتين ملتفة كثيفة الأشجار)؟ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا¹⁷ (موقوتا. وهذا جواب الاستفهام : أَلَمْ نَجْعَلِ...).

3- عَذَابَ جَهَنَّمَ وَنَعِيمَ الْجَنَّةِ ...

يَوْمَ يَفْخُ فِي الصُّورِ (قرن) فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا¹⁸، وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا¹⁹، وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا²⁰ (سريعة كالسراب)، (في ذلك اليوم :) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا²¹، لِلطَّاغِينَ مَابًا²²، لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا²³، لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا²⁴، إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا²⁵ (ماء حاراً وصديداً)، جَزَاءً وَفَاقًا²⁶. إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا²⁷، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا²⁸، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا²⁹، فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا³⁰. إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا³¹، حِذَاقٍ وَأَعْنَابًا³²، وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا³³، وَكَأْسًا دِهَاقًا³⁴، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا³⁵، جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا³⁶. رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا: الرَّحْمَانُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا³⁷ (لا يجرؤ أحد أن يكلمه)، يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا، لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَقَالَ صَوَابًا³⁸.

4- خاتمة: إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ...

ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَا³⁹. إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا، يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا⁴⁰.

- تعليق

1- موضوع السورة كما أفصحت عنه مقدمتها هو البعث. لقد أجابت السورة السابقة الذين كانوا ينكرون البعث باستعجال حدوثه، وبينت مصير المكذبين ومصير المؤمنين، وما يتطلبه الدخول إلى الجنة من خصال الخ، وتأتي هذه السورة لتبين للذين

ينكرون البعث من زاوية أنه غير ممكن، أن فعل الله وخلقه وصنعه الذي يرون في الدنيا دليل على إمكانيته:

2- إن أجزاء الكون من أرض وسماء وليل ونهار وسحاب ومطر الخ، كل ذلك خلقه الله في نظام وترابط ولغاية، فلماذا تقرون بهذا ولا تسلمون أن الله جعل لهذا العالم ميقاتا لفنائه ثم إحيائه من جديد، عالما آخر يتم فيه الفصل والحكم بين المؤمن والمشرک، والظالم والمظلوم، يحاسب فيه الناس على أعمالهم في الدنيا. فبدون هذا اليوم الفصل تبقى الحياة بدون معنى: الحق فيها والباطل سيان!

3- يوم الفصل، ينفخ في الصور، فتقوم القيامة، ويفنى العالم، تنشق الأرض فتخرجون من قبوركم أفواجا، تنشق السماء فتتعدد فيها الفتحات والأبواب، وتسير الجبال (ومنها المحيطة بمكة) فتصبح سرايا. وحينها تفتح جهنم أبوابها لمن كانت تنتظره من الطغاة ليجازوا عما عملوا، كما تفتح الجنة أبوابها لمن أعدت لهم من المتقين، ثوابا لهم. كل في المكان الذي يستحقه في الجنة أو في النار، ولا أحد يحتج، بل الكل صامت! الله لا يقدر أحد على أن يكلمه: في هذا المشهد يقف جبريل والملائكة لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمان وكان كلامه صوابا.

4- ذلك هو النبا العظيم الذي يندر به القرآن، فمن شاء منهم جعل مآبه إلى الله، أما الكفار المعرضون المكذبون فسيندمون عندما يحاسبون على ما قدمت أديهم، وحينئذ يتمنون أن لو كانوا في الدنيا مجرد تراب...

81- سورة النازعات

- تقديم

من الأخبار التي وردت حول آيات من هذه السورة الخبر التالي، قالوا: لما نزل قوله تعالى "إنا لمردودون في الحافرة" (الآية 10)، قال كفار قريش : لئن حيننا بعد الموت لنخسرن، فنزلت "قالوا تلك إذا كرة خاسرة" (الآية 12) . وفي خبر آخر أن النبي (ص) كان يسأل عن الساعة فنزلت : "يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فيم أنت من ذكراها، إلى ربك منتهاها". هذا وقد رتبت هذه السورة في لوائح النزول بين الرتبة 72 والرتبة 81، فهي من أواخر ما نزل، وهي مكية باتفاق.

- نص السورة

1- مشهد قيام الساعة: النفخة الأولى والنفخة الثانية...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْنازعاتِ غَرْقا¹ (النجوم تجري في السماء من جهة إلى جهة حتى تغرق في الأفق)، وَالْناشِطاتِ نشطا² (الكواكب السيارة دائمة الحركة)، وَالْساَّباتِ سَبا³ (النجوم تسبح في السماء)، فَالْساَّباتِ سَبا⁴ (السابقات من السابحات)، فَالْمُدْبِرَاتِ أَمرا⁵ (شروقا وأقولا وما يرتبط بذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول الخ)⁽¹⁾، يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ⁶ (النفخة الأولى في الصور: فناء

1 - ذكر معظم المفسرين احتمال أن يكون المقصود من "النازعات" الخ، النجوم كما أثبتنا، ولكنهم مالوا إلى ترجيح أن يكون المقصود بهذه الموصوفات هم الملائكة، وذلك في ارتباط مع مقتضيات العقيدة الإسلامية. أما نحن فقد فضلنا الاحتمال الأول باعتبار أن الآيات تخاطب المشركين من قريش بما هو من المشاهد عندهم، أي من معبودهم. وقد رأينا كيف أقسم الله بالظواهر الطبيعية، كالشمس والليل والفجر والضحي وغيرها من عناصر الكون التي يعرفها الناس كلهم ويشهدون بصحة ما يصيغ عليها القرآن من أوصاف. فالهدف ليس تقرير العقيدة بقدر ما هو الاحتكام إلى ما لا ينزع فيه الخصم، وهذا من قبيل الاستدلال بالشاهد على الغائب.

العالم) تَتَبِعُهَا الرَّادِفَةُ⁷ (النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ لِلْبَعْثِ، لِلخُرُوجِ مِنَ الْقُبُورِ وَالْجَمْلَةِ: يَوْم...
جواب القسم في رأينا)⁽²⁾.

2- يَقُولُونَ أَنَّنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ

قُلُوبٌ يَوْمَنَدُ (قلوب المشركين وقت الرجة الثانية) وَأَجْفَةٌ⁸ (قلقة خائفة)،
أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ⁹ (ذليلة): يَقُولُونَ (المشركون) أَنَّنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ¹⁰ (في
حفرة جهنم؟)⁽³⁾! أَأَنْذَا كُنَّا عِظَامًا تَخِرَّةً¹¹ (أَسِيحَدَّثُ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كُنَّا عِظَامًا
مَنْخُورَةً)؟! قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ (رجوعهم إلى الحياة بعد الموت) خَاسِرَةٌ¹².
(وهكذا) قَاتِمًا هِيَ زَجْرَةٌ (نفخة ثانية) وَاحِدَةٌ¹³، فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ¹⁴ (بوجه
الأرض، العارية، أحياء بعد أن كانوا أمواتا في القبور).

3- فَرَعُونَ كَذَبَ وَعَصَى، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى

هَلْ (قد) أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى¹⁵، إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى¹⁶
(اسم الوادي حيث خاطبه الله فيه وقال)، أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى¹⁷، فَقُلْ هَلْ
لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى¹⁸، وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى¹⁹؟ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى²⁰ (عصا
موسى)، فَكَذَّبَ وَعَصَى²¹، ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى²²، فَحَشَرَ (جمع السحرة) فَنَادَى²³ (في

2 - اختلف المفسرون والنحاة في جواب القسم، وقد عرض الطبري جملة من الآراء،
وانتهى إلى القول: "والصواب من القول في ذلك عندنا: أن جواب القسم في هذا الموضع،
مما استغني عنه بدلالة الكلام، فترك ذكره"، بمعنى أنه يفهم من السياق، وترك الباب
مفتوحا. ونحن نرى أن الجواب مذكور وهو الجملة: "يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة".
والمعنى: أقسم بـ"النازعات غرقا" وغيرها من ظواهر انهيار العالم وفنائه أنه بعد أن
ترجف الراجفة وقيام الساعة ويفنى العالم ستتبعها رجة ثانية هي البعث للحساب، فالقسم
من أجل تأكيد البعث.

3 - شرح المفسرون "الحافرة" بـ"الحياة" ونسب هذا النوع من الشرح لابن عباس وغيره،
وذلك على معنى: "يقول هؤلاء المكذبون بالبعث من مشركي قريش إذا قيل لهم (اليوم وهم
أحياء): إنكم مبعوثون من بعد الموت: أننا لمرردون إلى حالتنا الأولى قبل الممات، فراجعون
أحياء كما كنا قبل هلاكنا، وقبل مماتنا؟ وهو من قولهم: رجع فلان على حافرته: إذا رجع
من حيث جاء". هذا بينما يدل السياق بوضوح على أن قول المشركين المذكور هو رد فعلهم،
وقلوبهم واجفة، يرتعدون، من المشهد الذي وجدوا أنفسهم إزاءه وقد خرجوا من قبورهم
على أثر الراجفة الثانية. وإن فسوألهم ليس سؤال إنكار أو استهزاء بل هو سؤال يعبر عن
كونهم فوجئوا بكون البعث حصل، وأنهم سيلقى بهم في الحافرة (بمعنى محفورة): أي في
النار: سيردون إلى حفرة أخرى، قبر آخر ليس كالقبر الأول بل هو قبر من النار. وفي
التوراة استعمل لفظ "الحفرة" بهذا المعنى كناية عن جهنم.

قومه)، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى²⁴. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ (عِقَاب) الْآخِرَةِ (على قوله : أنا ربكم الأعلى) وَالْأُولَى²⁵ (على تكذيبه موسى). إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةَ لِمَنْ يَخْشَى²⁵.

4- أَأَنْتُمْ (يا أهل مكة) أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ، بَنَاهَا ...

أَأَنْتُمْ (يا مشركي مكة) أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ؟ : بَنَاهَا²⁷، رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا²⁸، وَأَغْطَشَ (أظلم) نَبْطَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا²⁹، وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا³⁰، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا³¹، وَالْجِبَالَ أُرْسَاهَا³²، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ³³ (كل ذلك تمتيعا لكم ولأنعامكم) .

5- الحساب: الجحيم أو الجنة

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (النفخة الثانية)³⁴، يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى³⁵ (حين الحساب)، وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى³⁶: فَأَمَّا مَنْ طَغَى³⁷ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا³⁸ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى³⁹. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى⁴⁰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى⁴¹.

6- خاتمة: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا.. فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا!

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا⁴² (متى وقوعها)! فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا⁴³ (ليس من شأنك علمها)! إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا⁴⁴ (علمها عند الله). إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا⁴⁵. كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا (يُخِيلُ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ) لَمْ يَلْبَثُوا (في الدنيا أو في قبورهم) إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا⁴⁶.

- تعليق

دأب مشركو مكة على إنكار البعث، وقد سبق أن بينا أن مضمون البعث في العقيدة الإسلامية مبني على فكرة المسؤولية : بمعنى أن الناس سيحاسبون في الآخرة على ما فعلوه في الدنيا. وهذا كايح ديني أخلاقي ملزم، الغرض منه صد الناس عن الظلم وما في معناه، وحثهم على فعل الخير. وهذا ما لم يكن يستسيغه الملأ من قريش : أصحاب سلطة القبيلة وسلطة المال. ومن أجل الحفاظ على سلطتهم المزدوجة تلك، كذبوا بالبعث وكانت حجتهم التي يكررونها هي أن الإنسان عندما يموت تصير عظامه "تخرة" ويتحول جسمه كله إلى تراب الخ. وفي الرد على القائلين

بهذا (وقد وجد منهم قبل الإسلام وبعده) كتب الرازي في تفسيره تعليقاً اعتمد في بعض جوانبه على محاولة تحديد معنى "الإنسان" عندما يقال عنه إنه سيبعث يوم القيامة، ننقله للقارئ ليطلع على رأي متكلم فيلسوف أشعري في الموضوع. قال: "أعلم أن حاصل هذه الشبهة (احتجاج منكري البعث بتحول الإنسان بعد الموت إلى "عظام نخرة") أن الذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله: "أنا" هو هذا الجسم المبنى بهذه البنية المخصوصة. فإذا مات الإنسان فقد بطل مزاجه وفسد تركيبه فتمتنع إعادته، لوجوه:

- أحدها أنه لا يكون الإنسان العائد هو الإنسان الأول إلا إذا دخل التركيب الأول في الوجود مرة أخرى، وذلك قول بإعادة عين ما عديم أولاً، وهذا محال لأن الذي عديم لم يبق له عين ولا ذات ولا خصوصية، فإذا دخل شيء آخر في الوجود استحال أن يقال بأن العائد هو عين ما فني أولاً.

- وثانيها: أن تلك الأجزاء تصير تراباً وتنتشر وتختلط بأجزاء كل الأرض. - وثالثها: أن الأجزاء الترابية باردة يابسة (4) قسفة (رثة متحللة)، فتولد الإنسان، الذي لا بد وأن يكون حاراً رطباً في مزاجه، عنها محال. هذا تمام تقرير كلام هؤلاء الذين احتجوا على إنكار البعث بقولهم: "أذا كنا عظاماً نخرة".

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه أولها: وهو الأقوى: لا نسلم أن المشار إليه لكل أحد بقوله: أنا هو هذا الهيكل (الجسد)، ثم إن الذي يدل على فساد وجهان: - الأول: أن أجزاء هذا الهيكل في الذوبان والتبدل، والذي يشير إليه كل أحد إلى نفسه بقوله "أنا" ليس في التبدل، والمتبدل مغاير لما هو غير متبدل.

والثاني: أن الإنسان قد يعرف أنه هو، حال كونه غافلاً عن أعضائه الظاهرة والباطنة. والمشعور به مغاير لما هو غير مشعور به، وإلا لاجتمع النفي والإثبات على الشيء الواحد وهو محال، فثبت أن المشار إليه لكل أحد بقوله: "أنا" ليس هو هذا الهيكل (الجسد بل هو النفس). ثم ههنا ثلاث احتمالات :

أحدها أن يكون ذلك الشيء (=النفس) موجوداً قائماً بنفسه، ليس بجسم ولا بجسماني، على ما هو مذهب طائفة عظيمة من الفلاسفة ومن المسلمين (5).

وثانيها: أن يكون جسماً مخالفاً بالماهية لهذه الأجسام القابلة للتحلل والفساد، "كأن يكون روحاً" سارية فيه سريان النار في الفحم، وسريان الدهن في

4- البيبوسة البرودة والرطوبة والحرارة (في الفكر العلمي للقديم) من خصائص العناصر الأربعة التي تتكون منها الأجسام: التراب، الماء، الهواء، والنار.

5- والقاتلون بهذا يقولون إن البعث للنفوس وليس للأجساد وأن الله خاطب للعرب حسب فهمهم لـ "الإنسان" بكونه هذا الجسم المشار إليه بالاسم الذي أعطي له: زيد أو عمرو.

السمسم، وسريان ماء الورد/في جرم الورد. فإذا فسد هذا الهيكل تقلصت تلك الأجزاء (أجزاء ذلك الجسم الروحي) وبقيت حية مدركة عاقلة، إما في الشقاوة أو في السعادة.

وثالثها: أن يقال: إنه جسم مساو لهذه الأجسام في الماهية، إلا أن الله تعالى خصها بالبقاء والاستمرار من أول حال تكون شخص في الوجود إلى آخر عمره، وأما سائر الأجزاء المتبدلة نارة بالزيادة، وأخرى بالنقصان، فهي غير داخلة في المشار إليه بقوله "أنا". فعد الموت تنفصل تلك الأجزاء وتبقى حية، إما في السعادة أو في الشقاوة.

وإذا ظهرت هذه الاحتمالات ثبت أنه لا يلزم من فساد البدن وتفرق أجزائه فساد ما هو الإنسان حقيقة. وهذا مقام حسن متين تنقطع به جميع شبهات منكري البعث. وعلى هذا التقدير لا يكون لصيرورة العظام نخرة بالية متفرقة تأثير في دفع الحشر والنشر البتة.

واضح أن رأي الرازي الأشعري مما قرره أعلاه هو أن البعث للأرواح لا للأجساد. وهذا هو نفسه الرأي الذي سبق لأستاذة الغزالي الأشعري أن نسبه للفلاسفة (ابن سينا خاصة) فكفرهم بسببه في كتابه "تهافت الفلاسفة".

هناك مسألة أخرى تثار بمناسبة قوله تعالى: **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ**⁶ (النفخة الأولى في لصور: فناء العالم) **تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ**⁷ (النفخة الثانية: الخروج من القبور: البعث). فهذه الآية لا تترك مجالاً للقول بـ "عذاب القبر". كل ما هناك نفختان: النفخة الأولى التي يقضى بها العالم، بما فيه الإنسان، ثم النفخة الثانية التي يكون بها البعث. أما الأخبار والأحاديث التي تروى حول تفاصيل "السؤال" و"عذاب القبر" فليس في القرآن ما يشهد لها بالصحة وكل ما ذكر في الموضوع تأويلات بعيدة. والعلماء يجعلون العذاب يوم القيامة للأرواح وليس للأجسام، كما ذكر الرازي أعلاه.

هذا وقد ذكر ابن حزم في فصل طويل⁽⁶⁾ كلاماً عن "عذاب القبر" يستفاد منه ما يلي، قال: أنكر بعض المعتزلة والخوارج وغيرهم وجود عذاب القبر إذ لم يرد عنه في القرآن نص صريح، وكل من قال إن في القرآن ما يدل على عذاب القبر إنما هو متأول. والظاهر أن من حجج من أنكروا عذاب القبر - بحجة العقل - اعتراضهم بمن يأكله السبع أو يغرق في البحر ويأكله الحوت أو من مات بسبب نار أحرقت جسمه الخ. ويرد ابن حزم بأن العذاب بعد الموت لا يتعلق بالأجسام بل بالأرواح. فالعذاب في الآخرة هو عذاب الأرواح وليس عذاب الأجسام التي تفقد الإحساس بالموت، وما الموت إلا خروج الروح من الجسد الذي يبقى جثة هامة ثم تتحلل الخ. وقد ذكر ابن

6- ابن حزم. الفصل في الملل والأهواء والنحل ج1: الكلام في الشفاعة والميزان والحوض وعذاب القبر والكتب. مكرر في ج3

حزم روايات عديدة عن الصحابة تؤكد أن العذاب بعد الموت هو عذاب الأرواح لا الأجسام. أما أين تكون الأرواح بعد فراقها الأجسام فذلك أمر مختلف فيه. لمزيد بيان أنظر الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة الثانية. القسم الأول. وأيضاً "التعليق: سورة نوح.

82- سورة الانفطار

- تقديم

لم يرد عن هذه السورة سوى أنها مكية باتفاق، وقد رتب بين 72 و 84 في لوائح ترتيب النزول.

- نص السورة

1- مقدمة: قيام الساعة

بسم الله الرحمن الرحيم
إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ¹ (انشقت)، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ²، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ³،
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ⁴، (جواب القسم: حدث البعث و) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتُ
وَأَخَّرْتُ⁵.

2- البعث والحساب والجنة والنار...

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ⁶ (فلم تهتم بأوامره وهو)⁽¹⁾ الَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ⁷ (جعلك معتدل الخلقة)، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ⁸؟⁽²⁾
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ⁹ (بالبعث والحساب)، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ¹⁰ (ملائكة يسجلون

1- والمعنى ما الذي جعلك تتساهل وتتهاون في الاستجابة لربك؟ قيل، قال عليه السلام: "غرّه جهله".

2- بعض المفسرين يجعلون "ما" زائدة، والكلام في صيغة الإثبات، والمعنى ركبك قسي أي صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة في الحسن والقبح... (الزمخشري). وبعضهم قال: "ما" يجوز أن تكون صلة مؤكدة؛ أي في صورة شاء ركبك. ويجوز أن تكون شرطية أي إن شاء ركبك في غير صورة الإنسان من صورة قرد أو حمار أو خنزير (القرطبي).

أَعْمَالَكُمْ)، كَرَامًا كَاتِبِينَ¹¹، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ¹². (وبناء عليها تحاسبون): إِنَّ الْأَبْرَارَ نَفِي نَعِيمٍ¹³؛ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ¹⁴، يَصْنَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ¹⁵، وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ¹⁶. وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ¹⁷! ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ¹⁸ (صيغة تأكيد وتهويل)! يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ¹⁹.

- تعليق

من المفسرين من "يتكلم" في نظم القرآن على طريقة المتكلمين، فيفترض ويحتج ويجادل الخ. وقد رأينا ذلك فيما نقلناه من قبل عن الرازي، وهذا مثال آخر. يقول الرازي، المتكلم والفيلسوف الأشعري بصدد الآية السادسة من هذه السورة ("يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ") : "اعلم أنه سبحانه لما أخبر في الآيات (الخمس) الأولى عن وقوع الحشر والنشر ذكر في هذه الآية ما يدل عقلاً على إمكانه أو على وقوعه، وذلك من وجهين:

الأول، أن الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع موائد نعمه عن المذنبين، كيف يجوز في كرمه أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم؟

الثاني: أن القادر الذي خلق هذه البنية الإنسانية ثم سواها وعدلها، إما أن يقال: إنه خلقها لا لحكمة أو نعمة، فإن خلقها لا لحكمة كان ذلك عبثاً، وهو غير جائز على الحكيم، وإن خلقها لحكمة، فتلك الحكمة، إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى أو إلى العبد؟ والأول باطل لأنه سبحانه متعال عن الاستكمال والانتفاع، فتعين الثاني، وهو أنه خلق الخلق لحكمة عائدة إلى العبد، وتلك الحكمة إما أن تظهر في الدنيا أو في دار سوى الدنيا؟ والأول باطل، لأن الدنيا دار بلاء وامتحان، لا دار الانتفاع والجزاء. ولما بطل كل ذلك ثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى، فثبت أن الاعتراف بوجود الإله الكريم الذي يقدر على الخلق والتسوية والتعديل يوجب على العاقل أن يقطع بأنه سبحانه يبعث الأموات ويحشرهم، وذلك يمنهم من الاعتراف بعدم الحشر والنشر. وهذا الاستدلال هو الذي ذكر بعينه في سورة التين حيث قال: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ" إلى أن قال: "فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الدِّينِ" (التين: 4-7).

ويضيف الرازي: "وهذه المحاجة تصلح مع العرب الذين كانوا مقررين بالصانع وينكرون الإعادة، وتصلح أيضاً مع من ينفي الابتداء (يعنيك الخلق ابتداء) والإعادة (البعث: إعادة الخلق) معاً، لأن الخلق المعدل (=الأول) يدل على الصانع، وبواسطته (=الصانع) يدل على صحة القول بالحشر والنشر. فإن قيل: بناء هذا الاستدلال على أنه تعالى حكيم، ولذلك قال في سورة التين بعد هذا الاستدلال: "الْأَنسَ"

اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ" (التين: 8)، فكان يجب أن يقول في هذه السورة: ما غرك ربك الحكيم؟ (بدل الكريم) الجواب: أن الكريم يجب أن يكون حكيماً، لأن إيصال النعمة إلى الغير لو لم يكن مبنياً على داعية الحكمة لكان ذلك تمييزاً لا كرمًا. أما إذا كان مبنياً على داعية الحكمة فحينئذ يسمى كرمًا. إذا ثبت هذا فنقول: كونه كريماً يدل على وقوع الحشر من وجهين كما قررناه، أما كونه حكيماً فإنه يدل على وقوع الحشر من هذا الوجه الثاني، فكان ذكر الكريم ههنا أولى من ذكر الحكيم، هذا هو تمام الكلام في كيفية النظم، يقصد نظم الخطاب : علاقة بعضه ببعض كبيان يتوخى البرهان. قلت: في هذا "الكلام" غير قليل من سفسطة "المتكلمين".

ذلك أن قوله تعالى في سورة التين "أليس الله بأحكم الحاكمين؟" ورد في سياق الرد على المكذبين بالحساب والثواب والعقاب، حيث اعتمد الرد هناك على : أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم رد الغافلين عن كرمه إلى أسفل سافلين، وجعل مصير المؤمنين جنة النعيم، والسؤال: أليس الله بأحكم الحاكمين مناسب لأن الأمر يتعلق بالجزاء، بإصدار حكم، على فريقين من الناس: فريق كذب ولم يؤمن، متجاهلاً نعمة الله عليه إذ خلقه في أحسن تقويم. وفريق آمن واعترف بنعمة الله: حكم على الأول بالعقاب وعلى الثاني بالثواب، فهذا حكم عادل ليس فيه ظلم، فهو صادر من "أحكم الحاكمين" أي من أكثر الحاكمين حكمة وعدلاً.

أما قوله في السورة التي بين أيدينا: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ"، ولم يقل "الحكيم" فهو مبرر تماماً لأن المطروح هنا هو "كرم الله" : "الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ" (جعلك معتدلاً الخلقه)، في أي صورة ما شاء ركبك⁸، وهذا الكرم واضح من مقارنة صورة الإنسان بالكائنات الأخرى: الجماد النبات الحيوان، فهو أفضل هذه المخلوقات وصورة.

83- سورة الانشقاق

- تقديم

لم يرد عن هذه السورة شيء يذكر سوى أنها مكية باتفاق، وأن رتبته في لوائح ترتيب النزول تتحرك بين 79 و84. أما بعض آياتها فقد وردت عنها أخبار سندرجها في الهوامش، وبعضها يفيد أن هذه السورة نزلت أثناء هجرة المسلمين إلى المدينة، الشيء الذي يؤكد مصداقية رتبته هنا.

- نص السورة

1- مقدمة: قيام الساعة

بسم الله الرحمن الرحيم
إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ، وَأُنْزِلَتْ لَرَبِّهَا (استجابت لأمر ربها) وَحَقَّتْ²
(واستجابتها حق)؛ وَإِذَا الْأَرْضُ مُنَّتْ³ (سطحت بفعل زلزلة القيامة)، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
وَتَخَلَّتْ⁴ (أخرجت المدفونين فيها وتخلت عنهم، كأنها كانت تخبئهم)، وَأُنْزِلَتْ لَرَبِّهَا
وَحَقَّتْ⁵ (استجابت لربها ومن حقها أن تفعل. وجواب القسم مفهوم من السياق: فذلك
يوم القيامة).

2- الحساب، كتب باليمين، وكتب وراء الظهر!

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ (سائر) إِلَىٰ رَبِّكَ (يوم القيامة) كَنَحًا فَمَلَأْهِ⁶: فَلَمَّا
مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ⁷ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا⁸ (تعرض عليه أعماله وليس
فيها ما يستوجب العقاب فيمر سريعاً)، وَيُنْقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا⁹ (1). وَأَمَّا مَنْ

1- "يقال إنها نزلت في عهد الله بن عبد الأسد أبي سلمة، أول من هاجر من مكة إلى المدينة" (القرطبي، السيرة الحلبية). وهذا تأكيد لمصداقية رتبته.

لُوتِي كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ¹⁰ ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا¹¹ (يقول: ولثبراه، ولويلام)، وَيَصْلَى سَعِيرًا¹² (جهنم). إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ (في الدنيا) مَسْرُورًا¹³ (2)، إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ¹⁴ (لَنْ يبعث)، بَلَى! إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا¹⁵ (عالما). فَنَّا أُنْصِمَ بِالْثَغْفَى¹⁶ (حمرة الأفق عند مغيب الشمس)، وَاللَّيْلُ وَمَا وَسَقَ¹⁷ (وما ضم ولخفى)، وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَسَّقَ¹⁸ (كملت استدارته)، لَتُرْكَبَنَّ¹⁹ (3) طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (لَتَمْرُونَ بأحوال: ضراء فسراء، مقام فهجرة الخ).

3- فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ!

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ²⁰ ؟ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ²¹ (4) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتُمُونَ²²، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ²³ (يضمرون). فَنُبَشِّرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ²⁴، إِنَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ²⁵ (5).

- تعليق واستطراد

موضوع هذه السورة كلخواتها السبعة السابقة هو الحشر والنشر، ويظهر مما ما ورد في هذه السورة من أخبار أن آيات منها نزلت في أشخاص من مشركي مكة ممن كانوا يؤنون للمسلمين بصورة شرسة عندما عرفوا أن الإسلام أخذ ينتشر خصوصا في يثرب. وكما سبق أن بينا فإن الوعيد والترهيب وذكر الحشر والنشر والجزاء الخ، كان سلاح الدعوة للمحمدية التي التزمت عدم الرد على العنف بالعنف كيفما كان الحال، بل كان الأمر بالصبر والوعد بالنصر للمؤمنين هو لتبديل عن عنف مشركي مكة. وبما أن الوعيد للمشركين كان يتكرر مقرونا في كثير من الأحيان بمشاهد من جهنم فلقد عد هؤلاء إلى نوع من التحدي الذي يصدر عن الخلف الذي يجتهد في إخفاء خوفه وذلك بالإكثار من هذا السؤال بصيغة الاستهزاء المصطنع: وَمَتَى يَأْتِي هَذِهِ

2- قيل نزلت في الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وهو أخو أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المنكور في الهملش السابق. قيل: كان رجلا شرسا، سيء الخلق، شديد العداوة لرسول الله «وجاءه أول من يعطى كتابه بشمله، كما أن أخاه أبا سلمة أول من يعطى كتابه يمينه كما تقدم (السيرة الحلبية).

3- قرئ بالفتح وعن ابن عباس: «أي لتركبن يا محمد حالا بعد حل».

4- قيل: «قرأ رسول الله (ص) ذات يوم «وَأَسْبَغَ وَتَقَرَّبَ» فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر، فنزلت».

5- قال بعض أهل اللغة إن قوله «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» ليس مستثاء، وإنما هو بمعنى لولوا، كقوله: وَالَّذِينَ آمَنُوا (القرطبي)، وذلك لأن المستثنى منه غير بين.

الساعة؟³ لقد رفضوا الإقرار باليوم الآخر وحجوا في هذه المسألة حتى إنهم طلبوا بعث آياتهم ليتكفروا منه. وقد رد عليهم القرآن في أماكن عديدة كما رأينا في كثير من السور.

ويهذه المناسبة، مناسبة التعليق على آخر سورة من هذه السور الثماني (الطور - الانشقاق) التي تنحصر موضوعها كلها تقريباً، في الوعيد بالحشر والنشر، نورد استطراداً نجل فيه آراء المتكلمين والمفسرين في مسألة الحشر والنشر والخلود و"حشر البهائم" الخ.

1- مسألة الخلود في الجنة والنار

من المسائل التي أثارها المتكلمون حول البعث مسألة ما إذا كانت الجنة والنار مخلوقتين أم أهما قديمتان. قال أبو الهيثم العلاف منظر مذهب المعتزلة: إن حركات أهل الخالدين (في الجنة والنار) تنقطع وإنهم يصيرون إلى سكون دائم خموداً، وتجتمع للذات في ذلك السكون لأهل الجنة، وتجتمع الآلام في ذلك للسكون لأهل النار. يقول الشهرستاني: وإنما للترم أبو الهيثم هذا المذهب لأنه لما ألزم في مسألة حدوث العالم: "أن الحوادث للتي لا أول لها (أي القديمة)، كالحواشي للتي لا آخر لها (الخالدة) إذ كل واحدة لا تنتهي⁽⁶⁾ قال: إني لا أقول بحركات لا تنتهي آخراً، كما لا أقول بحركات لا تنتهي أولاً، بل يصيرون (أصحاب الجنة والنار) إلى سكون دائم. وعلق الشهرستاني على ذلك قائلًا: "وكيفه ظن أن ما نلزمه في الحركة لا يلزمه في السكون"، بمعنى أن القول بالسكون الدائم كالقول بالحركة الدائمة. فلاهنية السكون كلاهنية الحركة. أما الجهم بن صفوان أحد كبار المتكلمين الذي يقرب مذهبه في بعض المسائل من مذهب المعتزلة فراه: "أن حركات أهل الخالدين (في الجنة أو النار) تنقطع، والجنة والنار تسيران بعد دخول أهلها فيهما وتلذذ أهل الجنة بنعيمها وتلذذ أهل النار بحميمها، إذ لا تتصور حركات لا تنتهي آخراً كما لا تتصور حركات لا تنتهي أولاً، وحمل قوله تعالى: خالدين فيها على المبالغة والتكيد دون الحقيقة في التخليد، كما يقول: خلد الله ملك فلان واستشهد على الانقطاع بقوله تعالى: "خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك". فالآية اشتملت على شريطة (وجود السموات والأرض) واستثناء (حتى مع

6- المسألة متعلقة في الأصل بالتزاع حول حدوث العلم وقدمه. يقول منكرو حدوث العلم، أي قنن يقولون لا بداية له: إذا كنا نقول إن الجنة والنار توصفان بالخلود وأصحابها خالدين فيها، أي أن حركتهم لا نهاية لها، فكيف لا نقول لشيء نفسه في حركة العلم بمعنى أنها حركة لا بداية لها؟ فالحركات التي لا آخر لها يجب أن تكون لا بداية لها. ولكي يخرج أبو الهيثم المدافع عن الإسلام، الذي من قواعد الإيمان القول بخلق الله للعلم، قل ما هو منكور أعلاه.

وجودها). والخلود والتأبيد لا شرط فيه ولا استثناء. وينكر الشهرستاني أن أحد المحسوبيين على المعتزلة وهو أبو بكر الأصبم: قال: إن الجنة والنار ليستا مخلوقتين الآن، إذ لا فائدة في وجودهما وهما جميعاً خاليتان ممن ينتفع ويتضرر بهما!

2- الخلود لمن؟

- وجهة نظر المعتزلة

يقوم مذهب المعتزلة على أصول خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبهما هنا رأيهم في الوعد والوعيد، أعني رأيهم في الجنة والنار والخلود فيهما. قالوا بناء على أصلهم في "العدل" والمقصود عندهم العدل الإلهي: إن "الإيمان عبارة عن التصديق، ومن ارتكب كبيرة ومات عليها من غير توبة عوقب على ذلك، ويجب أن يخرج من النار بعد العقوبة، فليس من العدل التسوية بينه وبين الكفار في الخلود". وقال بعضهم "إذا مات المسلم من غير توبة عن كبيرة ارتكبها، استحق الخلود في النار، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار". وينسب للجاحظ، وهو معتزلي له آراء خاصة، أنه قال: "إن الله لا يدخل النار أحداً، وإنما النار تجذب أهلها إلى نفسها بطبعها، ثم تمسكهم في نفسها على الخلود" (الشهرستاني).

وتنسب إلى إبراهيم بن سيار النُّظَّام، المعتزلي، المعروف بآرائه المتطرفة، أنه قال "الجاهل بلحكام الدين كافر، والمتعمد للخلاف بلا حجة منافق كافر، أو فاسق فاجر وكلاهما من أهل النار على الخلود"، ويدخل في عداد هؤلاء الصحابة الذين شاركوا في الفتنة زمن عثمان وعلى ومعاوية...

- وجهة نظر أهل السنة : الخلود وعذاب القبر...

أما أهل السنة فقد قالوا بأن الخلود في النار لا يكون إلا للكفرة، خلاف قول القدرية (المعتزلة) والخوارج القاتلين بتخليد كل من دخل النار فيها". ولكنهم أدخلوا القدرية والخوارج في زمرة الكفار وقالوا "يخلدون في النار ولا يخرجون منها، وكيف يغفر الله تعالى لمن يقول ليس لله أن يغفر ويخرج من النار من دخلها؟!". وقال أهل السنة بإثبات السؤال في القبر ويعذاب القبر لأهل العذاب وقطعوا بأن المنكرين لعذاب القبر يعذبون في القبر. وقالوا بالحوض والصراط والميزان ومن أنكر ذلك حرم الشرب من الحوض وبحضت قدمه من الصراط إلى نار جهنم. وقالوا بإثبات الشفاعة من النبي ومن صلحاء أمته للمذنبين من المسلمين ولمن كان في قلبه ذرة من الإيمان، والمنكرون للشفاعة يحرمون الشفاعة.

وهذه المسائل موضوع خلاف: فسؤال القبر وعذاب القبر لم يرد في القرآن

عنهما شيء (انظر التعليق في سورة الناعات)، مع أنه ذكر تفاصيل وافية عن حال أهل الجنة وأصحاب النار، ولم يرد في القرآن إلا حساب واحد هو الذي يكون بعد الرجفة الثانية، رجفة البعث، وخص الرجفة الأولى بمظاهر انهيار الكون كانشقاق السماء الخ.

3- الحشر والنشر عموماً

اهتم الرازي بهذه المسألة في تفسيره فكتب يقول انطلاقاً من قوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (الأنعام 38) (7): "اعلم أن مسألة الحشر والنشر من المسائل المعتبرة في صحة الدين، والبحث عن هذه المسألة إما أن يقع عن إمكانها أو عن وقوعها. أما الإمكان فيجوز إثباته تارة بالعقل، وبالنقل أخرى. وأما الوقوع فلا سبيل إليه إلا بالنقل. وإن الله ذكر هاتين المسألتين في كتابه وبين الحق فيهما من وجوه.

الوجه الأول: أن كثيراً ما حكى عن إنكار الحشر والنشر، ثم إنه تعالى حكم بأنه واقع كائن من غير ذكر الدليل فيه، وإنما جاز ذلك لأن كل ما لا يتوقف عليه صحة نبوة الرسول (ص) أمكن إثباته بالدليل النقل (القرآن والحديث) (8) وهذه المسألة كذلك، فجاز إثباتها بالنقل: مثاله ما حكم (الله) وهنا بالنار للكفار، والجنة للأبرار، وما أقام عليه دليلاً بل اكتفى بالدعوى. وأما في إثبات الصانع وإثبات النبوة فلم يكتف فيه بالدعوى بل ذكر فيه الدليل. وسبب الفرق ما ذكرناه. وقال في سورة النحل: "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ! بَلَىٰ، وَغَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" (النحل: 38) وقال في سورة التغابن: "رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ" (التغابن: 7).

الوجه الثاني أنه تعالى أثبت إمكان الحشر والنشر بناءً على أنه تعالى قادر على أمور تشبه الحشر والنشر (...) ثم إنه تعالى احتج على إمكانه بأمور (...) نذكر منها: - قوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ، أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ" (الواقعة: 58). وجه الاستدلال بذلك: أن المني إنما يحصل من فضلة الهضم الرابع (9) وهو كالظل (قطرات المطر الخفيف) المنبث في آفاق أطراف الأعضاء، ولهذا تشترك الأعضاء في

7- عرض لهذه المسألة عند شرحه للآية 25 من سورة البقرة، لأنه كغيره تبع ترتيب المصحف في تفسيره، والبقرة هي أولى السور فيه بعد الفاتحة.

8- بمعنى: إذا ثبتت صحة نبوة الرسول فيجب أن يكون صحيحاً كل ما جاء به، أي القرآن والحديث وهما المقصود بالنقل.

9- كان علم الطب القديم يقرر أن عملية هضم للمأكولات تمر بأربع مراحل: هضم في المعدة، وهضم في الكبد، وهضم للعروق في الدم، وهضم خلص بكل واحد من الأعضاء.

الالتئاذ بالوقاع (الجماع) بحصول الانحلال عنها كلها. ثم إن الله تعالى سلط قوة الشهوة على البقية حتى أنها تجمع تلك الأجزاء الطلية⁽¹⁰⁾. فالحاصل أن تلك الأجزاء كانت متفرقة جداً، أولاً في أطراف العالم، ثم إنه تعالى جمعها في بدن ذلك الحيوان، ثم إنها كانت متفرقة في أطراف بدن ذلك الحيوان فجمعها الله سبحانه وتعالى في أوعية المني، ثم إنه تعالى أخرجها ماء دافقاً إلى قرار الرحم. فإذا كانت هذه الأجزاء متفرقة فجمعها وكون منها ذلك الشخص، فإذا افرقت بالموت، مرة أخرى، فكيف يمتنع عليه جمعها مرة أخرى؟ فهذا تقرير هذه الحجة، وإن الله تعالى ذكرها في مواضع من كتابه⁽¹¹⁾، منها في سورة الحج: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْعِ فَبِأَيِّ خَلْقٍ أَنْتُمْ مِّنْ تَرَابٍ" إلى قوله: "وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً"⁽¹²⁾، ثم قال: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبْنَاهُ يَخْشَى الْمَوْتَ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ" (الحج: 6، 7)...

- وقوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ، أَلَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ... إلى قوله: "بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ" (الواقعة: 67). وجه الاستدلال به أن الحب وأقسامه، من مطول مشقوق وغير مشقوق، كالأرز والشعير، ومدور ومثلث ومربع، وغير ذلك على اختلاف أشكاله

10- يوظف الرزي هنا معطيات من "الفكر العلمي" كما كان في عصره. وكما أن هذا للتوظيف يبدو اليوم غير ذي موضوع ولا فائدة فيه، فكذلك الشأن في العلم المعاصر الذي سيصبح متجاوزاً. فتفسير القرآن بالعلوم الكونية تشويش محض، وقد فعلت الإسماعيلية ذلك من قبل لأغراضهم السياسية والإيديولوجية. أما الظنطوي جوهري فقد فعل ذلك في وقت كان فيه بعض الفقهاء يحرمون العلوم ما عدا علوم الدين، وهدف الظنطوي كان إثبات أن العلوم الطبيعية لا تتناقض مع القرآن.

11- ليس في القرآن ما يحاكه من تفاصيل ميتة لم تعد لها قيمة علمية. فليس في القرآن أن الله سيجمع نرات المني الذي خلق منه الإنسان. وهذا الافتراض يتناقض تماماً مع ما قرره الرزي نفسه في أماكن أخرى من أن البعث سيكون للأرواح وليس للأجساد (انظر للتطبيق في سورة النازعات). ومن هنا يمكن القول إن ما يسمى بـ"التفسير العلمي للقرآن" هو نقول على القرآن، فإن بدا وكله متفق مع العلم في مرحلة "راة" فإن تطور العلم يكشف أنه مجرد نقول على القرآن. القرآن نزل ليفهمه جميع الناس حسب ما يظهر لهم بأعينهم وحواسهم من أشياء الكون. ولو قيل للناس زمن النبوة ما ذكره الرزي لما صدقوا قوله، لأن ذلك ليس من معهودهم المعرفي.

12- نص الآية كاملاً كما يلي: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْعِ فَبِأَيِّ خَلْقٍ أَنْتُمْ مِّنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لَّنَبِّئَنَّكُمْ وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ لَجَلٍ مُّسْمًى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ أَتَشْكُرُونَ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْذُلُ إِلَىٰ آتِلٍ الْبَعْرِ لِكَيْلَا يَرْبِحَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ" (الحج: 5). وواضح أنه ليس في هذه الآية ما يحتمل ما ذكره الرزي عن الهضم وتكون المني الخ. فإله خلق = الإنسان من تراب والمقصود آدم، وخلق أفراد البشر بامتزاج مني للرجل مع بويضة المرأة وهذا ينتمي إلى عملية الخلق بالتلاقح، في النبات والحيوان. والمثال الأقرب إلى تفهيم الناس إمكان البعث هو تشبيهه بالنبات: يخضر ثم ينيل ثم يتلاشى في الأرض ثم ينبت من جديد. وقد استعمل القرآن مرات عديدة هذا المثال لتقريب معنى البعث كما في الآية أعلاه.

إذا وقع في الأرض الندية واستولى عليه الماء والتراب، فالنظر العقلي (؟) يقتضي أن يتعفن ويفسد، لأن أحدهما يكفي في حصول العفونة (؟)، ففيهما جميعاً أوتى (؟)، ثم إنه لا يفسد بل يبقى محفوظاً، ثم إذا ازدادت الرطوبة تنفلق الحبة فلتقتين فيخرج منها ورقتان، وأما المطول فيظهر في رأسه ثقب وتظهر الورقة الطويلة كما في الزرع، وأما النوى، فما فيه من الصلابة العظيمة التي بسببها يعجز عن فلقه أكثر الناس، إذا وقع في الأرض الندية ينفلق بإذن الله. ونواة التمر تنفلق من نفرة على ظهرها ويصير مجموع النواة من نصفين يخرج من أحد النصفين الجزء الصاعد، ومن الثاني الجزء الهابط، أما الصاعد فيصعد، وأما الهابط فيغوص في أعماق الأرض. والحاصل أنه يخرج من النواة الصغيرة شجرتان (؟): إحداهما: خفيف صاعد، والأخرى ثقيل هابط مع اتحاد العنصر واتحاد طبع النواة والماء والهواء والتربة؟! أفلا يدل ذلك على قدرة كاملة وحكمة شاملة؟⁽¹³⁾ فهذا القادر كيف يعجز عن جمع الأجزاء وتركيب الأعضاء؟ ونظيره قوله تعالى في سورة الحج: "وَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ" (الحج: 5).

- وقوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ، أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ" (الواقعة: 68-69). وتقديره أن الماء جسم ثقيل بالطبع وإصعاد الثقيل أمر على خلاف الطبع، فلا بد من قادر قاهر يقهر الطبع⁽¹⁴⁾ ...
وقوله تعالى: "أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ". وجه الاستدلال أن النار صاعدة والشجرة هابطة، وأيضاً النار لطيفة، والشجرة كثيفة. وأيضاً النار نورانية والشجرة ظلمانية، والنار حارة يابسة والشجرة

13- المؤمن في كل زمان سيقول : هو قادر، بدون هذه للتفصيل المشوشة، والآية وحدها أوضح. لما قوله إن نواة التمرة تخرج منها شجرتان ولحده إلى أعلى وثقيلة إلى أسفل فهذا ما يكتبه الواقع، فليس هناك غير النخلة المتجهة إلى أعلى، وجنورها المتجهة إلى أسفل وهي غير عيقة!
14- لا مكان هنا لـ "الصعود" فلماء ينزل من السحب الذي يتكون بفعل الضغط الجوي والرطوبة التي تصعد من البحار إلخ. والغريب أنه يلجأ هنا إلى استعصام مفهوم "الطبع" وهو من المفاهيم التي كان يقوم عليها "العلم" القديم، وقد قاوم المتكلمون المسلمون (معزلة وأشاعة) هذا المفهوم لأنه في نظرهم لا يترك مكاناً لخرق العادة ولا لتدخل الإرادة الإلهية. هم لا يقولون "إن من طبع النار أن تحرق" بل يقولون لقد اعتدنا أن نرى النار تشتعل عندما تلتقي بالقطن، فيحترق هذا الأخير، والاحتراق ليس من فعل النار بل هو فعل من الله الذي لا فاعل سواه. وبهذه الطريقة يعتقدون أنهم يفسحون المجال للمعجزة، مثل معجزة إبراهيم عليه السلام الذي لقاء قومه في النار ولم يحترق، وكان الأولى أن يكتفوا بالقول بتدخل الإرادة الإلهية (فَلَمَّا يَا نَارُ كُونِيَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ : الأنبياء 69) . وقرآني يتجاوز هنا أصول مذهب الكلاسي الأشعري. يعترف بالطبع ليعود فيقول إنه لا بد من قاهر يقهره! وفي هذه الحالة يمكن أن يسأل: ومن خلق هذه الطباع حتى يلجأ القاهر إلى قهرها. سنرى بعد قليل أنه ينكر الطبع كغيره من الأشاعة.

باردة رطبة، فإذا أمسك الله تعالى في داخل تلك الشجرة الأجزاء النورية النارية فقد جمع بقدرته بين هذه الأشياء المتنافرة⁽¹⁵⁾، فإذا لم يعجز عن ذلك فكيف يعجز عن تركيب الحيوانات وتأليفها؟ والله تعالى ذكر هذه الدلالة في سورة يس فقال: "الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا"⁽¹⁶⁾ (يس: 58). قلت (الجابري) واضح أن الأقوى من تلك التفاصيل المتقادمة المتناقضة قوله تعالى في آيات عديدة ما معناه: إن مشركي قريش يعترفون بأن الله خلق ذلك أول مرة، فلماذا ينكرون أن يستطيع إعادة خلقه؟

كان ذلك مجمل "الأدلة" التي استقاها الرازي من علم عصره للبرهنة على إمكان وقوع الحشر والنشر، وهو في ذلك يخرج عن إطار المذهب الأشعري الذي ينتمي إليه، ذلك أن مؤسس هذا المذهب، أبا الحسن الأشعري، قد حدد موقفه بكل وضوح من هذه الأمور المغيبة كما يلي، قال: "وما ورد به السمع (القرآن والحديث) من الأخبار عن الأمور الغائبة مثل: القلم واللوح والعرش والكرسي والجنة والنار فيجب إجراؤها على ظاهرها والإيمان بها كما جاءت إذ لا استحالة في إثباته" (الشهرستاني، الملل والنحل). وهكذا فكل ما يمكن للعقل أن يقوله في مثل هذه المسائل هو التالي: إنه كما لا يمكن البرهنة على أنها مستحيلة الوقوع فكذلك لا يمكن البرهنة على أنها ممكنة، والنتيجة هي إما "التوقف"، وإما الإيمان.

4- البعث للبهائم؟

قال الرازي بأن الحيوانات تحشر يوم القيامة بناء على قوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (الأنعام 38)". وأخذ في تفسير هذه الآية يعرض إشكالات في الموضوع كعادة المتكلمين:

من ذلك قوله: "الحيوان إما أن يكون بحيث يذب أو يكون بحيث يطير فجميع ما خلق الله تعالى من الحيوانات، فإنه لا يخلو عن هاتين الصفتين، إما أن يذب، وإما أن يطير. وفي الآية سوالات:

15- هذه التصنيفات إلى رطب ولبس، وحار وبارد، الخ من أساسيات العلم القديم. أما قوله إن الشجرة (أو الخشب) فيها أجزاء نورية نورانية فهذا ما قل به قديما أصحاب نظرية الكمون، وهي نظرية تفترض أن أشياء العالم كلها كمن بعضها في بعض وهي تتعارض مع فكرة الخلق.

16- الآية تتحدث عن أمر واقع كما يراه اللبس، وكما هو في معهودهم، وهو أن الخشب (أو الشجر) يشتعل إذا مسته النار. والقرآن يبني استدلاله على العلاقة بين ظاهر الموجودات وليس على "ماهية" تلك الموجودات.

السؤال الأول: من الحيوان ما لا يدخل في هذين القسمين مثل حيتان البحر، وسائر ما يسبح في الماء ويعيش فيه؟ والجواب: لا يبعد أن يوصف بأنها دابة من حيث إنها تدب في الماء أو هي كالطير، لأنها تسبح في الماء، كما أن الطير يسبح في الهواء، إلا أن وصفها بالدبيب أقرب إلى اللغة من وصفها بالطيران.

السؤال الثاني: ما الفائدة في تقييد الدابة بكونها في الأرض؟ والجواب من وجهين: الأول: أنه خص ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء احتجاجاً بالأظهر لأن ما في السماء وإن كان مخلوقاً مثلنا فغير ظاهر، والثاني: أن المقصود من ذكر هذا الكلام أن عناية الله تعالى لما كانت حاصلة في هذه الحيوانات فلو كان إظهار المعجزات القاهرة مصلحة لما منع الله من إظهارها. وهذا المقصود إنما يتم بذكر من كان أدون مرتبة من الإنسان لا يذكر من كان أعلى حالاً منه، فلهذا المعنى قيد الدابة بكونها في الأرض.

السؤال الثالث: ما الفائدة في قوله "يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ" مع أن كل طائر إنما يطير بجناحيه؟ والجواب فيه من وجوه: الأول: أن هذا الوصف إنما ذكر للتأكيد كقوله نعمة أنشئ وكما يقال: كلمته بفي، ومشيت إليه برجلي. الثاني: أنه قد يقول الرجل لبعده "طير" في حاجتي" والمراد الإسراع. وعلى هذا التقدير: فقد يحصل الطيران لا بالجناح... والثالث: أنه تعالى قال في صفة الملائكة "جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَّتَنًى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ" (فاطر: 1) فذكر هنا قوله "وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ" ليخرج عنه الملائكة فبأننا بينا أن المقصود من هذا الكلام إنما يتم بذكر من كان أدون حالاً من الإنسان لا يذكر من كان أعلى حالاً منه.

السؤال الرابع: كيف قال: "إِلَّا أَمَمٌ" مع أفراد الدابة والطائر؟ والجواب: لما كان قوله "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ" دالاً على معنى الاستغراق ومعنياً عن أن يقول: وما من دواب ولا طيور لا جرم حمل قوله "إِلَّا أَمَمٌ" على المعنى.

السؤال الخامس: قوله "إِلَّا أَمَمٌ أَمْثَالُكُمْ" قال الفراء: يقال إن كل صنف من البهائم أمة¹⁷ وجاء في الحديث: «لَوْ أَنَّ الْكَلَابَ أَمَةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَأُمِرَتْ بِقَتْلِهَا» فجعل الكلاب أمة. وإذا ثبت هذا فنقول: (على سبيل الاعتراض): الآية دلت على أن هذه الدواب والطيور أمثالكنا، وليس فيها ما يدل على أن هذه المماثلة حصلت في أي الأحوال والأمر فيبينوا ذلك؟ والجواب: اختلف الناس في تعيين الأمر الذي حكم الله تعالى فيه بالمماثلة بين البشر وبين الدواب والطيور وذكروا فيه أقوالاً:

للقول الأول: نقل الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يريد، يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني. وإلى هذا القول ذهب طائفة عظيمة من المفسرين، وقالوا: إن هذه الحيوانات تعرف الله وتحمده وتوحده وتسبحه واحتجوا عليه

¹⁷ - الأمة هنا بمعنى النوع، أو كما قل: صنف. وقوله تعالى "أَمْثَالُكُمْ"، يفيد أن نوع الإنسان أمة،

بقوله تعالى: "وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْسِجَ بَحْمَدِهِ" (الإسراء: 44)، ويقول في صفة الحيوانات "كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ" (النور: 41). وبما أنه تعالى خاطب للنمل وخاطب البهائم... وعن أبي الدرداء أنه قال: أبهمت عقول البهائم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء: معرفة الإله، وطلب الرزق، ومعرفة الذكر والأنثى، وتهيب كل واحد منهما نصلحيه. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة يعج إلى الله يقول يا رب إن هذا قتلني عبثاً لم ينتفع بي ولم يدعني آكل من خشايش الأرض».

والقول الثاني، المراد: إلا أُم أمثلكم في كونها أمماً وجماعات وكونها مخلوقة بحيث يشبه بعضها بعضاً، ويأتس بعضها ببعض، ويتولد بعضها من بعض كالإنس؛ إلا أن للسائل أن يقول حمل الآية على هذا الوجه لا يفيد فائدة معتبرة لأن كون الحيوانات بهذه الصفة أمر معطوم لكل أحد فلا فائدة في الإخبار عنها.

للقول الثالث: المراد أنها أمثالنا في أن يبرها الله تعالى وخلقها وتكفل برزقها وهذا يقرب من القول الثاني في أنه يجري مجرى الإخبار عما علم حصوله بالضرورة. القول الرابع: أراد تعالى أنها أمثالنا في أنها تحشر يوم القيامة يوصل إليها حقوقها، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقص للجماء من القرآن».

للقول السادس (الخامس؟) ما اخترناه في نظم الآية، وهو أن الكفار طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم الإتيان بالمعجزات القاهرة للظاهرة، فبين تعالى أن عنايته وصلت إلى جميع الحيوانات كما وصلت إلى الإنسان. ومن بلغت رحمته وفضله إلى حيث لا يبخل به على البهائم كان بأن لا يبخل به على الإنسان أولى، فل منع الله من إظهار تلك المعجزات القاهرة على أنه لا مصلحة لأولئك السائلين في إظهارها، وأن إظهارها على وفق سؤلهم واقتراحهم يوجب عود للضرر العظيم إليهم.

للقول السابع: ما رواه أبو سليمان الخطابي عن سفيان بن عيينة، أنه لما قرأ هذه الآية قال: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم، فمنهم من يقدم إقدام الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبج نباح للكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطلوس، ومنهم من يشبه الخنزير فإنه لو ألقي إليه الطعام لطيب تركه، وإذا قام للرجل عن رجليه ولغ فيه. فكذا نجد من الآميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، فإن أخطأت مرة واحدة حفظها، ولم يجلس مجلساً إلا رواه عنه. ثم قال: فاعلم يا أخي إنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فبالغ في الحذر والاحتراز، فهذا جملة ما قيل في هذا الموضع. قلت (الجابري): ونحن ما نكرنا هذه الأقوال إلا لنقدم مثالا عن أن الخروج بعملية فهم القرآن إلى توظيف "علم" وقت من الأوقات لا يختلف عن توظيف نظريات الباطنية من إسماعيلية ومتصوفة وغيرها. إنه "الفهم" للقلم على التضمين، تضمين

المفسر للمعاني التي يريد، في النص الذي يتعامل معه.

وهذا النزوع من جانب الرازي إلى تضمين "العلم"، كما كان في عصره، في فهمه للقرآن، ظنا منه أن ذلك يخدم قضية القرآن، قد جعله يغفل أو يتغافل عن رأي جماعة من المفسرين هو أقرب إلى منهج القرآن، منهج التمثيل أعني ضرب المثل. قال القرطبي في سياق شرحه للآية التي نحن بصددنا (حشر الدواب) : "وقالت جماعة: هذا الحشر الذي في الآية ("وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" (الأنعام 38) أن هذا الحشر يرجع إلى الكفار (بمعنى أن الضمير في "يحشرون" يعود إلى الكفار وليس إلى "ما من دابة")، وما تخلل كلام معترض وإقامة حجج⁽¹⁸⁾. وأما الحديث (الذي روي في الموضوع) فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه، حتى يفهم منه أنه لا بد لكل أحد منه، وأنه لا محيص له عنه، وعضدوا هذا بما في الحديث في غير الصحيح عن بعض روايته من الزيادة فأضاف الراوي إلى الحديث السابق الذي ورد فيه "حتى يقاد للشاة الجحاء من القراء" ما يلي: "وللحجر لما ركب على الحجر، وللعود لما خدش العود": قالوا: فظهر من هذا أن المقصود منه التمثيل المفيد للاعتبار والتهويل، لأن الجمادات لا يعقل خطبها ولا ثوابها ولا عقابها، ولم يصر إليه أحد من العقلاء، ومتخيلة من جملة المعنويين الأغبياء؛ قالوا: ولأن القلم لا يجري عليهم فلا يجوز أن يؤخذوا"¹⁹.

5- القائلون بالتناسخ

ثم نكر الرازي رأي القائلين بالتناسخ (وهو مذهب يقع خارج الإسلام)، فقال: ذهب القائلون بالتناسخ إلى أن الأرواح البشرية إن كانت سعيدة مطيعة لله تعالى تبقى مخالطة لعالم الملائكة، وأما إن كانت شقية جاهلة عاصية فإنها تنقل إلى أبدان للحيوانات، وكلما كانت تلك الأرواح أكثر شقاوة واستحقاقاً للعذاب نقلت إلى بدن حيوان أخس وأكثر شقاء وتعباً، واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فقالوا: صريح هذه الآية يدل على أنه لا دابة ولا طائر إلا وهي أمثالتنا، ولفظ المماثلة يقتضي حصول المساواة في

18 - بمعنى أن اعتبار السياق يقضي بأن ضمير في "يحشرون" يعود إلى كفار لما ما بين بدية السياق و"يحشرون" (أي ما بين عارضتين أسفله) فهو كلام تخلل السياق على سبيل الاعتراض والإدلاء بحجج. والسبق يبدأ مع الآية السابقة لهذه أي من قوله : "وقلوا (أي لكفار) لو كان نزول عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية - ولكن أكثرهم لا يؤمنون، وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثلكم ما فرطنا في الكتاب من شيء - ثم إلى ربهم يحشرون" (الأنعام 37-38).

19 - نظر فهمنا للآية في موقعها: آية 38 سورة الأنعام رقم 54

جميع الصفات الذاتية أما الصفات العرضية المفارقة، فالمساواة فيها غير معتبرة في حصول المماثلة. ثم إن القائلين بهذا القول زادوا عليه، وقالوا: قد ثبت من هذا أن أرواح جميع الحيوانات عارفة بربها وعارفة بما يحصل لها من السعادة والشقاوة، وأن الله تعالى أرسل إلى كل جنس منها رسولاً من جنسها، واحتجوا عليه بأنه ثبت بهذه الآية أن الدواب والطيور أمم. ثم إنه تعالى قال: "وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ" (فاطر: 24) وذلك تصريح بأن لكل طائفة من هذه الحيوانات رسولاً أرسله الله إليها. ثم أكدوا ذلك بقصة الهدهد، وقصة النمل، وسائر القصص المذكورة في القرآن.

84- سورة المزمل

- تقديم

هناك أقوال كثيرة حول تاريخ نزول هذه السورة. منهم من جعلها مكية كلها، ومنهم من جعلها مدنية كلها، وهناك من جعل الآية الأخيرة منها هي وحدها مدنية. ومن هؤلاء من جعل الفرق الزمني بين نزول هذه الآية وبين نزول ما سبقها مدة سنة ومنهم من جعله سنتين، وهناك رواية رفعت المدة إلى عشر سنين، وجعلت الآية الأخيرة منها مدنية.

ومن الحجج التي يستند عليها القائلون بكونها مدنية ما روي عن عائشة زوج النبي عليه السلام من أنها قالت: "إن الثوب الذي كان الرسول مترملا به حين خاطبته السورة (أيها المزمل) كان عبارة عن "مرط (كساء من صوف) طوله أربعة عشر ذراعاً، نصفه علي وأنا نائمة، ونصفه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي". ويعلق القرطبي على هذا القول من عائشة أنه "دليل على أن السورة نزلت في المدينة لأن النبي إنما دخل عليها فيها، وليس في مكة". وفي رأينا أن هذا ليس حجة، لأن الرسول عقد عقده عليها قبل الهجرة بثلاث سنوات، أما تأخير دخوله عليها إلى ما بعد الهجرة فلا يعني أنه لم يكن ينام بجنيها قبل ذلك.

هناك روايات أخرى تؤكد نزولها في أواخر العهد المكي: من ذلك ما روي عن سعيد بن جبير من أنه قال: "كث النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين، "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ" (المزمل الآية 20) فخفف الله عنهم". ومعنى ذلك أن هذه الآية نزلت قبل الهجرة بنحو سنة. ونحن على هذا الرأي (1).

أما إذا رجعنا إلى السورة نفسها فإننا سنجد فيها ما يرجح هذا الذي ذهبنا إليه: من ذلك الآية الخامسة "إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا". لقد ذكر المفسرون في بيان

1- انظر التقديم الذي صدرنا به سورة المدثر رقم 2 : القسم الأول من هذا الكتاب. راجع أيضاً: التعريف بالقرآن الفصل العاشر: ثانياً، فقرة 4، 2/أ.

المقصود بـ"ثَقِيل" أقوالاً كثيرة لا شيء يسندها سوى أنها محتملة. منهم من قال: "ثَقِيلًا بفرض الصلاة"، ومنهم من قال "ثَقِيلًا بالحلال والحرام"، إلى غير ذلك من الأحكام والأوامر والنواهي التي زمانها في المدينة؛ ومنهم من أجمل فقال المقصود هو القرآن نفسه الخ. أما نحن فنرى أن نزول سورة المزمل في أواخر العهد المكي يقتضي أن يكون "القول الثَقِيل" الذي سيلقى على النبي عليه السلام من الأمور التي لم ينزل فيها شيء من قبل. والجديد الذي سيحدث على صعيد مسيرة نزول القرآن ومسار الدعوة المحمدية معا هو الأمر بالهجرة والإذن بالقتال، وهذا هو الأمر "الثَقِيل" حقًا. وقد أشارت إليه السورة في آية أخرى بالقول: "عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَأُخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأُخْرُونَ يقاتلون فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (المزمل 20). وبناء عليه وضعناها في هذه الرتبة لأن بعض السور السابقة لها وكذا السور الآتية بعدها نزلت كلها في السنة الأولى أو الثانية قبل الهجرة. أي الثانية عشرة/الثالثة عشرة للنبوّة.

- نص السورة

1- مقدمة: إِنَّا سَتَلْقَىٰ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

"يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ¹ (الملف بشيابه) : قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا² : نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ (من النصف) قَلِيلًا³، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ²، وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا⁴. إِنَّا سَتَلْقَىٰ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا⁵ (3). إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ (أولها) هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا (ثباتًا) وَأَقْوَمُ قِيلًا⁶ (أنسب لقراءة للقرآن والدعاء والصلاة). إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا⁷ (مجالاً لشؤونك). وَانْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا⁸ (اخْلص إليه) : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا⁹. وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ، وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا¹⁰ (أعرض عنهم ولا تهتم بهم).

2- ذرني والمكذبين أولي النعمة... سيكون مصيرهم كمصير فرعون!

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا¹¹. إِنَّ لَدَيْنَا عِقَابًا لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (قيوداً وعذاباً) وَجَحِيمًا¹² وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا¹³. يَوْمَ

2- ليس هناك تحديد لمدة القيام، هناك خيار : زد عليه أو انقص منه.

3- انظر التقديم أعلاه.

تَرْجِفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ، وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيْبًا مَهِيْلًا¹⁴ (سائلا). (يقال لهم) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ (أيها المكذبون) رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا¹⁵، فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيْلًا¹⁶. فَكَيْفَ تَتَّقُونَ، إِنْ كَفَرْتُمْ، يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيْبًا¹⁷؟ السَّمَاءُ مَنْفُطِرٌ (منقطعة) بِهِ! كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُوْلًا¹⁸ (الوعد بهذا اليوم سينفذ حتما). إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيْلًا¹⁹.

3- ... فَافْرَعُوا مَا تَيْسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَبِصْفَةٍ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ، وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ (لَنْ تَطِيْقُوهُ) فَتَابَ عَلَيْكُمْ (فخفف عنكم). فَافْرَعُوا مَا تَيْسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ.

4- خاتمة: سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ، وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (يسافرون للتجارة)، وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (بعد الهجرة)! فَافْرَعُوا مَا تَيْسَّرَ مِنْهُ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (أنفقوا في سبيل الله)، وَمَا تَقَدَّمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا، وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ²⁰.

- تعليق

في الفقرة الأولى، وهي المقدمة، تدعو السورة النبي عليه السلام إلى قيام الليل، أو جزء منه، والانقطاع فيه للصلاة والدعاء، بهدف الاستعداد المعنوي لأمر جلل سيأتيه قريبا: الترخيص بالهجرة والإذن بالقتال. أما الملاء من قریش فتدعوه السورة إلى الصبر على ما يقولون وعدم الانشغال بهم.

وفي الفقرة الثانية تأكيد على ضرورة الإعراض عن المكذبين، وتأكيد كذلك لما سيكون عليه مصيرهم: سيكون مصيرهم مثل مصير فرعون: هزيمة وغرق في الدنيا، ونار جهنم في الآخرة.

وفي الفقرة الثالثة تعود السورة إلى مسألة قيام الليل فتؤكد أن الله يعلم أنه وجماعة من أصحابه يقومون الليل أو معظمه. وبما أن مهمة صعبة تنتظرهم فهو يخفف عنهم: فتلاوة ما تيسر من القرآن تكفي.

وتأتي الفقرة الرابعة، وهي الخاتمة، لتخبرهم بمجمل القول الثقيل، أو المهمة الصعبة التي سيكلفون بها : سيهاجرون وسيكون منهم مرضى، وآخرون يعملون لكسب عيشهم بالتجارة أو غيرها، وآخرون جنود يقاتلون في سبيل الله... وهكذا، فبعد السور الثماني (الطور-الانشقاق) التي ركزت على سلاح الدعوة: الوعد والوعيد وعرض مشاهد للقيامة والحساب والجنة والنار، والتي قلنا إنها من المرجح أن تكون قد نزلت حين كان النبي يعرض نفسه على القبائل وقبل اتفاق العقبة الأولى، تأتي هذه السورة، في الغالب بعد هذا الاتفاق الأولي، لتوجه أنظار النبي وصحبه إلى المستقبل، إلى نتيجة المفاوضات مع أهل يثرب وما سيكون لها من نتائج، أولاها الهجرة إلى يثرب والانتقال إلى نمط جديد من الحياة. وعليه يمكن القول: إن نداء "أيها المزمّل" يستعيد خطاب "أيها المدثر" ولكن في صورة جديدة: وهكذا فمن "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ، وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ" (المدثر 1-3) إلى "يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ، قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا... إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا" (المزمّل 1-5)، تكون الدعوة المحمدية بمكة قد اقتربت من إنجاز مهمتها، وعليها الآن أن تستعد للمرحلة المقبلة في المدينة، مرحلة تحول الدعوة إلى دولة. والسور التالية تتحدث بصورة أو أخرى عن الاستعداد للهجرة.

85- سورة الرعد

- تقديم

اختلفوا في هذه السورة هل هي مكية أم مدنية؟ عن ابن عباس روايتان إحداهما تؤكد مكيتها. وروي أن سعيد بن جبير سئل عن قوله تعالى: "ومن عنده علم الكتاب" (الآية الأخيرة في السورة): أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: كيف وهذه السورة مكية (وعبد الله بن سلام يهودي أسلم في المدينة). وقال القرطبي سورة الرعد مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. أما صاحب الإتيان فيختم كلامه حول الموضوع بالقول: "والذي يجمع به بين الاختلاف أنها (سورة الرعد) مكية إلا آيات منها".

هذا عن السورة ككل، أما عما روي في شأن آيات منها فقد ذكر الواحدي عن أنس وغيره أن قوله تعالى في هذه السورة: "الله يعلم ما تحمل كل أنثى" إلى قوله: "وهو شديد المحال" (الآية 13) نزل في قصة أريد بن قيس وعامر بن الطفيل حين قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم. الشيء الذي يعني أن بقية السورة نزل في مكة. أما قصة عامر بن الطفيل، وقد ذكرتها مصادر متعددة، فقد أوردها الواحدي كما يلي: "قال ابن عباس... نزلت هذه الآية والتي قبلها في عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة وذلك أنهما أقبلا يريدان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله هذا عامر بن طفيل قد أقبل نحوك. فقال: دعه، فإن يرد الله به خيراً يهده. فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد ما لي إن أسلمت؟ قال: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. قال: تجعل لي الأمر بعدك؟ قال لا، ليس ذلك إلي، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء. قال: فتجعلني على الوبر وأنت على المدر. قال: لا. قال: فماذا تجعل لي؟ قال: أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها. قال: أوليس ذلك إلي اليوم؟" وتقول الرواية إن عامر بن الطفيل قد أوصى رفيقه أريد بن ربيعة قائلاً: "إذا رأيته أكلمه فذر من خلفه واضربه بالسيف". لكن المؤامرة فشلت. وكان عامر بن الطفيل على رأس قبيلة بني عامر وكانت تسكن في نجد هي وبني سليم. وكان قد قدم على الرسول عليه السلام في المدينة في خبر يطول ذكره. المهم أن الآيات المذكورة قبل والتي قيل إنها نزلت في عامر بن الطفيل هي التي استند عليها القائلون بأن هذه

السورة منبهة وهم أقلية. أما نحن فنرى أن تلك الآيات يمكن أن تكون قد نزلت بمناسبة مؤامرة حاكتها قريش في مكة لاغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام. ومن جهة أخرى نذكروا أن أهل مكة قالوا للرسول عليه السلام: "تو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرق فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه، فأنزل الله "ولو أن قرآنا" (الآية 31). وقالوا: قللت قريش حين أنزل "وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله" (الآية 38): وما نراك يا محمد تملك من شيء، لقد فرغ من الأمر. فأنزل الله "يمحو الله ما يشاء ويثبت" (الآية 40). واعتمادا على هذه الروايات وما سنذكره في الشرح رجحنا مكية هذه السورة، وقد وضعناها في هذه المرتبة اعتبارا لمضمونها كما سيتبين خلال الشرح والتعليق.

- نص السورة

1- وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ

بسم الله الرحمن الرحيم
المر تلك آيات الكتاب⁽²⁾؛ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (هو) الْحَقُّ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ¹.

2- يَقُولُونَ: لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ! إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ. وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ، لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ². وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْهَارًا؛ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (صنفتين: حلو وحامض، رطب ويابس)؛ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ³. وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَتَجَلَّوَاتٍ (بقاع: ج. بقعة من الأرض، بعضها صالح للمرعى وبعضها غير صالح) وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَخَيْلٌ صَبَوَاتٍ (نخلة نابئة أو أكثر ملتصقة بأخرى) وَغَيْرُ صَبَوَاتٍ،

1- واضح أن معنى "الآية" هنا هي المعجزة، من جنس ما طلبته قريش. وبالتالي فقوله تعالى "يمحو الله ما يشاء ويثبت" ينصرف معناه إلى الآيات بهذا المعنى، أي المعجزات.

2- المعنى: ما سيرد في هذه السورة من أن الله هو الذي "رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا" الخ، هي الدلائل والمعجزات، لا ما يطلبه منك مشركو مكة.

يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَتَفْضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْكُلِّ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ⁴. وَإِنْ تَعْجَبْ (يا محمد من موقعهم لإزاءك) فَعَجَبٌ (أكبر) قَوْلُهُمْ: أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَتَنَّا لِفَى خَلْقٍ حَكِيمٍ؟ أَوَلَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ لِلْأَعْلَالِ فِي آعْقَابِهِمْ، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ⁵. وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ (يَسْتَعْجِلُونَ لِسَاعَةِ وَالْعَذَابِ الْخ) قِيلَ الْحَصَنَةُ (وَلَا يَطْلُبُونَ الْمَغْفِرَةَ وَمِنْ ثَمَّ التَّوْبَةُ وَالْجَنَّةُ) وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ الْمَثَلَاتُ (قِصَصُ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ كَتَبُوا مِثْلَهُمْ فَكَانَ مَصِيرُهُمْ لِهَالِكٍ)! وَإِنْ رَبِّكَ لَنُورٍ مَغْفِرَةٌ لِلنَّاسِ (مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ الْقَبَائِلِ) عَلَى ظُلْمِهِمْ، وَإِنْ رَبِّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (لِمَنْ أَصْرَ عَلَى الشَّرِكِ). وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ النَّارِ إِتْمَانًا أَنتَ مُنذِرٌ (وَلَيْسَ صَانِعُ خَوَارِقَ)، وَلَكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ⁷ (وَأَنْتَ مُنذِرُ الْعَرَبِ وَهَادِيهِمْ).

3- إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ (مَا تَسْقُطُ قَبْلَ تَسْعَةِ أَشْهُرٍ)، وَمَا تَزْدَادُ (عَلَى ذَلِكَ). وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ⁸. عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِي⁹: سِوَاءَ مَنَظَرٍ (بِسُورَةِ فِي عِلْمِ اللَّهِ) مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ (الْتَأَمَرَ عَلَى النَّبِيِّ) وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ (غَيْرُ مُسْتَخَفٍ) بِالنَّهَارِ¹⁰. لَهُ (3) (لِلرَّسُولِ) مُعَقِّبَاتٌ (مَلَائِكَةٌ تَتَعَاقَبُ وَتَتَأَوَّبُ لَيْلَ نَهَارٍ) مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ (مَنْ كُلِّ جِهَةٍ) يَحْفَظُونَهُ (يَحْفَظُونَ النَّبِيَّ)، مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (تَطْبِيقًا لِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ). إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ (مَنْ الْإِنْعَامُ عَلَيْهِمْ إِلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ، وَالْمَقْصُودُ: قَرِيشَ) حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (بِأَنْ يَطْغَوْا وَيُفْسِدُوا)⁽⁴⁾.

4- فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ (اسْتِثْنَاءً)، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَؤْمٍ (مِنْ نَؤْمٍ) مِنَ الْإِلَهِ¹¹: (مَنْ أَمَثَلَهُ ذَلِكَ) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَشِئُ السَّحَابَ

3- اختلف المفسرون في من تعود عليه الضمائر في قوله 'بين يديه ومن خلفه ويحفظونه': منهم من جعلها تعود إلى 'مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ'... على الصوم، ومنهم من خص للمعنى بالولاية والأمر، الشيء الذي يعني 'أن الله يحفظهم مما يدير ضدهم في السر أو العلن! ونحن نرى أن لفظة كلها تتحدث عن النبي (ص) فالآيات السابقة واللاحقة في هذه الفقرة تتحدث عن النبي عليه السلام، ولذلك رجحنا قول من قال إن الضمير في 'مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يحفظونه' يعود إلى النبي (ص)؛ أي أن الملائكة تحفظه من أعدائه والمتأمرين عليه.

4- المراد: لا يغير الله ما هم فيه من النعم بل يزال الانتقام، إلا بأن يكون منهم لمعصي وفساد.

النَّقَالَ¹²، وَيَسْبَحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيَصِيبُ
بِهَا مَنْ يَشَاءُ. وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ¹³ (حججه قوية). لَهُ
دَعْوَةُ الْحَقِّ. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ (تدعوهم قريش) مِنْ دُونِهِ (كالأصنام) لَا يَسْتَجِيبُونَ
لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفَيْنَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ. وَمَا دُعَاءُ
الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ¹⁴. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا،
وَظِلَالَهُمْ (وكذا ظلالهم تسجد معهم لله. قالوا وسجودها ميلها مع حركة الشمس) بِالْغُدُوِّ
وَالْأَصَالِ¹⁵ (5). قُلْ: مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلْ: اللَّهُ. قُلْ: أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْكُونُ لَأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا! قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ
أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ؟ أَمْ (هل) جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ؟ فَتَشَابَهَ
الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ! قُلْ: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ¹⁶. أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ (حمل السيل معه) زَبَدًا رَابِيًا (طافيا بليقيه
على جوانب النهر). وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ (كالمعادن من فضة وذهب
وغيرهما) ابْتِغَاءَ حَنِينٍ أَوْ مَتَاعٍ، زَبَدٌ مِثْلُهُ (مثل زبد سيل المطر). كَذَلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ (يضرب مثلا للحق والباطل وهو): فَأَمَّا الزَّبَدُ (مثل للباطل)
فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَبْتَغِي النَّاسَ (مثل للحق) فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ¹⁷. لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (لهم) الْحُسْنَى (ثواب)، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ،
لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعَةٍ، لَأَفْتَدَوْا بِهِ؛ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ
الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ¹⁸.

5- إنما يذكر أولو الأبواب...

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا (أن ما) أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (هو) الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى،
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَبَابِ¹⁹. الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَكَأَيُّ الْفُقُورِ الْمِيثَاقِ²⁰ (يعني
أهل يثرب) (6)، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

5- الزمخشري: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا،: "ينقادون لإحداث
ما أَرَادَهُ مِنْ أَعْمَالِهِ، شَاءُوا أَوْ أَبَوْا. لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَمْتَنِعُوا عَلَيْهِ، وَيَنْقَادُونَ لَهُ أَيْضًا
حَيْثُ يَتَصَرَّفُونَ عَلَى مَشِئَتِهِ فِي الْإِمْتِدَادِ وَالتَّقْلُصِ"، وهذا قريب من معنى "سنة الله" التي
جعل الكون عليها.

6- القرطبي: "يَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ جِنْسُ الْمُوَاتِقِ، أَيْ إِذَا عَقَدُوا فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَهْدًا لَمْ
يَنْقُضُوهُ". قَالَ قَتَادَةُ: تَقَدَّمَ إِلَهُ إِلَى عِبَادِهِ فِي نَقْضِ الْمِيثَاقِ وَنَهَى عَنْهُ فِي بَعْضِ وَعَشْرِينَ
آيَةً. وَيَحْتَمَلُ أَنْ يُشِيرَ إِلَى الْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَى عِبَادِهِ حِينَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِ أَبِيهِمْ =

وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ²¹. وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، وَبَذَرُوا فِي الْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى
الدَّارِ²² (العقبى المحموده في الدار الآخرة): جَنَاتٌ عِذْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ²³. (يقولون
لهم) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عَقَبَى الدَّارِ²⁴. وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ
بَعْدِ مِيثَاقِهِ، (أَي الَّذِينَ قَدْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ الَّذِينَ بَايَعُوا الرَّسُولَ فِي
الْعَقِيبَةِ) وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ، أُولَئِكَ لَهُمْ
الْعُقُوبَةُ، وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ²⁵. اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْدُرُ. وَقَرِّحُوا بِالْحَيَاةِ
الدُّنْيَا، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ (وما في الدنيا بالنسبة لما في الآخرة) إِلَّا مَتَاعٌ²⁶
(قليل). وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ لِقَاءَ رَبِّنَا لَأُفْلِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَئِنْ كُنَّا نَسْمَعُ لِقَاءَ رَبِّنَا
لَأَكْفُرُ بِهِ شَيْئًا وَيَهْدِي إِلَيْهِ مِنْ آثَابٍ²⁷. الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، أَلَا بِذِكْرِ
اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ²⁸. الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَخَسَنَ مَا أَجْرُهُمْ²⁹.

6- أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهُمْ الَّذِي أُوحِيَ بِنَا..

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ، لَتَتْلُو عَلَيْهُمْ الَّذِي أُوحِيَ بِنَا
إِلَيْكَ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَانِ! قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ
مَتَابٌ³⁰. وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا (غير هذا مما أنزل على الرسل السابقين) سُيِّرَتْ بِهِ
الْجِبَالُ، أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ، أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى، بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا (لَكَانَ ذَلِكَ
الْقُرْآنَ وَمَا حَدَّثَ بِهِ مِنْ تَسْيِيرِ الْجِبَالِ الْخُفْ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ). أَفَلَمْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ
يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا⁽⁷⁾. وَلَئِنْ يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا
قَارَعَةٌ (مِثْلُ الْجَفَافِ الَّذِي حَلَّ بِهِمْ)، أَوْ (مِثْلُ النَّارِ) تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ (إِشَارَةٌ

أد. وقال القفال: المقصود بالميثاق هنا : "ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات".
أما نحن (الجابري) فنرى أنه بما أن سياق الآية هنا هو "المَدْح"، مدح "الذين يوفون
بعهدهم" = الخ، فإن الأرجح أن يكون المقصود هنا هم أهل يثرب الذين تربطهم مع الرسول
ببيعة العقبة الأولى. خصوصا والسورة نزلت في هذه الظروف.

7- اختلف المفسرون في تفسير هذا الجزء من الآية، فذهب معظمهم إلى أن معنى "يبأس"
هو "يتبين". وذكر بعضهم أن ابن عباس سئل عن معنى "يبأس" هنا فقال: "أظن أن الكاتب
كتبها وهو ناعس، أنه كان في الخط يأس فزاد الكاتب سنة واحدة فصار يباس ففري يباس".
ونحن نرى أن معنى الآية كما يلي: أَفَلَمْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا (من انتظار استجابة قریش
للدعوة المحمدية، وهم يعلمون) أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ولكن اقتضت حكمته
أن لا يفعل، كما بين ذلك في مواطن أخرى!"

إلى تحالف أهل يثرب على المحاربة معه) حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ (بالنصر التام عليهم). إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ³¹. وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَأَمَلَيْتِ (أمهلت) لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ³². أَقْمَنَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (وهو الله الذي يراقبها)، وَجَعَلُوا لِلَّهِ (كمن جعلوا له) شُرَكَاءَ؟ قُلْ سَمُّوهُمْ (له من هم؟)، أَمْ (أنكم) تَتَّبِعُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ؟! أَمْ بظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ (تتفقون به وهو باطل)؟ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنْ السَّبِيلِ. وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ³³. لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ³⁴. مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ: تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا (كذلك)! تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ³⁵. وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ (جماعات من النصارى بالشمام والحبشة زاروا النبي) يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ، وَمِنْ الْأَحْزَابِ (أحزاب النصارى القائلين بالتثليث) مَنْ يَنْكَرُ بَعْضَهُ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ³⁶. وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حِكْمًا عَرَبِيًّا (حكمة وإرشادا باللغة العربية وعلى معهود العرب)، وَلَنْ تَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ (قريش) بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ³⁷. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَثَرِيَّةً⁽⁸⁾ (فهم بشر مثلك لا ملائكة). وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ (بمعجزة) إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ³⁸. يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ (من آياته، كعصا موسى) وَيُثَبِّتُ (أخرى مثل التي خص بها عيسى)، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ³⁹ (الذي فيه كل شيء). وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ (قريشا) أَوْ تَتَوَقَّعَنَّكَ، فَاتِّمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ⁴⁰. أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ: نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا (إشارة إلى انتشار الإسلام خارج مكة)⁽⁹⁾، وَاللَّهُ يَحْكُمُ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ⁴¹.

7- خاتمة- وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ...

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (على رسلهم مثلما تفعل قريش)، فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا (والله عالم بهم وبجميع خططهم): يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ

8- نكروا أن هذه الآية نزلت عندما "عبرت لليهود رسول الله (ص) وقالت: ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبيا كما زعم لشغلته أمر النبوة عن النساء". وحسب هذه الرواية تكون هذه الآية مدنية، لأن الرسول لم يكن له في مكة بعد وفاة خديجة سوى زوجة واحدة، وخطيبة هي عائشة ولم يكن قد دخل عليها بعد. وفي رأينا أن السياق لا يحتمل هذه الرواية.

9- هذه الآية سبقت مثيلاتها ويستفاد منها أنها نزلت عندما بدأ الإسلام في الانتشار خارج مكة.

لَمَنْ عَصَى الدَّارَ⁴² (لمن ستكون الغلبة). وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا، قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ⁴³ (أي أهل الكتاب المذكور عندهم النبي الأمي...).

– تعليق

يتضح من عرضنا لهذه السورة أنها مكية شكلا وموضوعا، وقد رتبناها هنا مع أواخر سور العهد المكي لوجود إشارات تفيد ذلك، مثل الآيتين 40-41 والخاتمة. ومثل ما ورد فيها من آيات حول خصال المسلم وخصال غير المسلم (الفقرة الثالثة)، وهذا الجانب الأخلاقي قد ركزت عليه عدة سور مكية، بعضها من أواخر ما نزل.

هناك آية أثارت التباسا عند المفسرين وهي قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، - وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ"، فأروا في ذلك تناقضا بين القسم الأول من الآية الذي يثبت الإرادة والاختيار للإنسان والقسم الثاني منها رأوا فيه العكس. والواقع أن السبب في هذا النوع من الفهم هو عدم الأخذ بالسياق. فمن جهة: هذه الآية تبدأ قبل ذلك، ونصها كاملا كما يلي: "لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (بأن يطغوا ويفسدوا). يلي ذلك استئناف: وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ، وبيانه الآيات التالية بعد هذه، والتي يفهم منها أن معنى الآية يحيل إلى السنة التي أجرى الله عليها الكون: مثل قوله "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ" (غافر 85).

وهكذا فبعد المقدمة التي خاطبت الرسول لتؤكد له أن "الذي أنزل إليك هو الحق، ولكن أكثر الناس لا يعلمون"، جاءت الفقرة الثانية لتشرح كيف أن هؤلاء لا يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول هو الحق: ذلك أنهم لا ينظرون إلى خلق الله للسموات والأرض وتسخير الشمس والقمر، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين الخ، وهذه المخلوقات والظواهر تدل كلها على أن بعد الممات حياة أخرى، فيها حساب وجزاء: جنة ونار. فعجبا لقريش الذين يعترضون بقولهم "أنذا كنا ترابا أننا لفي خلق جديد": ناسين أو متناسين تلك الآيات التي تدل كلها على أن بعد الموت حياة أخرى، وفاقا مع مخلوقات الله التي جعل من كل شيء فيها زوجين، ليل ونهار، ثمر حلو وآخر مر ... وأيضاً: موت فحياة.

والعجب كل العجب من كونهم يستعجلون الساعة التي سيكون فيها حسابهم وعقابهم، بدلا من التوبة والدخول في الإسلام والحصول على المغفرة كما وعد الله، الشيء الذي سيجنبهم شديد عقابه. إنهم يطلبون معجزات، مواصلين تكذيبهم

وتحدياتهم، فلا تشغل بهم، فليس عليك فرض الإسلام عليهم. إنما أنت منذر، مهمتك كمهمة الرسل جميعا هي الهداية والإقناع بالحجة. هم يتآمرون للتخلص منك، والله يعلم ما يكيدون، يعلم ما خفي في الأرحام وفي الصدور وما خرج منها وصار ظاهرا. هو يعلم الغيب والشهادة، يطلع على ما يخططون له ضدك سواء في اجتماعاتهم السرية في الليل، أو العلنية في النهار. إنهم لن ينالوا منك شيئا فقد جعلنا لك ملائكة يتبعونك ويتعقبون أثرك، يحفظونك من أذاهم. وإذا حدث أن مسوك بسوء فسيكون عقابهم شديدا. إن الله لا يريد أن يبادرهم بالعقاب. ذلك كان شأنه مع الأقوام الماضية التي عصت رسلهم وسيكون ذلك مع قومك الذين يكذبونك ويتآمرون لإيذائك: فالله لا يغير ما بقوم (قريش) من حال الراحة والسلامة والنعيم إلى حال الشدة والعذاب حتى يغيروا هم ما بأنفسهم. ذلك أن الأصل هو أن الله خلق الإنسان في أحسن صورة وأحسن حال وسخر له الكون كله اختيارا وامتحانا، فإذا جنح إلى الظلم والفساد استوجب العقاب. وحينئذ، ولأنهم اختاروا الفساد والضلال، يأتيهم السوء من الله، وفي هذه الحالة لن يكون لهم وال ولا مناصر يقف إلى جانبهم أمام عقاب الله.

86- سورة الإسراء

- تقديم

هناك عدة روايات حول "الإسراء" لعل أشهرها رواية أم هانئ بنت أبي طالب أخت علي بن أبي طالب. قال محمد بن إسحاق إنها كانت تقول: "ما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو في بيتي : نائم عندي تلك الليلة في بيتي، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبطا (أيقظنا) رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال: 'يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيتم بهذا الوادي (شعب أبي طالب)، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترون"، ثم قام ليخرج، فأخذت بطرف رداءه، فتكشف عن بطنه كأنه قبطية (ثياب من الكتان مطوية)، فقلت له: يا نبي الله: لا تحدث بهذا للناس فيكذبوك ويؤذوك. قال: والله لأحدثنهموه". وقال ابن سعد في طبقاته "عن ابن عباس وغيره: قالوا: أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة" (أي في الثالثة عشرة للنبوّة)، قيل: وفيه "جزم ابن حزم، وادعى فيه الإجماع". وهناك روايات تقدم تاريخ الإسراء إلى السنة الرابعة أو الخامسة للنبوّة (أو قبلهما). وبناء على هذا التقدير الأخير رتب هذه السورة بين رتبة 47 والرتبة 50 في لوائح ترتيب النزول. ونحن قد رتبناها هنا اعتمادا على الروايات السابقة وعلى ما ورد فيها من إشارات ترجح نزولها في هذه المرحلة، مرحلة ما بعد الحصار. هذا ولم تتحدث هذه السورة عن الإسراء إلا في آية واحدة، ولم يذكر فيها المعراج. ومن جهة أخرى سميت هذه السورة أيضا بسورة بني إسرائيل لكونها تحدث عنهم طويلا.

ولعل أهم ما ورد حول بعض آياتها ما روي عن ابن عباس قال: "كان النبي (ص) يمكة ثم أمر بالهجرة، فنزلت عليه "وَقُلْ رَبِّ أَنْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا" (الإسراء 80)، وهذا يركي القول بأن السورة نزلت قبل الهجرة بسنة. وعن ابن عباس كذلك أن جماعة من كبار قريش، وعلى رأسهم أبو جهل، اجتمعوا مع النبي عليه السلام فقالوا : "يا محمد ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أنخلت على قومك: لقد سببت الآباء، وعيت السدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما من قبيح إلا وقد جنته فيما بيننا وبينك؛

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تريد مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سؤناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك -بما يأتيك- رنيا (جنيا) تراه قد غلب، بنلنا أموالنا في طلب العلم (الطلب) حتى نبرئك منه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بي ما تقولون، ولكنه الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم مبشرا ونذيرا. قلوا: فإن كنت غير قليل ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادا، ولا أقل مالا وأشد عيشا منا، فلتسأل لنا ريبك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، ولييسر لنا بلاننا وليجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من قد مضى من آبلنا؛ فإن لم تفعل فسل ريبك ملكا يصدقك بما تقول، وأن يجعل لنا جننا وكنوزا وقصورا من ذهب وقضبة، نعينك بها على ما نراك تبتغي، فإنا نقوم بالأسواق وتلتمس المعاش؛ فإن لم تفعل فأسقط السماء كما زعمت أن ريبك إن شاء فعل، فإنا إن توأمن لك إلا أن تفعل! فقام رسول الله (ص) عنهم. وقام معه عبد الله بن أبي أمية فقال: يا محمد: عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب! فوالله لا تؤمن حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدوا لك أنك كما تقول! فلتصرف رسول الله (ص) حزيننا فأنزل عليه في هذه السورة ما قاله عبد الله بن أبي أمية: "قلوا إن توأمن لك -إلى قوله- بشرا رسولا. ومن غير المستبعد أن يكون هذا اللقاء هو آخر محاولة لقريش مع النبي عليه السلام، قبل أن يقرروا اغتياله؟ كما سنرى.

- نص السورة

1- مقدمة : الإسراء ...

بسم الله الرحمن الرحيم
سُبْحَانَ (مَنْزَةِ) اللَّهِ الَّذِي أُنْزِيَ (سَارِي) بَعْدِهِ (مُحَمَّد) لَيْلًا، مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (مَكَّة) إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى (الْقُدْس) الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ⁽¹⁾، لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ¹. وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَافِيلَ: لَمَّا

1- ذكر الطبري أن هذا الإسراء كان رؤيا وأنه عليه السلام ما فقد جسمه وإنما أسري بروحه وقد روي ذلك عن عائشة ومعوية ...

تَخْنُوْا مِنْ نُّوْبِيْ وَكَيْلًا²، (هم) ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ، إِنَّهُ (موسى) كَانَ عَبْدًا شَكُورًا³ (2).

2- رسالة إلى يهود المدينة: وَإِنْ عُنْتُمْ عُنَّا...

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ (أخبرناهم في التوراة) لَتَقْسِبُنَّ فِي الْأَرْضِ (الشام وفلسطين) مَرَّتَيْنِ وَلَنَعَنَّ غُلًا كَبِيرًا⁴ (3) (تبعون بغيا عظيما وتعانون من الهزيمة). فَلَمَّا جَاءَ وَعَدُ آوْلَاهُمَا⁴ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الثِّيَلِ (دخلوا دياركم وقتلوا منكم) وَكَانَ وَعْدًا مَّقْعُولًا⁵؛ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَلَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمَنَّاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيِّنٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا⁶. إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِنَفْسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ (بعثناهم من جديد) لِيَسْؤِعُوا وَجُوهَكُمْ (يمعنوا في القتل والسبي) وَلِيَنخَلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا نَخْلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا (يهلكوا) مَا عَلُوا تَتَبَرَّرُ⁷، عَسَىٰ رَيْكُم أَنْ يَرْحَمَكُم⁸ (5). وَإِنْ عُنْتُمْ عُنَّا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا⁸.

2-المعنى: الله أسرى بالنبي محمد عليه السلام، ليريه من آياته، بعد أن نزل عليه القرآن، كما سبق أن خص موسى ببقاء في طور سيناء فأراه آياته وأعطاه التوراة ...

3- يتعلق الأمر بتاريخ بني إسرائيل وهجوم البابليين عليهم وتحطيم مملكتهم بفلسطين وأسره ونقل عدد كبير منهم كأسرى إلى بابل، ثم حدثت حرب بين بابل والفرس مال فيها اليهود مع الفرس فانهزم البابليون وحرر ملك الفرس أسرى بني إسرائيل فعادوا إلى فلسطين مرة أخرى. والغزو البابلي عليهم كان عقابا من الله على اتقسامهم في الأرض ومخالفتهم لتعاليم التوراة. واليوم والرسول محمد عليه السلام يتهاى للهجرة إلى المدينة التي أسلم أهلها يجب أن يستفيد اليهود من تاريخهم. فإن أقصدوا اليوم فسيعلقبون كما عوقبوا بالأمس، وهذا معنى قوله "وإن عنتم عنا" كما سنرى...

4- هجم الآشوريين سنة 722 ق م على مملكة إسرائيل في الشمال فدمروها. وبعد ذلك بنحو قرن ونصف أي في سنة 586 ق م زحف الجيش البابلي بقيادة بختنصر على مملكة يهوذا في الجنوب وقضى عليها وأخذ بني إسرائيل أسرى (التوراة. سفر الملوك الثاني). بقي بنو إسرائيل في أسر البابليين إلى أن قامت حرب بين هؤلاء وبين ملوك الفرس على عهد الملك كورش الذي انتصر على البابليين. وبعد ذلك بنحو ثلاثين سنة، في عهد داريوس تم للفرس فتح بابل سنة 568 قبل الميلاد وقد مال الأسرى اليهود إليه وساعده فسمح لهم عام 530 قبل الميلاد بالعودة إلى اورشليم. (سفر اشعيا 10-12، وسفر إرميا 25-29).

5- لأول مرة ترد هذه الإشارات إلى هذا الحقب من تاريخ بني إسرائيل. تلمحا كما هو الشأن في الإشارات الواردة في سورة المسجدة الآيات 23-25 (نظر لتطبيق هناك). وما قتناه هناك ينطبق على هذه الآيات أيضا، أعني هنا رسائل لها علاقة باستعداد النبي (ص) للهجرة إلى المدينة.

3- مَنْ اهْتَدَى قَائِمًا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ قَائِمًا يَضِلَّ عَلَيْهَا.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا⁹، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ (وَمِنْهُمْ مُشْرِكُو قَرِيشٍ) أَعَدْنَا (أَعَدْنَا) لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا¹⁰. وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ (قَرِيشٍ تَسْتَعْجِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْذِيرًا) دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ (كَمَا تَطْلُبُ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ يُوسِعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَرْضَهُمْ وَيَحُولِ الصِّفَا وَالْمَرُوءَةُ ذَهَابًا لَخِ تَحْذِيرًا كَذَلِكَ) وَكَانَ الْإِنْسَانُ (قَرِيشٍ) عَجُولًا¹¹ (يَسْتَعْجِلُ الْإِسْتِجَابَةَ، وَلَوْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَطَلِبِهِمُ الْأَوَّلَ وَقَامَتِ الْقِيَامُ وَلَهْلَكُوا وَانْتَهَى الْأَمْرُ)⁽⁶⁾. وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً⁽⁷⁾ لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَاتِ وَالْجَسَابِ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا¹². وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ (عَمَلُهُ يَحْمِلُهُ) فِي عَقَبِهِ وَخَرَجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا¹³. (يَقَالُ لَهُ) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا¹⁴. مَنْ اهْتَدَى قَائِمًا يَهْدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ قَائِمًا يَضِلَّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا¹⁵. وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا⁽⁸⁾ مُتْرَفِيهَا

6- يقول الطبري في تفسير هذه الآية، وقد تبعه في ذلك جل المفسرين: "ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشَّرِّ، فيقول: اللَّهُمَّ أَهْلِكْهُ وَالْعَنِهِ عِنْدَ ضَجْرِهِ وَغَضَبِهِ. كدعائه بالخير: يقول: كدعائه ربه بأن يهب له العافية، ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده. يقول: فلو استجيب له في دفعه على نفسه وماله وولده بالشَّرِّ كما يستجاب له في الخير هلك، ولكن الله بفضل لا يستجيب له في ذلك" (الطبري). ونحن نرى أن هذا للتأويل لا يستقيم مع السياق، ففي الآية السابقة: "يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ". ونحن نرى أن مراعاة السياق يقتضي ربط تلك بهذه كما قطعنا. وقوله بعدهما "وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ" الخ يزكي ما ذهبنا إليه: انظر الهامش أدناه.

7- وهذه الآية متصلة هي الأخرى بما قبلها: الله وعد المؤمنين بالجنة والكافرين بالنار، كما جعل الحياة ليلاً ونهاراً، فلما أنه استجاب لطالب قريش "استجابة الليل" لهلكوا ولم يبق للحياة معنى وللأختبار والابتلاء مجال ولذلك اقتضت حكمته أن يمحو ظلام الليل بضياء النهار ليمسح المجال للإنسان كي يمارس الحياة، وعند قيام القيامة سيقدم له سجل أفعاله ليقرأه بنفسه وسيجزى على ما فعل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. كل يتحمل مسؤوليته أفعاله، "ولا تزر وازرة وزر أخرى".

8- وردت قراءات عديدة منها "أمرنا" بتخفيف الميم (من الأمر)، ومنها بتشديد (من الإمارة)، أي جعلناهم حكاماً عليها. ففي القرطبي: قرأ أبو عثمان النهدي وأبو رجاء وأبو العباس، والربيع ومجاهد والحسن «أمرنا» بالتشديد، وهي قراءة علي رضي الله عنه، أي سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم. وقال أبو عثمان النهدي «أمرنا» =

(أغنياءها) فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا¹⁶¹. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ (الأمم) مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا¹⁷. مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْالُهَا مِنْ ذَمُّومًا مَنحُورًا¹⁸ (مطرودا). وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا¹⁹. كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ؛ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا²⁰. انْظُرْ كَيْفَ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَئِذَا آخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَقْضِيئًا²¹. لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَنحُورًا²².

4- يَالُو الدِّينِ إِحْسَانًا، وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ: الوصايا العشر.

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَيَالُو الدِّينِ إِحْسَانًا: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا²³. وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا²⁴. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ: إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا²⁵. وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا²⁶. إِنْ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا²⁷. وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ (ذَوِي الْقُرْبَى بِسَبَبِ فِرَاقِ يَدِكَ، وَذَهَابِكَ ل-) ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا (رِزْقًا) فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا²⁸ (طَمَنتَهُمْ بِأَنَّكَ سَيَكُونُ عِنْدَكَ مَا تَعْطِيهِمْ)، وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً (مَشْدُودَةً) إِلَى عُنُقِكَ (= بِخِيَلًا) وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ (بِحَيْثُ لَا يَبْقَى لَدَيْكَ مَا تَعْطِي) فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا²⁹ (لَا شَيْءَ عِنْدَكَ)، إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (بُضِيقُهُ) إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا³⁰. وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ (الْفَقْرِ)، نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِيئًا (إِثْمًا) كَبِيرًا³¹. وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا³². وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ⁽⁹⁾، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا

بتشديد الميم، جعلناهم أمراء مسلمين؛ وقاله ابن عَرِيز: وتأمَر عليهم تسلط عليهم ... وهذه الآية متصلة، هي وما بعدها، بما قبلها: فالخطاب إلى قريش متصل كما هو واضح.

9- قالوا: "وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنا بعد إحسان، أو قود نفس، وإن كانت كافرة لم يتقدم كفرها إسلام، فأن لا يكون تقدم قتلها لها عهد وأمان". (الطبري). وواضح أن هذا الفهم للآية لا يستقيم إذا راعينا زمن نزولها. فهي نزلت في مكة، حيث لم يكن قد تحدد بعد حكم الزنا (وقد اقتضت الآية السابقة على وصفه بالسافاحشة وسوء السبيل). كما لم يكن هناك "عهد أمان" يعطيه المسلمون للكفار، ولأن هذه الأحكام التي فسر بها الطبري وغيره هذه الآية لا تنطبق على العهد المكي، ربطها بعضهم بوضعية المسلمين =

(أي حق قتل القاتل، فإذا أراد استعمال هذا الحق)، فلما يُسرف في القتل (لا يقتل غير القاتل ولا يمثل به) إنه كان متصوراً³³ (قد أخذ بذلك الحق للمقتول). وكما تقرّبوا مال النبيّ إلّا بالتي هي أحسن حتّى يبلغ شدّة، وأوقوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولاً³⁴. وأوقوا التّكيل إذا كلّم وزنوا بالقسطنطس المستقيم، ذلك خير وأحسن تأويل³⁵. وكما تنقّف (تتبع) ما ليس لك به علم، إنّ السّمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولاً³⁶. وكما تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طول³⁷. كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً³⁸ (10).

في مكة فذكروا أنه كان المشركون يقتلون أصحاب النبيّ (ص)، فقال الله تبارك وتعالى: من قتلكم من المشركين، فلا يحملنكم قتله إياكم عن أن تقتلوا له أباً أو أخاً أو أحداً من عشيرته، وإن كنتم مشركين، فلا تقتلوا إلا قاتلكم". قلت: وهذا المعنى أقرب.

10- الرازي: إن الأحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان والملل ولا تقبل النسخ والإبطال، فكانت محكمة وحكمة من هذا الاعتبار. وعن ابن عباس: أن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه الصلوة والسلام: أولها: "وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ" قال تعالى: "وَكُنْتُمْ لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ" (الأعراف: 145). (الجابري، قلت): هذه إشارة إلى الوصايا العشر التي في التوراة وقد ورد فيها ما نصه: "2 أنا هو الربّ الهك الذي أخرجك من أرض مصر ديار عبديّتك. 3 لا يكن لك الهة أخرى سواي. 4 لا تحتك لك تمثالا، ولا تصنع صورة ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من أسفل الأرض. 5 لا تسجد لهم ولا تعبدن، لأنّي أنا الربّ الهك، إله غيور، أفنقذ أنام الأبناء في البينين حتّى الجيل الثالث والرابع من مبغضي، 6 وأبدي أحساننا نحو ألوف من محبي الذين يطيعون وصاياي. 7 لا تنطق باسم الربّ الهك باطلا، لأنّ الربّ يعاقب من نطق باسمه باطلا. 8 اذكر يوم السبت لتقدسه، 9 سبعة أيّام تعمل وتقوم بجميع مشاغلك، 10 أمّا اليوم السابع فتجعله سبّتا للربّ الهك، فلا تقم فيه بأيّ عمل أنت أو ابنك أو ابنتك أو عبدك أو عبيدك أو أمّتك أو بهيمتك أو النزيل المقيم داخل أبوابك. 11 لأنّ الربّ قد صنع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها في ستة أيّام، ثمّ استراح في اليوم السابع. لهذا بارك الربّ يوم السبت وجعله مقدّسا. 12 أكرم أباك وأمّك لكي يطول عمرك في الأرض التي يهبك إياها الربّ الهك. 13 لا تقتل. 14 لا تزني. 15 لا تسرق. 16 لا تشهد زورا على جارك. 17 لا تشته بيت جارك، ولا زوجته، ولا عبده، ولا أمة، ولا ثور، ولا حمار، ولا شيئا مما له". (سفر الخروج 20). ونزول هذه الوصايا في هذه السورة يمكن ربطه بأمرين: فهي من جهة "قانون" أخلاقي يجب أن يتبعه المسلمون في مكة وخارجها، وكانوا قد تكاثروا في المدينة التي بدأ المسلمون يهاجرون إليها بأمر من الرسول قبيل هجرته حتّى يكون هو آخر من يهاجر. والأمر الثاني تنظيم للعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين خاصة بين المسلمين في المدينة وسكانها اليهود. وقد جاءت هذه الوصايا الأخلاقية القرآنية متناغمة مع الوصايا العشر التوراتية كرسالة سلمية أخرى إلى اليهود في المدينة، تخبرهم أن الدين الجديد يصدق ما في التوراة وهو نفسه دين الجد المشترك: إبراهيم عليه السلام.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ¹¹، وَكَأَن تَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّنْحُورًا³⁹، أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمُ (هل خصكم يا قريش) بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا⁴⁰! وَلَقَدْ صَرَّفْنَا (بِنَبَأ) فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا⁴¹، قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا تُابْتِغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا⁴² (ليقاتلوه)، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا⁴³، تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا⁴⁴، وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا⁴⁵، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً (أغطية) أَنْ يَفْقَهُوهُ (فلا يفهمونه) وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا (صمما)، وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ رَبُّكَ، فِي الْقُرْآنِ، وَحَدَّهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْبَارِهِمْ نُفُورًا⁴⁶، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ (يستمعون له) إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ، وَإِذْ هُمْ نَجْوَى (يتسارون) إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا⁴⁷(12)، انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ (بقولهم عنك : رجل مسحور) فَضَلُّوا قَلًا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا⁴⁸، وَقَالُوا أَأَئْذًا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَافًا أَثْنَا لَمْبَعُوثُونَ خَلَقًا جَدِيدًا⁴⁹، قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا⁵⁰ أَوْ خَلَقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ! فَسَيَقُولُونَ مَنْ يَعِينُنَا؟ قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ (يحركون) إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ؟ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا⁵¹، يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا⁵²، وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ (يفسد) بَيْنَهُمْ (بين عرب القبائل)، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا⁵³، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْزِقْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا⁵⁴، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا⁵⁵، قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا⁵⁶، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ (يعبدون) الْمَلَائِكَةَ لِيُقْرِبوهم من الله، فهؤلاء الملائكة هم أنفسهم)

11- الحكمة هنا هي التصرف وفق الأوامر والنواهي السابقة. قارن حكمة لقمان. أي وفق السلوك الأخلاقي، السلوك الحسن، العمل بالمعروف واجتناب المنكر.

12- قيل تزلت حين دعا علي رضي الله عنه أشراف قريش إلى طعام آخذه لهم، ودخل عليهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله سبحانه، وهم يقولون فيما بينهم متاجين: هو ساحر، وهو مسحور، فأنزل الله تعالى: "نحن أعلم بما يستمعون به" أي: يسمعه بعضهم من بعض: يقول بعضهم لبعض.

يَبْتَغُونَ (يلتمسون) إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ (الوسيلة الأقرب منه)، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا⁵⁷. وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (كما أهلكنا قرية عاد وثمود) أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا (وذلك ما سنفعل بمشركي قريش: مكة، وذلك بقتال أهلهم وهزمهم)؛ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا⁵⁸. وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ (المعجزات التي طلبها المشركون) إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ: وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً (آية بينة) فَظَلَمُوا بِهَا. وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ (المعجزات) إِلَّا تَخْوِيفًا⁵⁹ (للناس كي يؤمنوا). وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ (علما وقدره)، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ (الإسرائ) إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ (شجرة الزقوم) (13) وَنَخَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا⁶⁰.

6- قضية إبليس : قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزْأُكُمْ..

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، قَالَ: أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا⁶¹ (من طين)؟ قَالَ أَرَأَيْتَ (أخبرني:) هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْتُنِيَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَ (لأستأصلن) ثَرِيَّةَ إِلَّا قَلِيلًا⁶². قَالَ: أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزْأُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا⁶³، وَاسْتَغْرَزَ (غَرَّ بِ-) مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصُوتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ، وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا⁶⁴. إِنَّ عِبَادِي لَنِيسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا⁶⁵. رَبُّكَ الَّذِي يُزْجِي (يجري) لَكَ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا⁶⁶. وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَ، فَلَمَّا نَجَّأكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْبَاطِلُ كُفُورًا⁶⁷، أَفَلَمَنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ، أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا

13- العبارة فيها تأخير وتقديم كما يلي: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ. اختلف المفسرون في المقصود بالرؤيا فقال معظمهم الإسرائ، واختلفوا هل هي رؤية بصرية أم رؤية قلبية، هل حدث الإسرائ وهو نلقم فيكون رؤيا بمعنى حلم، أم أنه حدث وهو مستيقظ. ولكل أحاديث وآثار يحتج بها. أما معاصرو النبي عليه السلام من المشركين فقد استهزؤا بذلك، كما لم يستسغها بعض الذين كانوا قد أسلموا حديثا فارتدوا فكانت "فتنة". أما الشجرة بـ "الملعونة" فهي شجرة الزقوم "تخرج في أصل الجحيم، ظلغها كأنه رؤوس الشياطين، فإنهم يأكلون منها فمالئون منها البطون، ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم" (62-67). وقد اعترض المشركون على ذلك بالقول: النار تحرق الشجر فكيف تنبت؟ فكان ذلك فتنة لهم، أي أمرا محيرا.

(يرميكم بالحصباء) ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَيْلًا⁶⁸؟ أَمْ آمَنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى
فِيرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا⁶⁹؟
(محاسباً).

7- تكريم الإنسان: عتاب: كادوا يفتنونه، جدال مع قريش.

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا⁷⁰. يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِمْ (بنبيهم)
فَمَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْنًا⁷¹. وَمَنْ كَانَ فِي
هَذِهِ (الدنيا) أَعْمَى (ضالاً) فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا⁷². وَإِنْ كَادُوا
لَيَفْتِنُونَكَ (ينحرفون بك) عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَتُنْفِتِرَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَتَتَخَذُونَكَ
خُلِيًّا⁷³. وَلَوْ كُنَّا أَنْ تُبَيِّنَاكَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَرَكُنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا⁷⁴ (14). إِذَا نَادَيْتُكَ ضِعْفَ
(عذاب) الْحَيَاةِ وَضِعْفَ (عذاب) الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا⁷⁵. وَإِنْ كَادُوا
لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ (مكة) لَيُخْرِجُونَكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَكُونُونَ خِلَافَكَ (بعدك) إِلَّا
قَلِيلًا⁷⁶ (15): سَنَّةً مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا⁷⁷. أَفَمِ الصَّلَاةِ
لَتَذْكُ الشَّمْسِ (غروبها) إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ؛ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ، إِنْ قُرْآنِ الْفَجْرِ كَانَ
مَشْهُودًا⁷⁸. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ (يقمك) رَبُّكَ مَقَامًا
مَحْمُودًا⁷⁹. وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا⁸⁰ (انظر التقديم). وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ
زَهُوقًا⁸¹. وَتَنْزِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ (بيان واطمئنان) وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا
يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خُسَارًا⁸². وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا
مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَكُوسًا⁸³. قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى

14 - ذكروا في هذا الشأن أشياء كثيرة مختلفة الزمان والمكان، والمقصود أن قريش
ساومت الرسول بشيء ما ليتسامح مع آلهتهم، حتى يؤمنوا، وأن النبي ربما سولت له نفسه
قبول الصفة، ثم عدل ذلك. ومن جملة ما ذكروا: أن "وَفِدْ تَقِيفَ أَتُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: مَتَعْنَا بِأَلَاتِ سَنَةٍ، وَحَرَّمْ وَادِينَا كَمَا حَرَّمْتَ مَكَّةَ؛ فَإِنَّا نَحْبُ أَنْ تَعْرِفَ
الْعَرَبُ فَضْلَنَا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ خَشِيتَ أَنْ تَقُولَ الْعَرَبُ: أَعْطَيْتَهُمْ مَا لَمْ تَعْطِنَا فَقُلْ: اللَّهُ أَمَرَنِي بِذَلِكَ،
وَأَقْبَلُوا يَلْحَوْنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَنَّهُمْ وَقَدْ هُمُ أَنْ يَعْطِيَهُمْ ذَلِكَ، فَتَزَلَّتْ. (انظر التقديم أيضاً).

15 - قيل إن أهل مكة قرروا إخراج النبي منها (قبل الهجرة) ولكن لم يفعلوا، وتقول الآية:
لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَمَا طَالَ بِهِمُ الْمَقَامُ فِيهَا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ سَيَهْلِكُهُمْ فِيهَا، كما أهلك أمثالهم من قبل.

سَيِّئًا⁸⁴. وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ؛ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا⁸⁵ (انظر التعليق).

8- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ.

وَكُنْ شَيْنًا لِنَازِحِينَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (أي محونا القرآن) ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكَيْفًا⁸⁶ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا⁸⁷. قُلِ لَنْتُنَّ لِيَجْمَعَتِ الْبَشَرُ وَالْجَنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا⁸⁸ (معينًا)⁽¹⁶⁾. وَلَقَدْ صَرَّفْنَا (بَيَّنَّا) لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ إِلَّا كُفُورًا⁸⁹. وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا⁹⁰، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا⁹¹، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُحَّمَتْ عَلَيْهَا كِسْفًا (أجسامًا)، أَوْ تَنْزِلَ إِلَهُهُ وَلَمَّا لَكَ قَبِيلًا⁹² (عيانًا)، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ! وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّى يَنْزِلَ عَلَيْكَ كِتَابًا نَقْرُوه! قُلِ سُبْحَانَ رَبِّي! هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا⁹³. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا⁹⁴? قُلِ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مُلْكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا⁹⁵. قُلِ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا⁹⁶. وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ نُونِهِ، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهِهِمْ عَميًا وَكُمًا وَصُمًّا مَلْأَهُمْ جَهَنَّمَ، كُلَّمَا خَبَتْ زُلُمَاتُهُمْ سَجِرًا⁹⁷. ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَأَنْذَرْنَا عَذَابًا وَرَفَعْنَا لَنَا لَمِيعَةً نَخْلُقُ جَنَّةً جَنَّةً⁹⁸? أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَلَمَّا الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا⁹⁹. قُلِ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَمَسَّكُمْ خَشْيَةُ (نفاذا بها) الْإِتْفَاقِ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا¹⁰⁰ (بخيلًا). وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ⁽¹⁷⁾، فَاسْتَأْذَنَ بِبَنِي إِسْرَاقِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا¹⁰¹. قَالَ (موسى) لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ (الآيات) إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَلَاتِهِ (عبرًا) وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا¹⁰² (هالكا). فَلَوْلَا أَنْ

16- يمكن أن تفهم الصلة بين هذه الفقرة والتي قبلها على أساس أن هذه رد على قريش في محاولة إخراجهم النبي (ص) وتحليه بسؤالهم عن "الروح".

17 - قيل هي: اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم أو الطمس والسنين ونقص الثمرات وهي تدخل في معجزات موسى.

يَسْتَفْرِهُمُ⁽¹⁸⁾ مِنَ الْاَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا¹⁰³. وَقَتْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْاَرْضَ (الموعودة لما نجوا ووصلوا إليها)، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا¹⁰⁴ (جميعاً أنتم وفرعون مختلطين، كل يحاسب حسب عمله).

9- خاتمة: وَيَالْحَقُّ نَزَلَ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

وَيَالْحَقُّ أَتَزْنَاهُ (القرآن) وَيَالْحَقُّ نَزَلَ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا¹⁰⁵. وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا¹⁰⁶. قُلْ (المشركي مكة) آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ (النصارى) إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَقْلَانِ سُجَّدًا¹⁰⁷ (19). وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا¹⁰⁸. وَيَخِرُّونَ لِلْأَقْلَانِ يَبْكِوْنَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا¹⁰⁹. قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ، أَيًّا

18- معظم المفسرين شرحوا "يَسْتَفْرِهُمُ" بـ "يخرجهم". وهذا لا يستقيم لأن إخراج بني إسرائيل من مصر هو ما جاء من أجله موسى، وقد امتنع فرعون عن السماح لهم بذلك. وعليه فالمعنى حسب القصة هو أن موسى خرج ومعه بنو إسرائيل فخلق فرعون بهم ليقتلهم ويتخلص منهم فأغرق الله جيشه. فالاستفزاز هنا معناه التخلص، ويكون بمعنى التخويف والإخراج المادي بمعنى النقي، والمعنوي بمعنى جعل الإنسان يفقد صواب عقله الخ. والملاحظ أن الآية استعملت هنا "فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا"، وفي آية أخرى أن فرعون بقي حياً، فيكون معنى أغرقناه هنا: أنه صار في عداد المغرقين الذين فقدوا كل قوتهم الخ.

19- ارتبك المفسرون في تحديد المعنيين هنا، قال بعضهم "هم قوم من ولد إسماعيل تمسكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى للنبي عليه السلام، منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل. وعلى هذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدين. وقال الحسن: الذين أوتوا العلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وقال مجاهد: إنهم ناس من اليهود، ووافقه القرطبي وقال: وهو أظهر لقوله «مِنْ قَبْلِهِ». قلت (الجبلي) واضح أن الإشارة هـ إلى وفد من نصارى الحبشة قال عنه ابن إسحاق في السيرة: ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو بمكة، عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أسديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقاتلهم: خبيكم الله من ركب! بعكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتتأوهم بخبر الرجل، فلم تظمنن مجالسكم عنده حتى فارقتن دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحق منكم. أو كما قالوا. فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً". قيل: هذا الوفد من نصارى الشام.

مَا تَدْعُوا قَلَّةَ السَّمَاءِ الْحُسْنَى. وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا^{110 (20)}. وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ (بحميه) مِنَ الدَّلِّ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا¹¹¹.

- تعليق

قسمنا هذه السورة إلى ثماني فقرات وقد تحدثنا في الهوامش عن الصلة بينها وعن الموضوعات التي طرحتها، فضلاً عن شروح داخل كل فقرة عبرنا فيها عن وجهة نظرنا في فهم عبارات الآيات. وتجنبنا للتكرار قررنا أن نخصص هذا التعليق لمسألة الروح التي وردت في قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ! قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا". لقد سبق أن أشرنا في سورة الكهف إلى ما ذكره الرواة من أن يهود المدينة نصحوا قريش، لما سألوه ما به يمكن أن يمتحنوا حقيقة نبوة الرسول عليه السلام، أن يطرحوا عليه ثلاثة أسئلة: واحد حول أهل الكهف، وآخر عن ذي القرنين، وثالث عن حقيقة الروح. وقد أجابهم الرسول في سورة الكهف (رقم 70) عن السؤالين الأول والثاني، ولم تأت السورة على ذكر جواب السؤال الثالث الخاص بـ"الروح".

ولما وجد المفسرون والمؤلفون في "أسباب النزول" أن مسألة الروح قد طرحت في سورة الإسراء قالوا: وهنا الجواب عن السؤال الثالث. ولكن لما كان تاريخ الإسراء مختلف فيه وكان المنطق يقتضي نزول سورة الإسراء، بعد الإسراء لا قبله، وكانون يرتبون سورة الإسراء في الرتبة 50 من ترتيب النزول، أي قبل سورة الكهف بنحو عشرين سورة وقعوا في اضطراب كبير. ومع أن روايات عديدة ومعتبرة (ذكرناها في المدخل) أفادت أن الإسراء وقع قبل الهجرة بسنة وبالتالي ستكون سورة الإسراء من أواخر ما نزل في مكة فإتاهم فضلوا عن قصد، أو عن عدم انتباه، "الكلام" في الرواية التي تخص أسئلة اليهود عليهم يجدون مخرجاً من المشكلة التي طرحها عدم ورود الجواب عن "الروح" في سورة الكهف. وهكذا ظهرت روايات أخرى تقول إن اليهود قالوا لمبعوثي قريش: فإن أجابكم محمد عن الروح فليس بنبي، وإن لم يجيبكم فهو نبي! وهناك

20- سبق أن قلنا إن مناسبة نزول هذه الآية راجعة إلى أن النبي (ص) كان يدعو في سجوده: "يا رحمان يا رحيم"، فسمعه قريش وقال بعضهم: كان محمد يدعو الله واليوم يدعو رحمان اليمامة، فجاءت الآية لتترد عليهم بأن الله هو نفسه الرحمان، ولتطلب من النبي أن لا يرفع صوته عند الدعاء الخ، لأن خصوم الدعوة من قريش كانوا إذا سمعوه أخذوا في سبه وسب إلهه.

من قال إن أسئلة اليهود كانت في الأصل سؤاليين وليس ثلاثة. وآخرون قالوا إن سؤال النبي عن الروح لم يكن ضمن الأسئلة التي اقترحوها على قريش بل كان سؤالاً مستقلاً طرحته اليهود على النبي عليه السلام فيما بعد، فكان الجواب هو ما ورد في هذه السورة. وواضح أنه لم يكن في إمكان أي أحد أن يشك في كون السؤال نفسه قد طرح على النبي لأن الآية الخاصة به واضحة : "ويسألك عن الروح".

بعد هذا العرض التاريخي الموجز للمسألة، نقول:

إن قوله تعالى "ويسألك عن الروح" واقع في سياق ذكر اعتراضات قريش والرد عليها، وهو السياق العام للسورة، ومع ذلك فابتنا لا نعتقد أن سؤال "الروح" كان مما يدخل في مجال "المفكر فيه" لدى قريش، ذلك أن الجانب الإشكالي في هذا السؤال ينتمي أساساً إلى الفكر اليهودي. ومن هنا يغلب على ظننا أن السؤال طرحته اليهود إما مع سؤال "أهل الكيف" و"ذي القرنين" أو بصورة مستقلة. وسنرى ما يحتملنا على القول بهذا لاحقاً... المهم هنا هو الجواب: "قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي" فكيف نفهم هذا الجواب؟ قيل الإجابة يحسن بنا استحضار العبارات والمعاني التي ورد فيها لفظ "الروح" في القرآن ككل، عملاً بمنهج "القرآن يشرح بعضه بعضاً".

أولاً : الروح في القرآن

لقد ورد لفظ "الروح" في القرآن، ضمن عدة عبارات، في الآيات التالية :

1- روح الله : ورد هذا في آدم: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" (72ص، والأعراف 72، السجدة 9)، وقد ورد في مريم: "فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17مريم)، وأيضاً: "وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء 91، التغابن 12). وأيضاً: "إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ" (النساء 171). وقوله: "وَأَيَّدْنَاهُمُ (المؤمنين) بِرُوحٍ مِنْهُ" (الحجرات: 22)

3- الروح من أمر الله : وردت هذه العبارة في قوله تعالى: "يُلْقِي الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (غافر 15). وقوله: "يُنْزِلُ الْمُنَافَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَقْبِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (النحل 2)، وقوله: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (الإسراء 85) وقوله: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا (الشورى 16)

3- روح القدس : ورد هذا التعبير مرتين: في قوله : "قُلِ نَزَّلَهُ (القرآن) رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (النحل 102) وقوله: "وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ" (البقرة 87) وأيضاً: "وَإِذَا أُنِيتُكَ (عيسى) بِرُوحِ الْقُدُسِ (المائدة 111). ومثله

"الروح الأمين فقد ورد في المعنى نفسه يقول تعالى : تَزَلَّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (الشعراء 193-195)

4- الملائكة والروح : ورد في قوله تعالى: تَجْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ (المعارج 4)، وقوله: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وقال صَوَابًا (النبا 38)، وقوله: تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (القدر 4).

ومما تجدر ملاحظته ابتداء الأمور التالية:

- 1- غياب استعمال الروح منسوبة للإنسان، الشيء الذي يسمح باستبعاد أن يكون السؤال والجواب في آية الإسراء، يتعلق بـ "روح الإنسان".
- 2- روح القدس والروح الأمين" هو جبريل بدليل قوله تعالى عن القرآن: "قُلْ نَزَّلَهُ (القرآن) رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ"، و"تَزَلَّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ" (رقم 3 أعلاه).
- 3- أما "الروح" في قوله "الروح والملائكة" فهو أيضا جبريل أو أحد الملائكة، للجمع بينه وبينهم.

4- عبارة "تفخت فيه من روحي" (روحنا) تطرح العلاقة بين الروح والريح والنفس (بفتح الفاء). وبالتالي النفس (يسكون الفاء)، ومن هنا يمكن القول إن الأمر يتعلق بشيء غير مادي، مثل الريح والنفس الخ. وكما هو معلوم فالنفس لها علاقة بالنفس والتنفس؛ وعدم التنفس (الاختناق) يؤدي إلى الموت، ويعبر عنه بزهوq النفس. وخروج الروح من البدن. ولما كان النفخ هو إصدار قوة، مثل الريح والنفس، فإن معنى "تفخت فيه من روحي" هو نقلت إليه القدرة على التنفس التي هي علامة على وجود الروح فيه.

- 5- روح الله، من روحه، المقصود به جبريل: روحنا بمعنى رسولنا.
- 6- الروح من أمر الله: "أمر الله" يوازن كلمة الله"، لقوله تعالى عن عيسى : هُوَ كَلِمَةُ الْفَافَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، أي أمر منه بأن يكون فكان. وفاقا مع قوله : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا، أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس 82)، بمعنى: إذا أراد الله شيئا أن يكون، أن يوجد، أَمْرُهُ أَنْ يَكُونَ (قال له كن) فيكون.

7- ومما تقدم يتبين أن "الروح" المسؤول عنها في قوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (الإسراء 85)، هو الروح القدس جبريل. وذلك لقوله تعالى : قُلْ نَزَّلَهُ (القرآن) رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ (النحل 102). وهناك قرينة من السياق تركي هذا الذي ذهبنا إليه وهي الآية التي جاءت مباشرة بعد السؤال وجوابه: قال تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ! قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا⁸⁵، وَلَكِنْ شِئْنَا لَنُدْهِبَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (أي محونا القرآن)

ثُمَّ لَمْ تَجِدْ لَكَ بِهِ عَلِيًّا وَكِيلًا⁸⁶ إِبَّأ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا⁸⁷. قُلْ لَنْسَ اجْتَمَعَتِ النَّاسُ وَالْجَنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَمْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا⁸⁸. إذن فالسياق يدل على أن مدار القول هو القرآن: فكأنهم قالوا: من يأتيك بالقرآن؟ فأجاب بقوله تعالى: "قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ"، وعندما سأله وما الروح: قال: "الروح من أمر ربي".

بعد هذا البيان الذي اقتصرنا فيه على القرآن من حيث كونه "يشرح بعضه بعضاً" تلقى نظرة على ما ورد في معاجم اللغة قبل الإطلالة على المسألة كما طرحت في التوراة والإنجيل.

ثانياً الروح في المعاجم العربية

قال في مقاييس اللغة: الروح والروح في الأصل واحد، وجعل الروح اسماً للنفس، وذلك لكون النفس بعض الروح، كتسمية النوع باسم الجنس، نحو تسمية الإنسان بالحيوان. وجعل اسماً للجزء الذي به تحصل الحياة والتحرك، واستجلاب المنافع واستدفاع المضار... ثم يستشهد بالآيات السابقة وكان الروح فيها بهذا المعنى. ويضيف "والروح التنفس، وقد أراح الإنسان إذا تنفس. وفي لسان العرب: "الروحُ، بالضم في كلام العرب: النفخ، سمي روحاً لأنه ريح يخرج من الروح؟"

ثالثاً: في التوراة والإنجيل

يبدو أن لفظ "روح" مشترك بين اللغات السامية أو على الأقل بين العربية والعبرانية، ففي التوراة وردت الكلمة هكذا "روح" ruah في بداية التوراة، في الفقرة الأولى من سفر التكوين في قوله: "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَإِذْ كَانَتِ الْأَرْضُ مَشْوِشَةً وَمَقْفَرَةً وَتَكَتِفُ الظُّلْمَةُ وَجْهَ الْمِيَاهِ، وَإِذْ كَانَ رُوحُ اللَّهِ يَرْفَرِفُ عَلَى سَطْحِ الْمِيَاهِ،¹ أَمَرَ اللَّهُ : «لِيَكُنْ نُورٌ». فَصَارَ نُورٌ".

ثم توالى ورود هذه الكلمة بكثرة وفي معاني متقاربة : وهكذا فبعد أن تكاثرت الناس بعد الطوفان وغلبت عليهم شهواتهم، قَالَ الرَّبُّ: لَنْ يَمُكَّتْ رُوحِي مُجَاهِدًا فِي الْإِنْسَانِ إِلَى الْأَبَدِ. هُوَ بَشَرِي زَانِعٌ". وفي سياق إطرء فرعون على يوسف قَالَ لِعَبِيدِهِ: هَلْ نَجِدُ نَظِيرَ هَذَا (يوسف) رَجُلًا فِيهِ رُوحُ اللَّهِ؟. "وَجَمَعَ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْ رُؤَسَاءِهِمْ وَأَوْقَفَهُمْ حَوْلَ الْخَيْمَةِ. فَنَزَلَ الرَّبُّ فِي سَحَابَةٍ وَخَاطَبَهُ، وَأَخَذَ مِنْ رُوحِ الْخَالِ عَلَيْهِ وَوَضَعَهُ عَلَى السَّبْعِينَ رَأْسًا. فَلَمَّا حَلَّ عَلَيْهِمُ الرُّوحُ تَنَبَّؤُوا لِفَتْرَةٍ وَتَوَقَّفُوا".

وكان يشوع بن نون قد امتلأ روح حكمة بعد أن وضع موسى يديه عليه¹⁰ فحل عليه روح الرب وصار قاضياً لإسرائيل... "فحل عليه روح الرب فقبض على الأسد...".

وفي مقابل "روح الرب" الرحيمة الخيرة هذه هناك روح رديئة. وهكذا نقرأ: «وَفَارَقَ رُوحَ الرَّبِّ شَاوُلَ وَهَاجَمَهُ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ رُوحٌ رَدِيءٌ يُعَذِّبُهُ. قَالَ لَهُ رَجَالُهُ: «إِنَّ رُوحًا رَدِيئًا يُعَذِّبُكَ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ»».

ثم يأتي الكلام عن "الروح الذي في الإنسان، وَتَسْمَةُ الْقَدِيرِ، تَغْطِي الْإِنْسَانَ فَهَمًا". ويقول شاب ليس المؤمنون وحدهم هم الحكماء، ولا الشيوخ فقط يذكرون الحق. سأجيب أنا أيضاً وأبدي رأيي، لأنني أفيض كلاماً، والروح في داخلي يحفزني... روح الله هو الذي كونني، وتسمية القدير أحييتني. "قلبا نقياً اخلق في يا الله، وروحاً مستقيماً جدد في داخلي. لا تطربني من حضرتك، ولا تنزع مني روحك القدس"... تقبض أرواحها فتموت، وإلى ترابها تعود. ترسل روحك فتخلق ثانية وتجدد وجه الأرض.

هذا في التوراة... أما في الأناجيل فنقرأ: "أَمَّا يَسُوعُ الْمَسِيحُ فَقَدْ تَمَتَّ وَلَدَتْهُ هَكَذَا: كَانَتْ أُمُّهُ مَرِيَمُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ؛ وَقِيلَ أَنْ يَجْتَمِعَا مَعًا، وَجَدَتْ حُبْلَى مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ..."، فلما تعمد يسوع، صعد من الماء في الحال، وإذا السموات قد انفتحت له ورأى روح الله هابطاً ونازلاً عليه كأنه حمامة... "فَلَسْتُمْ أَنْتُمْ الْمُتَكَلِّمِينَ، بَلْ رُوحُ أَبِيكُمْ هُوَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ".

وعندما حصل التداخل بين الفكر المسيحي والفلسفة اليونانية استعمل اللفظ الإغريقي pneuma (نفس، فكر) في الترجمات اليونانية للتوراة لأداء معنى اللفظ العبراني "روح" ruah. وبالإضافة إلى تعدد معاني اللفظ الإغريقي المذكور pneuma، إذ يستعمل في معنى "الريح" و"الهواء"، والتأوه والتنفس، كما يستعمل في معنى "النفس" و"الحياة"، و"القلب" و"الروح"، بالإضافة إلى ذلك يستعمل في معنى هام وهو "روح يهود" أو "نفسه". والمقصود: الفعل الإلهي في العالم الطبيعي وفي التاريخ. إنه بمثابة قوة روحية صادرة عن الله. وتقدم التوراة هذا الفعل الإلهي على صورة إلهام وتوجيه من الله، هو قوة حالة في الإنسان تنفذ إرادة الله، وهي إرادة تتماهى مع الله نفسه.

هكذا بدأ تصور العهد الجديد (الأناجيل) للعلاقة بين "روح الله" والقوة الإلهية التي تقدم رسالة عيسى كرسالة متعالية، فوق طبيعية. ويبدأ الكلام عن "روح" مطلق بنفسه، الشيء الذي سيفتح الباب أما فكرة التجسد. وهكذا يقدم لنا يوحنا الحواري المسيح على أن الذي نزل عليه الروح من السماء خلال تعميده ل يبقى فيه على الدوام. بعد ذلك سيظهر مفهوم "الروح المقدس" Saint-Esprit الذي سيترسم في مجمع نيقية عام 325 للميلاد بوصفه ثالث ثلاثة: الأب، الابن، والروح القدس.

87- سورة الروم

- تقديم

تعددت الروايات والأقوال، قديما وحديثا، حول هذه السورة، خصوصا الآيات الأولى منها التي تتحدث عن معركة من المعارك التي دارت رحاها زمن البعثة المحمدية بين الفرس والروم البيزنطيين، والموضوعات التي كانت مثار جدل هي التالية:

1- في إحدى جولات الحرب الطاحنة، التي جرت بين الفرس والروم البيزنطيين قبل البعثة المحمدية، غلبت الفرس الروم في مكان حددته السورة التي نحن ضيوف عليها بلونه يقع "في أدنى الأرض" وقد فسره جميع المفسرين تقريبا بمعنى أقرب البلدان شمالا إلى مكة وهي بصرى وأدرعات من أراضي جنوب الشام. وتقول أشهر الروايات، وقد ذكرتها معظم كتب التفسير: بلغ ذلك النبي (ص) وأصحابه بمكة فشق ذلك عليهم: وتضيف الرواية: "وكان النبي (ص) يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم. وقد فرح كفار مكة وشمتموا في أصحاب النبي (ص) فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون وقد ظهر (انتصر) إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتُمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى: "لَمْ غَلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ" إلى آخر الآيات. وما يلتفت الانتباه هذا ما ورد على لسان المتحدث باسم قريش حين قال: "وإنكم إن قاتلتُمونا لنظهرن عليكم!" فإذا كان هذا الذي نسب إليه صحيحا، فذلك يعني أن قريش كانت تدخل في حسابها أن "الحرب ستقوم بينها وبين المسلمين"، وهذا لم يكن من المفكر فيه قبل المعاهدة التي عقدها النبي عليه السلام مع ممثلي يثرب في بيعة العقبة الثانية، وبالتالي فتاريخ نزول هذه السورة يتحدد بهذه البيعة التي تمت في السنة الثالثة عشرة للنبوّة، الشيء الذي يعني أنها نزلت قبل الهجرة، بنحو سنة.

2- وتضيف الرواية المذكورة: "قال ناس من قريش لأبي بكر: زعم صاحبكم أن الروم ستقلب فارس في بضع سنين (كما في السورة)، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى! واتفقوا على تحديد عدد السنين في قوله "بضع سنين" بست، (على اعتبار أن لفظ "بضع" يفيد ما بين الثلاثة إلى التسعة)، فمضت ست سنين قبل أن

يغلب الروم الفرس فأخذ المشركون رهن أبي بكر". وذكر المفسرون أن الذي راهن أبا بكر هو أبي بن خلف (وذلك قبل تحريم الرهان)، وأنهما جعلوا الرهان خسن قلائص (إت الإبل، الشابة). وفي رواية أنهما بعد أن جعلوا الأجل ستة أعوام غيروا فجعلوه تسعة أعوام⁽¹⁾ وازدادوا في عدد القلائص، وأن أبا بكر لما أراد الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم تعلق به أبي بن خلف وقال له: أعطني كفيلاً بالخطر (الرهن) إن غلبت، فكفل به ابنه عبد الرحمان. فلما غلب الروم بعد سبع سنين أخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبي بن خلف. واتفقت الروايات على أن غلب الروم للفرس -الذي وعد به القرآن- وقع بعد مضي سبع سنين من غلب الفرس على الروم الذي نزلت عنده هذه السورة.

3- حاول كثير من الباحثين والكتاب المعاصرين تحديد تاريخ انهزام الفرس المشار إليه في الآية وتاريخ "بضع سنين" التي حددتها الآية لانتصار المغلوب على الغالب أي الروم على فارس، ويكادون يجمعون على أن المعركة المشار إليها في الآية والتي انتصر فيها الفرس وقعت عام 615 ميلادية، وأن المعركة التي انتصر فيها الروم على الفرس هي تلك التي وقعت سنة 624-625 ميلادية، سنة غزوة بدر، وفي هذه الحالة ستكون "بضع سنين" تساوي تسع سنوات. على أن هناك من يرى أن غلبة الروم على الفرس التي بشرت بها الآية هي انتصار الروم سنة 627-628 ميلادية، وهذا يتوافق مع صلح الحديبية. وعلى هذا تكون "بضع سنين" تساوي سبع سنوات ويكون تحديدها بتسع سنين من خطأ الناسخ كما في الرواية المنسوبة لابن عباس... ونحن نرجح هذا التقدير الأخير لأنه أنسب لسنة نزول السورة أي لسنة الأولى الهجرة، الموافقة لسنة 621 ميلادية.

فإذا نحن أخذنا بهذا الترجيح اتضح أن تاريخ انتصار الروم على فارس سيكون في السنة السادسة للهجرة أي متزامنا مع بيعة الرضوان و صلح الحديبية (الموافق 627-628 ميلادية). ونحن نرجح هذا التاريخ لثلاثة أسباب :

- الأول هو أن جعل تاريخ انهزام الروم المقصود في الآية والحاصل عام 615 ميلادية الموافق للسنة الخامسة للنبوّة، سنة الهجرة الأولى للحبشة، يجعل نزول هذه السورة متقدما على رتبها المنصوص عليها في لوائح ترتيب النزول

1- يقول بعض المفسرين والمهتمين بهذا الموضوع إن عدد السنين لابد أن يكون "سبعاً" وأن الناسخ ارتكب خطأ، فزاد "سنة" في السين (وكانت الحروف لا تنقطع) فقرنت تسع، بدل "سبع". وهذا التصحيح من أجل أن يتوافق تاريخ انتصار الروم الذي بشرت به السورة مع تاريخ غزوة بدر، وذلك بناء على رواية عن أبي سعيد الخدري ورد فيها : "لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب المؤمنون بظهور الروم على فارس".

والتي تؤكد الإشارات الواردة في هذه السورة والتي تجعل تاريخ نزولها في السنة الأولى قبل الهجرة كما سنرى .

- اثنتي أن تخصيص اسورة للآيات السبع الأولى منها لتحديث عن هذا الموضوع، ثم الانتقال مباشرة إلى موضوع لم يكن يستوجب التقديم له بالحديث عن هزيمة الروم، لابد أنه يكون لغرض ومقصد. إذا فرضنا أن هزيمة الروم المشار إليها هي التي وقعت سنة 615 ميلادية فما الذي يبرر الحديث عنها في مقدمة هذه اسورة، أي بعد نحو ثماني سنوات؟

- الثالث أن الصراع بين الروم والفرس دام قرونا قبل البعثة المحمدية كانت الحرب بينهما سجالا، وقد جرت بين الإمبراطوريتين عدة معارك منذ بداية نبوة الرسول عليه السلام حتى نزول سورة الروم في السنة الثالثة عشرة للنبوة، ولم يشر القرآن إلى أي منها بشيء! نعم القرآن ليس كتاب تاريخ، ولا يهتم بالحوادث في تسلسلها عبر الزمن البشري، فزمان القرآن زمان خاص، والحقيقة التاريخية التي يتحدث عنها مثل قصص الأنبياء - هي حقيقة قرآنية وليست حقيقة تاريخية بالمعنى الزماتي المكاني للحوادث. وإن فتفكيرنا يجب أن يتجه إلى التماس ما عبرنا عنه بالحقيقة القرآنية وليس إلى شيء آخر. والحقيقة القرآنية التي تؤكد الآيات التي أشارت إلى انهزام الروم وبشرت بانتصارهم بعد بضعة سنين تعبر عنها الآيات التي تلت تلك الإشارة وهي قوله تعالى: "وَيَوْمَذِ يَقْرُخُ الْمُؤْمِنُونَ يُنْصَرُ اللَّهُ، يَنْصَرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ". وَعَدَّ اللَّهُ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ". كان المسلمون مغلوبين على أمرهم طيلة السنوات التي مرت من الدعوة المحمدية، اضطهدوا وعذبوا واضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة وحوصر النبي وأهله في شعب أبي طالب الخ. واليوم وقد تحالف النبي (ص) مع أهل يثرب وتمت ببيعة العقبة الثانية انتي سماها بعض المؤرخين ببيعة "الحرب" وأخذ المسلمون يغادرون مكة إلى المدينة أرسالا أرسالا، ولم يبق إلا الإذن للنبي عليه السلام بالهجرة والقتال، يأتي انهزام الروم في معركة من معاركهم مع الفرس فرصة للتذكير بأن الحياة كما رتب الله أسورها قائمة على النورية، أرض وساء. ليل ونهار، هزيمة وانتصار.. والله الأمر من قبل ومن بعد". لقد قرب وقت الهجرة إلى المدينة، وسيقوم المسلمون الذين أخرجوا من ديارهم قهرا وعسفا برد انضالهم عن ظلمه وسينتصرون كما سينتصر الروم في جولة قادمة، لأن الحياة أزواج، ومن كل شيء زوجين، ولا يمكن أن يكون النصر للفرس مرتين متتاليتين. سينتصر الروم وسينتصر المسلمون وسيفرح المؤمنون من هؤلاء وهؤلاء ينصر الله: "وَعَدَّ اللَّهُ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ".

- نص السورة

1- مقدمة: غلبة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

الم¹. غَلَبَتِ الرُّومُ² (البيزنطيون في حربهم مع فارس)، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ (قريباً من المدينة)، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ (سقوطهم مغلوبين) سَيَغْلِبُونَ³ فِي بَضْعِ سِنِينَ. لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ⁴ بِنَصْرِ اللَّهِ⁽²⁾، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ⁵. (ذَلِكَ) وَعَدَ اللَّهُ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ (المقصود قريش) لَا يَعْلَمُونَ⁶. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ⁷.

2- أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا (قريش) ⁽³⁾ فِي أَنْفُسِهِمْ (ألم يفكروا بعقولهم أنه) مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (بنظام) وَأَجَلٍ مُّسَمًّى، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ⁸. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا (أهل مكة)، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ⁹. ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوءَ (مؤنب الأسوء) أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ¹⁰. اللَّهُ يَبْدَأُ الْاَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ¹¹. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ¹² (يصمتوا بعد أن كانوا يكذبون بوقوعها)، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ (يوم القيامة) مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفْعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ¹³. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ: يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ¹⁴ (المبعوثون)، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ¹⁵ (في سرور)، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ¹⁶.

2- حسب ما ورد في التقديم (انظر تفاصيل أوفى في التعليق)

3- عن وجه الصلة بين هذه الفقرة والمقدمة. انظر التعليق.

3- فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ... من آياته....

فَسُبْحَانَ اللَّهِ (نزهه) حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ¹⁷، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ¹⁸ (4). يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَيُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ¹⁹ (يوم البعث). وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ²⁰! وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ²¹. وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالاختلاف السنينكم والأوانكم، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ²². وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ²³. وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ²⁴. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (وبدون عمد ولا تتصادم)، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ²⁵ (من قبوركم). وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلٌ لَهُ قَائِمُونَ²⁶ (مطيعون). وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ. وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ²⁷. ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ (وهو): هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ (عبيدكم) مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ (في أموالكم) فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ (وأيامهم) تَخَافُونَهُمْ (تعظمونهم)

4- من المعلوم أنه لم ينزل نص قرآني ظاهر واضح في شأن عدد الصلوات الواجبة في اليوم. في العهد المكي كانت الصلاة ركعتان في الصباح وفي المساء. أما في المدينة فقد صارت خمسا بناء على السنة النبوية. وقد حاول المفسرون التماس آية من القرآن تقرر الصلوات الخمس. وأشهر تلك الآيات هاتين: قال الطبري في تفسيره: اختلف المفسرون في ربط هاتين الآيتين (17-18) بعدد الصلوات: فعن ابن عباس "جمعت هاتين الآيتين موقاسيت الصلاة: فسبحان الله حين تمشون قال: المغرب والعشاء. وحين تصبحون: الفجر. وعشيا: العصر. وحين تظهرون: الظهر". وعن قتادة: "فسبحان الله حين تمشون لصلاة المغرب. وحين تصبحون لصلاة الصبح، وعشيا لصلاة العصر. وحين تظهرون صلاة الظهر، أربع صلوات". (لم يذكر صلاة العشاء، أما ابن عباس فقد أدمجها في "حين تمشون مع صلاة المغرب). وعن ابن زيد: "حين تمشون: صلاة المغرب، وحين تصبحون صلاة الصبح، وعشيا صلاة العصر، وحين تظهرون: صلاة الظهر" (لم يذكر صلاة العشاء). أما الرازي فقال: "وقال بعضهم أراد به (بالتسبيح) التنزيه، أي نزهه عن صفات النقص وصفوه بصفات الكمال"، وأضاف "وهذا أقوى والمصير إليه أولى"، أي أنه مع هذا الرأي. الذي يفهم من التسبيح في هذا المكان معنى التنزيه، وليس الصلوات.

كَحَيْفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ؟ (5) كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (فكذلك وضعكم مع الله). بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ²⁹.

4- فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا،

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (قاصدا إياه): (ذلك الدين) فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا⁽⁶⁾، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ. ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ (المستقيم)، وَبَكْرٌ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ³⁰. (كونوا) مُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ³¹، (وهم) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ (لكل صنف) وَكَانُوا شِيعًا، كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ³². وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (راجعين)، ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ³³ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ! فَتَمَتَّعُوا، أَتَسْوَفُ تَعْلَمُونَ³⁴. أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا (من السماء) فَهُوَ يَتَكَلَّمُ (إِلَيْهِمْ) بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ³⁵. وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا، وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، إِذَا هُمْ يَقْتُلُونَ³⁶. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (يقبض)، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ³⁷.

5- فَاتِّبِعْ مَا آتَى الْفُقَرَاءَ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ..

فَاتِّبِعْ مَا آتَى الْفُقَرَاءَ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلَىكَ هُمْ الْمَفْضُوحُونَ³⁸. وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَبِزْتُمْ (ينمرو) فِي أَمْوَالِ النَّاسِ (كَانَ تَعَطُّوا الْيَوْمَ وَاحِدًا وَتَقْبِضُوا مَقَابِلَهُ غَدَا اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ) فَلَمَّا يَرْتَوُوا عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ (صدقة على الفقراء) تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ³⁹ (الَّذِينَ يُضَاعَفُ لَهُمْ أَضْعَافًا). اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ (الَّذِينَ تَشْرِكُونَهُمْ مَعَ اللَّهِ) مَنْ يَقُولُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ شَيْءٌ، سَخَانَةٌ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ⁴⁰. ظَهَرَ الْفَسَادُ (أَثَارُ الْقُرَى الْمُهْدَمَةِ) فِي

5- قَالَ الرَّامِثَشْرِي فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: "هَلْ تَرْضَوْنَ أَنْفُسَكُمْ - وَعَبِيدَكُمْ أَمْثَالَكُمْ بِشَرِّ كِبَشَرٍ وَعَبِيدٍ كَعَبِيدٍ - أَنْ يَشَارِكَكُمْ بَعْضُهُمْ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ" مِنَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا مَا تَكُونُونَ (=لَسْتُمْ) أَنْتُمْ وَهُمْ فِيهِ عَلَى السَّوَاءِ، مِنْ غَيْرِ تَفَضُّلَةٍ بَيْنَ حُرٍّ وَعَبْدٍ: فَتَهَابُونَ أَنْ تَسْتَبْدُوا بِالتَّصَرُّفِ (فِي تِلْكَ الْأَمْوَالِ) دُونَهُمْ ... كَمَا يَهَابُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مِنَ الْأَحْرَارِ، فَإِذَا لَمْ تَرْضُوا بِذَلِكَ أَنْفُسَكُمْ، فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ لِرَبِّ الْأَرْبَابِ وَمَالِكَ الْأَحْرَارِ وَالْعَبِيدِ أَنْ تَجْعَلُوا بَعْضُ عَبِيدِهِ لَهُ شُرَكَاءَ؟

6- دِينَ الْفَالِطَةِ: دِينَ الْبِسَاطَةِ، الْإِتِّجَاهُ إِلَى اللَّهِ مُبَاشَرَةً بَدُونِ وَسَاطِطٍ.

الْبِرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (عقاباً للأقوام التي كذبت رسلها) لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا (من ظلم وطمع). وهذا الفساد الذي قاموا به بقيت آثاره واضحة في القرى المهدامة وقد تركناها ماثلة أمام أنظار قريش ومن مثلهم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ⁴¹ (لعل مشركي مكة بمشاهدة تلك الآثار يرجعون عن كفرهم)⁽⁷⁾. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ، كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ⁴². فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ، يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ⁴³ (يتفرق الناس: بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار). مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ. وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ يَمْشِدُونَ⁴⁴ (يهيئون منازل لهم في الجنة). لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ⁴⁵.

6- وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَنِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ (بالمطر)، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلِتَجْزِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ⁴⁶. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَاثْتَمَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ⁴⁷. اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا، فَيُنْسِطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُ كِسْفًا (قضاء)، فَتَرَى الْوَدْقَ (المطر) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ⁴⁸. وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْتَلِينَ⁴⁹ (يانسين). فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁵⁰؟ وَلَنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ (الزَّارِع) مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ⁵¹. فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَكُّوا مُذْبِرِينَ⁵². وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَنِيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مِنْ يَوْمِينَ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمُومُونَ⁵³. اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ⁵⁴. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ

7- اختلف المفسرون في المقصود بالبحر هنا فقال معظمهم : البر هو الأرض اليابسة النسيحة كاليابسة، والبحر هي الأمصار التي تكون عادة بجانب الأنهار والبحار. كما اختلفوا في تحديد معنى "الفساد" في هذه الآية اختلافا كبيرا، وما قالوه في هذا وذلك لا تبرز منه الصلة بين هذه الآية مع التي قبلها والتي بعدها، وبالتالي فلا سياق يجمع بينها. أما نحن فنرى أن السياق يقتضي الفهم الذي أثبتناه أعلاه.

مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ، كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ⁵⁵ (يُحْلَفُونَ). وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ⁽⁸⁾، إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ⁵⁶. فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ⁵⁷.

7- خاتمة: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَلَنْ جَنَّتْهُمْ بَايَةٌ لِيَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ⁵⁸ (تَأْتُونَ بِالْبَاطِلِ). كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ⁵⁹. فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ⁶⁰ (حذارِ أَنْ يُوْثِرُوا فِيكَ فَتَسْرِعَ إِلَى مَا لَمْ تَقْرَرْهُ بَعْدَ. وَكَانَ آنَ ذَاكَ عَلَى أَهْبَةِ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ).

- تعليق

ميزنا في هذه السورة بين سبع فقرات. الأولى : مقدمة تعرضت لهزيمة الروم في معركتهم مع الفرس لتبشر بأنهم -أي الروم- سينتصرون بعد بضعة سنين، وحين ذاك سيفرح المؤمنون بنصر الله. وكما ذكرت الروايات فقد كان مشركو مكة يتعاطفون مع الفرس لأنهم مثلهم من غير أهل الكتاب، بينما نصارى الروم والمسلمون أصحاب كتاب.

غير أن ما أغفل المفسرون والرواة ذكره هو أن تعاطف القرآن في هذه الآيات يتجاوز بكثير مجرد التعاطف المفترض بين الفرس ومشركي مكة. ذلك أن من النصاري التابعين للإمبراطورية البيزنطية من كان يتعاطف مع الدعوة المحمدية. فوفد نصارى الشام الذين جاؤوا الرسول عليه السلام ليستمعوا إليه ويتعرفوا على حقيقة دعوته، أظهروا من التعاطف ما أشاد به القرآن؛ ويجب أن لا ننسى النجاشي (ملك الحبشة وهو مع الروم) الذي كان يأوي المسلمين بتوصية من الرسول والذي رفض بقوة تدخل قريش لديه، رغم ما قدموه له من هدايا، من أجل أن يلبي طلبهم طرد المسلمين من بلاده. وهكذا فليس تعاطف السورة مع الروم راجع فقط إلى أنهم "أهل كتاب" بينما الفرس ليسوا كذلك، بل إن هذا التعاطف الذي بلغ درجة اعتبرت فيها السورة انتصار الروم هو أيضا انتصار للمؤمنين المسلمين يرجع إلى ما ذكرناه من الموقف الإيجابي لنصارى الشام وملك الحبشة وكانوا جميعا منضوين تحت

8- أي حسب ما هو مذكور في كتاب الله.

إمبراطورية الروم البيزنطيين. ويجب أن نتذكر كذلك الموقف الإيجابي الذي وقفه لاحقاً كل من هرقل الروم ومقوقس الإسكندرية والنجاشي، من رسائل النبي (ص) إليهم إثر صلح الحديبية⁽⁹⁾.

جميع هذه المعطيات يجب استحضارها لفهم الأبعاد العميقة لمقدمة هذه السورة، التي تتسم بطابع مستقل. فهي ليس من المقدمات التي تطرح بصيغة أو أخرى الموضوع المركزي الذي سنتناوله السورة، بل هي من المقدمات المقصودة لذاتها. ولذلك فالعلاقة بينها وبين الفقرات التالية لها عبارة عن خيط رقيق يحتاج من المتدبر لها إلى الإمساك به بقوة وتتبعه بطول نفسه كي يقوده إلى المضمون الذي عبرت عنه المقدمة من خلال الوعد بانتصار الروم في الجولة القادمة. هذا المضمون يقدم نفسه واضحاً بينا في الخاتمة. وكما سبق أن قلنا فالخاتمة في سور الذكر الحكيم تستعيد مضمون المقدمة لترتفع به إلى مستوى أعلى. وهكذا نقرأ في الخاتمة: "وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ، وَلَنْ جَنَّتْهُمْ بَايَةٌ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ⁵⁸ (تأتون بالباطل). كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ⁵⁹. فَاصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا، وَلَا يَسْتَخَفِّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ⁶⁰ (حذار أن يؤثروا فيك فتسرع إلى ما لم تقرره بعد. وكان آنذاك على أهبة الهجرة إلى المدينة).

وهكذا فالأمثال التي ضربها الله في هذه السورة للمشركين كثيرة، منها بل على رأسها المثل الأول الذي أخبر بهزيمة الروم وفي نفس الوقت بشر بانتصارهم في جولة أخرى بعد بضع سنين. ونحن نرى أن هذا المثل موجه للمسلمين كذلك فهو يعدمهم "بعد العسر يسراً": بعد الشدة التي يعانون منها من قريش التي تطاردهم في كل مكان لتمنعهم من الالتحاق بإخوانهم "الأَنْصَار" في يثرب، سيأتي وعد الله الحق، وهو الانتصار على قريش بعد بضع سنين... ثم تتوجه السورة في آخر الخاتمة إلى النبي عليه السلام لتوصيه بعدم التأثر بضغوط قريش وأن لا يستعجل في الهجرة إلى المدينة قبل الوقت المناسب: "فاصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا، وَلَا يَسْتَخَفِّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ".

ذلك عن مقدمة السورة وخاتمتها، أما عن الفقرات الأخرى فيمكن التقاط الخيط الرابط بين المقدمة والفقرة الثانية من قوله تعالى، تعليقاً على وعده بالنصر للروم بعد بضع سنين: "يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ"⁵. (ذلك) وَعَدَ اللَّهُ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ (المقصود قريش) لَا يَعْلَمُونَ⁶. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ آيَاتِهِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ⁷. ذلك أن المنتظر أن تكذب قريش "وعده

9- الجامع بينهم هم اتحادهم جميعاً من الأروسية. راجع التعريف بالقرآن، الفصل الثاني.

الله" هذا، كما كذبت من قبل ما أتى به القرآن. وبما أن القرآن يهتم بالكليات، كليات العقيدية، ويمر مراراً سريعاً بالجزئيات، مكتفياً بالتلميح فقط، إلى هو مؤقت، كالحوادث السياسية، فهو يرد على قریش من خلال الكلي، أي العقيدة، وليس من خلال الجزئي الذي هو فرحها لانتصار الفرس أو تكذيبها لحتمية انتصار الروم. وهكذا جاء موقف القرآن بصيغة الكلي: "لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ (المقصود قریش) لَا يَعْلَمُونَ"⁶. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ"⁷. ذلك يعني أن قریش عندما تكذب أو تفرح أو تحزن الخ إنما تبني ذلك على ظاهر الأمور: ظاهر الحياة الدنيا التي هي ميدان "الشاهد"، وبالتالي تتجاهل ميدان "الغائب"، والغائب الأكبر في حياة البشر هو "المستقبل": وهو في القرآن قسمان، قسم في الدنيا، والقسم الآخر هو يوم الحساب!"

هكذا تعود السورة من السياسة إلى العقيدة، فالسياسة هنا أعني "التبشير بانتصار الروم في بضع سنين" ليست من أجل ذاتها، ليست من أجل الاستجابة لتحدي قریش للرسول بالإتيان بالمعجزة والإخبار بالغيب. إن هذه المسألة قد حسمها القرآن في آيات عديدة: ليس من شأن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام أن يأتي بمعجزات... كما طالبته بذلك قریش مراراً... القرآن وحده يكفي. والقرآن يدعو المكذبين إلى النظر في الكون ونظامه ويدع صناعه وأطوار حركته ليفهموا ويتأكدوا من صحة العقيدة التي ينشرها: عقيدة التوحيد والحساب. وهي عقيدة أخلاقية: التوحيد من أجل الاطمئنان إلى أن الكون لن يخل نظامه لأنه من تدبير إله واحد لا شريك له ولا منازع، والحساب الذي يؤكد مسؤولية الإنسان على أفعاله ليجازى عليها. والدرس الأكبر الذي تقرر السورة ما بين التقدمة والخاتمة، والذي لا تعيه قریش، لأنها معنية فقط بظاهر الحياة ومتعتها، هو أن الله جعل مخلوقاته كلها مبينة على الدورة الزوجية كما سبق أن بينا: سماء وأرض، ليل ونهار، صيف وشتاء، عسر ويسر، حياة قممات، موت فبعث الخ.

في إطار هذه الدورة الزوجية الكبرى تدرج آيات ملازمة لحياة الإنسان الفردية والجماعية ولكن المشركين عنها غافلون: خلقتكم من تراب جامد ساكن، ثم ها أنتم بشر تتحركون وتنتشرون. خلق لكم من أنفسكم (من ماء الرجل وماء المرأة) أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة، ميولا عاطفية غريزية للتناسل، ورحمة: محبة الزوجين بعضهم لبعض وللأولاد رحمة لهم. وجعلكم من أنوان وألسنة مختلفة. وجعل منامكم بالليل، أما النهار فهو للعمل والكسب. يريكم البرق ليخوفكم من الصواعق وليجعلكم تطمعون في الغيث. يحيي الأرض بعد يبسها. يحييكم ويميتكم. يبدأ الخلق ويعيده وهو أهون عليه، وإذا دعاكم وأمركم بالخروج من قبوركم يوم القيامة

تخرجون. ويضرب لكم الأمثال لعلمكم تفقهون: الله مالكمم وأنتم عبيده فهل تقبلون أن يشارككم عبيدكم في أموالكم؟ أكيد أنكم لا تقبلون فكيف تستسيغ عتولكم ما تعبدون من شركاء هم من خلق الله: ملائكة وأصناما وشياطين ...

ذلك مجمل خطاب السورة إلى مشركي قريش، وأيضا إلى الذين لم يؤمنوا بعد من أهل القبائل. أما المؤمنون، وقد أصبحوا جماعات وليس مجرد أفراد كما كانوا من قبل، فالخطاب إليهم سيتجاوز تثبيت القلوب على الإيمان والحث على الصبر، كما كان الشأن من قبل، إلى بيان الأسس التي يجب أن تقوم عليها حياتهم الجماعية. والأساس الأول هو الدورة الزوجية الكبرى: الدنيا والآخرة. الدنيا مجال العمل، والآخرة مجال الجزاء. وإذا كان المفسرون وغيرهم من علماء الإسلام يرددون أن الدنيا هي مجرد مطية للآخرة، فهذا في الحقيقة ليس إلا "وجهها واحدا من العملة" - كما يقال. هناك وجه آخر، لا يقل أهمية عن الأول، وهو أن الآخرة هي من أجل الدنيا أيضا، من أجل حمل الناس على العمل الصالح، خوفا أو طمعا. ليست الآخرة هي الغاية في نهاية الأمر بل الغاية هي العمل الصالح في الدنيا. ومن هنا اقتران العمل الصالح بالإيمان في الإسلام ("الذين آمنوا وعملوا الصالحات").

في هذا الإطار تندرج الأوامر الأخلاقية التي تقررها السورة في الفقرتين الرابعة والخامسة كما فعلت سور سابقة لها، (التزام الدين الحنيف القيم دين الفطرة، إقامة الصلاة، تجنب التفرقة في الدين، إيتاء ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل، تجنب الربا الخ).

88- سورة العنكبوت

- تقديم

رتبت هذه السورة في لوائح ترتيب النزول بين الرتبتين 77 و85. اختلفوا في مكان نزولها: فهي "مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية كلها في أحد قولي ابن عباس وقتادة. وفي القول الآخر لهما أنها مكية إلا عشر آيات من أولها، فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة" (القرطبي). والآيات التي جعلت بعضهم يقول بأنها مدنية ترجع كلها إلى الآية الأولى منها وهي قوله تعالى: "أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ". قال بعضهم يريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام؛ فكتب إليهم إخوانهم المهاجرون إلى المدينة يحثونهم على الهجرة ويخبرونهم أن الآية المذكورة نزلت فيهم، وهذا يعني أنها نزلت بالمدينة. والذين قالوا بمكية هذه الآية قالوا إنها نزلت في أناس في مكة "كانت صدورهم تضيق" لما كانوا يلاقونه من كفار قريش من أذى، "وربما استنكر بعضهم أن يمكن الله الكفار من المؤمنين، قالوا فنزلت هذه الآية مسئلة ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة". ونحن نرجح هذا القول لأن الآيتين (10-11) تشهدان له بالصحة وتصف هؤلاء "المتضايقين من أذى قريش" بـ"المنافقين" (1) أي عبارة عن مسلمين جددا. هذا من جهة ومن أخرى يتفق المفسرون على أن هذه السورة تنتمي إلى أواخر ما نزل في مكة. ونحن نرجح أنها نزلت بعد بيعة العقبة الثانية، أي قبل هجرة النبي بأسابيع محدودة.

ومن الأخبار التي وردت حول بعض آياتها أن قريشا قالوا : يا محمد! ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لتقتلنا، والأعراب أكثر منا، فمتى ما يبلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنّا أكلة رأس، فأنزل الله "أولم يروا أنا

1- وهذه أول مرة يستعمل فيها هذا اللفظ في القرآن -حسب ترتيب النزول. وسيحدد هذا المفهوم في المدينة بأنهم الذين كانوا يظهرون إسلامهم ويتعاونون مع أعداء الإسلام خفية. ونحن نعتقد أن هذا المفهوم لا ينطبق على من نعينهم الآية هنا. انظر الهامش الآتي رقم 4

جعلنا حرماً آمناً" (الآية 67). والظاهر من السياق أن هذه الآية متصلة بما قبلها وأن إقحام هذه الرواية هنا لا موجب له.

- نص السورة

1- مقدمة: أناس من المسلمين فتنوا ...

بسم الله الرحمن الرحيم

1- الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ؟ (2) 2- وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ. 3- أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا (يعجزون الله)؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ! 4- مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ (من كان لا يخاف الموت) فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. 5-

2- وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ...

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ (من صبر على ما يلاقيه من أذى بسبب إيمانه برسالة محمد، فتواب ذلك يعود إليه وحده) إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ⁶ (غير مفقر في وجوده وكماله إلى عبادة العابد أو غيرها). وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ (نغطيها عنهم بالمغفرة) وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ⁷. وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا: وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا، إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁸ (3). وَالَّذِينَ

2 - انظر التقديم.

3 - روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: كنت بارأ بأبي فأسلمت، فقالت: لئدعن دينك أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي، ويقال يا قاتل أمه! وبقيت يوماً ويوماً، فقلت: يا أمه لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا، فإن شئت فكني، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت. ونحن نشك في أن تكون هذه الآية مرتبطة بإسلام سعد بن أبي وقاص الذي تم قبل نزول هذه السورة بما لا يقل عن عشر سنين. وهناك رواية ثانية تختصر السابقة ونصها: عن سعد بن أبي وقاص قال: قالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر، والله لا أأطعم طعاماً ولا أشرب شرباً حتى أموت أو تكفر، فنزلت "ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهدك لتشرك بي" الآية. وهناك رواية ثالثة أقرب إلى ظروف نزول هذه السورة وإلى سياق هذه الآية، هذه الرواية تقول: "نزلت في سعد بن أبي وقاص لما هاجر. قالت أمه: والله لا يظلني بيت حتى يرجع، فأنزل الله في ذلك أن يحسن إليهما، ولا يطيعهما

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ⁹. وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ (أذى الناس له في الدنيا) كَعَذَابِ اللَّهِ. وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ، أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ¹⁰. وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ¹¹ (4). وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا، وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ (5). وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ، إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ¹². وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ (ذنوبهم) وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ (وذنوب الذين ظلموهم)، وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ¹³.

3- مثال من صير نوح ... وكفاح إبراهيم...

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا (6) إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ¹⁴. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ¹⁵. وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ¹⁶، إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا (كذباً)، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا، فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ، إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ¹⁷. وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَمَا عَلَى

فِي الشُّرْكِ" (النضيري). وكان سعد من أوائل الصحابة الذين أمرهم الرسول بالهجرة إلى المدينة قبل التحاقه بهم.

4- هذا المعنى الذي تعطيه هذه الآيات لمفهوم "المنافق" يزكي ما قلناه في الهامش السابق رقم 1. أما معناه الاصطلاحي فلم يظهر إلا في المدينة. قيل في النفاق: "النفاق هو الدخول في الشرع من باب، والخروج عنه من باب"، الراغب الأصفهاني. أو "أن يظهر المرء الإسلام، ويخفي شيئاً آخر". وفي الحديث: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان". وبما أن ظاهرة "المنافقين" قد انتشرت بالمدينة، فقد قالوا، هذه الآية نزلت بالمدينة، وهذا ليس بحجة. فلا شيء يمنع أن تظهر الظاهرة بالمعنى الذي تفيدته الآية في أواخر العهد المكي حينما كثر الدخول في الإسلام وفتح باب الهجرة إلى المدينة، قبل هجرة الرسول.

5 - هذه الآية تركي القول بأن الآية السابقة نزلت هي ومثيلاتها في مكة، وأن السورة مكية كلها.

6 - وجه الصلة بين الفقرة السابقة وهذه الفقرة وما يليها هو أنه تعالى لما أخبر أن: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ"، أراد أن يثبت الرسول والذين آمنوا معه بتذكيرهم بما حصل للأنبياء من قبلهم، وكيف أنهم هم والمؤمنون بهم صبروا سنين طويلة على أذى المكذبيين، فكان النصر لحليفهم في النهاية، والهلاك لخصومهم...

الرَّسُولُ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ¹⁸. أَوَلَمْ يَرَوْا (قوم إبراهيم) كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (لِلْبَعْثِ)؟ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ¹⁹. (قال الله لإبراهيم) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ، ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ²⁰. يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ (7)، وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ²¹. وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (الله) فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ²². وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ مِنْ رَحْمَتِي، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ²³. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ (إبراهيم) إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ، فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ! إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ²⁴. وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ²⁵. فَأَمِنْ لَهُ لُوطُ، وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ²⁶. وَوَهَبْنَا لَهُ (لِإِبْرَاهِيمَ) إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ²⁷.

4- ومثال آخر من لوط وقومه...

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ، مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ²⁸. أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ، وَتَقَطْعُونَ السَّبِيلَ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ؟ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّنَا نَعَذِّبُ اللَّهَ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ²⁹. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ³⁰. وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى (ميلاد

7- يقول الزمخشري: "يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ" تعذيبه "وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ" رحمته، ومتعلق المشيئين مفسر مبين في مواضع من القرآن وهو ما يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوب. بمعنى "يعذب من يشاء من الناس أن يعذبه الله، لأنه اختار الكفر بدل الإيمان. وهو في ذلك يشير إلى آيت من مثل قوله تعالى: "وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ". (الكهف 29). أما القرطبي فيقول: "يعذب من يشاء بعذله، ويرحم من يشاء بفضله". فالعذاب عدل من الله لأن المعبذ يستحقه. أما الرحمة فهي فضل منه تعالى ينزلها على من يشاء. والخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في هذه المسألة - وقد سبق أن بينا ذلك - يرجع إلى اختلاف الأصل الذي ينطلق منه كل من الطرفين في هذا الشأن. المعتزلة يقولون: الله لا يفعل القبيح، حرم على نفسه الظلم، ولا يفعل إلا الصلاح من جهة، ومن جهة أخرى: الله وعد المؤمنين بالجنة وأوعد الكافرين بالعذاب، والله لا يخلف وعده كما قال: "وعد الله، لا يخلف الله وعده" (الروم 6). ولا "وعده"... أما الأشاعرة فيقولون إن الله حر في أن يفعل ما يشاء، أن يعاقب المذنب أو لا يعاقبه...

ابن له سماه يحيى)، قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُو أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ (قرية لوط) إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ³¹. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا (وهو ابن أخيه ونبي رسول)! قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا! لَنَنْجِيَنَّ وَأَهْلَهُ إِنَّا لَمُرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ³² (متواطئة مع السابقين). وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيبًا بِهِمْ (جزن بسبيهم) وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا (خوفا عليهم من قومه اللواطين)، وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَكَأَنَّكَ تَكْزِبُ، إِنَّا مَنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا (عذابا) مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ³⁴. وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ³⁵.

5- وأمثال من أنبياء آخرين ... وتلك الأمثال نضربها للناس...

وَالِى مَنَيْنَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ، وَلَا تَعْبُوا (تفسدوا) فِي الْأَرْضِ (فتكونوا) مُفْسِدِينَ³⁶. فَكَذَّبُوهُ فَالْتَمَتَهُمُ الرَّجْفَةُ (الزلزلة الشديدة) فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ³⁷. وَعَادَا وَثُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ (إهلاكنا لهم) مِنْ مَسَكِنَتِهِمْ (مسكن ثمود الججر، ومسكن عاد بحضرموت)، وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ³⁸ (يعرفون الحق من الباطل). وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ³⁹ (أي سبقهم إلى الاستكبار آخرون). فَكُلًّا أَخَذْنَا بِنَبِيهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (ريحا تحمل الحجارة كقوم لوط)، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (كقوم ثمود)، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ (كقارون)، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا (كقوم نوح)، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ⁴⁰. مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ⁴¹. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ (يعبدون) مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ⁴². وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ⁴³، خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ⁴⁴. اِتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ⁴⁵ (8)

8- وجه ارتباط هذه الآية بما سبق كما يلي: إن كنت حزينا على إصرار قومك على تكذيبك، "اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ" ففي قصص الأنبياء مع أقوامهم تثبت لقرائك وتسلية لك. أما وجه ارتباطها بالفقرة التالية فهو أن ما تقدم في الفقرات السابقة يخص المشركين من أقوام

6- وَلَمَّا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَىٰ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...

وَلَمَّا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَىٰ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ. وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُم، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ⁴⁶ (9)؛ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ (أي وبهذا أنزلنا عليك القرآن) فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ (اليهود والنصارى) يُؤْمِنُونَ بِهِ (أي بوحدة الإله: إلهنا وإلهكم واحد)، وَمِنْ هَؤُلَاءِ (اليهود والنصارى) مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ (بالكتاب/القرآن)، وَمِمَّا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا (التي تدل على وجود الله ووحدانيته وعلى البعث الخ) إِلَّا الْكَافِرُونَ⁴⁷ (المكذوبون من قريش الذين يتهمونك باقتراء القرآن وأخذهم ممن يدعون أنهم يعلمونك من الموالى في مكة)⁽¹⁰⁾. (والرد على هؤلاء المكذبين هو:) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ (القرآن) مِنْ كِتَابٍ وَلَمْ تَخْطْ بِمِثْلِهِ، إِذَا تَارَتِ الْبُطْلُونُ⁴⁸ (لو كنت ممن عُرف عنهم أنهم يقرؤون التوراة وينسخون منها لشك المبطلون من أهل الكتاب". بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم (من اليهود والنصارى) وَمِمَّا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ⁴⁹ (11).

الأنبياء أما "أهل الكتاب" أي اليهود والنصارى الذين يؤمنون بالله فأمرهم يختلف. وبالتالي ينبغي مجادلتهم بآتي أحسن، قبل الهجرة وبعدها، "إلا الذين ظلموا منهم". والعلاقة مع هؤلاء ستتحدد حسب مواقفهم من المسلمين في المدينة (وبياتة في القرآن المدني).

9 - ليس من الضروري أن تكون هذه الآية قد نزلت في المدينة كما يقول بعضهم، إذ من الجائز أن تكون قد نزلت في مكة بعد اتصاله عليه السلام بوفود من المدينة كانوا دعاة للإسلام فيها قبل الهجرة، ولا يستبعد أن يكونوا قد طلبوا من الرسول أن يبين لهم كيف التعامل مع اليهود هناك، فنزلت ...

10 - اختلف المفسرون في شرح هذه الآية، وجلهم يفسر قوله تعالى "ومن هؤلاء" بكونه عبد الله بن سلام ومن كان معه ممن يسمون بمسلمة اليهود. وإسلام هؤلاء حدث في المدينة والسورة مكية. فهذا التأويل لا يستقيم. وقد حاول الرازي أن يتجاوز ذلك فقال، بعد أن ذكر ما قيل في هذه الآية من آراء: "وهنا وجه آخر أولى وأقرب إلى العقل والنقل... وهو أن نقول: المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الأنبياء... لأن الذين آتاهم الكتاب في الحقيقة هم الأنبياء، فإن الله ما أتى الكتاب إلا للأنبياء، ونحن (الجابري) نرى أن هذا اللجوء إلى التعميم بهذا الشكل يفقد الآية مضمونها كما أنه يقطع السياق الذي يربطها بما قبلها وما بعدها. والرأي عندنا ما قلناه داخل النص.

11 - اختلف المفسرون في معنى هذه الآية: منهم من جعل الضمير في قوله "بَلْ هُوَ آيَاتٌ" يعود إلى النبي عليه السلام وبالتالي يكون المعنى: "أنزل الله شأن محمد في التوراة والإنجيل لأهل العلم، فهو آية بينة في صدور الذين أوتوا العلم من اليهود والنصارى. ومنهم من جعل الضمير يعود إلى القرآن، والمعنى: "بل هذا القرآن آيات بينات في صدور

7- وقالت قريش: "لَوْكَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ".

وَقَالُوا (قريش) لَوْكَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ (معجزات) مِنْ رَبِّهِ! قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ⁵⁰. أَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ⁵¹. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ⁵². وَيَسْتَغْنُونَكَ بِالْعَذَابِ! وَلَوْكَا أَجَلَ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ⁵³. يَسْتَغْنُونَكَ بِالْعَذَابِ⁽¹²⁾ وَإِنْ جَهَنَّمُ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ⁵⁴. يَوْمَ يَفْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ (الملاك الموكل بالعذاب) ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁵⁵.

8- خاتمة: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِي

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِي⁵⁶ (13). كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ⁵⁷. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ⁵⁸.

الذين أوتوا العلم من المؤمنين بمحمد (الطبري). أما نحن فنرى أن الضمير يعود إلى القرآن فهو أقرب مذكور، وهو الذي وصف مرارا وتكرارا بأنه "آيات بينات". أما "الذين أوتوا العلم" فهم في نظرنا أهل الكتاب، ذلك أنهم لا يجدون أن القرآن آيات بينات، بناء على ما عليه السياق من قوله تعالى قبل ذلك: "فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ".

12- هنا تكرر قوله "يستعجلونك" فكيف نفهمه؟ لمفسرون يجعلون "العذاب" في الآيتين ولحدا هو عذاب جهنم ثم يلتمسون طريقا للتمييز بينهما. أما نحن فنرى أن المقصود بـ "العذاب" في الآية الأولى هو ما ينتظرونه من حرب لمسلمين لهم بعد الهجرة إلى المدينة، والذي أشير إليه تعالى في آخر السورة تسليقة بقوله "وَلَا يَسْتَخْفِكَ الَّذِينَ لَا يُؤْقِنُونَ (الروم 60)، وأشير إليه في الآية أعلاه بقوله "وَلَوْكَا أَجَلَ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ (الأجل المسمى) بَغْتَةً".

13- إشارة إلى انتشار الإسلام خارج مكة، في يثرب وفي القبائل. وهي أيضا إشارة إلى الهجرة إلى المدينة وقد ورد مثلها في سورة الزمر عندما هاجر المسلمون إلى الحبشة: "قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (الزمر 10)". ذكر القرطبي أن هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، في قول مقاتل والكلبي، فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب. بل الصواب أن يلتمس عبادة الله في أرضه مع صالحى عباده؛ أي إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإتباعها واسعة؛ لإظهار التوحيد بها

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ⁵⁹. وَكَلِّينَ مِنْ ذَلِيلَةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا، اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ⁶⁰ (14). وَلَكِنَّ سَأَلْتَهُمْ (مشرقي قريش الذين كلوا يخوفون المسلمين العازمين على الهجرة إلى المدينة من عقبة الذهاب إلى بلد لا أهل لهم فيها) مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ! فَمَا يُوقِفُونَ⁶¹ (يهربون). اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، إِنْ لِّلَّهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمٌ⁶². وَلَكِنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَلَحَّىٰ بِهِ الْبُيُوتَ مِنَ الْبُيُوتِ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ! قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ⁶³. وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَكَعْبٌ، وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ⁶⁴ (15)، لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ⁶⁵. فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ⁶⁶ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَيُكْتَبَ لَهُمْ سَوَافٍ يَعْمُونَ⁶⁷. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا (بلدهم مكة) حَرَمًا آمِنًا، وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ (وفي خارجها يسبي بعضهم بعضاً)، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِالنَّعْتَةِ اللَّهُ يَكْفُرُونَ⁶⁸؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كُتُبًا، لَوْ كُنْتَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ. لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى (مسكناً) لِلْكَافِرِينَ⁶⁹ (يستحقونه)؟ وَالَّذِينَ جَاهَلُوا فِينَا (في سبيل الله) لَنَهَيَيْنَهُمْ سُبُلَنَا، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ⁷⁰.

- تعليل

تناولت هذه السورة ثلاث موضوعات تتعلق كلها بالمرحلة الأخيرة من العهد المكي، وربما بالشهور الأخيرة منه:

الموضوع الأول يتعلق بشكوى بعض المسلمين من المضايقات التي كانت تمارسها عليهم قريش لصددهم عن الهجرة إلى المدينة، ويبدو أن الأمر يتعلق

14- في هذه الآية وفي التي قبلها خطاب ضمني إلى المسلمين الذين كانوا يستعدون للهجرة. إنها تشير إلى مسألة المعاش في المدينة وهم ليسوا من أهلها وليس لهم فيها ممتلكات. ومعطوم أن قريشا كانت تمنع المسلمين من الهجرة إلى المدينة، يؤنون للضعفاء منهم ويحاولون إقناع الآخرين بما سيرتب على مغادرتهم مكة من صعوبات أولها صعوبة العيش في بلد أجنبي لا أهل لهم فيه. وليس من المستبعد أن تكون هذه الآية والتي بعدها ترد عليهم. وقيل: لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين الذين كانوا بمكة بالهجرة إلى المدينة قالوا كيف نقدم بلداً ليست لنا فيه معيشة؟ فنزلت الآية فيهم.

15- قالوا: لفظ "الحيوان" هنا: "أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها في هذا المقام المقتضي للمبالغة".

بمسلمين جدد "كانت صدورهم تضيق" لما كانوا يلاقونه من كفار قريش من أذى، وربما استنكر بعضهم أن يمكن الله الكفار من المؤمنين" الخ، كما ورد في التقييم. وقد عبرت مقدمة السورة عن هذا الأمر بالفتنة، وجاءت الفقرة الثانية لترد على هذه الفتنة بقوة حينما خاطبت الجميع بقوله تعالى: "وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ"⁶، مع وعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن الله سيكفر عن سيئاتهم ويجزيهم بما قاموا به من أعمال صالحة. وفي هذا الإطار جعلت السورة حدا لتدخل الوالدين أو غيرهم في منع المؤمنين عن الهجرة، وكشفت عن نوع جديد من الناس يستحبون الإسلام ولكنهم لا يتحملون ما يترتب عليه من تبعات ومسؤوليات، هذا الصنف الذين أطلق القرآن عليهم اسم "المنافقين" لأول مرة، لأن ظهورهم في هذا الوقت كان لأول مرة. بعد ذلك تأتي الفقرات الثالثة والرابعة والخامسة لتعيد على أسماع هؤلاء المسلمين الجدد ما سبق أن قصته من قبل سور أخرى من صبر الأنبياء والرسل وكيف أنهم والمؤمنين بهم تحملوا من الأذى ما يفوق ما نقيه أولئك المنافقون، ومع ذلك صبروا حتى جاء النصر. لقد نصر الله رسله وأهلك المكينيين العتاة من أقوامهم.

أما الموضوع الثاني فيتعلق بالكيفية التي يجب أن يتعامل بها المسلمون مع أهل الكتاب الذين يسكنون المدينة التي أسلم أهلها من غير اليهود ويتوافد عليهم المسلمون للإقامة ونشر الدعوة. وهنا أوضحت السورة أن العلاقة مع أهل الكتاب يجب أن تكون سلمية، علاقة حوار ونقاش، أساسه أن المسلمين يؤمنون بالتوراة والإنجيل وجميع الكتب السماوية وأنها من عند الله تماما كما هو شأن القرآن، وأن ما يجمع بين الرسائل السماوية كلها هو الإيمان بالله واحد: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِنَّا بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ. وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ". وبناء عليه فلا يشكك في الذي أنزل على محمد بن عبد الله غير المكذبين للكتب المنزلة كلها. هؤلاء وجد منهم في مكة من كان يواجه النبي عليه السلام بكونه إنما يعلمه أشخاص من أهل الكتاب فاجابتهم السورة بأن هذا افتراء لأن محمدا لم يسبق له أن نقل أو تلقى الكتاب من أحد من هؤلاء، ولو كان يفعل ذلك لعلمه خصوم دعوته الذين لم يقصروا في البحث عما يطعنون به في نبوته، إلا أن قالوا "لَوْكُنَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ (معجزات) مِنْ رَبِّهِ"، وقد رد القرآن عليهم مرارا وتكرارا، والآن يرد عليهم بأن القرآن الذي مر على تنزيله الآن أزيد من عشر سنوات كاف للفصل في هذه المسألة: إنه المعجزة، لقد عجزوا عن الإتيان بمثله عندما تحداهم بذلك في سور سابقة: وذلك حين قال: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (يونس

(38)، وأيضاً: "أَمْ يَقُولُونَ اقْتِرَاءُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُقْتَرِبَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (هود 13). وَالْآنَ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ سِوَى أَنْ يَسْتَعِجِلُوهُ بِالْعَذَابِ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ. وَهُوَ صَنْفَانٍ: الْوَعْدُ بِالْهَزِيمَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالْوَعْدُ بِالْمَصِيرِ إِلَى جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ. وَتَقَرَّرُ السُّورَةُ أَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا (أَيِ انْتِصَارَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ) آتٍ لَا مُحَالَةَ، لَهُ أَجَلٌ، وَرَبِّمَا سَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً. وَالْمَقْصُودُ مَفَاجَأَتَهُمْ بِغَزَوَاتٍ بَعْدَ الْهَجْرَةِ مُبَاشَرَةً. أَمَّا عَذَابُ الْآخِرَةِ وَهُوَ الْمَصِيرُ إِلَى جَهَنَّمَ فَهُوَ لَيْسَ خَاصًّا بِهِمْ بَلْ يَشْمَلُ الْكَافِرِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَهِيَ مُحِيطَةٌ بِهِمْ كَمَصِيرٍ لَا أَحَدٌ مِنْهُمْ يَفْلِتُ مِنْهَا: 'وَأِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ' إِحَاطَةٌ أَبَدِيَّةٌ.

بَعْدَ ذَلِكَ تَأْتِي الْخَاتَمَةُ لِنَسْتَعِيدَ الْمَقْدَمَةَ، فَتَخَاطَبُ الَّذِينَ اشْتَكَوْا مِنْ مَضَايِقَاتٍ مُشْرَكِي قَرِيشٍ، وَتَرُدُّ عَلَى مُحَاوَلَةِ زَعْمَاءِ قَرِيشٍ تَثْبِيْطَ هَمِّ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَعِدُّونَ لِلْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ. وَهَذَا هُوَ الْمَوْضُوعُ الثَّالِثُ. هُنَا تُؤَكِّدُ السُّورَةُ لِلَّذِينَ اشْتَكَوْا مِنْ مَضَايِقَاتٍ قَرِيشٍ أَنَّ بَابَ الْهَجْرَةِ مُفْتُوحٌ وَأَنَّ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ، وَأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِلْخَوْفِ مِنْ مَلَاحِقَاتٍ قَرِيشٍ، وَإِذَا حَدَثَ أَنْ تَمَكَّنْتَ مِنْ بَعْضِ الْمُهَاجِرِينَ فَتَقَتَلْتَهُمْ، فَكُلْ نَفْسَ ذَانِقَةَ الْمَوْتِ" وَالْمَوْتَ مَعْنَاهُ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ لَنَيْلِ الْجَزَاءِ. "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ" 58، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" 59. أَمَّا مَا يَهْدِدُ بِهِ مُشْرِكُو قَرِيشٍ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْجُوعِ فِي بِلَدٍ لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ أَهْلٌ، وَالْمَقْصُودُ الْمَدِينَةَ، فَهُوَ تَهْدِيدٌ بِاطْلٍ: "وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا، اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ". وَقَرِيشٌ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ جَيِّدًا: هُمْ يَعْتَرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِمَصْلَحَةِ الْإِنْسَانِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ "اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ". هُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْمَطَرُ يَحْيِي بِهِ "الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا" فَتُعْطِيهِمُ الثَّمَارَ وَالْغُلَّ الْخ... وَهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ يَدَهُمْ مَكَّةَ "حَرَمًا آمِنًا" لَا يَنْتَهِكُ حَرَمَتَهُ أَحَدٌ بَيْنَمَا "يُنْخَطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ"... يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَأَكْثَرُ وَلَكِنَّهُمْ "بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ" 67؟ وَلِذَلِكَ كَانَتْ جَهَنَّمَ مَثْوًى لَهُمْ. أَمَّا الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" 69.

89- سورة المطففين

- تقديم

وهذه سورة أخرى اختلفوا فيها: بعضهم قال مكية نزلت قبيل الهجرة وآخرون قالوا إنها مدنية. والذين قالوا بمكيته اعتمدوا على رواية تقول: "إن مشركي قريش كانوا إذا قدمت العير مكة يأتي أحد من المسلمين السوق ليشتري شيئاً من الطعام يقاته، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فيزيدون عليهم في السلعة على قيمتها أضعافاً حتى يرجع الواحد منهم إلى أطفاله وهم يتضوعون من الجوع، وليس في يده شيء يغفلهم به، فيغدو التجار على أبي لهب فيربحهم". وأما الذين قالوا إنها مدنية فقد اعتمدوا خبراً جاء فيه: "لما قدم النبي (ص) المدينة كان أهلها من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله، "ويل للمطففين" فأحسنوا الكيل بعد ذلك". وفي رواية أخرى: "قدم رسول الله (ص) المدينة وبها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر، فنزلت هذه الآية". ونحن نرجح مكيته لأن موضوعاتها مكية كلها بما في ذلك مقدمتها التي وردت في المطففين، والتي يرتبط الجزاء فيها بيوم القيامة، أي بالبعث الذي هو المحور المركزي في السور المكية الأخيرة. هذا فضلاً عن أن الرواية الأولى التي تؤكد مكيته أعلاه. أما لوائح ترتيب النزول فقد اعتبرتها آخر ما نزل من القرآن المكي.

- نص السورة

1- مقدمة: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ... أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ¹ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ (اشتروا منهم) يَسْتَوْفُونَ
(يطلبون الزيادة)²، وَإِنَّا كَالُوهُمْ (باعوا لهم) أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (ينقصون)³.

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ⁴ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ⁵، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ (من قبورهم) لِرَبِّ⁶ الْعَالَمِينَ (لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ).

2- كتاب الفجار... وكتاب الأبرار.. وشراب الجنة!

كَلَّا، إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ (سجل أعمالهم) لَفِي سَجِّينَ (كتاب جامع لأعمال المذنبين)⁷. وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ⁸! كِتَابٌ مَرْقُومٌ⁹ (مختوم). وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ¹⁰ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ¹¹، وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ¹²؛ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ¹³. كَلَّا، بَلْ رَانَ (غلب) عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ¹⁴ (من الذنوب). كَلَّا، إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ¹⁵ (بينه وبينهم حجاب). ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا (ملقون في) الْجَحِيمِ¹⁶. ثُمَّ يُقَالُ (لهم) هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ¹⁷. كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ (المؤمنين الصادقين) لَفِي عِلِّيِّينَ¹⁸. وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ¹⁹! كِتَابٌ مَرْقُومٌ²⁰، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ²¹ (من الملائكة). إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ²²، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ²³؛ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ²⁴، يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ (خمر طاهرة) مَخْتُومٍ²⁵، خِتَامُهُ مِسْكٌ (آخر شربة منه يفوح منها المسك)، وَفِي ذَلِكَ (من أجل الحصول على هذا النعيم) فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ²⁶ - وَمِزَاجُهُ (ذلك الرحيق) مِنْ (عين) تَسْتِيمٍ²⁷ (تصب من أعلى: من سمن الشيء أعلاه) عَيْنًا يَشْرَبُ (يلتذ) بِهَا الْمُقَرَّبُونَ²⁸.

3- المؤمنون والكفار في الدنيا وفي الآخرة

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا (في الدنيا) مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ²⁹. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ³⁰ (عليهم)، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ³¹ (ضاحكين)، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ (المؤمنين) لَضَالُونَ³². وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ³³ (مراقبين لهم حتى يحكموا عليهم بالضلال)! فَالْيَوْمَ (يوم القيامة)، الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ³⁴، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ³⁵؛ هَلْ ثَوَابَ (جوزي) الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ³⁶.

- تعليق

لعل أهم قضية عقائدية تكلم فيها المفسرون في هذه السورة قضية "الحجاب" في قوله تعالى عن المشركين يوم القيامة: "كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ"¹⁵،

فقد اختلفوا في معنى الحجاب، واتخذ الخلاف في هذه المسألة طابعاً مذهبياً بين المعتزلة وأهل السنة من الأشاعرة وغيرهم. يتعلق الأمر بمسألة من أهم مسائل علم الكلام في الإسلام، مسألة الرؤية. وقد سبق أن تحدثنا عن هذا الخلاف في القسم الأول من هذا الكتاب (انظر سورة القيامة، التعليق)، كما عرجنا عليها في سورة الشورى (التعليق) في هذا القسم من الكتاب ضمن قضايا كلامية أخرى، ومن أجل إحاطة أوسع بالموضوع ننقل هنا ما كتبه الرازي حول رأي كل من أصحاب الأشاعرة وخصومهم المعتزلة. قال: "احتج الأصحاب (أصحابه وهم الأشاعرة، احتجوا ضد على المعتزلة) على أن المؤمنين يرونه سبحانه (في الآخرة)، قالوا: ولولا ذلك لم يكن للتخصيص فائدة (أي تخصيص المشركين بكونهم محجوبين). وفيه تقرير آخر وهو أنه تعالى نكر هذا للحجاب في معرض الوعد والتهديد للكفار، وما يكون وعيداً وتهديداً للكفار لا يجوز حصوله في حق المؤمن، فوجب أن لا يحصل هذا الحجاب في حق المؤمن.

ويضيف الرازي: "أجابت المعتزلة عن هذا من وجوه أحدها: قال الجبائي: المراد أنهم عن رحمة ربهم محجوبون أي ممنوعون، كما يقال في الفرائض (في الميراث): الإخوة يحجبون الأم على الثلث؛ ومن نكح يقال لمن يمنع عن الدخول، هو حجاب، لأنه يمنع من رؤيته. وثانيها: قال أبو مسلم: لَمْحْجُوبُونَ أي غير مقربين، والحجاب الرد، وهو ضد القبول. والمعنى: هؤلاء المنكرون للبعث غير مقبولين عند الله وهو المراد من قوله تعالى: "وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (آل عمران 77). وثالثها: قال القاضي: الحجاب ليس عبارة عن عدم الرؤية، فإنه قد يقال: حجب فلان عن الأمير، وإن كان قد رآه من البعد، وإذا لم يكن الحجاب عبارة عن عدم الرؤية سقط الاستدلال، بل يجب أن يحمل على صيرورته ممنوعاً عن وجدان رحمته تعالى. ورابعها: قال صاحب «الكشاف» (الزمخشري): كونهم محجوبين عنه تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للمكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا المهاتون عندهم.

والجواب (على ما نسبته الرازي إلى المعتزلة أن يقال من وجهة نظر الأشاعرة): لا شك أن من منع من رؤية شيء يقال: إنه حجب عنه، وأيضاً من منع من الدخول على الأمير يقال: إنه حجب عنه، وأيضاً يقال الأم حجبت عن الثلث بسبب الإخوة، وإذا وجدنا هذه الاستعمالات وجب جعل اللفظ حقيقة في مفهوم مشترك بين هذه المواضع دفعاً للاشتراك في اللفظ، وذلك هو المنع. ففي الصورة الأولى حصل المنع من الرؤية، وفي الثانية حصل المنع من الوصول إلى قربه، وفي الثالثة: حصل المنع من استحقاق الثلث، فيصير تقدير الآية: كلا إنيهم عن ربهم يومئذ لممنوعون،

والمتع إنما يتحقق بالنسبة إلى ما يثبت للعبد بالنسبة إلى الله تعالى، وهو إما العلم، وإما الرؤية، ولا يمكن حمله على العلم، لأنه ثابت بالاتفاق الكفار، فوجب حمله على الرؤية. أما صرفه إلى الرحمة فهو عدول عن الظاهر من غير دليل، وكذا ما قاله صاحب «الكشاف» (هو) ترك للظاهر من غير دليل! ثم الذي يؤكد ما ذكرناه من الدليل أقوال المفسرين، قال مقاتل: معنى الآية أنهم بعد العرض والحساب، لا يرون ربهم، والمؤمنون يرون ربهم. وقال الكلبي: يقول إنهم عن النظر إلى رؤية ربهم لمحجوبون، والمؤمن لا يحجب عن رؤية ربه. وسئل مالك بن أنس عن هذه الآية، فقال: لما حجب أعداءه فلم يروه لا بد وأن يتجلى لأولياته حتى يروه. وعن الشافعي لما حجب قوما بالسخط دل على أن قوما يرونه بالرضا.

قلت (الجابري): والذي جعل المعتزلة يقولون بعدم إمكانية رؤية الله يوم القيامة هو تمسكهم بأصلهم في "التوحيد"، بمعنى تنزيه الله عن مشابهة مخلوقاته، ومخلوقاته البشرية إنما يرون ما هو جسماني ومحسوس، والله منزله عن هذا، ولذلك وجب عندهم تأويل كل ما يرد في القرآن عن الله ويفيد التشبيه والتجسيم، كما فعلوا هنا بالنسبة لقوله تعالى عن كون المشركين سيكونون محجوبين عن الله. فيمقتضى أصلهم أن الله ليس بحسم، وإذن فليس موضوعاً لرؤية أحد من البشر، مؤمناً كان أو غير مؤمن، وفاقاً مع قوله تعالى: "لَا تَذَرِكُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يَذَرِكُ الْآبْصَارُ" (الأنعام 103)، وعلى هذا الأساس صرف المعتزلة لفظ "محجوبون"، أي الكفار، إلى رحمة الله وما في معنى هذا، فقالوا: "هم محجوبون وممنوعون ومردودون عن رحمة الله ولطفه".

90- سورة الحج

- تقديم

هذه السورة موضوع اختلاف كبير: هل هي مكة أم منية؟ والقائلون إنها مكة استنتوا منها آيات قالوا إنها نزلت بمناسبة وقع حدث في المدينة، وهكذا عد فيها بعضهم أربع آيات منية وبعضهم جعلها خمساً، بينما قلب آخرون الوضع تماماً فقالوا إن السورة منية كلها ما عدا أربع آيات...؟! والنين يجنحون عادة إلى الجمع بين الروايات يقولون هي مكة/منية بلا تعيين، ونحن قد رجحنا مكيتها -أو الجانب المكي فيها- لورود آيات "الإذن بالهجرة والقتال" فيها، وهذا لا يستقيم إلا إذا قلنا بمكيتها، وسنرى أنه ليس فيها ما ينافي كونها كذلك. أما وقت نزولها فالغالب أنه كان في ظروف الحج أي في أول السنة الرابعة عشرة للنبوة، الأولى للهجرة، باعتبار أن هجرة النبي عليه السلام كانت في صفر أو أول ربيع الأول من السنة الرابعة عشرة للنبوة وهي الأولى للهجرة، فيكون بينها وبين الهجرة بضعة أسابيع فقط. وهناك من قال إنها نزلت أثناء هجرته عليه السلام، أي في الطريق من مكة إلى المدينة. وبذلك يصير من المحتمل جداً أن تكون هذه السورة آخر ما نزل، وسنلاحظ في بعض آياتها ما يركي هذا الاحتمال. هذا ولا علاقة بين اسم هذه السورة وكونها تتحدث عن الحج وبين فريضة الحج (على من "استطاع إليه سبيلاً") يوصفها ركناً من أركان الإسلام، ذلك أن الحج أما فرض في المدينة (سورة البقرة سورة آل عمران). ومعلوم أن الحج كان يمارس قبل ظهور الإسلام بأحقاب، والآية 27 من هذه السورة تجعل بدايته منذ إبراهيم عليه السلام.

- نص السورة

1- إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ.

بسم الله الرحمن الرحيم
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ الْقِيَامِ (السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ¹، يَوْمَ تَرْوُهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ².

2- السَّاعَةُ آتِيَةٌ ... ومخطئى من يظن أن الله لن ينصر محمدا.

أ- وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ⁷

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ (فيشكك في البعث) وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ³. كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَكَّاهُ (من تولى الشيطان) فَاقْتُلْهُ يُضِلَّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ⁴. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ (قليل وقوعه لكم لم تكونوا موجودين فخلقكم): فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ (كلكم من لب ولحده هو آدم خلقناه) مِنْ تَرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ (مني) ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ (لم جامد) ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ (لحمة صغيرة قدر ما يمضغ) مُخَلَّقَةٍ (قد بدأ تصويرها) وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ (لم تصور بعد)، لِنُبَيِّنَ لَكُمْ (أطوار خلقكم في الأرحام)، وَتَقَرُّوا فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ (نكرأ أو أنثى) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (وقت ميلاده)، ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا، ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ مِنْكُمْ مَنْ يَتَّقِي، وَمِنْكُمْ مَنْ يُزْوَءُ إِلَى أَرْثَلٍ الضَّرِّ (الشيخوخة) لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا. (ومن أدلة وقوع البعث): وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً (يابسة)، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ (تحركت) وَرَبَّتْ (نمت) وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ⁵ (كما ينبت النبات من جديد يبعثكم من جديد). نَلَاكَ بِاللَّهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْمَوْتَى، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ⁷.

ب- من الناس من يجادل في الله، ومنهم من يعبد الله على حرف...

وَمِنَ النَّاسِ⁽¹⁾ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ⁸، ثَلَاثِي عَظْفِهِ (مشر عن ساعده) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَتَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ⁹، (يقال له حينئذ): نَلَاكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ¹⁰. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ (على وجه واحد): فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ². خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، نَلَاكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ¹¹. يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ، نَلَاكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ¹². يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ! لَيْسَ الْمَوْلَى

1- ذكره في هذه الآية والتي بعدها النضر بن الحرث من بني عبد الدار. وقد نكرناه مرارا وكان من أعد خصوم الدعوة المحمدية، ينقضها بأساطير من أفيات الفرس، ويقوم بدعوة مضادة للعقيدة الإسلامية في الأسواق.

2- هذا ينطبق على من نكرتهم سورة العنكبوت وسنتهم بالمنافيين: الآيات 10-11.

وَلَبِئْسَ الْفَضِيرُ¹³ (المعاصر). إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ¹⁴.

ج- من كان يظن أن الله لن ينصر محمدا فظنه باطل تماما...

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ (يعني محمدا) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَيَمِزُّهُ سَبَبٌ (يحيل يصعد به) إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لَيَقَطُّعُ (النصر الموعود)، فَلَيَنْظُرُ هَلْ يَذْهَبُ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ¹⁵ (ما يغيطه ويقلقه).

3- تعدد الأديان واقع دنيوي: إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ (القرآن) آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ¹⁶. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ هَادُوا (اليهود)، وَالصَّابِّينَ (يتخونون النجوم وسائط إلى الله)، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسَ (القاتلين بمبدلين: النار والظلمة)، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا (مشركي مكة)، إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ¹⁷. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ⁽³⁾، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ (يعبدونه فمصيرهم في الجنة)، وَكَثِيرٌ (لا يعبدونه وقد) حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ. وَمَنْ يَهْنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ. إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ¹⁸. هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا (وهم الخصم الأول) قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ¹⁹، يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ²⁰، وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ²¹ (كالتي في لجام الفرس الجموح): كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ²². إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (وهم الخصم المقابل

3- الطبري: "وسجد ذلك: ظلاله حين تطلع عليه الشمس وحين تزول إذا تحوّل ظل كل شيء فهو سجوده". قلت (الجبري) والمقصود من هذا إبراز كون تعدد الديانات (إسلام، يهودية نصرانية صابئة، مجوس، وثنية (الشرك) ظاهرة طبيعية، كل يطلب الله على طريقة خاصة، كل يدعي أنه على حق: "إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". وهذا اعتراف بهذه الديانات كواقع، أما مسألة الصحة والخطأ، فمتركة لله. أما التعامل مع هذه الديانات والاعتراف بها فسيتم الفصل فيه في آية أخرى. سيكون ذلك في المدينة حيث سنقرأ في سورة البقرة "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِّينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقرة 62) وسيستمر هذا الموقف وسيؤكد في آخر سورة نزلت "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّينَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (التوبة 69). وهكذا سيكون الاعتراف بالديانات الأخرى مشروطا ليس بالإيمان بالله فحسب، بل وبالصالح أيضا...

لِلأُولَى جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، يَحْتَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا، وَتَبَاسُثُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ²³. وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ، وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ²⁴.

4- الحج وشعائره منذ إبراهيم ...

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصْنُدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (4) الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ، سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ (المقيم) وَابْدِئِي (القادم من خارج)، وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ (بشرك) نَذْفُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ²⁵. وَ(اذكر) إِذْ بَرَأْنَا إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ (جعلناه له مكانا يرجع إليه للعبادة) : أَنْ لَا تَشْرِكَ بِي شَيْئًا وَشَهْرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ²⁶. وَأَذِّنْ (يا إبراهيم) فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا (راجلين)، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ (من الإبل) يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَاسِقٍ²⁷ (مكشوف بعيد)، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ (التجارة) وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ، عَلَى (ذبح) مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ. فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَوَامِرَ الْفَقِيرِ²⁸. ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ²⁹ (5) وَلِيُؤْفُوا نَذْرَهُمْ (ما نذروه من عمل الخير) وَلِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ²⁹ (الكعبة). ذَلِكَ (6)، وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ (شعائر الحج) فَهُوَ خَيْرٌ لَهٗ عِنْدَ رَبِّهِ. وَأَجَلْتُ لَكُمْ (للمسلمين) الْأَنْعَامَ (أَنْ تَأْكُلُوهَا) إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ (ما حرم عليكم في القرآن مما ذكر في سور أخرى)⁷ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ (الأصنام)

4 - هذا دليل على أن السورة مكية، لأن الخطاب موجه هنا إلى قريش ويتوعدا إن هي استمرت في احتكار بيت الله الحرام الذي يجب أن يبقى مفتوحا دائما في وجه المقيم في مكة والقادم من خارجها، والمقصود هنا هم المسلمون من أهل القبائل وأهل بئر الخ. ولا شيء في الآية يشير إلى ما يقوله بعض المفسرين من أن المقصود هو صد قريش للنبي عندما ذهب من المدينة قاصدا مكة للعمرة، الشيء الذي انتهى بمعاهدة الحديبية، بل إن صياغة المضارع "يصنون" تدل على استمرار الحال. يؤيد هذا المعنى نكرة للعكف فيه والبداءي، هذا فضلا عن السياق ككل وما سيأتي مباشرة من التنكير بأن الكعبة هي خاصة بنurie إبراهيم الذين سماهم مسلمين، أما المشركون فغير مسموح لهم ممارسة الشرك فيها، أي عبادة الأصنام، وسينالون العقاب الأليم... ومن القرين التي تؤكد ذلك التنكير بخطاب الله إلى إبراهيم : وَأَذِّنْ (يا إبراهيم)⁽⁴⁾ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا (راجلين)، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ (من الإبل) يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَاسِقٍ²⁷ (مكان بعيد)، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ (التجارة) وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ

5 - تَلَفَّتْ: حلق الرأس، وننّف الإبط، وقصّ الأظفار... ، ورمي الجمار وهي من شعائر الحج.
6- قال لزمخشري: "تلك" : خير مبتدأ محذوف، أي: الأمر والشأن ذلك، كما يقدم الكاتب جملة من كتبه في بعض المعاني، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا، وقد كان كذا". وعلى هذا فما تقدم كان خطابا لإبراهيم أو في معنى الخطاب له. أما ما سيأتي فهو بيان علم للمسلمين في كل زمان.
7- وقع للتصبيص من قبل على محرمات من الطعام والشراب خاصة في سورتي الأنعام والنحل، وسيرد نكر أخرى في القرآن المنى.

وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ³⁰، حَقَاءَ (مستقيمين) لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ (سقط) مِنَ السَّمَاءِ، فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ³¹. ذَلِكَ، وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرُ اللَّهِ (المتعلقة بالذَّبَائِحِ فِي الْحَجِّ) قَاتِلُهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ³²، لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ (كَالرُّكُوبِ) إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (حِينَ تَنْتَحِرُ وَيَتَصَدَّقُ بِلَحْمِهَا)، ثُمَّ مَجْلُهَا (الْمَكَانَ الَّذِي يَحِلُّ فِيهِ نَحْرُهَا) إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ³³. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا (ذَّبَائِحَ، قَرَابِينَ) لِيَتَذَكَّرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ أَلْتَعْلَمُ. فَلَهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَلَهُ أَسْمِعُوا، وَيُشْرِكُوا بِالْمُحْيِينَ³⁴ (الْمُطِيعِينَ)، الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ³⁵. وَالْبَدَنُ (ج. بَدَنَةٍ أَوْ بَقَرَةٍ تَنْحَرُ بِمَكَّةَ تَسْتَحْسِنُ وَتَسْتَسْمِنُ) جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، صَوَافٍ (تَذْبِجُ قَائِمَةً عَلَى ثَلَاثٍ، مَعْقُولَةُ الْيَدِ الرَّجُلِ الْيَسْرَى)، فَإِذَا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا (سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ مَيِّتَةً بَعْدَ نَحْرِهَا) فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَاتِعَ (بِمَا يُعْطَى لَهُ) وَالْمُعْتَرَّ (الَّذِي يُسَالُّ الزِّيَادَةَ). كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ³⁶. لَنْ يَنَالِ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا، وَلَكِنْ يَنَالُ التَّقْوَى مِنْكُمْ. كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَذَاكُمْ. وَيُشْرِكُوا بِالْمُحْسِنِينَ³⁷.

5- أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ...

إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ (غَادِرٍ) كَفُورٍ³⁸ (يَقْتُلُ غَدْرًا) (8). أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ (أَنْ يَقَاتِلُوا) بِأَنَّهُمْ (بِسَبَبِ أَنَّهُمْ) ظَلَمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ³⁹ (9). الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ⁽¹⁰⁾! وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ

8- قَالَ مَقَاتِلُ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ كُفْرَ أَهْلِ مَكَّةَ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَكَّةَ، هَذَا حِينَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْكَفِّ عَنِ كُفْرِ مَكَّةَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ حِينَ أَنُوهُمْ فَلَسْتُمْ تَدْنُوا لِلنَّبِيِّ (ص) فِي قَتْلِهِمْ سِرًّا فَهَاهُمْ. وَقَالَ الطَّبْرِيُّ: "إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ غِلَّةَ الْمُشْرِكِينَ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا بِإِلَهِهِ وَرَسُولِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ: يُخُونُ اللَّهَ فَيُخَلِّفُ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَيَعْصِيهِ وَيَطِيعُ الشَّيْطَانَ. "كُفُورٌ": جُحُودٌ لِنَهْيِهِ عِنْدَهُ، لَا يَعْرِفُ لِمَنْعِهَا حَقَّهُ فَيُشْكِرُهُ عَلَيْهَا". وَأَضَافَ: "وَقِيلَ: لَهُ عَنِ بَذَلِكِ دَفَعَ اللَّهُ كُفْرَ قُرَيْشٍ عَمَّنْ كَانَ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَ هِجْرَتِهِمْ". وَالسِّيَاقُ يُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى خُصُوصًا قَوْلُهُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: "الَّذِينَ (أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ) إِنَّ مَكَانَهُمْ فِي الْفَرَضِ"، وَهَذَا قَبْلَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ (ص) وَتَلْسِيسِهِ لِلدُّوَلَةِ. نَظَرَ لِتَطْلُوعِ.

9 - هَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ وَرَدَتْ فِيهَا التَّرْخِيفُ بِالْقِتَالِ "بَعْدَ مَا نَهَى عَنْهُ فِي نِيفٍ وَسَبْعِينَ آيَةً" (الزَّمْخَشَرِيُّ).

10- كَانَ جُلٌّ مِنْ أَسْلَمَ قَدْ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَبْقَ فِي مَكَّةَ إِلَّا الرَّسُولُ وَبِضْعَةُ أَفْرَادٍ.

وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا لِسْمِ اللَّهِ كَثِيرًا⁽¹¹⁾؛ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ⁽⁴⁰⁾. (هؤلاء) الَّذِينَ (أخرجوا من ديارهم) إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ (في المدينة) أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ⁽⁴¹⁾.

6- وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَكِنْ يُخَلِّفَ اللَّهُ وَعْدَهُ...

وَإِنْ يَكْذِبُوكَ⁽¹²⁾ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ⁽⁴²⁾، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ⁽⁴³⁾، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ، وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ (أخرت عنهم العقوبة)، ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ (فعاقبتهم) فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ⁽⁴⁴⁾. فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ، فَهِيَ (اليوم) خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا، وَيَبُرُ مَغْطَلَةٌ، وَقَصُرَ مَشِيدٌ⁽⁴⁵⁾ (إشارة إلى آثار عاد و ثمود: الحجر). أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ (عقول) يَفْعَلُونَ بِهَا، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا. فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ⁽⁴⁶⁾. وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ⁽¹³⁾، وَلَكِنْ يُخَلِّفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَإِنَّ يَوْمًا عَذَابِ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ⁽⁴⁷⁾ (فاصبروا ولا تقنطوا). وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا (أخرت عقابها) وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا (فعاقبتها)، وَإِلَى الْمَصِيرِ⁽⁴⁸⁾.

7- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى...

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ⁽⁴⁹⁾، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ⁽⁵⁰⁾، وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ⁽⁵¹⁾. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ⁽¹⁴⁾ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى

11 - دفع الله بعض الناس ببعض: بمعنى الترخيص برد الفعل والدفاع عن النفس بكل الوسائل، الذي لولا هذا الترخيص لهدمت صوامع وبيع ومساجد الخ لعدم توقع حصول ردود الفعل. والصيغة على العوم. ويفهم من هذا أن الأصل هو منع رد الفعل بالقتل إلا إذا كانت هناك رخصة من قبيل ما ذكر يضاف إليه الدفاع عن الوطن وحماية للشعور الخ.

12 - والمعنى: وإن يكذبوا في وعد الله لك بالنصر فقد كذبت أُمم رسلكم فنصر الله رسلكم، وإن فلا تتأخر باستعجالهم إليك بالعذاب لهم والتصر لك، فتهاجر، ادع المؤمنين إلى الإسراع بالهجرة وانتظر أنت.

13- لعذاب هنا ليس عذاب الآخرة وحده، بل عذاب الدنيا أيضا عند قتل المسلمين لهم. وللتذكير في الآية التالية بقرى أهلها في الدنيا يشير إلى ذلك.

14 - اختلفوا في الفرق بين الرسول والنبي. وساد القول: "الرسول الذي أرسل إلى الخلق ببرسال جبريل عليه السلام إليه عياد. والنبي الذي تكون نبوكة إلهيا أو مناهما؛ فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً". لكن هذه الآية "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ" تفيد أن الأنبياء مرسلون أيضا. قال بعضهم: "إن الأنبياء صلوات الله عليهم فيهم مرسلون وفيهم غير مرسلين". وذهب آخرون "إلى أنه لا

أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ، فَبَنَسَخَ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ،
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ⁵² (15). لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ⁵³. وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ (تخضع)، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُدَا الَّذِينَ آمَنُوا
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ⁵⁴. وَكَأَيُّ زَلٍّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ (شك) مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ
السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ عَقِيمٌ⁵⁵. الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ، يُحْكُمُ بَيْنَهُمْ، فَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ⁵⁶. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ⁵⁷. وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَسِّرَ اللَّهُ لَهُمْ
اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا. وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ⁵⁸؛ لَيَدْخُلْنَهُمْ مَدْخُلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ
اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَكِيمٌ⁵⁹. ذَلِكَ، وَمَنْ عَاقَبَ (جازى) بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ (اعتدى عليه به)
ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ (ثانية) لَيَتَصَرَّنَهُ اللَّهُ (بمعنى ليصبر حتى يأتي نصر الله). إِنَّ اللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٌ⁶⁰ (وأيضا يجب العفو من المؤمنين). ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي
النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ⁶¹ (16). ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ⁶². أَلَمْ تَرَى
أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ⁶³. لَهُ

يجوز أن يقال نبي حتى يكون مرسلًا. ولن معنى نبي: "أتيا عن الله عز وجل ومعنى أتيا عن الله عز
وجل الإرسال بعينه".

15- ربط بعض المفسرين هذه الآية بقصة الغريق، ونحن على خلاف مع هذا الرأي. انظر رأينا في
التعليق الذي كتبناه في سورة النجم رقم 22. القسم الأول من هذا الكتاب. هذا وقد يكفي أن يربط المرء
هذه الآية بالتي قبلها التي تتحدث عن "الذين سئوا في آياتنا مغلجين"، ليتبين أن موضوع التمني لا
علاقة له بقصة الغريق. انظر التعليق في آخر هذه السورة.

16- وذلك وفقا مع قوله تعالى: "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَلَجْزُهُ عَلَى اللَّهِ بَشَاءٌ لَّا
يُجِبُ لِلظَّالِمِينَ" (الشورى: 40). تشير الآية أعلاه إلى أناس كانوا بصد الهجرة إلى المدينة قبيل هجرة
النبي عليه السلام، فاعترضتهم قريش واعتك عليهم، فردوا عليهم بمثل ما اعتدي بهم عليهم، ثم زلت
قريش فبغت عليهم. والمطلوب منهم في هذه الحالة أن ينصرفوا إلى مقصودهم (المدينة)، لأن الرد على
بقي قريش مرة ثالثة سيخل المؤمنين في مسلسل الثأر والثأر للتأثر، فيشغلهم ذلك عن هدفهم وهو
الهجرة إلى المدينة للاستعداد لمقتلة قريش مقللة الدندند. ولكن ذلك لا يعني أن الله لن يقتص منهم،
بل سيمكن المسلمين منهم بعد الهجرة: فما نقص من حق المسلمين في مكة سيوضعون عنه في
المدينة، تماما كما قال الطبري في معنى الآية: يدخل ما ينقص من ساعات الليل في ساعات النهار،
فما نقص من هذا زاد في هذا: والعكس بالعكس. "وبالفترة التي يفعل ذلك ينصر محمدا صلى الله عليه
وسلم وأصحابه على الذين بغوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم". والمعنى: إن حساب السريخ
والخسارة في الصراع مع قريش يجب أن يكون بنظرة شمولية، فما نقص من حق المسلمين في الدفاع
عن أنفسهم في مكة سيضاف إلى ما سيحصلون عليه من النصر في المدينة.

مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَمِيدُ⁶⁴. أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ، وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِ، وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّعُوفٌ رَحِيمٌ⁶⁵. وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ⁶⁶ (17).

8- لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ، فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ.

نُكَلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا (أي طريقة ومنهاجا) (18) هُمْ نَاسِكُوهُ، فَلَا يُنَازِعُكَ (أي قریش) فِي الْأَمْرِ (في شرعك ومنهاجا) (19)، وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ⁶⁷. وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ⁶⁸. اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ⁶⁹. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ⁷⁰. وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ⁷¹. وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ (الإنكار والغیظ)، يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا. قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذُلُكُمُ: النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَبَنَسَ الْمَصِيرُ⁷². يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْتَنبِذْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَمْ يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ. ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ⁷³. مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ⁷⁴. اللَّهُ يَصْطَلِفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا، وَمِنَ النَّاسِ. إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ⁷⁵. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ⁷⁶. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ⁷⁷.

9- خاتمة: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ...

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ (بأفعال الخير) هُوَ اجْتَبَاكُمْ (اختاركم)، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ: (اتبعوا) مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.

17- كل هذا يصدق عليه قول الطبري أعلاه

18- في لسان العرب: "المنسك: شريعة النسك. نسك الرجل إلى طريقة جميلة أي دأب عليها".

19 - روي أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح، وقولهم للمؤمنين: تاكلون ما نبحتم ولا تاكلون ما نبح الله من الميتة، فكان ما قلل الله لحق أن تاكلوه مما قتلتم أتم بسكاكنكم.

فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ. وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ. فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.⁷⁸

- تعليق

لا شك أن القارئ قد لاحظ معنا أن هذه السورة تشتمل على عدد من العلامات التي تؤكد مكيتها، وأن الآيات التي يصنفها بعض المفسرين مع القرآن المدني تقبل الانضمام تحت راية القرآن المكي خصوصاً مع آخر مراحل.

الموضوعات التي تناولتها هذه السورة هي التالية:

1- تناولت الفقرة الأولى (المقدمة) والثانية مسألة البعث، وهي المحور المركزي الذي ظل حاضراً في جميع سور هذه المرحلة. تنطلق السورة من الإشارة إلى هول قيام الساعة، "يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ"². بعد الإعلان عن هذا المشهد المهول الذي يخاطب الخيال تنتقل السورة إلى البرهنة بخطاب عقلي على دفع شك المجادلين في حدوثه، فتأخذ في تفصيل أهم مظهر من مظاهر المشهد الذي قدمته: فالمرضعة التي تذهل عما أرضعت، كالحامل التي تسقط حملها تحت وقع صرخة القيامة، تمثلان طوراً من الأطوار التي حددها الله لحياة الإنسان: والذين يشكون في البعث يجب عليهم أن لا ينظروا إليه كواقعة منفصلة لا أصل لها ولا فصل، بل يجب النظر إليه كحلقة في سلسلة: سلسلة ابتدأها الله بخلق آدم من تراب، ومن آدم وزوجه تسلسل خلق ذريته من نقطة ذكر تمنى في فرج امرأة، فتتحول النقطة إلى دم جامد يعلق برحمها فهو علقة، ويزداد حجم العلقة فيصير بقدر مضغة، ثم تأخذ هذه المضغة صورة إنسان، فيجعله الله ذكراً أو أنثى، وبعد مضي أجل معين، تضع الحامل حملها وترضعه، فيصير طفلاً، ثم شاباً فشيخاً، "مِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ". ومثل هذه الأطوار مثل الأرض ترونها يابسة هامة لا حركة فيها فإذا أنزل الله المطر عليها "اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ"⁵. فعلام يدل ذلك كله: إنه يدل على أن الخالق الحق هو الله، وأنه "يُخَيِّ الْمَوْتَى" عند البعث "وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا" لأنها حلقة في نفس السلسلة؛ والبعث معناه: الحساب والجزاء.

هناك من الناس من يجادل ويشكك في وجود الله أو في قدرته على بعث الموتى مجتداً نفسه لصد الناس عن الإيمان بالله واليوم الآخر، هذا الصنف من الناس سيكون جزاؤه خزي في الدنيا وعذاب بالنار يوم القيامة. وهناك صنف آخر من الناس "يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْقٍ": على وجه واحد. "فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ

أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ⁽²⁰⁾ (راجعاً إلى ما كان يعبد من قبل) يُذْعَوُا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ. هؤلاء وأنتك خسروا الدنيا والآخرة فجزأؤهم جهنم. أما الذي آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات فجزأؤهم الجنة. وإذا كان بعض الناس يظنون أن محمداً سيفشل وسينهزم وأن وعد الله له بالنصر لن يتحقق فليعلموا أن نصر الله له أمر حتمي، وأنه مكتوب في السماء. فإذا أراهوا منع هذا النصر فليبحثوا عن وسيلة أو حيلة تمكنهم من الصعود إلى السماء ليقطعوا حبل النصر عنه، ولينظروا هل سيريحهم ذلك مما يغيظهم!

بعد أن تحدثت السورة عن موقف صنف من الناس (فريش) من الإيمان بالله واليوم الآخر وأكدت أن النصر عليهم مكتوب له عليه السلام انتقلت إلى تصنيف البشر جميعاً حسب دياناتهم. وهكذا فبعد أن أكدت أن القرآن جاء بآيات بينات تخاطب للناس جميعاً وأن الله يهدي به من يريد (الهداية) انتقلت إلى بيان أصناف البشر من زاوية الدين: الذين آمنوا بالقرآن، واليهود، والصابئين، والنصارى، والمجوس، والمشركين⁽²¹⁾، فأخبرت بأن الله يفصل بينهم يوم القيامة. وبعد أن أكدت السورة "أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ"، كل حسب خلقته وطريقته، عادت إلى أصحاب الديانات لتمييز فيهم بين خصمين "اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ": فَالَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ مَصِيرُهُمْ جَهَنَّمُ، أما الذين آمنوا به وعملوا الصالحات فموعدهم الجنة.

وتأتي الفقرة التالية (الرابعة) لتوضح المقصود بهذين الخصمين في الظرف الذي نزلت فيه السورة: فالذين كفروا هم الذين "يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" ويمنعون المؤمنين من أداء شعائر دينهم في "الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" الذي جعله الله قبلة للناس للعبادة، سواء منهم المقيم في مكة أو القادم إليها. أما من يريد ممارسة الشرك فيه، كعبادة الأصنام، فعقابه العذاب الأليم. ذلك أن هذا البيت قد جعله الله في الأصل لإبراهيم مكاناً خاصاً بعبادة الله لا يمارس فيه الشرك، يأتيه الناس لهذا الغرض من كل مكان. ثم تعرض السورة لشعائر الحج كما توارثها العرب منذ جدهم إبراهيم.

وتأتي الفقرة الخامسة لتأذن للذين آمنوا بالدفاع عن أنفسهم إزاء هذا الخصم الذي يصددهم عن دينهم ويمارس عليهم صنوفاً من المضايقات، ليس منهم من أداء شعائرهم في المسجد الحرام إلا مظهراً واحداً منها. إنهم يعتدون عليهم ويطاردونهم

20- هذا ينطبق على من نكرتهم سورة العنكبوت وسمتهم بالمنافقين: الآيتان 10-11.

21- واضح أن هذا التصنيف يضم للديانت التي كُنت في الجزيرة العربية وحدها أو في علاقة مباشرة معها كالمجوس في فارس الذين كُنت إمرة الحيرة تحت نفوذهم. أما الديانت الأخرى مثل اليونانية والكونفوشية وغيرها فلم تَلِك الآية على ذكرها، لأنها لم تكن تدخل في أية علاقة مع الإسلام، وإن كان كثير من هذه الديانت يمكن إدخالها مع صنف للمشركين.

ويصدونهم عن الالتحاق بإخواتهم المهاجرين إلى المدينة. من قبل كان الله يدافع عنهم (عن الذين آمنوا) بالقرآن ويحثهم على الصبر ويعددهم بالنصر، ولأنهم كانوا أقلية، ولم يكن في إمكانهم قتال الكفار وجها لوجه فقد منعهم من الرد بأساليب غير مشروعة كالاغتيالات وغيرها "إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ (غادر) كَفُورٍ"³⁸ (يقتل غداراً). أما الآن وقد كثر عدد المؤمنين وأصبح لهم أنصار في يثرب واتسعت الأرض أمام الإسلام فإن الله يأذن لهم في القتال، مدافعين عن النفس، محاربين وواضحين لخصم واضح: "أَنَّ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ (أَنْ يُقَاتِلُوا) بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَبِيرٌ"³⁹. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ بِلَادِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ!"⁽²²⁾. بعد تفديد نصر الله للمسلمين المهاجرين عندما يحين الدفاع عن أنفسهم بالقتال والمواجهة الصريحة، تطلب السورة من الرسول أن لا يتأثر باستهزاء قريش وتحديهم له أن يبادر فيريهم الهزيمة التي سيلحقها بهم والعذاب الذي يدهم به: "وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَلَّفَ سِنَةً مِمَّا تَعْدُونَ"⁴⁷. لا تستعجل بالهجرة ولا تنقص زمان الوعد الإلهي بالزمان للبشري. اصبر حتى يأتيك الأمر بالهجرة، وتقوم بما يلزم من الإعداد للحرب بينك وبين مشركي مكة، وما يقتضيه الأمر من مواصلة الحرب حتى يكتمل لك النصر، ليس فقط في بدر بل بفتح مكة. لأن الصراع الذي تتحدث عنه هذه الآيات ليس من أجل نصر في معركة بل من أجل النصر النهائي الذي ضربت له مثلاً بتجارب الأنبياء السابقين.

نأتي الآن إلى الفقرة السابعة، إلى آية ذهب جميع المفسرين في تفسيرها مذاهب تبعد عن سياق الآيات السابقة تماماً، لتعود إلى قصة مشكوك فيها يؤرخون لها بالسنة الخامسة للنبوّة، وهي المعروفة بقصة "الغرانيق". ونحن نرى أن موضوع السورة وسياقها العام والسياقات الخاصة فيها لا تسمح بهذه القفزة إلى السوراء. إن سورة النجم التي نزلت حوالي السنة الخامسة للهجرة والتي ذكرت فيها "السلات

22 - قال القرطبي: روي أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة؛ أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار ويقتل ويغير ويحتل؛ فنزلت هذه الآية إلى قوله «كفور». فوجد فيها سبيلته بالمدافعة ونهى أقصحه نهى عن الخيلة والغدر. وسببها في «الأفقال» التشديد في الغر؛ وأنه: «ينصب للغادر لواء عند أسنّة بقدر غزته يقال هذه غزرة فلان». ونحن نرى أنه ليس من الضروري ربط مضمون الآية بقلة المؤمنين بعد الهجرة إلى الحبشة، فقد مر على تلك الهجرة سبع سنوات، فنحن الآن في زمن هجرة المسلمين إلى المدينة ومحاولة قريش صدهم عنها، فلا ضرورة للجمع بين الهجرتين: الهجرة إلى الحبشة كلفت من أجل النجاة، كلفت لجوءاً، أما الهجرة إلى المدينة فقد كلفت من أجل الإعداد للمعركة لفصله، من أجل تنفيذ ما تم النص عليه في بيعة العقبة التي كانت كما قلنا "بيعة الحرب". وهكذا فما قاله القرطبي أعلاه يجب أن يصرف إلى الحاضر والمستقبل، إلى الهجرة إلى المدينة، وليس إلى الماضي: الهجرة إلى الحبشة.

والعزى ومناة" والتي يحتمل سياقها الظاهري ما ذكره من وصفها بكون "شفاعتهم لترتجى..."، إن سورة النجم هذه قد ردت هي نفسها على كون قريش كانت تترجى شفاعتها وأكثر من ذلك وصفت اللات والعزى ومناة بكونها مجرد أسماء ورثتها قريش عن آبائهم وأنها مجرد تماثيل لا تسمع ولا ترى ولا تشفع الخ (23).

أقول لا معنى للقفز من سياق السورة التي نحن ضيوف عليها ومن ظروف نزولها والمجال الذي تتحرك فيه، إلى قصة الغرانيق المزعومة. إن "آية التمني" (24) في هذه السورة تقع في فقرة تبدأ بمخاطبة العرب، أهل القبائل، وليس قريش وحدها: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ". ثم تميز الذين استجابوا وآمنوا وعملوا الصالحات وسيكون جزاؤهم "مغفرة ورزق كريم"، في الدنيا والآخرة، من الذين رفضوا الاستجابة وتحذوا الرسول بمطالبته بمعجزات من جنس معجزات الرسل السابقين (موسى وعيسى...)، هؤلاء هم "أَصْحَابُ الْجَحِيمِ". وقد واجه هؤلاء الرسل من قبل مثل هذه التحدي والتعجيز، وجميع الرسل والأنبياء قد حدث لهم ما يحدث للبشر فوقهم تحت ضغط مثل هذه المطالب التعجيزية من أقوامهم، وقد يحدث أن يتمنوا معجزات أو أن يطلبوا من الله قسر أقوامهم على الإيمان، أو يعدوا بذلك أنصارهم فتتأخر الاستجابة كما حدث للرسول محمد عليه السلام حين سألته قريش عن أهل الكهف وذي القرنين (انظر سورة الكهف).

لقد ذهب المفسرون في شأن هذه الآية مذاهب شتى فابتعدوا عن السياق كعادتهم في مثل هذه المشكلات. والسياق يبدأ من أول الفقرة الثانية وبالخصوص قوله تعالى: "وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ" 51 أي الذين تحدوا الرسول أن يأتي بآيات معجزات كمعجزات موسى وعيسى أو يحول صخرة الصفا ذهباً، أو يدفع الجبال لتتسع أرض مكة الخ، إن هذا التحدي الذي تعرض لأمته الأنبياء والرسل جميعاً، قد يحدث أن يحمل الرسول أو النبي على أن يتمنى مثل هذه المعجزات تحت تأثير الرغبة في إسكات الخصم أو بفعل الهوى وهو وسوسة الشيطان فيدعي ما وسوس له به فتتدخل الإرادة الإلهية لمنع ذلك ونسخه، وتبقى الآيات المحكمات، أي المعجزات، التي هي من عند الله فعلاً. ونحن نعتقد أن في هذا إشارة إلى ما نسب إلى الرسول عليه السلام من معجزات لا أساس لها من القرآن، فالقرآن لا يشير إلا إلى شيء واحد يمكن أن يعتبر معجزة للنبي عليه السلام وهو القرآن نفسه، أما غير ذلك فلا أصل له. قال الرازي بعد أن استعرض جل ما قيل في هذه الآية من تأويلات: "يرجع حاصل البحث إلى أن الغرض من هذه الآية بيان أن

23- انظر سورة النجم، للقسم الأول من الكتاب.

24- "الآيات الشيطانية" في قصة سلمان رشدي.

الرسول الذين أرسلهم الله تعالى، وإن عصيهم عن الخطأ مع العلم. فلم يعصهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان، بل حالهم في جواز ذلك كحال سائر البشر، فاتواجب أن لا يتبعوا إلا فيما يفعلونه عن علم فذلك هو المحكم". قلت (الجابري): ومما ينبغي التدبر فيه في هذا المجال ما ورد في جميع التفاسير عن وقعة بدر، قالوا: "أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث حصيات، فرمى بحصاة في ميسرة القوم (جيش قريش) وحصاة في ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم وقال: "شاهت الوجوه" فانهزموا"، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: "وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى"، أي أن هزيمة قريش يوم بدر لم تكن معجزة لك من خلال ما رميت من الحصى، بل كانت هزيمتهم بتدخل الإرادة الإلهية.

وإذا كان لابد من ربط هذه الآية بما يناسبها من روايات فأقرب رواية تصلح لذلك ما رواه ابن سعد عن عائشة قالت: "لما صدر (غادر) السبعون "الذين بايعوا الرسول في العقبة الثانية" من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم طابت نفسه وقد جعل الله له منعة وقوما: أهل حرب وعدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون (=المشركين) من الخروج (حدوث الهجرة) فضيقوا على أصحابه، وتعذبوا بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى فشكا ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذنوه في الهجرة، فقال قد أريت دار هجرتكم: أريت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي. ثم مكث أياما ثم خرج إلى أصحابه مسرورا فقال: قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها" فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك". في مثل هذا الجو يمكن أن يكون قد حدث ما ينطبق مع مضمون الآية ككل. وفي هذا الإطار يجب أن نستحضر قوله تعالى: "قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ، إِنْ أَتَّبَعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (الأحقاف 9).

لنتجاوز الفقرة الثامنة فهي مشروحة في النص ولا إشكال فيها ولننتقل إلى الخاتمة، التي جاءت بمثابة "وصية وداع" للمسلمين الذين كانوا يقصدون المدينة. قال تعالى: وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتنبوا (اجتاركم)، وما جعل عليكم في الدين من حرج: (اتبعوا) ملة أبيكم إبراهيم هو سماء المسلمين من قبل، وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم، وتكونوا شهداء على الناس. فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة. واعتصموا بالله هو مولاكم. فبغم المولى وبغم النصير⁷⁸.

ما يثير الانتباه في هذه الآيات هو قوله تعالى "ملة أبيكم إبراهيم هو سماء المسلمين من قبل"، وهذه هي المرة الثانية التي يشار فيها بصراحة في القرآن

المكي - إلى إبراهيم بوصفه جد العرب. لقد ذكر إبراهيم من قبل عشرات المرات وكان ذلك في سياق تاريخ بني إسرائيل ومحاربته لعبادة الأصنام. ولم يذكر (في القرآن المكي) بصفته جد العرب إلا في سورة "إبراهيم" (رقم 73 آيات 35-41) وفي هذه السورة.

في سورة إبراهيم كان الخطاب موجها إلى العرب أهل القبائل، يذكرهم بأنهم من ذرية إبراهيم الذي اختار مكة مقرا، وطلب من الله أن يجعله بلدا آمنا، وبني فيه الكعبة الخ، الشيء الذي يعنى أن مكة والبيت الخ تراث مشترك للعرب جميعا وبالتالي فليس لقريش ولا لغيرها احتكاره... أما في هذه السورة فالخطاب إلى المسلمين المهاجرين إلى يثرب، المكيين منهم وأهل القبائل، يطلب منهم أن يعوا أن هويتهم لا تتحدد فقط بكونهم من نسل إبراهيم (فاليهود كذلك من نسله) ولكن تتحدد أكثر بكون إبراهيم هو الذي سماهم مسلمين. فالعرب إذن يجب أن يكونوا مسلمين : يجري فيهم دم النسب الإبراهيمي وفي نفس الوقت يتبعون ملته، فعليهم إذن أن يقوموا بشعائر هذا الدين الذي هو الدين القيم، دين الفطرة، كما أن عليهم أن يحافظوا على وحدة الأصل الذي يجمعهم إلى إبراهيم، والسبيل إلى ذلك هو التمسك بدين إبراهيم متحدين لا متفرقين: "وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ (اخْتَارَكُمْ)، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ: (اتبعوا) مِثْلَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ. فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ. وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ. فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ"⁷⁸.

على هذا الأساس تتحدد هوية العرب/المسلمين ، وسنرى في القرآن المدني عناصر أخرى سيكون لها دورها في قيام دولة الرسول في المدينة.

الهجرة إلى المدينة

تؤكد مصادرها أنه لما علمت قريش بببيعة العقبة الثانية، التي ببيع فيها ممثلو "يثرب" الرسول عليه السلام على أن يهجر إليهم هو وصحبه، وأن ينصروه ويحاربوا معه ويحارب معهم، "ضيقوا على أصحابه ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى، وجعل البلاء يشتد عليهم، وصاروا ما بين مفتون في دينه، وبين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد". فشكوا إليه عليه السلام، واستأذنوه في الهجرة فمكث أياماً لا يأذن لهم، ثم قال لهم: "أريت دار هجرتكم"، ولم يحدد لهم الجهة التي سيهاجرون إليها... "ثم خرج إليهم مرة أخرى مسروراً، فقال: قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فأذن لهم، وقال: من أراد أن يخرج فليخرج إليها فخرجوا إليها أرسالاً (متتابعين) يخفون ذلك".

وروى بعضهم أنه قام عليه السلام بمؤاخاة أصحابه "على الحق والمواساة" قبل أن يبدؤوا في الهجرة إلى المدينة - "فأخى بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأخى بين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وابن مسعود، وبين عباد بن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله، وبين عليّ ونفسه". وقد فسر بعضهم الهدف من هذه المؤاخاة بكون "بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فأخى بسين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى، وليستعين الأعلى بالأدنى".

وفي رواية: "ثم قدم أصحاب رسول الله، أرسالاً بعد العقبة الثانية - إلى المدينة - فنزلوا على الأنصار في دورهم فأووهم وواسوهم، ثم قدم المدينة عمر بن الخطاب ... وعياش بن أبي ربيعة في عشرين راكباً. وكان هشام بن العاص واعد عمر بن الخطاب أن يهاجر معه وقال: تجدني أو أجدك عند محل كذا، فتفطن بهشام

قومه فحبسوه عن الهجرة. وعن علي بن أبي طالب أنه قال: "ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهجرة تقلد بسيفه وتكب قوسه وانتضى في يديه أسهماً واختصر عززته (الحربة الصغيرة، علقها عند خاصرته) ومضى قِبَلَ الكعبة، والملا من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعا، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحلق (جماعات قريش) واحدة واحدة، فقال: شأنت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس (أي الآنوف)! من أراد أن تتكله أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمز زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي! قال علي: فما تبعه أحد ثم مضى لوجهه". وقيل "لما أراد صهيب الهجرة إلى المدينة، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً فقيراً فكثرت مالك عندنا ثم تريد أن تخرج بمالك؟ لا والله لا يكون ذلك! فقال لهم صهيب، أرايتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا نعم، قال: فإني جعلته لكم. فبلغ ذلك رسول الله، فقال "ربح صهيب".

وتضيف مصلرنا أن النبي عليه السلام أقام بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة إلا من خيس أو فتن، إضافة إلى علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق. قالوا: وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن الرسول في الهجرة، فيقول له: "لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكونه".

ولما علمت قريش بقرب هجرة الرسول عليه السلام تداولوا الأمر بينهم في اجتماع عقده في دار الندوة فادلى كل منهم برأيه، وكانت المشكلة الرئيسية التي اعترضتهم هي: كيف يقتلونه دون أن يكون لذلك رد فعل من الهاشميين وحلفائهم، فاتفقوا في النهاية على اقتراح لأبي جهل قال فيه: "أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسبياً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإتاهم إذا فعلوا ذلك نفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف⁽¹⁾ على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل (بالدية)، ففعلناه لهم". اتفق زعماء قريش على ذلك. ويقال إنه في خبر هذه المؤامرة نزل قوله تعالى: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" (الأنفال مدنية - 30).

لما علم الرسول عليه السلام بتفاصيل المؤامرة قرر الهجرة، فاتجه إلى أبي بكر وأخبره بذلك واتفقا على أن يهاجرا معا. وقام أبو بكر بالاستعداد للرحلة فجهز راحلتين، واستأجر رجلاً كان على معرفة بالمسالك من مكة إلى المدينة واتفق معه

1- كان لعبد مناف أربعة أولاد: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل. وكند لهاشم عبد المطلب الذي كان له أربعة أولاد: العباس وحمة وأبو طالب وعبد الله والد النبي محمد عليه السلام. أما عبد شمس فكان من أبنائه أمية بن عبد شمس وإليه ينتسب بنو أمية.

على اللقاء في "غار ثور بعد ثلاث ليال" (2). وهكذا تواعد الرسول وأبو بكر على اللقاء ليلاً خارج مكة، وكانت تلك الليلة هي الليلة التي قررت فيها قريش تنفيذ عملية قتل النبي (ص) كما اقترح أبو جهل. وكان عليه السلام قد أمر ابن عمه علياً بالمبيت مكانه أثناء الليل، فلما جاءت الجماعة المكلفة باغتياله أخذوا ينظرون من شقوق الباب فرأوا شخصاً نائماً فحسبوه النبي ذاته. وقبل تنفيذهم لخطتهم خرج إليهم علي فأسقط في أيديهم. أما قريش فقد صدموا وتجددوا للبحث عن الرسول (ص) ولما وصل فريق منهم إلى "غار ثور"، حيث كان النبي وأبو بكر مختفيين، لم يلحظوا أثر أقدام فلم يفتشوا الغار! ويقال إن راعياً كان قد مر عنى الغار ومعه غنمه فمحت الغنم أي أثر لأقدام إنسان.

أقام النبي وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام وكان أبو بكر قلقاً من تهدي قريش إلى مكانهما وقيل إلى هذا يشير قوله تعالى: "إِنَّا نَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة 40) (3).

بعد انقضاء الأيام الثلاثة جاءهما الدليل الذي اتفقوا معه بالراحتين فاتجهما إلى يثرب على طريق الساحل. وعندما وصل النبي (ص) يثرب في اليوم الثاني من ربيع الأول الذي يوافق 20 سبتمبر سنة 622م، أقام بضعة ليال بقرية بضواحي المدينة تدعى "قباة" أسس فيها "مسجد قباة"، ثم اتجه نحو المدينة يحيط به الأنصار والمهاجرون متقلدين لسيوفهم، والنساء والأطفال يهتفون: "طلع البدر علينا من ثيابت الوداع، وجب الشكر علينا ما دعا الله داع، أيها المبعوث فينا جنت بالأمر المطاع"، وكان الناس يسيرون وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين ماشٍ وراكب يتنازعون زمام ناقته، كل يريد أن يكون نزيلاً. هذا ويقدر بعضهم المدة الفاصلة بين ابتداء هجرة المسلمين إلى يثرب وبين هجرته عليه السلام بشهرين ونصف شهر. وبوصوله عليه السلام إلى المدينة تبدأ مرحلة جديدة تماماً سواء على

2 - تخاطب هذه الآية جماعة من المسلمين تقاعسوا عن تلبية طلب الرسول بالتجنيد لغزو تبوك في آخر العهد المدني وفي آخر سورة نزلت قبل وفاه عليه السلام. في الجبال المحيطة بمكة عدد من الغيران، منها واحد اسمه "غار ثور"، قريباً من مكة فسي الطريق إلى المدينة.

3 - تخاطب هذه الآية جماعة من المسلمين تقاعسوا عن تلبية طلب الرسول بالتجنيد لغزو الروم في تبوك. والآية من سورة براءة (التوبة)، وهي آخر سورة نزلت من القرآن، قبيل وفاة عليه السلام. وسنشرح ذلك في القسم الثالث من الكتاب.

مستوى السيرة أو مستوى مسار التنزيل وسيتم التأريخ بالهجرة لحوادث الزمن⁽⁴⁾، الشيء الذي سنفتتح بالكلام عنه القسم الثالث من هذا الكتاب.

4- تجمع الروايات على أن أول من أُرُخ بالهجرة الخليفة عمر بن الخطاب وكان ذلك في ربيع الأول سنة 16 هجرية، وبما أول السنة القمرية عند العرب كان فتح محرم فقد جعلوا للتأريخ الهجري يبدأ قبل الهجرة بشهرين، لأن هجرة النبي كانت في ربيع الأول. وكان سبب ذلك فيما نذكروا- أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر أنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندري على أيها يعمل". قد قرأنا صكا منه محله شعبان، فما ندري أي الشعبين الماضي أم الآتي، فصل عمر رضي الله عنه على كتابة للتأريخ، ولما أن يجعل أوله شهر رمضان، فرأى أن الأشهر الحرم تقع حينئذ في سنتين، فجعله من الحرم وهو آخرها، فصيره أولا لتجتمع في سنة واحدة. وتقول الأخبار إن العرب كانوا يؤرخون من موت كعب بن لؤي، وهو الثامن في سلسلة نسب النبي (ص) قلوا : "وقد كان يجمع قومه يوم العروبة - أي: يوم الرحمة، وهو يوم الجمعة - فيعظمهم ويذكروهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وينبغهم بقاءه من ولادة". فلما كان علم القيل أرخت العرب منه".

خلاصات : منهج ونتائج ...

الآن، بعد أن أنجزنا مهمتنا على مستوى القرآن المكي، قرآن الدعوة الذي يشكل القسم الأكبر من الذكر الحكيم، وقبل الانتقال إلى القرآن المدني قرآن الدولة، نرى أن من المفيد أن نلقي نظرة عامة على هذا الذي أجزأناه: على المنهج الذي سلكناه والرؤية التي سرنا على هداها والنتائج التي حصلنا عليها. ومن أجل هذا الغرض سنجعل هذه الخاتمة مرحلتين: الأولى في الجديد الذي نعتبر أنه يسم عملنا في هذين القسمين من الكتاب، سواء على صعيد المنهج أو على مستوى المضمون، والثانية في الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي : قرآن الدعوة.

نبدأ أولاً بمسألة المنهج.

أولاً: الجديد على صعيد المنهج !

يمكن القول، بدون فخر زائد ولا تواضع زائفة، إنه لأول مرة أصبح ممكناً عرض القرآن ومحاولة فهمه بكلام متصل مسترسل يشد بعضه بعضاً، كلام يلخص مسار التنزيل ومسيرة الدعوة في تسلسل يرضي النزوع المنطقي في العقل البشري. وقد أمكن ذلك باعتماد خطوات منهجية لم يسبق أن طبقت في أي نوع من أنواع التفاسير السابقة، وهذه الخطوات هي:

أ- اعتبار التساوق بين مسار التنزيل وبين مسيرة الدعوة.

يتعلق الأمر بمصاحبة كل من الذكر الحكيم ومسيرة الدعوة مصاحبة مباشرة، منذ ابتداء نزول الوحي وطوال مراحل "تكوين" القرآن/الكتاب في العهد المكي، وقد استغرق تنزيله في هذا العهد ثلاث عشرة سنة. لقد اعتمدنا في رسم معالم تنزيله على لوائح ترتيب النزول المتوفرة، ولكن، بدلاً من إخضاع "فهم القرآن" ككل لهذه اللائحة أو تلك تعاملنا بمرونة مع جميع اللوائح، واستحضرنا كل ما أمكن الوقوف عليه من المرويات التي تصنف ضمن "أسباب

النزول"، وحرصنا الحرص كله على أن تكون الكلمة الفصل للسياق، سياق الآيات... وبهذا النوع من المرونة تمكنا من إدخال تعديلات على رتب بعض السور، فنقلنا السور التي رتب مع السور المدنية -وهي مكية باتفاق أو شبه اتفاق- إلى المكان الذي رجحناه في لائحة السور المكية؛ كما عملنا على إبراز الطابع المكي في الآيات التي قيل عنها في روايات "أسباب النزول" إنها نزلت في المدينة، معتمدين في ذلك معطيات السيرة ووحدة السياق، وبذلك تم تجاوز "الاستشكالات" التي شغلت المفسرين والمؤلفين في "علوم القرآن"، والناجمة عن الاعتقاد في وجود آيات مدنية في السور المكية⁽¹⁾. وهكذا تصرفنا على أساس وحدة السورة، وليس على ما يفترض أنها أو آيات منها من "سبب نزول"، إلا ما كان متوافقا مع السياق ولم ينسب إلى المدينة.

ب- اعتبار وحدة السورة :

هذا النوع من التعامل مع القرآن، أعني اعتبار وحدة السورة، وليس ما نتحدث عنه الروايات المختلفة المتضاربة المتناقضة حول "أسباب النزول"، قد ممكننا من الحديث عن كل سورة بوصفها وحدة خطابية مستقلة مكتملة: تبدأ بمقدمة تطرح الموضوع الذي تعالجه السورة وتنتهي بخاتمة تستعيد المقدمة وترتفع بها إلى مستوى أرقى. وقد أبرزنا ذلك في كل سورة، باستثناء السور القصيرة، التي تشكل آياتها سياقاً واحداً لا يتجزأ، والتي تغلب فيها وحدة الموضوع ووحدة المخاطب؛ يتعلق الأمر بسور من المرحلة الأولى التي موضوعها النبوة والربوبية والألوهية، ومن المرحلة الثانية الخاصة بالبعث. أما فيما عدا هذه السور، وهي معدودة، فنادر ما تخلو السورة من التقسيم الثلاثي: المقدمة، العرض، الخاتمة.

وهكذا فمع أن القرآن نزل منجماً مفرقاً حسب مقتضى الأحوال فسوره المكية -على الأقل- تحتفظ بنوع من النظام والترتيب ووحدة السياقات تذكر المرء ليس بـ "وحدة القصيدة" في الشعر العربي القديم وعلى رأسه "المعلقات" فحسب، بل أيضاً تذكر المتتبع لـ "النظم" القرآني بنظم الكلام في المؤلفات البلاغية ذات الطابع المنطقي! ومن هنا إلحاح كثير من البلاغيين القدماء على أن إعجاز القرآن يتمثل في نظمه: البلاغي والمنطقي (الباقلائي، الجرجاني الخ.

1- رأينا في "التقديم" الذي صدرنا به كل سورة أمثلة عن تناقض الروايات في هذا الشأن.

كيف نفهم هذه الخاصية في الذكر الحكيم؟

يجب التذكير هنا بما هو مقرر عند جميع المفسرين والمؤلفين في "علوم القرآن": من أن ترتيب الآيات داخل السور "ترتيب توقيفي"، أي أنه مأخوذ عن النبي من جهة، وأنه عليه السلام كان يراجع القرآن باستمرار مع جبريل. ففي البخاري عن ابن عباس أن الرسول كان يلقاه جبريل "في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن"، و"عن أبي هريرة وفاطمة عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن جبريل كان يعارضه القرآن" من المعارضة وهي المقابلة، أي يراجع معه جميع ما نزل من القرآن، وبالتالي فترتيب آيات سورة كان من عندهما. ومعنى هذا أن كل سورة من سورة تشكل وحدة قائمة بنفسها، أما ترتيب السور كما هي في المصحف فقد بناه الذين قاموا بجمع القرآن في عهد الخليفة عثمان على معيار الطول والقصر، وهو معيار لا علاقة له بترتيب النزول. وبما أن هذا الترتيب، أعني ترتيب المصحف، قد وضع بعد وفاة النبي عليه السلام، فلا يعقل أن يقال إن مراجعة النبي للقرآن كانت مبنية عليه، خصوصاً وهو يبدأ بالقرآن المدني. إن الأقرب إلى المعقول هو أن تكون مراجعة النبي للقرآن قد تمت على أساس ترتيب النزول، خصوصاً وقد كانت مستمرة طوال مسار التنزيل، كما ورد في الحديث أعلاه.

ومع أننا لا نملك أي أثر يشير إلى المرجع الذي اعتمده من تنسب إليهم لوائح ترتيب النزول التي بين أيدينا فإنه من المحتمل جداً أن تكون كلها صدرت عن ابن عباس والمحيطين به. أما مرجع ابن عباس فغير معروف بالتدقيق... على أن ما يزكي لوائح ترتيب النزول التي اعتمداها ليس مصدرها بل كونها تتطابق، في الأغلب الأعم، مع ما عبرنا عنه بـ "مسار التنزيل"؛ وبعبارة أخرى هناك "منطق داخلي" يربط السور بعضها ببعض لا يكشف عن نفسه إلا في ترتيب النزول، وقد اعتمدنا هذا "المنطق الداخلي" في التعديلات التي أجريناها على تلك اللوائح.

ج- القرآن المكي ... قسمان!

وهكذا، فبمراعاة مساوقة مسار التنزيل لمسيرة الدعوة، والنظر إلى كل سورة كوحدة مستقلة مكتملة ميزنا في القرآن المكي بين ست مراحل، بررنا كلا منها عند بداية الحديث عنها، وقد تتبعها معنا القارئ. ويبقى السؤال الذي لا بد أن يكون قد طرحه كثير من القراء وهو: لماذا وضعنا القرآن المكي

في قسمين من الكتاب وليس في قسم واحد، أو في أكثر من اثنين؟ لقد بررنا هذا التقسيم من قبل بالناحية "المادية" : حجم الكتاب وبالتالي سعره. إن كتاباً من حجم 800 صفحة من الحجم الكبير سيكون مكلفاً من حيث سعره، وأهم من ذلك سيكون صعب التناول، وسيتعرض للتمزق إذا استعمل بكثرة. إن كتاباً في "فهم القرآن"، أو تفسيره، ليس من الكتب التي تقرأ مرة واحدة وتوضع على الرف، بل قد يحتاج كثير من القراء إلى قراءته عدة مرات لاستيعاب محتواه، فضلاً عن الحاجة إلى الرجوع إليه من حين لآخر.

لكن هذا التبرير المادي/العملي لا يجيب عن جميع مضامين السؤال السابق! إن مسألة التقسيم، أو التوبيب، مهما كانت، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بكتاب، تتطلب تبرير اختيار البداية والنهاية لكل قسم أو باب. لقد كان ممكناً التغاضي عن تلك الاعتبارات المادية/العملية وجعل القرآن المكي كله في كتاب واحد لكونه وحدة مترابطة؛ كما كان ممكناً اعتبار عدد الصفحات وجعل كل قسم في نحو 400 صفحة. أو تجزئته إلى أكثر من قسمين، أو تخصيص كل مرحلة من المراحل الست بكتاب! ولكن جميع هذه القسّمات الممكنة لن نجد لها ما يؤسسها، لا على مستوى مسار التنزيل ولا على مستوى مسيرة الدعوة. ومن وجهة نظرنا فإن التقسيم الذي اعتمدناه هو وحده الذي يفرض نفسه على المستويين معاً، كما سنرى في الفقرة التالية:

ثانياً- الجديد على صعيد المضمون.

أ- مرحل الكون والتكوين في القرآن المكي:

يتمثل الجديد على صعيد المضمون، في هذا العمل الذي قمنا به، ليس في التمييز في القرآن المكي، جملة، بين مراحل ستة فحسب، بناء على ترتيب النزول ووقائع السيرة، بل يتمثل كذلك في الانتباه إلى وجود نوع من علامة الفصل والوصل (/) بين المراحل الثلاثة الأولى والمراحل الثلاثة التالية لها، وبالتالي التمييز في القرآن المكي ككل بين قسمين متصلين، ولكن متميزين.

كان التنزيل في المراحل الثلاثة الأولى يتحرك حول ثلاثة محاور رئيسية تشكل أركان العقيدة الإسلامية، هي: النبوة، التوحيد، المعاد. وكان الخطاب في هذه المراحل موجهاً إلى مشركي مكة وعلى رأسهم "الملا من قريش": أغنياؤها ومترفوها وأعيانها ... أما في المراحل الثلاثة التالية، وابتداء من سورة الحجر (ورتيبها 53)، فقد تغير الخطاب. لقد نجح

المسلمون في الهجرة إلى الحبشة، في غفلة من المأمن من قريش وباعت محاولة هؤلاء لإقناع ملك الحبشة -النجاشي- بإعادتهم إلى مكة، فشددوا الخناق على الدعوة وضربوا الحصار على الشباب في قبائلهم ولم يعد من الممكن مواصلة الدعوة فيها ولو بشكل سري، فصدر الأمر الإلهي إلى الرسول بالاتجاه بالدعوة إلى وفود القبائل في المواسم والأسواق : "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ؛ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ" (الحجر 95-96). لقد فصلنا القول من قبل في هاتين الآيتين، فبينما كيف أن هذا الأمر للرسول بالإعراض عن مشركي مكة، والصدع بالدعوة خارجها، يعني الانتقال بها من مرحلة الاتصالات الفردية وإقناع الأقارب والأصحاب في مكة الخ، إلى المجاهرة بها وسط جموع الناس في المواسم والأسواق ...

ب- من "قم فأنذر"... إلى "فاصدع بما تؤمر" : اكتمل خطاب العقيدة... والسؤال الذي طرحناه أعلاه يتعلق بهذه النقطة بالذات! ذلك، لأن القرآن المكي قد استوفى أغراضه العقيدية الأساسية وهو يخاطب قريشا في مكة. لقد أثبت النبوة والربوبية والألوهية، وشجب الشرك وعبادة الأصنام، وطرح مسألة البعث والجزاء، وهي المحاور الثلاثة التي تؤسس للعقيدة الإسلامية. لقد بينها القرآن وأكدها بأدلة عقلية متنوعة مأخوذة من معهود العرب وزكاها بقصص الأنبياء. وإذن، لقد استوفى القرآن المكي أغراضه كما قلنا، لأنه لم يكن قد تجاوز مرحلة "الدعوة" إلى ما بعدها (الدولة) حين نزل قوله تعالى: "اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين"؟ فكيف سيكون "الصدع" بخطاب، وجه أصلا إلى المأمن من قريش، والتوجه به إلى أقوام آخرين يجهلون عنه كل شيء، إلا ما قد يكون قد وصل إليهم من أخبار مختزلة عن قيام نبي في مكة رفضه قومه الخ! كيف سينقل هذا "الصدع" الجديد ما سبق أن أنذر به الرسول "أم القرى ومن حولها" (قريش) إلى الناس كافة في المواسم والأسواق؟ وبعبارة أخرى هل سيكون هناك جديد في الدعوة بعد أن بينت رسالتها وأقرت النبوة والتوحيد والمعاد وجادت على ذلك بخطاب عربي مبين؟

ج- قصة يوسف من منظور آخر !

هذه الأسئلة وما سنجيب به عنها هو ما يبرر جعل القسم الأول من هذا الكتاب ينتهي مع سورة يوسف، التي ختمت بها سلسلة من السور ركزت على قصص الأنبياء فأكدت من خلال "كتاب التاريخ المقدس" صدق ما قررته سور

أخرى اعتمدت "كتاب الطبيعة" كما يقرأ داخل معهود العرب. لقد فكر بعض المتطرفين من الخوارج أن تكون قصة يوسف من القرآن وكأنهم لم يقرؤوا منها إلا قوله تعالى: "وَرَأَوْنَاهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْبُيُوتُ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ..." (يوسف 24)! والواقع أن استحضار قصة يوسف، كلمة مفصلة، في هذه المرحلة من مسار التنزيل يحمل معنى خاصا يتجاوز مضمون القصة كما يتحدد في إطار تاريخ بني إسرائيل. لقد ختمت هذه السورة قصص الأنبياء بخاتمة تشعر بقرب تحول الدعوة المحمدية من العصر إلى اليسر: من حال "الطفل يوسف" (الذي حسده إخوته على مكائده من أبيهم-فتآمروا عليه وألقوه في البئر للتخلص منه، ولما نجا باعوه عبدا لتجار رقيق باعوه بدورهم في مصر الخ) إلى حال يوسف الصديق الأمين الذي نال ثقة "عزيز مصر" (ملكها) فعينه في منصب الحاكم التنفيذي فيها نيابة عنه، فاستدعى يوسف أباه وإخوته ليعيشوا معه أسيدا مكرمين. هذا التحول من حال العصر إلى حال اليسر هو المغزى الذي أبرزته سورة يوسف في خاتمتها، التي نقرأ فيها قوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا (وليس ملائكة)، نُوحِي إِلَيْهِمْ، مِنْ أَهْلِ الْقُرَى! (...). حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا⁽²⁾ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ، وَلَمْ يُرَذِّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ". وبعد هذه الخاتمة مباشرة تأتي سورة الحجر لتقرر أنه: لم يعد في إمكان قريش أن يسلموا؛ لقد اختاروا الكفر وأصرروا عليه ولم يعد في إمكانيهم التراجع!

فما العمل إذن؟ هل "ستأخذهم الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ"؟ كما حصل مع أمم سابقة وبالتالي يتخلى النبي الأمي، الرسول الأمين، عن تبليغ رسالته ويستسلم...؟ كلا! إن لديه -علاوة على "القرآن العظيم" الذي فيه إثبات النبوة والتوحيد والمعاد- هذه السور "السبع المثاني" التي شرحت له الموقف مبينا مكررا سبع مرات! وها هي المثناة السابعة، سورة الحجر (أما الأولى فهي سورة الشعراء: القسم الأول من الكتاب) تحمل إليه، يُشرى بداية "أسبوع جديد"، يُشرى: "فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ". يتعلق الأمر، بالتوجه إلى العرب جميعا، في المواسم والأسواق؛ يجب الافتتاح على العالم كي ينفتح العالم للدعوة!

2- المعنى: "استيأس الرسل من نصر قومهم، وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبوهم".
(بالعامية: كذبوا عليهم).

من هنا كان من المبرر تماما في نظرنا وضع علامة "الفصل والوصل" (العمود المائل: /) بين ما قبل سورة الحجر وما بعدها. يبقى بعد هذا أن نبرز الطريقة التي سلكها الخطاب القرآني في تقرير أركان العقيدة الإسلامية (النبوة، التوحيد، المعاد) مرة ثانية، وهو يخاطب أهل المواسم والأسواق بنفس ما سبق أن خاطب به مشركي مكة مدة تزيد عن خمس سنوات!

د- لا تكرر .. وإنما خطاب واحد في وضعيات مختلفة ومخاطبين جدد. إن من ينظر إلى ما نزل من القرآن المكي بعد سورة يوسف -وإبتداء من سورة الحجر- نظرة سطحية، سيحكم بالتكرار على جملته، تكرر ما سبق أن نزل قبل هذه السورة، سواء على مستوى تأكيد نبوة الرسول عليه السلام، أو على مستوى الاستدلال على وجود الله ونفي الشريك عنه، أو على مستوى الحجاج على إمكانية البعث، لكن الناظر بعين فاحصة إلى ما نزل بعد سورة يوسف سيسجل ثلاثة مستجدات على مستوى مسار التنزيل كما على مستوى مسيرة الدعوة:

1- في المدة الفاصلة بين السنة الخامسة ونيف إلى مستهل السنة السابعة للنبوة قام الرسول عليه السلام بالصدع بالأمر في جموع رواد المواسم والأسواق، وتتميز السور النازلة في هذه الفترة بكون الخطاب فيها، إذ يستعيد المضمون العقدي التي تم تقريره في مكة، يستعمل مفردات من بيئة عالم البدو. لقد تغير المخاطب فكان لابد أن يستحضر الخطاب معهوده، ويبنى الأئمة على عناصر من بينته. وقد أبرزنا ذلك خلال تعاملنا مع السور التي نزلت في هذه المرحلة (الأنعام، لقمان، الصافات، سبأ).

2- أما في المدة التي قضاها عليه السلام في الحصار، بشعب أبي طالب، من مستهل السنة السابعة إلى مستهل العاشرة للنبوة، حيث لم يكن هناك مخاطب مباشر -لأن بقية المسلمين كانوا قد التحقوا بإخوانهم بالحبيشة ولم يبق معه سوى أهل بيته عليه السلام- فقد تميزت السور النازلة في هذه المرحلة، وهي (الحواميم السبع: الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الغاشية، الأحقاف) بطابع خاص سواء على صعيد المضمون أو على مستوى بنية الخطاب: طابع التذكير -مع نوع من الاختصار وتنوع في الصياغة- بما واجه به القرآن مشركي مكة، مع النزوع من حين لآخر إلى تثبيت فؤاد النبي عليه السلام وتسليته وحثه على الصبر، مع التأكيد على أن النصر له في نهاية المطاف.

3- أما بعد خروجه عليه السلام من الحصار وتجاوز حالة "الحزن" التي خيمت عليه بسبب وفاة كل من زوجته خديجة وعمه أبي طالب، مانعه وحاميه من عتاة قريش، فقد اتجه إلى أهل المواسم والأسواق، لا ليخاطب الجمهور كما فعل قبل الحصار، بل ليُجري اتصالات مع رؤساء وفود القبائل بحثاً عن قبيلة يتحالف معها على أن تنصره وتدفعه عنه الخ، وكانت النتيجة استجابة وفود يثرب وأهلها وإبرام معاهدة العقبة، "معاهدة الدفاع المشترك"، ومن ثم الاستعداد للهجرة. وقد تميز الخطاب القرآن بالتنوع في هذه المرحلة:

- التركيز في البداية على محور المعاد (الترغيب والترهيب) لمواجهة الضغوط القاسية التي مارسها عليه مشركو مكة بمجرد خروجه من الحصار، وأيضاً لمواجهة لجوئهم إلى صد الناس عنه في الأسواق وتحذيرهم منه، وفي نفس الوقت العمل على بيان تهافت منطق مشركي قريش وفساد معتقداتهم.

- التوجه بنوع من الخطاب جديد إلى جماعات المسلمين الذين أخذوا في التكاثر بين القبائل العربية "في أطراف الأرض" (خارج مكة)، خطاب تشريعي أخلاقي يشرح ما ينبغي أن يكون عليه سلوك "عباد الرحمن" : ما يجب أن يتحلوا به، وما ينبغي أن يجتنبوه في سلوكهم الفردي والاجتماعي الخ. لقد "أفلح المؤمنون" وأخذوا يكونون جماعات هنا وهناك، وقد حان الوقت للتأكيد لهم أن السلوك الأخلاقي (إتيان الفضائل وتجنب الرذائل) ليس ثمرة للعقيدة فحسب، بل هو أساس لها وغاية.

ثالثاً- الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي؟

إذا كان "الإيمان" هو المدخل الأول في كل عقيدة، فإن الإيمان في الإسلام ليس مجرد تسليم أو تقليد بل هو مرتبط بما يجعله سلوكاً أخلاقياً في الدرجة الأولى. وهكذا فإذا نحن حاولنا استقصاء الأماكن التي ذكر فيها الإيمان في القرآن لوجدناه مقروناً دوماً، صراحة أو ضمناً، بالعمل الصالح (إتيان الفضائل) أو بالتقوى (تجنب الرذائل)، وذلك في كل مرة يذكر في سياق استحقاق الثواب في الدنيا كما في الآخرة. من ذلك قوله تعالى، في موضوع استحقاق الثواب في الدنيا: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ" (الأعراف 96)، وقوله في موضوع استحقاق الثواب في الآخرة: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ، خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (لقمان 8-9). وقد جعل القرآن

استحقاق القرب من الله مشروطاً، أو على الأقل مقروناً، بالتقوى والإحسان :
"إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ" (نوح 128)، ونبه إلى أن هؤلاء
 قليل عددهم، "وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ" (ص 24). أما وكثير من الناس في عداد
 البغاة؛ فهل يعقل أن يساوي الله بين الفريقين : "أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ" (ص 28)؟

هذا كمبدأ عام يتكرر في القرآن المكي والمدني على السواء. وفي إطار
 هذا المبدأ العام يمكن التمييز، من زوايا مختلفة، بين مراحل في دعوة القرآن
 إلى التحلي بالفضائل الأخلاقية وتجنب الرذائل، وذلك لما أبرزناه من كون
 القرآن نزل مفارقاً حسب مقتضى الأحوال وفي مقدمتها الظروف التي عاشها
 النبي والمسلمون خلال مرحلة الدعوة في مكة، حيث كانت الأوامر الأخلاقية
 تقوم مقام شريعة الدولة، (أي ما نسميه اليوم بـ "القانون")، وبالتالي لم يكن
 هناك فصل بين العقيدة والأخلاق، بين الإيمان والعمل الصالح. ومن هنا كانت
 المراحل التي ميزنا بينها في القرآن المكي على مستوى خطاب العقيدة يندرج
 فيها هي نفسها خطاب الأخلاق. ومع أننا قد نبهنا إلى الجانب الأخلاقي في هذا
 الخطاب ونوهنا به خلال جميع مراحل مسيرتنا، فقد ينبغي، هاهنا، القيام
 بعرض إجمالي مستقل للقيم الأخلاقية التي نوه بها القرآن المكي جملة،
 مركزين هذه المرة على نوعية المخاطب. وسيتضح للقارئ كيف أن هذه القيم
 الأخلاقية إنما تجد مضمونها وأسباب كونها من خلال ربطها بمسيرة الدعوة.
 ثلاثة أطراف يتجه إليها الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي: النبي
 وصحبه (أوائل المسلمين)، المأ من قريش، أهل المواسم والأسواق (والمجتمع
 الإسلامي الذي بدأ في التكون).

1- الأخلاق في الخطاب الموجه إلى النبي وصحبه.

أ- الحث على الصبر...

يتجه الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي، أول ما يتجه، إلى النبي
 وصحبه يدعوهم إلى التحلي بجملة من الصفات الخلقية التي تقتضيها
 مستلزمات الدعوة في كل مرحلة. وأول قيمة يركز عليها هي "الصبر". فعلا،
 لقد ورد التنويه بـ "الصبر"، في القرآن المكي، بوصفه القيمة الأخلاقية الأولى
 على أربعة أوجه: الأول دعوة النبي عليه السلام إلى الصبر على ردود أفعال

المكذبين لنبوته، والثاني: دعوة المؤمنين (أعني الأوائل منهم الذين استجابوا للدعوة)، إلى التحلي به إزاء ضغوط الملاء من قريش وعسفهم، والثالث: الإشارة إلى مواقف الصبر لدى الأنبياء السابقين إزاء المكذبين لهم من أقوامهم بهدف استخلاص العبرة، والرابع : امتداح الصبر بوصفه خصلة من خصال المؤمنين بوصفهم يشقون طريقهم إلى تكوين مجتمع إسلامي.

- دعوة النبي إلى الصبر.

وردت أول آية تدعو النبي إلى الصبر في سورة المدثر وهي الثانية في ترتيب النزول، وهي قوله تعالى: "وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ" (2 المدثر⁽³⁾) وذلك عندما دعاه ربه إلى القيام بتبليغ الدعوة بعد انقطاع الوحي عنه مدة، ("ياأيها المدثر قم فأنذر...")، وكان قد لقي متاعب ومشاق وتعرض للاستهزاء والتكذيب عند الإعلان عن نبوته. وعندما استأنف الوحي وشقت الدعوة طريقها وتكاثرت اتهامات مشركي قريش له بالجنون والسحر وافتراء القرآن الخ، نزلت آيات تدعوه إلى الصبر "على ما يقولون"، منها قوله تعالى "فاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (33 ق 39)، و"اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَانْذِرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ" (38 ص 17)، و"فاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا..." (45 طه 130)⁽⁴⁾.

وفي هذا الإطار نفسه، وكرد على المكذبين الذين اتهموه بافتراء القرآن من عنده، وبعد أن جاءه الوحي بأخبار صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم وقص عليه وعلى قومه تفصيل ذلك، خاطبه تعالى بقوله: "وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ" (50 يونس 109)، وأيضاً: "تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَكَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ" (51 هود 49)، وقد تكرر امتداح الصبر في آية لاحقة من هذه السورة في قوله تعالى "وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (51 هود 115)، كما في آيات من سور أخرى مثل قوله تعالى: "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (52 يوسف 90).

3 - الرقم السابق لاسم السورة يشير إلى موقعها على صعيد ترتيب النزول الذي عملنا به، وأما الرقم الذي بعدها فهو رقم الآية.

4- المقصود بالتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل غروبها: الصلاة كما كانت في العهد المكي: ركعتان في الصبح وركعتان في المساء.

وعندما صدر إليه الأمر بـ"الصدع" بالدعوة في الأسواق والمواسم، ولم يكن قد لقي استجابة تذكر في المرحلة الأولى، نزلت آيات تدعوه إلى الصبر كما صبر الرسل من قبله. قال تعالى: "وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَكَأَ مُبْدَلٍ لَكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِإِ الْمُرْسَلِينَ" (54 الأنعام 34)، وقال على لسان لقمان: "وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (56 لقمان 17). وفي المدة التي فرض عليه الملاء من قريش العزلة والإقامة الإجبارية في شعب أبي طالب (الحصار)، نزلت في بدايتها آيات تدعوه إلى الصبر وتؤكد له أن مشركي قريش سينالون جزاءهم حتما، إما قبل وفاته أو بعدها: "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّكَ بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْكَ فَأَلَيْنَا يَرْجِعُوكَ" (59 غافر 77)، أما عندما أشرف الحصار التفكك والاحلال فقد جاءت الدعوة إلى الصبر مرفوقة بما يوحي بأن الحصار في طريقه إلى الانهيار: "فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَكَأَ تَسْتَعْجِلُ لَهُمْ (لمشركي قريش) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ (من هزيمة، أو عذاب) لَمْ يَكْنُتُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ. بَلَاغٌ! فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ" (65 الأحقاف 35).

وعندما خرج عليه السلام من الحصار واشتد عليه أذى الملاء من قريش، بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة، خاطبه تعالى بقوله: "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَكَأَ تَطْعُ مِنْهُمْ آتِماً أَوْ كُفُوراً" (69 الإنسان 24). وكانت قريش قد بعث إلى اليهود بيثرب تطلب منهم أسئلة يختبرون بها صدق نبوته عليه السلام فأجبتهم بأن يطلبوا منه خبر "الفتية" المعروفين بـ "أصحاب الكهف"، وهم فتية كانوا من الموحدين فروا من ضغوط قومهم فدخلوا كهفا وناموا فيه أزيد من ثلاثمائة سنة الخ، فنزلت سورة الكهف تقص أخبارهم ثم ختمت بلفت نظر النبي عليه السلام إلى ضعفاء المسلمين، الذين كان كبراء قريش يشترطون عليه طردهم للجلوس معه والاستماع إليه. قال تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَكَأَ تَعْذُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَأَ تَطْعُ مَنْ أَغْضَنَّا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطَا" (70 الكهف 28)، وقوله: "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ" (76 الطور 48). وتكررت عبارة "صبر جميل" في القرآن، ومنها هذه الآية التي تخاطب النبي عليه السلام: "فَاصْبِرْ

صَبْرًا جَمِيلًا إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَتَرَاهُ قَرِيبًا" (79 المعارج 5-7). والمقصود بـ"الصبر الجميل" هنا عدم الاستعجال، والاطمئنان إلى أن وعد الله حق وأنه آت لا ريب فيه، وهو أقرب مما يظن المستعجلون؛ ولكن عليهم أن لا يقيسوا "الزمن" الإلهي بالزمن البشري. ويقول: "وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا" (84 المزمل 10)، والمعنى "انشغل بما أنت فيه ولا تهتم بهم" وكان عليه السلام يستعد للهجرة إلى المدينة. وفي هذا السياق نزل قوله تعالى: "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَئِنْ يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْقِنُونَ" (87 الروم 60) والمعنى احترس من الوقوع تحت تأثيرهم فتهاجر قبل الأوان اتساقا مع استعجالهم إياك.

- دعوة المؤمنين إلى الصبر.

أما دعوة المؤمنين إلى الصبر في القرآن المكي، فقد وردت هي الأخرى في عدة صيغ لعل أهمها: التواصي بالصبر؛ وقد ورد هذا أول مرة في سورة العنكبوت: "وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" (10 العنكبوت 1-3). ثم في سورة البلد التي حددت فيها الخصال التي تمكن الإنسان من "افتحام العقبة" (تجنب المصير إلى النار) مع اشتراط أن يكون الراغب في ذلك "مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ" (34 البلد 17). وحينئذ يكون جزاؤه الإقامة في الطابق الأعلى وفقا مع قوله تعالى: "أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا" (43 فاطر 75)، وقوله: "إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ" (51 هود 11)، وقوله: "وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" (60 فصلت 35)، وقوله: "وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (61 الشورى 43).

كما ورد في قصص الأنبياء ما يقدم المثل على أهمية التحلي بالصبر. من ذلك قوله تعالى على لسان سحرة فرعون لما آمنوا بموسى وهددهم فرعون بالقتل: "قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُتَقَلِّبُونَ، وَمَا نَنقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ" (39 الأعراف 125-126)، وقوله: "قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" (39 الأعراف 128)، وقوله: "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَافِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ" (39 الأعراف 137).

وورد الحث على الصبر خلال الظروف الصعبة التي أمر فيها المسلمون بالهجرة إلى المدينة رِمطردة قريش لهم: ففي هذا الإطار وردت الآيات التالية: "وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَكَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" (71 النحل 41-42) وفي ما يشبه أن يكون خطاباً لوفد يثرب الذين عاهدوا الرسول في العقبة نقرأ: "وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (النحل 95-96). وفي الموضوع نفسه: "ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" (71 النحل 110) وفي خطاب للمسلمين الذين كانوا يلحون على الثأر لمن قتل منهم قريش إثر مطاردتها لهم لمنعهم من الهجرة إلى يثرب قال تعالى: "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ" (71 النحل 126-127) وفي جواب الرُّسُل على أقوامهم الذين كذبوهم نقرأ قوله تعالى علي لسانهم: "وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ" (72 إبراهيم 12). ويقول تعالى في المؤمنين عندما ينعمون بالجنة في الآخرة: "إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ" (74 المؤمنون 111)، ويقول في أهل يثرب الذين آمنوا ونصروا وأبوا المهاجرين إليهم: "وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، وَبِذَرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ" ²² (العقبى المحمودة في الدار الآخرة): جَنَاتٍ عِندَ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ²³، (يقولون لهم) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ" ²⁴ (85 الرعد 22-24). وفي المهاجرين إلى يثرب يقول تعالى عنهم "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" (88 العنكبوت 58-59).

- دروس في الصبر في قصص الأنبياء

وفضلاً عن الخطاب المباشر، الموجه إلى النبي وصحبه أو إلى الملائكة من قريش، يوظف القرآن المكي في جداله مع المشركين قصص الأنبياء، فيؤكد أن ما يتعرض له النبي عليه السلام من التكذيب والعناد من طرف مشركي قريش قد تعرض له الأنبياء السابقون، فصبروا وواصلوا الدعوة حتى انتصروا. وهكذا فابتداء من سورة "ص" ينتقل الخطاب القرآني إلى نوع جديد من القصص. ذلك أن القصص قبل هذه السورة كان يدور حول محور واحد هو الهلاك والدمار الذين انتهى إليهما "أهل القرى" المكذبون لرسولهم. أما ابتداء من سورة "ص" وسورة الأعراف، اللتين تدشنان مرحلة جديدة في مسار التنزيل بمكة (شجب الشرك وتسفيه عبادة الأصنام)، فالخطاب الأخلاقي في الذكر الحكيم سيتجه إلى دعوة الرسول وصحبه إلى استلهم تجارب الأنبياء السابقين، والمذكورين في التوراة تحديداً. وهكذا فالأمر بالصبر لم يعد أمراً مجرداً مطلقاً بل لقد صار يحمل معه إشارات إلى تجارب سابقة برهن الصبر فيها على أنه الوسيلة الفعالة في مواجهة أذى الخصوم والانتصار عليهم.

وهكذا تضع سورة "ص" تجربة النبي داود أمام أنظار الرسول والمسلمين فتبين لهم كيف أن الله سخر له الجبال وأتاه ملكاً وحكمة وفصل الخطاب، وإذن فما عليهم إلا أن يصبروا حتى تأتيهم القوة والنصر. يقول تعالى مخاطباً رسوله الكريم: "اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَانْظُرْ عَذَابَ دَاوُودَ إِذْ اتَّيَّاهُ أَخْبَثَ الْخَافِ، (38 ص 17-24). وتأتي سورة الأعراف بعدها مباشرة لتنتقل إليه عليه السلام وصية موسى لأصحابه ووعده إياهم بالنصر: "قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" (39 الأعراف 128)، وقوله: "وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ" (39 الأعراف 137). ويقول عن المؤمنين من قوم موسى: "وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ" (75 السجدة 24)... وتواصل السور التالية التذكير من حين لآخر بدروس قصص الأنبياء مما لا ضرورة لإعادة القول المفصل فيها هنا.

ب- الحث على العناية باليتامى والفقراء والمساكين...

وأما القيمة الأخلاقية الثانية التي أكد عليها الذكر الحكيم منذ أوائل السور فهي العناية بالمستضعفين من يتامى وفقراء ومساكين الخ. وكانت

سورة الليل أولى السور التي طرحت قضية هؤلاء، وذلك بأن صنفت أعمال الإنسان على كثرتها وتنوعها واختلافها إلى صنفين. يقول تعالى: "إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى" (6 الليل 1-11).

وفي الموضوع نفسه، موضوع الإحسان إلى الفقراء، تؤكد سورة "الفجر" ضرورة رعاية اليتامى والاهتمام بالفقراء وتجنب الجشع والجري وراء المال... وفي خلال ذلك تشير السورة إلى طبع قبيح في "الإنسان"، والمقصود أغنياء قريش، وهو افتخارهم في حال اليسر بأن الله قد أكرمهم، وشكواهم في حال العسر من أن الله قد أهانهم. وتوضح السورة أن الأمر ليس كذلك، وأن حقيقة الأمر هو أنهم يجازون على أعمالهم: ذلك أنهم لا يكرمون اليتامى ولا يطعمون المساكين، بل يأكلون حقهم وحق اليتامى في الإرث، ويحبون أن يكون المال لهم وحدهم. يقول تعالى: "فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي! كَلَّا بَلْ لَّا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ، وَلََّا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ، وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (جامعا)، وَتَجِبُونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا" (7 الفجر 15-20).

وردا على خصوم الدعوة المحمدية الذين شتموا في النبي عندما غاب عنه الوحي مدة فقالوا له إن ربك قد فلاك وتخلّى عنك، الشيء الذي أثر في نفسه عليه السلام، فنزلت سورة الضحى بما يسليه ويثبت فؤاده، فأكدت له أن الله ما ودعه وما فلاه، وذكرته بأن الله هو الذي آواه عند عمه أبي طالب، وهو صبي يتيم من جهة وأبيه وأمه، وهدها عندما ضل الطريق إلى جده عبد المطلب وهو طفل صغير، ثم لما كبر أغناه بمال خديجة التي عرضت نفسها عليه فزوجها وصار ميسور الحال. وبما أن ما عاناه في طفولته لم يكن أحوالا مقصورة عليه وحده إذ هناك دائما يتامى وفقراء وميسوري الحال فإن عليه أن يستخلص العبرة: "فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ (الندوة) فَحَدِّثْ" (8 الضحى 1-11). وتنزل سورة الشرح لتكمل سورة الضحى، فتذكره بأن الله قد أزال القلق الذي جثم على قلبه بسبب انقطاع الوحي عنه، ووضع عنه الهم الذي كان يتقل كاهله نتيجة شماتة قريش، وذلك بأن جعل الوحي يعود إليه ويستأنف الدعوة مرفوع الرأس أمام المستهزئين الشامتين.

قَالَ تَعَالَى مَخَاطِبًا رَسُولَهُ الْكَرِيمَ: "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ". ثُمَّ تَوَجَّهَ السُّورَةُ إِلَى الْعِبْرَةِ الَّتِي يَجِبُ اسْتِخْلَاصُهَا مِنْ هَذِهِ التَّجَرُّبَةِ وَهِيَ: "فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا" (9- الشرح 1-8)، الشَّيْءُ الَّذِي يَسْتَوْجِبُ التَّحَلِّيَ بِالصَّبْرِ.

وَتَنْزِلُ سُورَةُ الْعَصْرِ لَتَرْتَفِعَ بِخُطَابِ "العصر واليسر" مِنْ مَسْتَوَى "الخاص" إِلَى مَسْتَوَى "العام". لَقَدْ كَانَ خُطَابُ الصَّبْرِ مِنْ قَبْلِ خَاصًا بِتَجَرُّبَةِ الْوَحْيِ وَمَا عَانَاهُ النَّبِيُّ خِلَالَهَا مِنْ مَشَاقٍ وَمَتَاعِبٍ، أَمَّا الْآنَ مَعَ "سُورَةِ الْعَصْرِ" فَالْخُطَابُ حَوْلَ الصَّبْرِ يَطْرُقُ عَلَى مَسْتَوَى "العام"، مَسْتَوَى "الإنسان" بِدُونِ تَعْيِينٍ. يَقُولُ تَعَالَى: "وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ" (10 العَصْرِ 1-3). إِنَّ هَذَا يَعْنِي أَنَّ الصَّبْرَ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي، ذَلِكَ أَنَّ الْاِقْتِصَارَ عَلَى الصَّبْرِ وَحْدَهُ يَجْعَلُ مِنْهُ قِيَمَةً سَلْبِيَّةً. إِنَّهُ: اسْتِسْلَامٌ لِلْوَاقِعِ. وَمَنْ أَجَلُ أَنْ يَتَحَوَّلَ الصَّبْرُ إِلَى قِيَمَةٍ إِبْجَازِيَّةٍ، يَتِمُّ بِهَا الْاِقْتِصَارُ عَلَى الْوَاقِعِ الْمَفْرُوضِ، وَبِالْتَّالِيِ الْاِنتِقَالُ مِنْ "العصر إلى اليسر"، لِأَنَّ مِنْ قِيَمٍ أُخْرَى حَدَّدَتْهَا الْآيَةُ السَّابِقَةُ فِي أَرْبَعَةٍ: الْإِيمَانِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ (الثَّبَاتِ عَلَى الْمَبْدَأِ)، وَالتَّوَاصِي الصَّبْرِ (تَحْمِلِ تَبْعَاتِ الثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ). وَمَعَ أَنَّ الْخُطَابَ، هُنَا، عَامٌ فِي صَيْقَتِهِ فَهُوَ - بِاعْتِبَارِ الْمُنَاسَبَةِ وَالسِّيَاقِ - خَاصٌّ فِي مَضْمُونِهِ. إِنَّهُ خُطَابٌ لَصَحَابَةِ النَّبِيِّ الْأَوَّلِ، الَّذِينَ آمَنُوا بِرِسَالَتِهِ. لَقَدْ كَانُوا فِي جَمْلَتِهِمْ فَقَرَاءَ وَمُسْتَضْعِفِينَ، وَكَانُوا يَتَعَرَّضُونَ لِأَذَى قَرِيشَ، يَعْيشُونَ فِي عِسرٍ مَادِيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ. وَهَكَذَا فَلِكِي يَتَغَلَّبُوا عَلَى حَالَةِ الْعِسرِ: عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ: يَوْصِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالتَّمَسُّكِ بِالْحَقِّ (وَهُوَ هُنَا الْعَقِيدَةُ مَوْضُوعُ الدَّعْوَةِ) كَمَا أَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَى قَرِيشَ.

وَكَمَا رَبَطَتْ سُورَةُ الْعَصْرِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَبَيْنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَأْتِي فِي مَقْدَمَتِهِ إِطْعَامُ الْمَسْكِينِ وَإِكْرَامُ الْيَتِيمِ، تَرْبِطُ سُورَةُ الْمَاعُونِ رِبْطًا وَاضِحًا بَيْنَ التَّكْذِيبِ بِالْإِيمَانِ وَبَيْنَ قَهْرِ الْيَتِيمِ وَالْبَخْلِ عَلَى الْمَسْكِينِ. وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ تَتَهَدَّدُ السُّورَةُ الَّذِينَ لَا يَكْذِبُونَ بِالْإِيمَانِ بِلِسَانِهِمْ، وَلَكِنْهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ مَغْزَى الصَّلَاةِ وَجَوْهَرَهَا، فَتَرَاهُمْ يَظْهَرُونَ إِقَامَتَهَا رِيَاءً، وَيَبْخُلُونَ بِالْمَالِ وَالْمَاعُونِ، فَلَا يَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا يَطْعَمُونَ الْمَسْكِينِ. يَقُولُ تَعَالَى: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكْذِبُ بِالْإِيمَانِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ، وَكَأَنَّهُ يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ. فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (عَنْ مَعْرَاها): الَّذِينَ هُمْ يَرَاغُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ" (كِنَايَةُ عَنْ الْبَخْلِ بِالطَّعَامِ) (14 الْمَاعُونِ 1-7).

2- خطاب الأخلاق الموجه للمشركين...

أ- الحق مقابل الظن ...

تلك هي القيم المركزية التي سادت في الخطاب القرآني في المرحلة التي كان هذا الخطاب مقصوراً، أو يكاد، على التوجه إلى النبي عليه السلام، يسليه ويؤكد له أنه فعلاً رسول من الله وأن عليه أن يقوم بتبليغ رسالته إلى الناس، نذيراً وبشيراً، وأن يصبر على ما يتعرض له من أذى في سبيل ذلك. وفي هذه المرحلة كان قد آمنت به جماعة من الناس جلهم فقراء ویتامی، فكان لا بد أن يهتم الخطاب القرآني بهم ويحث على إطعام المسكين وإكرام الیتیم. أما مشركو قريش فالتقرآن يدعوهم إلى الإيمان وفي نفس الوقت يطالبهم بالتخلي عن أنواع السلوك غير الأخلاقي الذي اعتادوه. وأما ما يتصف به بعضهم من مكارم الأخلاق، فهو لا تستحق التتويه ما دام مقروناً بعبادة الأصنام وباعتقادات لا يؤسسها سوى "إننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون". وهكذا نقرأ في سورة النجم، وهي أول سورة قرأها النبي عليه السلام جهاراً في الكعبة وكبار قريش يستمعون -خطاباً مباشراً موجهاً إلى هؤلاء يؤكد على جملة من القيم، أبرزها قيمة "الحق" أو "الحقيقة" في مقابل "الظن". ذلك أن قريشاً يعبدون أصناماً (اللات والعزى ومناة...) يجعلونها شركاء لله يعتقدون أنها تقربهم إليه وتشفع لهم الخ، وهي في الحقيقة مجرد أسماء لا شيء يستند إليه اعتقادهم فيها غير الظن: "إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى النَّفْسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى" (22 النجم 23). وعلى الظن كذلك يستندون في اعتقادهم بأن الملائكة بنات الله، فيطلقون عليها أسماء الإناث: "إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً لِنَاتٍ، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" (22 النجم 27-28).

ب- الجزاء والمسؤولية الفردية: لا تزر وازرة وزر أخرى.

ثم تطرح السورة مسألة الجزاء يوم القيامة حيث يجزي الله "الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى"، ثم تشرح أخلاق الذين أحسنوا بكونهم "الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّعَمَ"، وأما الذين أساءوا فقد مثلت لهم السورة بأحد أغنياء قريش الذي أبرم اتفاقاً مع رجل على أن يتلقى عنه نصيبه من العذاب في الآخرة مقابل مبلغ من المال يدفعه له ما دام حياً، لكنه لبخله "أكدى" توقف عن الدفع. ففي إطار التمثيل بهذا الرجل

طرحت السورة مسألة المسؤولية الفردية وهي قيمة أخلاقية وقانونية ستكرر في القرآن غير ما مرة. قال تعالى: "أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَكَّى، وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (أَمْسَكَ)، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى، أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى، أَلَمْ تَزِرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى" (22 النجم 34-41).

ج- الخلاص: فك رقبة، إطعام مسكين، إكرام يتيم ...

وتأتي سورة البلد لتؤكد أن اجتياز "العقبة" بنجاح، عقبة الحساب، وبالتالي النجاة من الوقوع في جهنم، يتطلب شروطا تأتي على رأسها قيمة أخلاقية وقانونية: هي قيمة أخلاقية لأنها قيمة إنسانية عامة، وهي قانونية لأنها في الإسلام "كفارة" تمحي ذنوبا معينة، وهي "فك رقبة" أي تحرير عبد أو أمة، الشيء الذي يؤكد حق الإنسان في امتلاك جسده خاصة، وما يحصل عليه بما يبذله هذا الجسد من جهد. ذلك هو الشرط الأول في اجتياز "العقبة"، ويقوم مقامه في حالة عدم وجود عبد لتحريره، إطعام اليتيم أو مسكين في زمن المجاعة. بعد ذلك يأتي الشرط الثاني، وقد سبق التأكيد عليه بوصفه الأساس الذي يحكم العلاقات الاجتماعية، وهو الإيمان بالرسالة المحمدية والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة: "فَلَمَّا أَفْتَحَ الْعُقْبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ، فَكْ رَقَبَةً، أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِمْنَةِ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوَصَّدَةٌ" / لا يغادرونها أبدا (35 البلد 11-20).

3- الأخلاق في الخطاب المكي الموجه إلى جماعة المسلمين.

والحق أنه إذا كان "الصبر" قيمة أخلاقية وفضيلة سلوكية، مطلوبة في كل وقت، فإنه يجب أن لا يعزب عن بالنا أن الدعوة إلى الصبر في القرآن المكي، لها بعد خاص، وهو مواجهة ضغوط مشركي مكة وعسفهم وأنواع أذيتهم التي بلغت القتل والتخطيط للتصفيات الجسدية، مواجهة ذلك كله بالتحلي بالصبر وعدم اللجوء إلى رد الفعل باستعمال العنف أيا كانت درجته أو نوعه. تذكر مصادرها أن المسلمين كانوا يطلبون باستمرار من الرسول عليه السلام أن يسمح لهم بمواجهة عدوان قريش وأذياتهم بما يردعهم، فكان عليه السلام يمنعهم باستمرار ويوصيهم بالصبر. فالصبر في القرآن المكي ينصرف في

غالب الأحيان إلى تحمل أذى الملائ من قريش بثبات، وتجنب العنف، والتأكيد على النهج السلمي للدعوة. وذلك تنبيهاً إلى من كان من الصحابة المظلومين المضطهدين يفكر في اغتيال رجال من الملائ من قريش خصوصاً منهم الذين قتلوا المسلمين الضعفاء ومثلوا بهم... وقد بين القرآن أن ذلك ليس من خصال عباد الرحمان ولا من صفات المؤمنين!

- خصال عباد الرحمان

وهكذا فحينما كان الرسول عليه السلام يواجه ضغوطاً قاسية من الملائ من قريش، وهو يخوض معهم معركة شجب الشرك وتسفيه عبادة الأصنام، نزلت سورة الفرقان لتبين للملائ من قريش أن الرحمان أحق أن يعبد، لا الأصنام التي لا ترى ولا تسمع، فكان ردهم أنهم لا يعرفون الرحمان. قال تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟ وَزَادَهُمْ نفوراً!" وقد رد عليهم بأن الرحمان أكبر من أن يشكوا فيه بتساؤلهم ونفورهم، قال تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي (الرحمان) جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا" (42 الفرقان 60 - 62). فإذا أرادوا معرفة الرحمان فيكفيهم أن ينظروا إلى نظام الكون وانتظام حركته، وعليهم أن ينظروا أيضاً إلى الخصال الكريمة الفاضلة التي يأمر عباده بالتحلي بها، هل يمكن أن تصدر عن إله غيره! قال تعالى:

- "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا،

- وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا، إِنَّهَا سَاعَةٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا،

- وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا،

- وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَزْنُونَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ

فِيهِ مُهَلَّلًا، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ،

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا، وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا،

- وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا،

- وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاتًا،

- وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا،
خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا،
- قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ (ادعائكم أن له شركاء) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ،
فَسَوْفَ يَكُونُ لَكُمْ لِرَامًا" (عقاب هذا الكذب)، (الفرقان 63-77)⁽⁵⁾.

- الطببات من الرزق، والفواحش

وعندما اتجه النبي بالدعوة إلى وفود القبائل العربية في مواسم مكة
وأسواقها أخذ خطاب الأخلاق في القرآن المكي يتحدث إليهم، مستحضرا
مقتضى أحوالهم وأسلوب معيشتهم، وبكيفية عامة معهودهم الحضاري العام،
فأبرز فيهم صفات وعادات أبعد ما تكون عن خصال عباد الرحمن. وهكذا نقرأ
في سورة "الأنعام" التي يشير اسمها إلى بيئة مخاطبيها: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ
مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ
لشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ، سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ. وَكَذَلِكَ زَيْنَ لَكثيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لَيْسَرْدَوْهُمْ
وَلْيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ. وَقَالُوا هَذِهِ
أَنْعَامٌ وَحَرِثَ جَزْرٌ (محجورة) لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مِنْ نَشَاءٍ بِزَعْمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ
ظُهُورُهَا (لا تركب)، وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا (بل يذكرون أصنامهم)
افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ
(المحرمه أي ما ستلده) خَالِصَةً لِّذُكُورِنَا، وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مِنْتَهُ
فَهُمْ (الأزواج والزوجات) فِيهِ شُرَكَاءُ! سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ، إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. قَدْ
خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ (وَأَدَّوْا بِنَاتِهِمْ خَوْفَ الْفَقْرِ أَوْ الْعَارِ) سَفَهًا (جهلا) بغير
عِلْمٍ، وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ".

5- سبق أن بينا في التعليق على السورة أن مسلمة الحنفي من شرق الجزيرة كان قد تنبأ
وسمى إلهه الرحمن، وأن رفض قريش لهذا الاسم قد يرجع إلى التنافس القبلي التاريخي
بين "مضر" سكان غرب الجزيرة و"ربيعة" سكان شرقها، وإذن فقد جاء القرآن ليغير هذا
التأثير القبلي على تصور قريش لـ "الرحمان"، فجعل الرحمن أحد أسماء الله الحسنى،
فأوضح أن عباد الرحمن لا يتحددون بالجغرافيا أو بالتاريخ أو بالانتماء القبلي بل يتميزون
بخصال عالية، فقدمت ما يشبه أن يكون دستوراً في الأخلاق للمسلمين. قسم منه يخص
علاقة الإنسان مع الله، وقسم يتناول علاقة الناس بعضهم ببعض.

وبعد أن عدت السورة أنماطاً من عاداتهم في التحليل والتحريم وشجبتها، أمرت النبي عليه السلام أن يبين لهم ما حرم الله عليهم ليجتنبوه وبذلك يلتحقون بعباد الرحمن. قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم: "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ :

- أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،
- وَبِالَّذِينَ إِحْسَانًا،
- وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ،
- وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا رَمًا بَظَنٍّ،
- وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ،
- ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.
- وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ،
- وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، لَا تَكُلْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا،
- وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى،
- وَيَعْهَدْ اللَّهُ أَوْفُوا.
- ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.
- وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ...
ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (الأنعام 136-153).

واضح أن جل هذه الوصايا، إن لم يكن كلها، يترتب على من لا يعمل بها ويعمل عكس ما توصي به، عقاب في الدنيا قبل الآخرة، ولكن منهج قرآن الدعوة يقضي بالتعامل مع الناس من منظور يختلف عن منظور "الثأر" واستعمال العنف. إن مجتمع الدعوة تحكمه سلطة الأخلاق، سلطة الضمير لا سلطة "الجريمة والعقاب".

- منهاج الدعوة: التسامح... الشورى، ادفع بالتي هي أحسن.

وتأتي مرحلة الحصار الذي فرضه عليه الملأ من قريش في شعب أبي طالب في الجبل المطل على مكة -وكانني به عليه السلام يتأمل من هناك في الوضعية التي فرضت عليه ظلماً وعدواناً فينتابه ما ينتاب الكائن البشري في مثل هذه الأحوال من الشعور بالظلم، وبالتالي التفكير في رفعه بأية وسيلة، وأبسطها مغادرة المكان، وليكن ما يكون- وإذا بسورة فصلت تنزل لتسليه وتثبت فؤاده وتذكره بمصير المكذبين المعرضين، وبمآل المؤمنين وتدعوه إلى المقارنة بينهما ثم تضيف متسائلة متعجبة: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ

وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ³³! ثم تعرض قاعدة أخلاقية من أسمى السنوك الأخلاقي: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ! ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"³⁴. وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم"³⁵. وتضيف: "وَأَمَّا (إِنْ مَا) يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ (إِنْ يَصْرَفُكَ عَنِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وَيزين لك الانتقال مثلا)، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ. إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"³⁶ (انظر سورة فصلت، رقم 60. التعليق).

وتأتي سورة الشورى مباشرة، لتؤكد مضمون نفس "الأمر الأخلاقي" في صيغة أوسع وأشمل: يقول تعالى مخاطبا نبيه الكريم: "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (على الدعوة التي أقوم بها) أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى، وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْنَا لَهُ فِيهَا حَسَنًا، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ"²³. فَإِنِ امْتَنَعْتَ فاعلموا أنه: "فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى". وما عند الله هو "لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ".

وتواصل السورة (الشورى) تعداد صفات المؤمنين فتوصي بالتسامح، والنبى ما زال في الحصار. يقول تعالى: "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ اتَّصَرَ بِغَدِ ظَمِيهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (61 الشورى 36-43). المبدأ "القانوني" يقوم على "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا" لكن المبدأ الأخلاقي يقوم على العفو والتسامح، على الصبر والمغفرة على: "فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ".

- الوفاء بالعهد... والدعوة بالحكمة والجدال بالتي هي أحسن.

وينحل الحصار ويدخل الرسول عليه السلام "سنة الحزن" على وفاة زوجته خديجة وعمه أبي طالب، مع ما تلا ذلك من خيبة أمله في أهل الطائف الذين ذهب يطلب النصره منهم، ومن استئساد الملأ من قريش عليه، نتيجة ذلك كله، حتى إذا تجاوز عليه السلام هذا الظرف الصعب تجند لاستئناف الدعوة في المواسم والأسواق بسلوك إستراتيجية جديدة تقوم على الاتصال، في هدوء، بأصحاب الحل والعقد في الوفود. وسرعان ما أثمرت هذه

الاستراتيجية: فقد حصل لقاء، بمناسبة الحج، مع وفد من الخزرج، قادما من يثرب يطلب حليفا، فعرض الرسول نفسه عليهم فاستجابوا وأسلموا ووعدوا بعرض المسألة على قومهم عند عودتهم، وهكذا فتحت الأبواب أمام الدعوة المحمدية إلى يثرب التي أسلم أهلها وهاجر إليها بعض المسلمين فتكونت الجماعة الإسلامية فيها على أساس عقد البيعة. وتنزل سورة النحل لتمد الرسول بالتوجيه الضروري في هذه المرحلة فتخاطب المتعاقدين، النبي وأهل يثرب، (والخطاب موجه أساسا إلى هؤلاء). يقول تعالى: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ (ما تعهدتم به) بَعْدَ تَوْكِيدِهَا، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا (حيث حلفتم به)، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَارًا⁽⁶⁾، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا (فسادا وخديعة) بَيْنَكُمْ (بسبب) أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ (قبيلة أو مجرد جماعة) هِيَ أَرْبَى (أقوى) مِنْ أُمَّةٍ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَكَتَسَاءَلُونَ عَنْ كُنْهُمْ تَعْمَلُونَ⁽⁷⁾. وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ (بصدودكم) عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، إِنَّمَا (إن ما) عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ. وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (71 النحل 91-97).

وتختتم السورة بالتوجه للرسول والمؤمنين بهذا الخطاب: "اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ (أصحاب الأسواق والقبائل) بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

6- جمع نكث، من نكث العهد إذا لم يوف به. يقال: كانت بركة امرأة تغزل في الصباح لزبون بسعر، فإذا جاءها بعده زبون بسعر أغلى نقضت عهدها ورمت بما غزلته وبدأت تغزل للزبون الجديد، وإذا جاء ثالث فعلت الشيء نفسه، وهكذا يكون عملها سلسلة من نكث العهد، بدون فائدة لها ولا لغيرها. وكانوا يفعلون مثل هذا يتحالفون مع جماعة فإذا جاءت أخرى أقوى نكثوا عهدهم مع الأولى وتحالفوا مع هذه. وهذا ينطبق أكثر على القبائل.

7 - قال بعضهم معني: "يضل من يشاء": يضل الله الشخص الذي شاء الضلال واختاره، مثل الذي اختار عبادة صنم معين.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَكِنَّ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ⁽⁸⁾.
وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَئِنْ تَخَرَضْتَ عَلَيْهِمْ (على مشركي قريش لكونهم لا يؤمنون)، وَلَئِنْ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَالَّذِينَ هُمْ
مُحْسِنُونَ" (71 النحل 125-128).

حكمة بالغة: أوامر ونواه

وبافتراق هجرة النبي إلى المدينة حيث يشكل اليهود قسما كبيرا من سكانها تنزل سور الإسراء التي تسمى أيضا بـ *سورة بني إسرائيل* لكونها تحدث عنهم طويلا. لقد ذكرتهم بهجوم الأشوريين عليهم واستيلائهم على بيت المقدس، وسببهم ونفيهم إلى أرض بابل بسبب تمردهم على أوامر الله، ثم تذكرهم بالوصايا العشر التي أنزلها الله على موسى لتكون أساس شريعته. وتورد هذه السورة مضمون هذه الوصايا وكانت قد قررتها سور سابقة ضمن الخطاب الأخلاقي في القرآن المكي. قال تعالى:

- "وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ،
- وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَئِنْ تَوَضَّعَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ: إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا.
- وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا، إِنْ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا. وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ (ذوي القربى الخ) ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا. وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَكُومًا مَحْسُورًا. إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا.
- وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ...
- وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْأَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا.

8- فسر معظم المفسرين هذه الآية بأحداث وقعت بعد الهجرة. وفي رأينا أنه ليس هناك ما يبرر هذا النوع من التفسير فالسورة مكية وسياق الآية منسجم مع ما قبلها وما بعدها والخطاب واقع تحت قوله تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ... ثم إن احتمال حدوث نزاع بين المسلمين ومشركي مكة أو مرتادي المواسم والأسواق احتمال قلتم.

- وَكَأْتَفْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا.
 - وَكَأْتَقْرِبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ.
 - وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا.
 - وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا.
 وَكَأْتَقِفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا.
 - وَكَأْتَمْنَشُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا.
 ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَكَأْتَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَكُومًا مَذْخُورًا" (86 الإسراء 23-39)

وتستعيد سورة الروم حق ذي القربى والمسيكين وابن السبيل مؤكدة أن البخل به لا ينمي المال، كما أن الربا لا يزيكه، وإنما الذي يزيك المال ويزكيه هو الإنفاق على الفقراء والمساكين الخ، يقول تعالى: "فَاتِذَا الْقَرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ، ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّيرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْطَعِفُونَ" (87 سورة الروم 38-39).

- التعامل مع أهل الكتاب

وفي سورة الحج التي هي آخر سورة نزلت بمكة -حسب ترتيبينا- والرسول يتهبأ للهجرة إلى المدينة، أو هو في طريقه إليها، نزل قوله تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، وَالَّذِينَ هَادُوا، وَالصَّابِئِينَ، وَالنَّصَارَى، وَالْمَجُوسَ، وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا، إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (الحج 17)⁽⁹⁾. واضح أن هذه الآية تحصى الديانات التي كانت بجزيرة العرب زمن النبوة (وقبله وبعده) أي الديانات التي من المحتمل أن يحتك به المسلمون¹⁰. هي ديانات معترف بها، لأنها موجودة قائمة لا يمكن تجاهلها، وهي تتصل كلها من قريب أو بعيد بدين إبراهيم لأن أهلها يؤمنون بالله، لكن بعضهم يجعلون له

9- ستنكرر هذه الآية في القرآن المدني مرتين، مع بعض الاختلاف في الصيغة. وسنشير إلى ذلك في حينه.

10- أما غير هذه من الديانات البعيدة عن العرب فلم تكن تدخل في المفكر فيه لدى العرب يومئذ.

شركاء أو يؤمنون بالهين اثنين أحدهما إله الخير والآخر إله الشر، هؤلاء جميعا سيفصل الله بينهم يوم القيامة، فيتبين من منهم على حق. أما في الدنيا فلها حق الوجود، ذلك لأنه "لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نصير" (61 الشورى 8).

وهذا الاعتراف بالديانات الأخرى هو أهم ما يؤسس مفهوم التسامح في الفكر الأوروبي الحديث والمعاصر، أما في القرآن المكي فهو مظهر واحد فقط من مبدأ الاعتراف بالاختلاف وبالتعدد. قال تعالى: "لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ" (51 هود 118)، وقال: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاختِلَافِ السِّنِّكُمْ وَالْوِلْدَانِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ" (87 الروم 22).

رابعا- خاتمة: الآخرة من أجل الدنيا وليس العكس!

إذا كان لنا أن نستخلص من هذا العرض ما نختم به هذا القسم من الكتاب، فإننا لا نتردد في إعادة تأكيد من قررناه من قبل من أن العقيدة والأخلاق في القرآن كل واحد لا يتجزأ، بل إننا نذهب إلى أبعد من هذا فنؤكد ما صرحنا به من أن الأخلاق في القرآن المكي هي التي تؤسس العقيدة الإسلامية وهو ما يميزها عن غيرها من الديانات. لقد أبرزنا غير ما مرة أن المحاور التي يدور حولها خطاب العقيدة في القرآن ثلاثة: النبوة والتوحيد والمعاد، وأشرنا في تعاليفنا واستطراداتنا إلى أن ما يتميز به القرآن عن التوراة والإنجيل هو تركيزه على المحور الثالث: البعث والجزاء. أما إثبات النبوة والدفاع عنها وتأكيد "التوحيد" (إقرار وحدة الألوهية وشجب الشرك وعبادة الأصنام) فهما حاضران في التوراة والإنجيل حضورهما في القرآن، وقد أبرزنا ذلك بالنصوص⁽¹¹⁾. لكن موقف كل من التوراة والإنجيل من المعاد (البعث والحساب والجزاء) أضعف كثيرا من موقف القرآن، بل هو غامض وضبابي.

ولا بد من التذكير هنا بما نبهنا إليه مرارا من أن خطاب الجنة والنار الذي تكرر كثيرا في القرآن المكي كان في آن واحد سلاحا وأخلاقا. أما كونه سلاحا فلتخويف المشركين من النار وحملهم على الطمع في الجنة، وأما كونه أخلاقا فلاشعار المؤمنين بأن الإيمان وحده لا يكفي بل لابد من خصال معينة

11- راجع الاستطرادين اللذين ختمنا بهما المرحلتين الثانية والثالثة، القسم الأول.

بينها القرآن وفي مقدمتها التقوى والعمل الصالح. أما التقوى فتعني تجنب الرذائل وأما العمل الصالح فيعني إتيان الفضائل.

ومن هنا يجب أن نتساءل: هل يصح القول: باسم القرآن : "الدنيا من أجل الآخرة": من أجل الدخول إلى الجنة أو المصير إلى النار، كما درج على القول بذلك كثير الناس، "علماء وعامة"، في جميع العصور التي تلت عصر النبوة والخلفاء الراشدين، أم أن الأمر بالعكس من ذلك تماما، وهو أن الآخرة، أعني الجنة والنار، هما من أجل الدنيا. من أجل أن يسود فيها العدل، والتسامح، والسلام، والتواصي بالصبر والرحمة، والدفع بالتي هي أحسن...

لقد جادل الملام من قريش، كما رأينا، جدالا مريرا، حادا ومتواصلا، في موضوع إمكان البعث، لأن البعث يعني الجزاء، يعني المسؤولية. وإذن فالإيمان بالبعث والتسليم به، كان يعني تغيير سلوكهم بالتخلي عن كل ما هو غير مشروع في حياتهم، الاجتماعية والاقتصادية الخ. الجنة في القرآن ميدان للثواب على ترك الرذائل وإتيان الفضائل في الدنيا. أما النار فهي، بالعكس، ميدان للعقاب على إتيان الرذائل وترك الفضائل في الدنيا. فلولاء عمل الإنسان في الدنيا لما كانت هناك جنة ولا نار، وعلى العموم: لولا الدنيا لما كانت هناك آخرة. وإذن فالآخرة من أجل الدنيا وليس العكس.

ذلك، فيما نعتقد، هو موقف القرآن المكي كما حاولنا فهمه وتفهمه ونحن نخص بالذكر، هنا، القرآن المكي وحده لسبب أساسي وهو أن الخطاب فيه موجه إلى جهتين فقط: الوعد للنبي وصحبه من جهة، والوعيد للمشركين من جهة أخرى، وليس فيه تنصيب على عقوبة في الدنيا يطبقها النبي أو غيره، لا على أصحابه المؤمنين بالدعوة، ولا على خصومه المحاربين لها. أما في المدينة فالأمر يختلف : هناك تعدد : مشركو مكة قبل فتحها، اليهود قبل جلائهم، المنافقون، القاعدون من المؤمنين والمجاهدون، أصحاب الصفة وأصحاب المغاتم، المستضعفون والمترفون... فهل ستختلف العلاقة بين الآخرة والدنيا بسبب هذا التعدد؟

سؤال لن يتأتى لنا الجواب عنه إلا بعد الفراغ من القسم الثالث من هذا الكتاب.

موضوعات في التعاليق والاستطرادات

نثبت فيما يلي لائحة بعناوين موضوعات التعليقات
والاستطرادات التي ختمنا بها بعض السور في القسمين
الأول والثاني من الكتاب

القسم الأول

- 1- كلام في السحر. (الفلق).
- 2 - كلام في الوسواس. (الناس).
- 3- قصة أصحاب الأخدود. (البروج).
- 4- الرب، الله، الرحمان. استطراد.
- 5- مسألة "رؤية الله" يوم القيامة. (القيامة).
- 6- حروف فواتح السور. (ق).
- 7- استطراد: الجنة والنار.
- 8- كلام في الجن والشيطان. (الجن).
- 9- عباد الله وعباد الرحمان. (الفرقان).
- 10 - استطراد: التوحيد والأصنام والتصوير.

القسم الثاني

- 11- الرؤية والكلام وخلق القرآن. (الشورى).

- 12- بعث الأرواح لا الأجساد وعذاب القبر (النازعات)،
- 13- إمكانية الحشر وعذاب القبر (الانفطار) ..
- 14- آراء في الخلود وحشر الدواب والتناسخ (الانشقاق).
- 15- مسألة الروح (الإسراء).
- 16- مسألة الرؤية (المطففين).
- 17- الهجرة إلى المدينة (الحج).

فهرس القسم الثاني

الصفحة	الموضوع
05	- مقدمة القسم الثاني
23	- المرحلة الرابعة
25	- استهلال
29	53- الحجر
39	54- سورة الأنعام.
59	55- سورة الصافات.
67	56- سورة لقمان.
73	57- سورة سبأ -.
81	- استطراد : الدعوة في المواسم والأسواق.
83	المرحلة الخامسة
85	- استهلال.
87	58- سورة الزمر
97	59- سورة غافر .
107	60- سورة فصلت.
115	61- سورة الشورى.
127	62- سورة الزخرف.
135	63- سورة الدخان.
141	64- سورة الجاثية.

147	65- سورة الأحقاف.
155	- الهداية والإضلال
175	- المرحلة السادسة
177	- استهلال.
183	66- سورة نوح.
189	67- سورة الذاريات.
193	68- الغاشية.doc
197	69- سورة الإنسان.
201	70- سورة الكهف.
217	71- سورة النحل.
231	72- سورة إبراهيم.
241	73- سورة الأنبياء.
251	74- سورة المؤمنون.
261	75- سورة السجدة -.
267	76- سورة الطور.
271	77- سورة الملك.
275	78- سورة الحاقة.
279	79- سورة المعارج.
285	80- سورة النبأ.
289	81 سورة النازعات.
295	82 سورة الانفطار.
299	83-سزورة الانشقاق.
311	84- سورة المزمل.
315	85- سورة الرعد.

323	86- سورة الإسراء.
339	87- سورة الروم.
351	88- سورة العنكبوت.
361	89- المطففين.
365	90- سورة الحج-.
379	- استطراد الهجرة إلى المدينة.
383	- خاتمة : عود على بدء خلاصات : منهج ونتائج.
	- موضوعات
	- فهرس القسم الثاني

... وعملية إعطاء المعنى لمعطيات الذاكرة - كما للقطع الأثرية - عملية تتعاون عليها عدة عناصر: هناك أولاً السياق الذي توضع فيه الذكرى، وهو مجرى حياة يعاد بناؤه وتقوم فيه الذاكرة بدور، ويقوم فيه العقل المحلل والمؤول بدور. وهناك ثانياً الدلالة النفسية والاجتماعية للذكرى في علاقتها مع مكوناتها الخاصة من جهة ومع الأفق الذي يعطيه لها التحليل من جهة ثانية. وبذلك تكتسب الذكرى المسترجعة بعداً إنسانياً يحيل إلى الإنسان كإنسان، وبعداً اجتماعياً يحيل إلى مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي... وقد يندمج البعدان معاً في سياق واحد. وهناك ثالثاً لغة العرض وأساليب التأويل. إن الأمر يتعلق بنص غير مقالي، غير فلسفي ولا علمي، وبالتالي لا مكان فيه للاستدلال «البرهاني»... إنه نص بياني يعرض ذكريات شخصية، ويتغذى من مخزون ثقافي معين، ويوظف الصورة والاشارة والتلميح والرمز، إلى جانب ما قد يكون هناك من تدفق العفوية وإبداع السليقة...

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون

ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣ - بيروت - لبنان

تلفون: ٨٦٩١٦٤ - ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧

برقياً: «مرعبي» - بيروت

فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)